

المؤسسة العربية للدراسات والنشر - طبعة منقحة

حسين سليمان
hsolaiman@hotmail.com

صدى الزور البعيد

رواية

الجزء الأول

1

هدأ الصخب وانتهى الزمن، وتحول العالم إلى غمر وفقدان. ولم يستطع محمد الرحبي إدراك مشاعره الجديدة. العالم أمامه، الجديد الصامت، تحرر من الثقل ومن الخوف والإضطراب. وإن كان يذكر فإنه سيذكر أن الشمس الضاربة كانت تستند على منكبيه وهو يتابع عمله في ترميم مرتفع السدة. حين وضع الحجرة الكبيرة المسننة فوق المرتفع كان يئن ويلهث، وشعر بالماء وقد أمسى سائلا مجهولا راح يتناثر ويتفرق إلى كائناته الصغيرة السحرية. كان طيف فاطمة يتراوح أمامه، يرتفع ثم يهبط أمواجا ورقص هوينى. ووجس بمشاعر خفية أنه أنفصل عن العالم وأن سنواته السبع عشرة أمست تمر أمامه سريعة مختلطة لا تنظيم فيها كأنه خلق في مكان آخر أو أن هذا العمر لم يكن له بل لغريب لا يعرفه.

تحول جمع الرجال الذين كانوا ينادونه للراحة ولتناول الطعام تحت شجرة زايد إلى حلقات تطير وترتفع فوق اغصان الشجرة العارم. استدار برأسه الى الخلف كي يقول لهم إن ضفة النهر وتراكمات السدة وصخورها، شدف الأشجار المغروسة في مقدمة سطحها يراها على غير سكونها المعهود، شيء من الصدى كان يرفعها الى الاعلى، أراد أن يرفع صوته ويصيح حتى الرحبة تكاد تحلق هي الأخرى في السماء.

لكن والده عبد الله الرحبي، تحت الشجرة البعيدة، غلبه شعور امومي أن هدّله ستهبط باتجاه ولدها الذي ستأخذه جنية النهر "حربّة النجم". استدار بجذعه ناحية العلوة وفمه ممتلئ بلقم العصيدة الساخنة. كانت الطريق الهابطة اليهم من سفح العلوة فارغة، حتى من النسمات التي انتشى بها عبد الله حين استيقظ على صياح ديكة أبي فاطمة، فرغم التعب الذي شعر به من عمل البارحة، الا انه أملَ في الانتهاء مع أبنائه وجماعته من بناء السدة. ومع شروق الشمس، ازدادت عزيمته، وتوثقت حينما نظر الى عمله الكبير. وقال في نفسه: لولا جملي محمد ما خلص بالسرعة هذه.

وقد توقع عبد الله الرحبي، السليل لأسرة انحدرت من قلعة الرحبة، أن ترميم السدة العجوز لهذا العام سيكون صعباً. فالأمطار التي لم تنقطع من السماء، والثلوج المتساقطة فوق مرتفعات آرارات، كما علم من

القوافل الآتية من عينتاب والقسطنطينة، جعلته يخمن الحد الذي سيبلغه النهر في فيضانه لهذا العام. كان منظر البستان، جانب النهر، الذي سيغمره الفيضان يفزعه بأسى، فالأشجار ستحرقها المياه، والنبت الأخضر سيختنق في ظلمات الطمي العكر، والمياه ستطم عنق شجرة زايد. مثلما حدث منذ ثماني سنوات، وذهبت ظنونه الى أن الطمي سيدخل البيوت ويجتاح الدروب، ثم يطاردهم الى مكانهم الأول في قلعة الرحبة. النهر سيعود من جديد الى الإتساع.

عبد الله الرحبي أوضح قبل أيام أن ترميم السدة ضرورة لاجتناب ما حدث بهم من مصير وفيضان قبل سنوات. مستوى النهر ينداح عن ضفته ويقترب قليلاً فقليلاً شرقي أراضي البستان القائم على سفح العلوة. وقرر مع تراك الناصر أبي فاطمة ورداد الزغير وأبنائهم أن يتولوا أمر الترميم.

استغرق تدعيم نواة السدة بوحل الغضار والتراب الكتيم الأحمر (الحري) أربعة أيام، وأشار عبد الله الرحبي إلى تدعيم النواة قبل إقامة جسم السدة وبدنتها. وبيّن أن النواة أساس السدة فإذا هزلت تبددت السدة، مثل النخيل فكلما علت رؤوسها في السماء تغلغلت جذورها عميقاً في باطن الأرض. أما الأيام الأخرى فعينت لإشادة جسم السدة المكون من غطاء الحصى والحجر وشوك العاقول ومن ثم ردم كل ذلك بالتراب والرمل، والمهمة التالية ستكون غرس شدف وجذوع شجر الحور والكينا عند مصد السدة، ثم تدعيم سطحها بالحجارة البيضاء الكبيرة.

اقتلعوا شدف الحور وجذوعها من دغلة الحويجة القابعة وسط النهر. وتمت النقلات في طرادة محمد الرحبي المزودة بحبلين من الكتان وفؤوس التحطيب الثلاث. وفي أول نقلة تحطيب على ظهر الطرادة قام بها محمد وحيداً دون مساعدة أحد.

كانت نشوة غريبة على قلبه، مضى وحيداً، وهمه الوصول الى ضفة الحويجة المحاطة بمياه النهر. وكانت فاطمة ترقبه من بعيد على سفح العلوة. ويذكر أن الشمس داعبته على سطح النهر وهو في طريقه نحو الحويجة، تدخل بين آنة وأخرى نسمات رقيقة فينسى، ينسى أن يلتفت الى الوراء، فاطمة حين زم كلابيته وقفز من الطرادة الى ضفة الحويجة، كانت واقفة هناك، تحفر الآمال في جسده المتعب. وقد تذكرت

بعد أيام كيف أن محمد، حين أصبح وسط النهر، تمايل مرتين وكاد أن يسقط من الطرادة.
وكانت شجرة مترهلة في وسط الحويجة، شجرة عجوز تتمايل بقعقعة بعثت الرعب في أوصاله. شجرة زرعتها منذ زمن بعيد امرأة أمضت عمرها في قلب الحويجة تستنبت التعاويذ. وظنّ محمد أن فأسه ستهمّ بفتح ثقب كبير في بطن الشجرة. كان يقشعر مع كل ضربة فأس، ويتخيل أن الشمس التي كانت حادة راحت في وسط الحويجة تتخفى بوجه القمر، وتنزل عليه. وسمع صوتا فلم يقّدر فيما إذا كان صادراً عن القمر أم عن أعماقه الغريبة، راح الصوت يئز في مسامعه، ويطوق رأسه المعفرة بأوراق الشجرة الخريفية. ظل الصوت يتقدم نحوه كأفعى، يدور، فسدّ أذنيه براحتيه الخشنتين.
ورأى الشجرة المتكئة على مفصل جذعها تتمايل بتثاقل، فتسمرت عيناه في محجريهما، ولم يع نفسه إلا حين أيقظه حامد الذي تبعه سباحة قال: إيش بك نايم، نأخذ الشدف من الضفة أخيّر.

في صباح اليوم الذي سينتهون فيه من بناء السدة، سيدكون السطح بما تبقى من الحجـارة البيضاء الكبيرة، في ذلك الصباح قام عبد الله ببث الأمل في نفسه أنه سينتهي اليوم. استيقظ على صياح ديكة تراك الناصر واستطاع أن يستحث رئتيه على استنشاق نسمات بكر، يشرب القهوة المرة وينعش نفسه بمنظر السماء الغض.
غير أن أعماقه كان فيها خوف آخر، ذلك إنْ تم مع بناء سدتهم بناء وترميم سدة الجوبة القوية. لكن سدة العلوة بانت واتضحت متوازية مع شريط النهر. ولم يبق منها حتى تكتمل سوى دبكة الرقص التي ستلفها فرحاً وبهجة. كل أعمال البناء انتهت، واذا كان الأمر كذلك فإن السدة ستحميهم من هيجان محتمل للنهر، قوية ونواتها متينة، لا يستطيع النهر أن يبلغ ذراها، وعايد الخضر "اخو هدّله" نفسه اذا وقف خلفها، على طول قامته، فلن يستطيع رؤية سطحها.
كان الصبح قد دنا وطار الفجر من العالم، ومن خلف الحائط ناداه تراك الناصر، قال له: " تحدّر يا أبو محمد، لزوم ما نبطي اليوم وكاد نخلص انشاء الله". وسمع ابنته فاطمة تقول لوالدها: يابا العصيدة علينا ظهر اليوم.

لم يكن بناء السدة لحماية بيوت العلوة فقط، بل لحماية البستان المنبسط على سفحها. في طرفه كانت شجرة التوت الكبيرة، شجرة جده زايد، الذي قال حين زرعها: ستكون هذه الشجرة شاهداً على العلوة.

وحين كان يتذكر ملامح العلوة يقول: إنها وسط المياه، تصعد كحويجة. ذلك قبل تراجع المياه عن جدران الرحبة.

أما الطرف الجنوبي للعلوة، فينحدر سفحاً مطمئناً ثم يمس النهر بجرف يزداد عمقاً كلما ابتعد عن العلوة، حتى ليبدو من بعيد وادياً يحته النهر كل يوم بل كل ساعة. وهذا ما كان يشغل تفكير السالفين، حتى وجدوا الحل، بإقامة لسان صخري (هواشة) في منحدر السفح (الجوبة)، يمتد الى داخل الماء ليمنع تآكل الجرف وانهدامه. وحين بدأت المياه تقترب من سطح اللسان القديم، توقع صالح الساير انها ستعبر ذراه في الأيام القليلة القادمة، وستصل الى بساتينه وبيته الكبير (سرايا الجوبة) كما كانوا يسمونه.

التمعت عينا كُدريّه حين رآها محمد الرحبي وهي بجانب السدة، أدرك انها تطوّف عينيها الساحرتين على ذلك العمل الذي أنهك قواه، التفت من فوق السدة الى اللسان الصخري البعيد والذي أقامه صالح الساير منذ زمن، فوجده منخفضاً عنها، لا يقاوم دفقات نهر أواسط نيسان، وأيقن أن صالح الساير سيقوم بتدعيمه ورفع قامته. وفي نهاية عملهم من بناء السدة سيقوم رجال صالح الساير برفع قامة اللسان، ولم يخطر في بال محمد انهم سيصلون الى سدتهم نفسها، بوصل المسافة الفاصلة بين اللسان والسدة بسدة أخرى. ذلك ما كان يؤرق حقيقة عبد الله الرحبي. فاللسان سيدفع قسماً من المياه الى سدة الرحبي.

قال عبد الله الرحبي لابنه، موضحا مشروع صالح. قال له: هذا يريد يهدم بستاننا قبل بستانه.

ولم يكن هناك تحت شجرة زايد سوى خمسة رجال، تفرق الآخرون، وظل محمد وحيدا فوق السدة يركن الصخرة الأخيرة على سطحها. ومن بعيد تناهى الى مسامعه أصوات رجال صالح الساير، وقد بدأوا في بناء وترميم السدة، ويكاد يميز من بينهم صوت كُدريّه يعلو أحياناً ثم يغيب.

الطريق المنحدرة كانت فارغة، فاطمة التي صعدت قبل قليل الى العلوة بعد أن جلبت لهم فرش العصيدة لم تترك على الدرب اثرا، جف الجو في دقائق، وسرى في النفوس ضيقٌ، ولم يستطع عبد الله الرحبي ان يبعث لقم العصيدة الساخنة في سقف فمه، كانت يده ترتعش وهو ينظر الى ولده المترنح. لم يشأ أن يصدق تعليق فاطمة الطيب على ابنه يوم أمس، لما زعمت انه يخيفها متقصداً عندما كان داخل الطرادة، قالت له

وهي تجلجل ضاحكة: تخوفني .. ول .. ما لي قلب، والله حسبتك .. بعيد الشر يا محمد. نظر من فوق جذعه المستدير الى منحدر العلوة وتساءل: هدّله! لحظات الزمن كانت تقييده، رمى عينيه الجاحظتين الى دائرة الرجال الذاهلين، ولم يصدق ان خليل فزّ كالمخبول باتجاه السدة، دونما صوت، قفز كالطير وتبعه بقية الرجال، وسمع عبد الله حين خانه التحفز صوت هدّله من ورائه يولول: يا ولدي .. الشر عليك .. يا ولّي حربّة النجم.

تنخفض الجوبة عن العلوة فتشكل السفح الذي تراوده الوديان البعيدة. يبدأ مرتفعها من وراء ظهر بستان عبد الله، ثم تتكاثر البيوت في الجهة القبلية من البستان، تمتد الى نهاية السور القديم الذي دافع عن البلدة ضد حملات تيمورلنك. هناك تنهار البسيطة مشكّلة ودياناً وأجفاراً واسعة تتراكم فيها نفايات البلدة. وسكان الجوبة من المالكين الأكثر غنى، تركوا العلوة لما طفرت بمواليدها، ونزحوا الى البسيطة وراء مزارعهم التي كانت محدودة بداية الأمر، ما لبثوا أن وسعوها فامتدت الى خلف السور، مجتازة الوديان والأجفار. زرعوا القمح والسمسم والذرة، وأراضي القطن الى ما وراء الأفق.

وكان غناوي الساير المالك الأكثر غنى في زمنه. قدم لقائد العسكر في البلدة بيته الكبير عربون محبة وولاء. وأقام الى جانبه منزلاً لا يقل عنه فخامة، أطلق عليه اسم "سرايا الساير". ومع الأيام راحت أراضيه الواسعة تتقلص بشح السماء المتزايد، وبهجمات الأعراب المكرورة على البلدة.

ويتطاول بستان الساير بأشجاره، التوت والنخيل والرمان، المتناسقة على طول الضفة الى حد السور الغربي، كان يطلق عليه الأهالي في موسم انتعاشه جنة العلوه.

كان صالح غناوي الساير أيام شبابه لا يترك البستان. في الأصيل وعند الغروب تزدحم نفسه طرباً، وكثيراً ما كان يلعب الاستغمامة مع الشمس الحمراء، أو مع وجه نورا الحمد التي ولدت له كُدريّه، بزواج سري. ولقد حنق والده حين علم بالأمر، لاحظ انتفاخ بطن نورا يتزايد مع الأيام. وما كان منه إلا أن انتظر الفرصة بصبر وأناة كي يلقي بنورا الحمد من فوق الهواشة قبل الولادة المكتومة. وكانت المياه التي راحت تلتهم نورا الحمد تدفع بالمولود نحو الأعلى، فبادر الى لعلعة صوته في الفضاء صائحاً: يا ناس غرقت نورا، يا ناس نورا غرقت، يا أهل المروءة. وقد عاهد صالح أباه قبل موته ألا يعترف بأبوته لكُدريّه. غير أن قلبه لان لها عند شبوبتها ويناعتها، فرضى أن تبقى الى جانبه، خادمة في البيت وإبنة غير معلنة.

وكان غناوي الساير، بأبهة ملاك يتزعم المواقف، أما ابنه وكما خمنت أمه يوم قالت إن ابنها صالح يشبه جده لأبيه رداد الساير الذي باع أرض الحويجة بقصعة ثريد. لذلك اهتم غناوي في مسألة زواج ابنه، فاختار له دلة الغانم التي

عاشت في أحضان امها نبهة الغانم بالقرب من مضارب شيخ الزور، في ضفة النهر المقابلة.

قالت دلة الغانم وهي تجلس القرفصاء في وسط الحوش، تشير بعصا أمسكتها بحكمة الى خطوط رسمتها على الأرض، والى جانبها صالح الساير: من هين نبدأ، زين تكون متينة من هالطرف ومن أذيال الطرف الثاني، يا أبو خليل..ما منها مهرب، تسمع هوسات زلم عبد الله، راحوا يخلصون، وباكر جاي النهر. وطيب نصل الى سدتهم. سأل صالح، فردت: اي شنو! وبستاننا يا أبو خليل؟!
كانت كُدريّه في زاوية الحوش عندما أكدت لها ملامح دلة وجوب البدء بالعمل، فاندفعت الى أبيها تقول: باكر هو الزين، إي نعم، اليوم اجمعوا زلمكم واتفقوا يا أبو خليل. ثم مضت كُدريّه، خرجت من دار السرايا، تسمع الأصوات المنهمكة في البناء. توجهت الى بستان عبد الله، وقفت هناك برهة، وتجولت في خواطر شجرة زايد الصامتة.
كانت وحيدة في وسط البستان، رأت فاطمة تنزل من العلوة وفي يدها طاسة اللبن الطازج، وهمست الظنون في نفسها أن خليل يتلصص وراءها، سمعت حركته المتخفية خلف أول شجرة عبرتها لتدخل بستان عبد الله، التفتت الى الوراء، فانخطف الظل الى الخلف، تراجع الى شجرة نخيل قريبة، ولم تنتظر، تجاوزت البستان، واقتربت من الضفة ثم جاورتها متجهة الى بناء سدة الرحبي غير المكتملة بعد. رأت محمد يعيد الطاسة الى فاطمة المنتشية فرحاً. ودارت حول السدة، من طرفها الثاني بالقرب من محمد، رفعت رأسها ونظرت اليه بإمعان، وذكرت عيناها البراقتان محمد بذكرى ما زالت تلاحقه. جلس فوق السدة وباعد ساقيه، وراح يتذكر طفولته حين كان يلعب مع كُدريّه لعبة الضائع والصميمة. كانوا يلقبونها بالحريبة، لأنها ولدت في بطن الماء بالقرب من مسكن الجنية حربّة النجم. وكانت تهوى لعبة الضائع، وللبحث عنها ينقسمون الى جماعتين، الأولى تبحث عنها في طول الضفة، وفي منحدرات الوديان القريبة من النهر، والثانية تقتحم المقبرة والتلال المحيطة بها، بعضهم يتوغل متجاوزاً سور البلدة، الى الأجفار حتى وكر حية السلطان الكبير. كانت تنسل كظل الى المحج، كي تعيد الكرة ويعيدون البحث. ولم ينس محمد ذلك اليوم عندما جددوا لعبة الضائع وانتظروا الى أن غابت عن انظارهم. قام أربعة أولاد في البحث عنها، ذهب اثنان ناحية النهر، فيما ذهب محمد وحامد باتجاه المقبرة. كانت حينها السماء معتمة. وبينما كانا يهبطان إلى المقبرة المظلمة، همس محمد وأشار بيده الى الخيال خلف قبر حمد الطعان، قال: نتقرب وندگها. ويذكر محمد ان عثرته بشاهدة أحد القبور المائلة، قلبت السكون والحرص الى ضجة، مما جعل الكلب المتلصلص خلف قبر ابن طعّان يفر نابحاً .. وحين عادا الى المحج، وجدا رفيقيهما. وانتظروا حتى

تظهر كُدريّه بنفسها. سمعوا آذان العشاء والرجال الذين يهمهمون مارين بهم متضرعين (يا الله). ودارت في نفس محمد فكرة الصعود أعلى المئذنة، مئذنة العلوة المطلة على البلدة، ليرى ظل كُدريّه، أو يصيحها. بدا الملل يتسرب اليهم، فكّر بعضهم بترك اللعبة والعودة الى البيت، ولكن محمد لم ينه اللعبة، فما زالت كُدريّه متوارية. وانتظروا .. خرج المصلون من المسجد، وراحت الدروب تفرغ من الماره. وأخذوا يفقدون الصبر، فتراجعوا الى المحج وجلسوا عنده، مرت لحظات نسوا أنهم يلعبون، فتداعت افكارهم الى قصص سيف بن ذي يزن، وراح حامد يقارن بينه وبين عنترة، وأن عنتر ابن شداد الذي كان يحب ابنة عمه عبلة هو أقوى رجل على هذه الأرض، لا يمكن لأي بطل ان يقوى عليه، كان يسكن قلعة الرحبة، ثم استدعاه الملك النعمان الى حيرة العراق، وهناك عاش مع عبلة يدافع عن الملك ولم يمت الا حزناً على موت ملكه النعمان، وما زال قبره جانب قبر الملك في العراق. وكادوا ينسوا كُدريّه لولا خالتها خود الحمد سألتهم عنها، فتذكروا أنهم ما زالوا في لعبة الضائع، لم تنته اللعبة بعد. وترامت الى مسامعهم أصوات بعيدة لكلاب نابحة، قالوا لخود: يمكن وراء السور، بحثوا في المقبرة ولم يجدوها، وهي ليست على أطراف النهر، ولا في البساتين المحاذية، رأوها تنزل من العلوة تجاه المقبرة. وخمن محمد انها خلف السور، ربما في جفر حية السلطان. هبط الليل وعلا نباح الكلاب، ثم اقترب صداه، حتى أوجس الفتية أن الفتاة بين المطرقة والسندان. يأتي مرمى الصوت من الفتحة المشرفة على الوادي، منها تتسلل الوحوش الجائعة لتداهم البلدة، وكانت عينا خود الحمد تدوران ببله في محجريهما، طار صوابها اذ سمعت نباح الكلاب يقترب، يتجاوز السور، ربما الآن في وسط المقبرة، وهجست مسامعها بعواء جريح، تتخيل أن ضبعا يطحن بأسنانه الكلب الذي دافع عن كُدريّه، لا مناص سيضبعها كي يأخذها رهينة. وتدحرجت الكلمات بطيئة، ثم انفجرت، ملأت العلوة، وصرخت خود باستغاثة يائس: يا أهل المروة .. وتابعت في جوف الليل المترامي: كُدريّه يه يه. ويذكر محمد الرحبي أن خاله عايد الخضر، قفز عليهم من سطح بيت مجاور، واستفهم منهم بصعوبة ان كُدريّه غائبة في لعبة الضائع، ويخشون عليها من الضبع المتحلقة حوله الكلاب. فصاح بصوت كالطوب: أنا أخو هدّله. ولم يمض وقت حتى رجع عايد الخضر على فرسه "الهيلوان" وأمامه كُدريّه تختلج من الرعب. لقد كانت مختبئة في المقبرة وقد قالت فيما بعد أشياء لا تصدق، قالت أيضاً إن خوفها من خسارة اللعبة، وصورة الضبع في خيال الليل أفقدها الجسارة كي تعود.

وكانت كُدريّه تحن في طفولتها الى بيت عبد الله، والى هدّله وأخيها عايد، الى محمد الذي شاطرته الزعامة على أولاد الحارة، فدوماً يطفح قلبها بصور

تتمناها، يقف كخاله عايد الخضر فارس الهيلوان، وينتزعها من يد أبيها، يعود بها الى الطفولة.

أخذها أبوها صالح الساير من خالتها خود الحمد، التي لم تبارح هدّله. ولأن خود أكدت لعايد الخضر انها ابنته الحقيقية، وليست ابنة "مواس" الذي وصل معها الى البلدة في نهاية القرن الماضي في قافلة شركة الهند السريعة القادمة من بغداد، فإنه التزم الصمت ولم يقم بأي محاولة لاسترجاع الفتاة.

وحاولت كُدريّه التقرب من محمد أثناء وجودها في سرايا الساير، وفي السنة الماضية حملت الى خالتها خود، الى بيت هدّله، القطفة الأولى من ثمر الرمان، وكانت تريد أن تفصح عما انطوى عليه قلبها، وقالت في نفسها إن محمد ينتظر هذه الكلمة منذ زمن، حين أراد تقبيلها في النهر بينما كانا يستحمان في الطرف الآخر من الحويجة، قالت تختبره: ابعد قلبي مه لك.

ولما راحت تذكّره ادعى أنه لا يذكر شيئاً .. لكن خود أخبرتها أن محمد ينـوي خطبة فاطمة في الربيع. ولم تتراجع عن مقصدها، وقفت أمامه..ثم قبل أن تخرج، قالت: يا محمد قلبي نصفين، نصف لك وهذا راح البارحة، وقت كنا صغار، ونصفه هسّع طلع، ما أدري .. خوفي عليك منه.

وعادت كُدريّه. تركت وراءها ذكرى لا تمحى، تركت زخم الأصوات والصياح: همّوا يا جماعة .. وَلْ من هين مهُ من هناك .. خطوة خطوة بس .. إي عندك .. وينها فاطمة .. فاطمة يا فاطمة .. تراها رجعت .. خَلي تقول لجاسر يعجل .. حامد قرب جاي .. تراها تسمعك .. علّي صوتك .. هدّله.

تغلغلت وسط البستان، كانت طويلة مثل أمها. من يرها من الخلف يظن أنها أحد الرجال، فمنكباها العريضان يدلان على ذلك. كانت وسط البستان، تلقي جدائل على صدرها الناضح.

ولم يجرؤ على الالتفات، لقد دفعته بعينيها الرصاصيتين، قالت له: تفو عليك يا عجي.. روح سوي مثل الزلم. غير أن أعماقها كان يختلج رغبـة، لقد سمعت لهاثه خلف شجرة النخيل القريبة من الحائط، ورأته زائغاً في جذعها.

حينما عادت كُدريّه، كان صالح مجتمعاً مع الرجال في ديوانه، اقترحوا ما قررته دلّه: نرفع الهواشة ثلاثة أذرع، ونصل منبت الهواشة بسدتنا، ثم نرفع هالسدة بطول يوازي الهواشة، هيك نصون البساتين والبيوت، باكر بإذن الله نبدأ.

وبدأوا في أحد صباحات آذار، رجال صالح الساير بأعدادهم التي تجاوزت العشرين يقومون نشطين، يرفعون قامة اللسان، بالصخر والجص والحصى الكبيرة. وكانت هناك عربتان تنقلان الصخر من مقلع الطوب وراء جفر حية السلطان الى الجوبة، لتدعيم اللسان، أدى كسر عجلة إحدى العربتين حين

ارادت الصعود الى مدخل البلدة، وهي مثقلة بحمولة الحجر، الى تأخر العمل في اليوم الأول، وتذمر صالح الساير الذي أكد للسائس أنه لا يتقن السيطرة والتوجيه، قال للسائس: تلف .. أي تلف .. ما تجي شق رأساً .. تلوح بيدك حتى تشوف حالك صرت بسد الباب. رد عليه السائق: إيش كار يدي، هي خشبها تعبان ومحاورها هتيانة بعدين قلت لك ما تحمل كل هالشيء، قلت لي روح إيش بها!

واخذت السدة المقامة عند منبت اللسان ترتفع وتزداد عرضاً مع الوقت. وغنت كُدريّه بصوتها الأجش (ان هلهلتي هلهلنا لك) وكانت تريد ان تبعث صوتها الى أعلى قمة في البلدة، أن تؤذن بصوتها حتى يسمعها اسماعيل الذي فقد سمعه من قتاله مع ولد الهذال في شمال العراق ثم راحت نجود العلي تصعد صوتها المطعم برائحة البراري، الصوت الذي جعل محمد يحس أن الإغماءات التي انتابته في المدة الأخيرة، من دون طيف فاطمة، لها مذاق مر حزين.

أحس محمد وهو وسط الحوش بحرارة تقصم اضلاعه، فاستدار الى باب الحائط الفاصل بينهم وبين تراك الناصر. طلب من الله أن تكون فاطمة بين يديه حتى يعانقها، يتخلل في رنة أساور يديها، أن يدنو بخفة من عنقها حين يهتز قراط الذهب. وتملكه الحيار فنظر الى هدّله التي دخلت المطبخ دون أن تعيره انتباها. ثم أدار رأسه المتصلب جهة الباب المطل على الدرب، فرأى من بعيد ظل أخيه الصغير، ناداه بعينيه الزائغتين، أحنى ظهره وتقاعس على قدميه الرخوتين، وسمع فاطمة تنادي اخيها الصغير، سمع صوتها المتباعد: مشهور .. يا مشهور .. يفصله الحائط ذو الباب المغلق (مشهور) يفصله مقدار من الزمن الآخر... وكحلم وخيال، ظن أن العالم يتقدم نحوه، الظلال المتراصة تعدوا باتجاهه، ولم يدرك سوى أن صدى آخر يتقدم اليه، رغم أنه بكاه منذ ثلاثة أيام. قال له أبوه : ابعد يا جاسر، تبكي على اخوك مثل البنية.. قال له أبوه: يا ول .. ترى أخوك قدامك .. أها ما به شيء. قال أبوه: دوخة بسيطة ما به شيء.

كان يقترب منه .. فانتبهت هدّله الخضر الى ولدها وسط الحوش، لم تصرخ هذه المرة، ساعدتها خود الحمد، فحملاه الى فراشه في الغرفة الكبيرة. قالت هدّله: يُما خود سوّي بابونج، أو تراك يا محمد تريد نعناع، اسم الله .. ما بك.

حين انهى صالح الساير بناء اللسان والسدة، أقام غداء دعا إليه ساكني الجوبة. وصباح ذلك اليوم استيقظت كُدريّه على حلم: كانت مع إحداهن تغسل أطباق الثريد عند شاطئ النهر، وهناك من يغرق في النهر، واستيقظت حين قذف

محمد بنفسه في الماء لينقذ الغريق. كان حلماً هز كُدريّه. وراحت ترويه لدلة فقالت الأخيرة: خير والصلاة على النبي .. هذا لأننا نريد أن نعزم الناس.

نحر صالح الساير للوليمة جملاً بحاله. قدمه على اطباق الزودياك الهندية، هدية حاكم العلوة الى أبيه أيام بنائه لسرايته الأخيرة. وامتلأت عند الصباح أطراف الحوش بالأثافي والقدور والماء وأكياس البرغل والرز.. راحت النار تتصاعد مع الضحى وتلمس أطراف القدور. وكان صالح يرى أن توزيع شرائح اللحم على البيوت بدلاً من الوليمة افضل للناس، فقالت دلّه الغانم: شقفة اللحمة تنتسى يا صالح أما العزيمة تدوم.

صالح الذي لا يملك حيلة للاشتراك في خلية النشاط، التي قام بتحريكها أكثر الرجال والنساء المتوافدين من الصباح الى سرايا الجوبة، وقف يتأمل "خود الحمد" وهي تنحني نحو أثافي القدر، تفضي يديها فتميل جديلتها الفاحمة عن ظهرها، تلمس رماد الأرض، تسجد لتذكي نار الحطب.

الرجال الذين يأكلون العصيدة تحت شجرة زايد، هرعوا يتراكضون الى الصريع. وراء حامد كان خليل ثم حسن عبد الله ورداد الزغير، وظل عبد الله في مكانه يحدق الى منحدر العلوة، وقد اعترته حالة جمود. وحين استطاع التغلب على الوهن المفاجئ، رأى هدّله وخلفها جاسر ينظران من أعلى العلوة بتساؤل، ثم ينطلقان، جاسر وتتبعه هدّله، وخلفها بعد زمن قصير فاطمة، تريد أن تطير وهي تحمل طاسة الخرعة.

هبطا العلوة، يعتريهما شعور بالخراب. سمع جاسر همهمات أمه الفزعة وراءه: يا ويلي يا ابني، انهدم بيتك يا هدّله. وشعر وعيناه تكاد تثقبان السدة، لتريا ما حل بأخيه، أن هدّله على علم بمصاب ابنها. اخذته قبل ايام الى الشيخ مزعل، حين عادت نوبته مرة ثانية، كان هناك عايد وعبد الله ومعهما جاسر، قال الشيخ مزعل بتحفظ: اذا تكررت هالشهر أكثر من ثلاث مرات... أخاف على الوليد. وتذكر جاسر أيضاً تعابير وجه أخيه عصر ذلك اليوم، حين خرجا من البيت، وقطعا الدربة الأولى، عندها حاول محمد ان يتجه بمفرده الى الخان بعد أن أومأ لأخيه بالذهاب الى بيت خاله عايد كما أوصته هدّله، أدار جاسر ظهره الى حيث تنحدر الطريق قليلاً، الا أن النظرات الأخيرة التي ارتسم بها وجه أخيه جعلته يعود إليه بعد خطوة أو خطوتين. كان محمد شاحباً مغمض العينين، وبدأ يتهاوى ويده على قذاله، وقد استطاع جاسر أن يسنده قبل أن يسقط، أشار محمد بيده الى الحائط، فعادا قليلاً الى الوراء، وأمعن النظر في وجهه الأسمر، ودّ وقتها لو أن عينيه تشعان شفاء وحياة، كما سمع مرة من جدته وزنة الخضر عن أحد المتعبدبن الذين وهبهم الله قوة الشفاء بالعين.

وكانت عيناه مزمومتين وهو يهبط العلوة، ضمهما بقوة حتى يفتح بهما حجاب السدة. استمر يجري، تطاولت قفزاته فخلّف هدّله وراءه. وهو يهبط لمح وجه كُدريّه ممتلئاً في قبة الأفق، شاردا متسائلاً. وسمع صوت أبيه:اتركوه... وسعّوا للهواء .. ابعدوا .. ثم وصلت هدّله، وبعدها فاطمة تحمل طاسة الخرعة المزركشة بسورة الإخلاص، فأخذها رداد وملأها من ماء النهر، ثم وضع رأس محمد بين يديه. وارتجف جاسر، غص بالعبرة ثم انطلق يعوي كحمل جريح. قال أبوه: ابعد .. وتبكي مثل البنية!

عصر ذلك اليوم سألت فاطمة محمدا، فقال لها: لا انشاء الله زين، يمكن شفيت، إني هسّع أحسن يا فاطمة. ثم تابعت بعد صمت، عندما لحظت حمرة تفور على وجنتيه: تراك قطعت قلوبنا. وهمست: خوفتني يا محمد.

في المساء غص البيت. جاءت الجدة وزنة، وكان عايد الخضر هناك أيضاً، ورداد وأمه عطشة الذياب عمة عبد الله، والرجال الذين بنوا السدة، وكان حسن ودحام يتهيآن، بعد أن اصطادا عشر سمكات كبيرات، للعودة. فجهزت هدّله قدر النحاس الكبير، وساعدتها خود، أما النساء الباقيات فقد عجن طحين القمح لخبزه في تنور في زاوية الحوش اليمنى.

أفاق محمد ضحى اليوم الثاني، مشرقاً فواحاً، أمامه العالم منفتحا متكاملا. وخياله ينمو في ارض قريبة من صدره. وألحّت عليه فكرة أن فاطمة من روحه، بها يشبك الليل بالنهار، كف الحياة بالزمان ـ أغمض عينيه فناولته زجاجة مسك، وتدفقت أشعة الشمس من فرجة الباب.

تمطى وباعد يديه، ثم فتح صدره للصباح. ومع أنه سمع من يبنون ويعملون في سدة الساير، لكن نفسه ظلت طيبة حنون. السريان الطيب جعله يغفر لكُدريّه. تصور في استحالة أخرى أنه يسير خلفها، ذلك حين تركت السدة وغابت في بستان عبد الله. وكانت بهمة ضبع وقلبها يعزف. وتساءل قبل ان يدخل البستان، لماذا عادت قليلاً الى الخلف ثم توارت خلف شجرة النخيل؟ فخلع نعليه المصنوعين من جلد الماعز، وكتم انفاس صدره ثم لوى طريقه بين الشجر. كان كالهمسة فلم تسمعه كُدريّه، فأصاخ سمعه وراح يتنصت: تذكر يوم قالت له كُدريّه: قلبي مه لك... ابعد. عندها ابتعد ونأى، أسرع الى الحويجة، فرمى عليه لباسه، ثم تظاهر بعدم الغضب. راح يسمع من خلال الأشجار وقلبه حنق، سمع صوتاً خفيضاً، بينما كان وراء البستان ثم آهات، وأخذ يحدق في جذع الشجرة الملتوي. من؟ سأل نفسه، من؟ لو لم يكن هذا الوقت في هذه السنة، ولو كان الوقت منذ سنتين، ولو كان المتلصص غيره، حينها لقال: انه محمد .. ومن غيره معها في هذا الوقت.

لكنها انتبهت، رأت بعيني قلبها أحاسيسه وهي ترقبها، فتملصت من يدي خليل، دفعته في صدره، فارتمى على الأرض. قالت بصوت عال: تفو عليك... عجي. الا أن محمد كان قد مضى. لقد تراجع والغضب يتوزع في نفسه، قال: وَلْ هذه مثل أمها... تعطي مَيها لكل سابح، عوذة منها عوذة. عاد الى السدة.

ونفض عنه النوم. وقف بباب الغرفة يتأمل النهار كيف يرتفع، نظيفاً ناصعاً، كانت الأشياء قد بدت وكأنها ولدت من جديد.

هذا التحول في قريرته لم يكن فقط من الحوادث التي وقعت في البستان، أو على السدة، بل يذهب الى ايام الطفولة، يوم كان ولداً، عندما نهره أبوه حين كان مع تاضي ابنة رداد الزغير وهما يلعبان (بيت بيوت) تحت قبة غرفة المؤنة في طرف الحوش. أرادا في ظهيرة ذاك اليوم أن يمثلا دور العريس والعروس، كهجان وسروة اللذين تزوجا منذ أسبوع. سأل أمه ليلتها عن الزواج وعن هجان، ولماذا تترك سروة أهلها وتذهب الى بيت أهل هجان. فبينت له هدّله وهي تمسد حاجبيه، ان الرجل يتزوج لأنه يحب زوجته، ولكي ينجب الأطفال. وفي الغرفة المغلقة، حين دخل هجان على عروسه، تخيل محمد الرحبي ان أول ما يقوم به هجان هو تقبيل سروة، يحبها من خدها ومن يديها، قال لتاضي ذلك داخل غرفة المؤنة، ثم ينام الى جنبها في فراش واحد لينجبا أولاداً. وقد نهره أبوه إذ رآه مستلقيا بجانب تاضي داخل الغرفة، قال له ابوه: يا ول .. قليل الحياء، اطلع. وأردف: إيش تسوي بالبنية..يا ما تستحي. وفي إحدى الليالي، نام محمد متأخراً، في ضوء القمر، وسمع أباه وهو يندلس في فراش أمه، بعد انحلال جمع الرجال على الأسطحة المجاورة، وافترض بمضي الوقت أن الصوت الذي سمعه جاء من والدي فاطمة، عن نومهما العميق وما يرافقه من أصوات، كان يسمعها أحياناً من عبد الله أثناء نومه، كأن ينادي أو يدمدم... يتأوه بوجع وحرقة. وظل يوزع ناظريه في قبة السماء المضيئة الى ان سمع همهمة ثم حركة صادرة عن أبيه في الفراش. أصاخ السمع وأرهفه، فالتقطت أذنه ضحكة جنين لهدّله، ثم أعقبها صوت كفرقعة بالون صغير، أغمض عينيه وانكمش على وسطه، وعلم من فحيح اللحاف انهما غير نائمين، هدّله وعبد الله يتجازران، فأطل بعينه اليمنى على اللحاف الآخذ شكل قبة، واستطاع تمييز يد هدّله تضغط على رأس أبيه، ثم تشد اللحاف قليلاً الى الأعلى.

ظلت هذه الواقعة وما تلاها تلاحقه. وإذ يذكرها تخرج دخيلته السوداء فيزحر بحرقة، وصمم في آونة الشباب أن يبتعد بفراشه عنهما، الى المكان الذي لا يسمع منه شيئاً أو يرى. ولقد كره القمر ولياليه المضيئة. كان ينظر الى وجهه في وسط السماء، فيجده بعين واحدة، يسطع على العالم. وتحدث مرة الى نفسه: لماذا يقوم النهار إذا كان الليل هكذا مضيئاً؟ شعاع الشمس ينطمس في النهر ويغيب كي يخرج منه القمر النائم.

ضحى اليوم انفرط البغض القديم، تبعثرت حباته السوداء، مر شريطاً من صدى في ذاكرته. خرج من باب الغرفة الى وسط الحوش. فرقع فقرات ظهره، وخمن الحقيقة التي افترضها حلماً: لم يستيقظ على طيف عبد الله، لقد كان حقيقة فوق رأسه، يتفحصه بدقة، وقد عاد عبد الله قبل أن يستيقظ ابنه بقليل، عاد ليقول لهدّله: إن ابنها ما زال نائماً، وجهه مثل ورد الختمية. وأثارت الحركة في المطبخ سمعه. هنالك عبد الله يطلب من هدّله. وارتفع

صوت هدّله المبتهج: ابعد يا بو محمد .. لا يجي أحد. ثم تنامى الى سمعه الاضطراب والمشاركة، مزيج الخلق: دير بالك.. الباب مفتوح. لا تخافي. كان أبوه مطمئناً، فلم يكن أحد في البيت، جاسر خرج مع حسن، وخود تسللت الى سدة الساير، وكان الباب مغلقاً، أغلقه عبد الله. فعاد محمد وقلبه يخفق بشدة، ابتسم لصوت عبد الله، أحب هدّله المختلطة مع زوجها، ود لو يقف هناك ويتمثل الصورة في الحياة. عاد على رؤوس أصابعه، دخل الغرفة، اندلس في الفراش وأغمض عينيه.

حل الليل وتوسعت السماء في ضياء القمر الغريب، انفتحت في سقفها أبواب كثيرة، حادة. كان جاسر يعلم أن أشياء جديدة ستحدث، فهدّله أكدت له ذلك. وقف وسط الحوش، وحيداً تحت السماء المضيئة، وأمعن النظر في سطوع القمر الغاوي. لأول مرة يرى مثل هذا الضياء، تذكر القمر وشكله في الليالي السالفة، فأيقن أن السماء وقمرها جديدان، لا مثيل لهما. نادى بصوته، فخرجت هدّله. قالت: ما هو سوى هالة، القمر مهيّل السنة يا جاسر.

من يذكر تلك الأيام، فإنه سيذكر سنة الجراد، سنة الماسيس(1): "ما يره فورتوتيس باجانومين (2) ". وسيذكر أيضاً هالة القمر.
فبعد أيام من بناء السدة .. ومن هالة القمر، أخذ النهر يضطرب. قال عبد الله لإبنه جاسر بينما كان جالساً فوق السدة ينظر الى النهر بتحد: يعني دأبه يصل نصف بدنة السدة، وما يتجاوزها يا جاسر. لكن النهر في اليومين التاليين اتسع أكثر، وأخذت المياه تتصاعد. وفي اليوم التالي، بلغت المياه منتصف أرتفاع السدة، راحت تتمرغ هناك وتتلوى، ترتطم بجدارها دون هوادة. وظلت تصعد كل يوم، حتى جاء اليوم الذي بلغت فيه ذرى السدة، ونشأت تتجاوز قممها باضطراب. ومن بعيد رأى جاسر أن لون المياه تغير. وبدا النهر يحمل في أحشائه الغثاء والمغرة. وأخذت بين الفينة والأخرى تمر من جانبهم قطع الخشب، أو أثاث يشير إلى دمار حل في الأراضي. وراح البستان يمتلئ بـالروث والطمي... حتى جاء الهلاك. "ماسيس" لم يبعث الطمي والمغرة ... بل كانـت تـمر من أمامهم مفاجآت الهلاك مسرعة.
أجساد لحيوانات منتفخة، شـدف خشب محترق، آواني مهشـمة،
قدور وفدادين حراثة، سقوف بيوت، جدران وأروقة، السمك، أجساد
لأرواح ميتة، أصابع بخور، وأثواب زفاف، اللعنة ثم الأغلال الممسوحة*(3)
.. كان "ماسيس" يرسل كل الذين فروا بأرواحهم عبر الحدود ...

1- آرارات .
2- انهم يفصلون الأم عن الابن
3- (الميثولوجيا الأرمنية) الأغلال الممسوحة: أغلال اردافست، ما فتئت تمسحه السنة الكلاب حتى اذا تحرر من قيده أهلك الأرواح والنهر.

في اليوم الذي وصلت المياه جذع شجرة زايد، استيقظت هدّله مضطرمة، قبل أن يرفع "أحمد الذيب" آذان الفجر، فتوجست أن المياه تدنو، وصوت دومانها قريب من أذن منصتة، كما أن النداء يأتي من السقف أو من الناحية الأخرى.
خمنت وعيناها ما زالتا تتحسسان اليقظة، أن الأمواه الراكضة سوف تسيل عليها من نافذة السقف المغطاة بحجر الطوب، ستدخل من السجوف، أو من تلك الأنحاء التي تتسلل منها أشـعة الشمس، من الفتحات العميقة في قلبها.
أرادت هدّله أن تنهض، لقد استيقظت، حاولت أن ترفع عنها اللحاف الصوفي، تبتعد عن أبي محمد، تلمس الأرض بأطراف أقدامها السريعة، فتحت الباب، مضت مشدودة الى الحائط المطل على النهر، ووقفت هناك تستجلي الظلمة. استطاعت أن تميز شجرة زايد، لكنها لم تستطع أن تدرك: أين الظلام وأين الماء؟ كان العالم ظلمة وماء، حفيفا ثـقيلا للخراب.
في ساعة السحر أطل محمد الرحبي، بهاجس مماثل. رأى هدّله من فرجة الباب المفتوح، ثوبها الخمري ملقى على جسدها اللدن، شعرها المشوش خلف ظهرها. وراح يقترب منها بسرانية، استمع بحنين الى رائحتها البرية، كما رأى بكلتا عينيه بحة الصباح وهي تطير من صدرها الواسع: اشوف النهر يريد يطوف. تراه أخذ يدك الشجرة. قالت: اسمع. قالت: باكر الغوالة تصل الحوش. قالت: اسمع، تدك شجرة الزايد. فخرجت سمكتان شاحبتان من النهر ثم قمستا فيه مرة ثانية.

بداية النهار بطيئة، تحمل الترقب، فبين الحين والآخر يعود جاسر راكضاً ليقول، إن الماء لم يهدأ بعد، يرتفع، سيغمر الشجرة (يا أمي) ـ أنظري إلى السحاب أنه ينـز ـ فتقول له أمه: ما شأن السماء؟ ان الأمر في الأرض. وقال أبوه: اخفض عينيك .

الفكرة التي دارت في ذهن محمد قبل أيام، استيقظت اليوم وتوهجت. كانت عيناه تنظران الى المشهد غاضبتين. وعند الظهيرة أدرك الأب بما يفكر فيه الابن، فأعطاه عينيه بينما كان يدرج لفافته قائلاً: يكفينا مشكلات يا محمد. فرد عليه: يا با تراني ما أقبل الظلم! فأجاب ابوه: وحده الله يا ابني يمسك الماء .. وما نريد مشكلات.

هبط العصر. جاء من السماء غاضباً، هبط على سطح العلوة، وسار بهوادة على الضفاف العائمة. عرف أن محمد وقف مع هدّله في صبـاح اليوم. وكانا ينظران الى النهر غاضبين. محمد يقرع فمه باسنانه النحاسية، يقضم الهواء الذي ملأ العالم، قال لهدّله: ول والله شبر ثاني يتقدم النهر، راح اكسرها يا هدّله.

مرّ على العلوة، وكاد يتوارى، انفق ما لديه من رغائب وأمان، ولم يبق شيء، اراد ان يرحل وينتهي، غير أن محمد الرحبي رافقه إحساس أن الحدث ينتظره، انه واقف ينتظره، قليلاً، العصر في طريقه، فصرخ في بئر الفضاء الواسع: توقف!

كان أبوه يجري وراءه، وخلفه جاسر. حسن تركه يفعل ما دار في رأسه، قال لأبيه: اتركه يا ابي .. والله اذا ما يسوّيها هو، آني أسويها .. أتركه.

عقص كلابيته، وربط أذيالها في وسطه، ثم انحدر يحمل المسحاة ماراً بين الرجال المتأملين: يسوّيها .. ؟ والله يسوّيها وتشوف .. هو صالح الساير يدري؟ واذا يدري بس طافت ..! مرّ بالبستان ووصل الى نهايته، لمح من خلال الاشجار شخوص كُدريّه، فتذكر شجرة النخيل واهتزازها، تابع جريه تجاه سدة الساير، انحرف نحو اليمين. كانت السماء فاطمة ترتعش في قلبه. وهو يركض انحدرت مدامع باردة من عينيه وخضلت وجهه الغاضب. صاحه أبوه: ارجع يا محمد بلا مشكلات. وشد قبضته على عصا المسحاة، وتلمس بيده الأخرى مقبض "الكردة" المعلقة الى وسطه، ونفسه تقول: ها الكردة. اجتاز رأس سدة الساير، ابتعد عنها، ثم عاد اليها وهو يقول: من هين أضرب يا ابن هدّله.

حين رأته كُدريّه جرت عائدة الى سرايا صالح الساير، قالت لصالح وصدرها ينتفض كسمك الضفة: شايل سيف الكردة والمسحاة .. اعجلوا لا يكسرها!

وتراءى لصالح ان كسر السدة سوف يعني ان المياه ستندلق الى المنخفض، بين العلوة والجوبة، ثم ستسرب بيسر الى بساتينهم وأشجارهم. والطمي سيغمر الأرض ويغير معالمها. بدا له أن الخطر سيتفاقم. وإن كانت المياه قوية، فستصل ديارهم ومآمنهم. فأسرع الى ولده خليل قائلاً بتلعثم: يابا .. خليل وَلْ والله .. حسيت بها .. يابا يا خليا .. روح .. اليهم، العسكر وقل لهم ابن هذول سوّاها، يعجلون.

فانطلق خليل الى الزاوية البعيدة، وبقلب لا يفارق صوت المرأة التي سمعها في الظلمة ترجو والده أن يكف. كان يود لو يصاب بالصمم على أن يسمع ما جرى. همهمت بألم: بس! وبحس الحنين الذي سيصيبه بينما يطوي مسافات العودة المذهلة من عينتاب، هرباً من الحرب، تصور أنه أساء الظن بأبيه وبكُدريّه، لذلك ارتجى من الله أن يصل العلوة، ليرى في الدقائق المتبقية كُدريّه، ثم ليسامحه أبوه. مضى متسللاً في صوتها الخافت، الى الزاوية البعيدة من قلبه، وشبح محمد الرحبي مرسوما أمامه يهدم السدة. وباستمرار كان خياله ينمو وهو في طريقه الى الشاويش ابن المضحي. تصور أن عايد الخضر هو الذي سيكسر السدة وليس محمد، ثم ظن انه ظل آخر لجاسر، ولقد

أوحت عينا جاسر الناريتان بذلك لحظة إناخته في لعبة "الصميمة"، وما كان من جاسر ان يعتصر توقه الكامن، لولا مرور خليل من جانبهم. رآه خليل ينهض رافعاً صدره، كرجل عثر في الشرك الخفي. ثم تخيل الشاويش ابن المضحي وهو يقول له عندما يشتكيه في هدم السدة، يقول: اذهب وانا وراءك يا خليل، بعد قليل. سيركب حصانه الأشهب، يتبند البندقية ثم يلكز عرف دابته كي ينطلق: أنا وراءك. يثبت البندقية كعمود رواق: بعد قليل انا وراءك.

كيف سيرفع ابن المضحي البندقية في وجه محمد؟ هل يستطيع ان يمنعه من كسر السدة؟ هل سيطلق عليه النار إن رفض الأوامر؟ هذه الأسئلة كانت تتراوح في نفس خليـل، فيتصور ان ابن المضحي ينفجر من الغضب، يأمر رجاله بالقبض على محمد، فيدفعونه في النهر من فوق السدة، لكنهم سيتراجعون حين يرون عايد الخضر وهو يرقبهم من بعيد. وأما كُدريّـه فستجعلهم يندفعون، يمتحنون رجولتهم أمامها فيصيحون به: وِلَكْ حدّر.. ولك ابعد وإلا نطخك.

كان يمضي عائداً الى منزل والده، وحين لم ير أحداً فيه أخذ وجهة السدة.

وصل هناك فوجدهم يتطلعون برؤوس مفقودة، وقد غاب عنها التوثب وتوارى خلف قتامة الرجل. حتى عبدالله لم يتوان، أراد أن يرده أيضاً، فلم يقدر، رفع محمد صوته في وجهه: وقف حدّك يا عبد الله .. اللي يتقرب يسيح دمه .. إني ميت .. إني اليوم .. اللي يتقرب. وكانت كُدريّـه تنزف من المحاولة الفاشلة في منعه كسر السدة، وقد كشفت عن صدرها المفتوح، مستلقية وحولها هدّله ودلة وخالتها خود. وصالح يرقب نفسه العـاجزة. بينما بدأ نشيش الماء يتغلب على هول السدة. نـاداه صـوت من أعلى العلوة، طار فوق رؤوس: اضرب يا ولد. فغمرت المياه الأرض وتراجـع الرجـال والنساء، حملوا كُدريّـه من ابطيها. وقال رجال الشاويش: وقف حدك يا وليد. لكن محمد لم يسمعهم، تابع بنهم. فرفعوا البنادق، وجهوها نحوه، قالوا نطخك هسّع وقف. لم يسمعهم، سمع صوتا من فوق الرحبة يقول: لتغمر المياهُ الأراضي.

* * *

5

حادثة كسر السدة بدت لحسن الرحبي بعيدة، وإن أراد أن يتذكر أيام الفيضان وفورة أخيه الراحل محمد فإنه لا يذكرها إلا بصعوبة، تلك الأيام أمست كأنها حلم، يكتنفها ضباب ولم تعد تملك الحضور الذي كانت تملكه في السابق، حتى أنه كاد ينسى وجه فاطمة، وتساءل مرة إن كان مازال يذكر ملامحها. لعل حسن الرحبي لم يدقق كثيرا في معالم وجهها قبل رحيلها، كان يكتفي بلمحة خاطفة شاردة.

أفكار كثيرة شردت في عقله أيضاً، فالزمن تغير وتبدل. هل يذكر قصة الضبع الذي كان سيفترس كُدريّه؟ اذا اراد حسن الرحبي ان يرسم هذا الحدث ويعيده في خياله، فانه لا يلمح في ذاكرته الناضبة غير المقبرة والباب المتداعي لسور البلدة.

أما جدته وزنة الخضر، فراحت تخفف عنه همومه وكدره كلما وسّعت نفسها. فإذا ذكر لها ان الولائم كانت ظاهرة شبه يومية ولا تحتاج الى تحضير طويل والى تحسب كما هي عليه الآن، تقول له: إن هذه الايام ستنتهي عما قريب، وسيعودون إلى ما كانوا عليه من قبل، والعلوة تصادف مثل هذه الظروف القاسية كل مدة من الزمن، هذا من عند رب العـالمين، ليختبر النفوس والقلوب. فالجدب الذي حل بأراضيهم، والمواشي العديدة المصادرة، والرجال الذين تركوا العلوة ورحلوا كجنود إلى "سفر برلك"، كل ذلك اختبار وامتحان من الله. لكن وزنة الخضر، لاحظت في الأيام الأخيرة، تغير حسن عما كانه سابقاً، فحفيدها تعرفه. راحت تلاحق حركاته وترصد سلوكه. رأته في عصر أحد الأيام في زاوية الغرفة منكمشا على نفسه يتنصت. لقد تحول الى هذه الصورة حين دخل متخفيا من عسكر النظام إلى بيت جدته وأمضى فيه الأيام الأولى.

ولم يرغب أبوه عبد الله الرحبي هذا المكان له، كان يريد طرف البستان السفلي بالقرب من السور، المتواري عن الطريق والنهر، ظناً منه انه مكان آمن، بعيد عن الشبهات. وسيحمل له سلل الطعام مع اخبار البلدة، والرجال الجدد الذين ساقهم العسكر الى النظام. وقالت هدّله: إنهم سيكشفون أمره في البستان، ابعثه الى جدته أفضل، تسكر عليه وعليها الباب. وهناك لن يجرؤ أحد على اقتحام بيت عايد الخضر. وفي الليل غادر حسن متخفياً، الى بيت جدته التي قالت في اليوم التالي للذي سألها عنه، إنه سافر.. ما أدرى.. هو الى البوكمال، ما أدري.. هو الى عانة الى البصرة الله اعلم.

الليلة الأولى نامها الحفيد في الغرفة الوحيدة مع جدته والتي استيقظت باكرا كي تجهز له مكاناً في غرفة الحصان، في الحوش، حيث سيقضي أيامه الخمسة عشر الأخيرة، وذلك قبل ان يترك العلوة الى الابد. في غرفة حصان الهيلوان أمضى حسن الأيام والليالي. ونادراً ما كان يخرج الى الحوش، تحسباً من المباغتة، ومن عيون المراقبة التي لا تنزل عن الأسطحة، تترصد خبايا العلوة وأكنانها: في الصباح دخل أربعة رجال الى بيت صالح الساير، ظلوا الى الغداء، دخلوا ملثمين وخرجوا ملثمين. لم نتأكد من وجوههم. يبدوا أنهم حملوا أخباراً من خليل الذي اختفى فجأة، ذلك لأن صالح الساير وأهل البيت خرجوا وراءهم الى مسافة بعيدة، وكانت دلّة تلحّ من تلويحة يدها بالسلام على ابنها، وسمعناها تتضرع اليهم بالحفظ والسهر على صحته. لاحظنا ايضاً ونحن فوق الأسطحة، ان أكثر النساء عند الظهيرة يخرجن من غرفهن عاريات، يجرين بذعر في أرض الحوش، تتبعهم الكلمات الفاحشة والمقذعة، وتكررت هذه الحوادث في الأيام الأخيرة، حسن الرحبي، آخر ما سمعناه، انه مع خاله عايد الخضر في العراق عند ولد الهذال.

وكان الليل يخيم على العلوة عندما تسربل حسن بالسواد وخرج إلى بيت جدته. وكانت عينا أخيه جاسر آخر من تتبعتاه، وقد ميزهما حسن في الظلام شهلاوين، يقرآن مصير الأيام الآتية، واتضح له ذلك فيما بعد عندما كان في بئر الهيلوان، غائبا في ذهوله فظنهم يقتحمون بيت عايد الخضر، ثم يكسرون باب خشب.

ودع أمه التي حاولت الاّ تنسى ملامح ابنها، فنداء خفي راح يغمرها: انها الفرصة الأخيرة ولن تتكرر ثانية. جالت في وجهه، ابعدت عن ذاكرتها الصور الكثيرة لحياتها، كي تحل مكانها صورة وحيدة لابنها الذي لن يعود، حتى إنها ارتعبت حين حاولت ابعاد طيف محمد، ولقد رآها حسن تجفل في وجهه فزعة. وزعت نفسها فيه.. واستمعت الى نبض صدره فخمنت انه غناء النهر أيام الحصاد. وكان فمه يرتعش ايضاً في وجنتيها الصافيتين. هبط الصقيع الى قلبها قائلاً: محمد راح وهذا يروح، وباكر يا هدّله الدورة على

جاسر. لكن زوجها أبعدها مخضلة بالدمع، قال لها: يا هدّله بيت جدته أمن واطمئنان، يا هدّله ايش بك كأنك تودعين رايح لليمن، بيتها قريب هناك.

كان بيت وزنة غرب العلوة، رفعه ابنها عايد الخضر بعيداً عن ماء الفيضان، وذلك بعد ان خرب النهر بيت جده ناصر الرحبي. ويطل البيت على خربة غزالة العجل التي قالت عنها وزنة: إن جنية النهر "حربّة النجم" التهمت فيها غزالة اصطادها حمدان، تسللت ليلاً وسرقتها من داره، وقد علقت رأسها على متن الحائط، كدليل على فعلتها هذه. غير الخربة لا يوجد سوى فسحة مليئة بالآبار المتداعية، حفرها عايد الخضر أيام الصبا، ليعثر على الممر السري الذي حفره أجداده تحت الأرض بين العلوة وقلعة الرحبة.

هناك كان حسن مختبئاً، عن أعين الصيادين، الذين يصطادون الرجال، فيقودوهم الى قوافل الجيوش المتغلغلة في العراق وآسيا الصغرى، لمحاربة الانكليز وأتباعهم. وأشار عبد الله إلى أن ابنه حسن سيبقى هناك الى ان يعود خاله عايد الخضر، فيأخذه معه بعيداً عن البلدان والمدن، إلى البادية، على معابر الطرق وقوافل التجارة. واختبأ حسن في الاسطبل القديم والذي أبدله عايد قبل مدة ذلك حين انتبه الى الحالة المتدنية التي ذهب اليها حصانه الهيلوان. بعد أن كان الحصان يستجيب لندائه البعيد والى صوته، راح مع الأيام يفقد هذه الإستجابة. صار مزاج الحصان يتغير ويتعكر، وقلّت شهيته للطعام، استشار أخاه مهيدي في ذلك، فاقترح عليه أن يغلق الاسطبل القديم ويبني آخر جديداً، لعله ينفعه ويعدل من مزاجه الحرن.
الاسطبل القديم مقام في طرف حوش وزنة. هناك الاسطبل بنوافذ صغيرة تستقبل نور الشمس الى معلف الهيلوان. وحين راح عايد يبني غرفة الهيلوان الجديدة، فكرت وزنة في تحويل الاسطبل القديم الى غرفة مؤونة إضافية، فنظفت أرضيته المليئة بالروث والتبن وحب الشعير، ثم أحضرت (زنابيل) الجبس والجص لطلاء حيطانه المتآكلة من ضربات حوافر الحصان الهائج. كذلك حاولت أن تزيل المعلف المقام في أرضية الاسطبل. حاولت ان تنتزع جذع المعلف بضربات المعول الهادئة والقوية، وحين أعيتها متانة الجذع انتقلت الى جوف المعلف، فكانت ضرباتها هناك أكثر حزماً وموجهة الى أطرافه الجانبية الضيقة، ولكنها، حين سئمت من استمرارها رفعت يدها عنه، وحاكمت ان وجود المعلف في غرفة المؤونة لن يضير شيئاً، راحت تنظر عندها الى ضرورة وضع باب في مدخل المعلف الذي كان واسعاً عريضاً. وحين وضعه لها رداد الزغير، من الخشب المتين. كان منظر الباب الجديد يلح على وزنه بضرورة طلاء الجدران الخارجية بالملاط المحروق ذي اللون الترابي، وإغلاق نوافذ الشمس، ليضفي ذلك على الغرفة لوناً جديداً. وعندما

انتهت من أعمال الترميم والطلاء انتظرت، قبل ان تودع فيها المخزون الفائض، انتظرت أياماً كي تألف العين الغرفة الجديدة.

وكان في الفجر ان استيقظت وزنة على صوت مناد مجهول، آت من جهة العلوة او من جهة أخرى لم تحددها. استدارت برأسها في وسط الحوش، لعلها تعين غرض المنادي الغامض، وإذ فترت همتها واندهشت لانبلاج الفجر بسرعة عادت الى رشدها وعرفت أن ذلك كان من وسواس الشيخوخة والوحدة. كانت الشمس تبزغ على باب الغرفة المتين، وعلى جدرانها المحروقة، فلم تُدِرْ بالاً الى طبيعة الباب الغريبة. حاولت ان تفتحه لترى ضياء الفجر داخل الغرفة، فجذبته من قبضته الحديدية بقوة، ولما استعصى على الفتح راحت تضغط بقدميها على الحائط، متعلقة بقبضة الباب الذي تماسك رويداً رويداً مع أطر المدخل والعتبة. وتساءلت ما إذا كان حامد الزغير لم يحسن تركيب الباب أو أنه نسيه مغلقاً بالرتاج، غير أنها تذكرت مرات دخولها الى غرفة المؤونة بعد تركيبه وبعد ذهاب حامد. وحين همّت في محاولة أخيرة لفتحه، خرجت قبضته مع يدها، فجعلتها تنقذف مقعية الى الوراء.

وأخبرت عايد بما جرى، فأشار أن الباب الذي ارادت فتحه بجهة معاكسة، لن ينفتح بهذه الطريقة، كان عليها ان تدفعه الى الأمام، دفعة خفيفة حتى ينفتح. ثم قام عايد من مكانه واتجه الى حيث الباب فرآه باهت اللون لا يختلف عن لون جدرانه، متشبثاً بملاط الحائط وبعتبته. قال ضاحكاً، قبل ان يقترب منه: كان عليك أن تأخذي الإذن من الهيلوان. أشار عايد أن تدفع الباب بهدوء، هكذا ـ فمر امامه سحر الاغنية الصامت: تتفتل على الهيلوان هيلوان الشكشكان ـ وقال عايد: هيكذان يا وزنة. لكن الباب كان صلبا أصم. فعاد قليلاً الى الخلف ثم اندفع برفق الى الأمام وقد أخفى دهشته. فدفعه مثل: هكذا .. وهكذا. فلم ينفتح الباب. قال عايد وقد جمدت الدماء في عروقه: اعوذ بالله، ما به الماخوذ ما ينفتح؟ فضربه بقوة، اندفع نحوه كريح عاتية فارتطم صوته: بم. ثم ايضا: بم! فلم ينفتح البـاب. في اليوم التالي، بعد ان منعته وزنة من هدم غرفة المؤونة بالمسحاة والمعول، قالت عمة عبد الله، عطشة الذياب، التي جاءت الى دار وزنة حين أخبرتها خود، قالت: وقفوا يا جماعة، عايد آبالك .. ترى الباب إنرصد يا عايد، الباب مرصود، ما تشوف لونه أخذ لون الحائط، الباب انرصد وتحول من مكانه، هذا اللي تدفعه حايط ما هو باب، وما يعرفه غير الهيلوان.

فامتطى ظهر الهيلوان كي يمر بهدوء من خلال الباب.

كان الاسطبل القديم، بيت المؤونة، خير مخبأ لحسن كما ظنت جدته وزنة الخضر. وكان بالنسبة لحسن غريبا موحشاً، أخذ حين دخل فيه ينبذ الأشكال والبنى من حياته، فاعتمد على الظلام، الصوت والصدى. ابعد عنه حواس

اللمس ...التجسد .. المعرفة .. وظن ان خير طريق يوصله الى جهة ما في هذه الظلمة الحالكة هو طريق الصوت والذاكرة. راح ينصت الى العالم الخارجي، والى أصواته المنداحة في الاسطبل. يرسم في خياله صور أصحابها، تعابيرهم ومقدار انفعالاتهم. كان يهجس ان صوت دبيب جدته وزنة في الغرفة الأخرى ينم عن ارتياحها وسرورها، لا يخالجها ريب او شك. الهدوء ينبعث من حركتها، بانتقالها عبر الحوش والمطبخ الى الباب المطل على الدرب المليء بالحفر الصاعة الى العلوة. أما خربة غزالة النجم، فكانت محنة نهاية الليل، خالية من الحياة، جامدة، تعكس سراب العالم الآخر.

داخل معلف الهيلون تضخمت ظنون حسن. راح يتذكر الحوادث التي ظن أنه نسيها – تذكر يوم الفيضان وكيف كسر أخوه السدة، ثم عجز الناس تحت ظلم عسكر العصملي، وتخيل قوافل الرجال المساقين إلى تركيا وقد ضاعت تحت ظلام الليل، ثم تذكر أخاه جاسر يلعب الصميمة ويسمعه يبكي.. لعبة الصميمة ثقيلة عليه ـ صميمة الصميمة، على النبي صلينا ـ صاح في وجهه فواز ابن رداد الزغير: ايش بك .. اللعبة لك، يللا يا جاسر. ولا يقدر جاسر على القفز فوق ظهر ابن رداد الزغير، يمتعظ قائلا: انت ظهرك عال .. ما أقدر ...فيقول فواز، اذن على أمك يا جاسر ياللا إركع. ولما أكمل رجال عبد الله بناء السدة، كان جاسر قريباً من أخيه محمد الصريع الذي رفع الحجر الأخير على سطح السدة. وكيف كان يبكي. خشي ان أخاه قد مسته جنية النهر، حربّة النجم، هكذا قال، فخارت قواه من الرعب، وتمنى لو ان خاله عايد الخضر يهبط على فرسه من السماء او من السطح .. تمنى أن يسمع صوته يصيح، أنا أخو هدّله. وسمع من بعيد أولادا يلعبون الصميمة، تأتيه الأصوات واضحة وتقترب منه كأنها أمامه:

صميمة الصميمة   على النبي صلينا
صلينا ما بطينا   صلينا على الهيلوان
هيلوان الشكشكان   شكشكان البكارة
تتفتل على الهيلوان

ميز حسن الأصوات وترانيمها. فعلى أرض العلوة تنادي نجود العلي أختها هند: يا هند خفي رجلك وانزلي أملي من النهر. فيرد حسن، من مربطه خلف معلف الهيلوان: عدّلي حمل الدابة يا نجود وإني انزل. واهناً لا يصل الى مسامعها: عدّلي حمل الدابة يا نجود.

يصل الصوت عندما تغيب الشمس، ويسمع حسن أصوات الذين يتبعون القطيع:... رنين أجراس في أعناق خراف وحشرجة موت في مسلخ ... وحسن يسمع ان العالم سوف يندثر. فترفع نجود العلي عقيرتها: تعالي راح تغيب

الشمس .. ليش تبطئين؟ ثم تدمدم: وراء شجرة زايد .. ايش تسوّين يا هند، عجبي!

وتذكر الأيام الماضية: كان وجه فاطمة يرتفع فوق الجدار الفاصل بينهما، أجابها حسن، من وسط الحوش حين سألته عن محمد: لسه يا فاطمة، تراه ما قعد .. ما زال نائماً. مازال أخوه نائماً، منذ وقوعه عصر الجمعة الماضية. لسة يا فاطمة. فانزلقت عن المسند الذي رفع رأسها فوق الجدار، وسمع صوت ارتطام جسدها، الأرض القاسية، الصوت صوت إرتطام طبل.

وراء معلف الحصان، في الزاوية اليمنى، كان حسن مضطجعاً، لا يغادر المكان إلا بتحرز، الغرفة ظلام..العالم الخارجي ينتظره ليسوقه (نظام) الى الحرب. وتلك الأصوات ما زالت تتصاعد من بيوت أخرى، تبين ان أحد الشباب قد ساقه عسكر السلطان بعد قبضهم عليه مختبئاً في مكان ما. كان يسمع بمرارة، ما يصل الى أذنيه، غناء زخم الرجال المساقين تجاه اليمين:

ما دام الطوب والكلّة بأثرنا يا أهلنا ما لكم بنا رجا.

لكن وزنة تعود لتطمئنه، انهم لن يعثروا عليه، فهو في مخبأ آمن، وكانت جدته قد لاحظت كيف راح ينفر من الطعام، فأوضحت له ان ابنها عايد لن يتأخر وسيأخذه بعيداً عن البلدة، بعيدا عن قلاقلها. وكان لسبب يجهله، يربط مصيره بمصير ابن دلة الغانم، خليل الساير، وذلك طيلة أيام سباته الستة عشر، يسأل وزنه عنه كل يوم بل كل مرة تحمل إليه الطعام والرجاء.
تقول له وزنة، إن ابن الساير في أمن واطمئنان، البارحة خَبِرت هدّله من خود ان مخبأه لا يطأه أحد سواها، وأعين العسكر بعيدة عنهم وغير منتبهة اليهم، يظنون ان خليل الساير خارج البلدة، تماماً كما هو شأنك: فأنت (هسّع) بنظرهم مع عايد الخضر، فوق حصان الهيلوان، وأضافت ان غرفة الاسطبل المرصودة تجعلهم غافلين، وهم على كل حال لن يستطيعوا الدخول من بابها. لكن حسن يرد عليها موكداً ان المرء اذا أغمض عينيه واحنى قامته فانه سيرى المدخل الحقيقي للاسطبل، دون محاولة لركوب الهيلوان. وعسكر السلطان كلهم عميان يا وزنة، ما تنفتح عينهم زين تحت شمسنا، يشوفون، يقدرون ان يروا باب الاسطبل.

وبين لحظة وأخرى يتوهم ان عايد قد اقترب منهم، فوق ظهر حصانه، لا يبعد كثيراً، فهو على وشك الوصول، ان لم يصل في بداية الليل فإنه سيصل حتماً في نهايته، قبل الفجر، وظن ان صوت جري الحصان مسموع واضح.

يلصق صِوان أذنه الى الحائط ويغمض عينيه، يزيد رهافة سمعه فيكتم أنفاسه، ويبقى ساكناً يترصد، لا تهزه الضربات يولدها صدره النازع.
وكانت جدته وزنة خائفة فزعة ان استمرت حالته كذلك، فتتقصد دخول الاسطبل كي تخرجه من شروده. ومرة قال لها حين دخلت عليه: انت يا وزنة سَكّري عيونك ترتاحين. فعرفت ان حفيدها مستغرق بعمق، لن يرده غير منظر الأفق الذي يمده النهار في السهوب الواسعة. وتمنت ان تجد الطريق الى ابنها عايد حتى يجيء بأسرع وقت فينقذه من الحال التي وصل اليها. ذهبت الى عبد الله وشرحت له ضرورة إخبار عايد اليوم لا غداً، لقد تأخر في رحلته هذه أكثر من المعتاد، فرحيله الى المفازة لم يكن يطول كما طال الآن، حتى إن أحداً من رجاله لم يأت ليقول لهم إن عايد اجتاز الحدود وتغلغل في العمق .. قال لها عبد الله، إنه سأل عنه، وكل الذين سألهم أكدوا له انهم لم يروه منذ مدة طويلة.

وكبر قلقها، أصبحت تخشى الأيام القادمة بل الساعات والدقائق. صار الزمن ثقيلاً كحجر صفوان، رطباً كقاع بئر. وارتجفت من هذيانها بصورة عسكر السلطان الذين سيدخلون البيت ويقوضون أساسه بحثاً عن حسن، وشعرت بهم من بعيد. اما حسن فكان يزيد التنصت حتى انه قال إن عايد مرّ مع جماعته من جانب الرحبة، لم يدخلوا البلدة، كانوا في طريقهم الى حاجم بن مهيد الذي كان ينتظر رسالة من مكة.

ظهر اليوم الآخر، بينما كان حسن يرهف من مكانه، أحس برجع الصدى لهمسات راحت تتبع كُدريّه، بينما كانت تحمل الغداء بدلاً من خود الى خليل في زاوية البستان. كان يسمع صوت الهمس المكتوم خلفها، فأراد حسن ان يقول بكل طاقة صوته، لينبه كُدريّه. في نفسه قال: هم وراءك إحذري. في نفسه هز شجرة الرمان في بستان الساير فسقطت ثمرة كبيرة جانبها. ولم تنتبه كُدريّه، ظلت متجهة الى زاوية البستان. ورغم ان خود قالت لها صباح اليوم: إحذري وأنت تأخذين الطعام الى خليل لا يصيدك أحد يا كُدريّه. لكنها ظلت متجهة الى خليل متجاهلة من يتعقبها. وظن انها تحلم، فلم تنتبه الى سقوط الثمرة، هز الشجرة فلم توقظ المرأة. كان منظرها من الخلف مثل رجل عريض المنكبين، غزير الشعر، انها تحلم، فقرصت جديلتها بأصبعيها وضحكت بقوة.

وكان خليل ينتظرها بشوق، لمح طيفها المشع بين جذعان شجر الرمان والغرب والحور الطويلة، كانت كملاك داخل الرواق الممتد الى الدرب

الطويل، تعكس من ثناياها جمال الموت، قال لها: هدّيتي حيلي! فطوقته وجعلته يندس في صدرها الفرط.

وسألها، بعد ان هدأ، فأوضحت له ان ما كان يسمعه في العتمة وما كان يراه من نظرات مستغرقة بينها وبين صالح الساير، ليست سوى ظنون. ولم تكن لتتصور ان الشكوك ستصل به يوماً الى ذلك الحد. وتذكرت انه استنزف آخر روح له خلف شجرة النخيل في بستان عبد الله، ذلك حين استند بخوف الى جسدها المرتعش.

لم يدم الأمر طويلاً، في المساء طوق رجال السلطان بيت صالح الساير، وأخذوه أمامهم الى مخبأ ابنه خليل، وقبل ان يخرج من فناء الحوش صرخت زوجته دلة الغانم، فملأ صوتها الجوبة ثم صعد الى العلوة، وتسلق بغصة جدران المئذنة فسمع حسن: ول اهرب.. يا بني .. يا خل لي لي لي ليل.

6

يرتجف من الرعب داخل الصندوق المغلق.

ما دام الطـوب والكلّـة بأثرنـا يا هلنـا ما لكم بينـا رجا.

.. .. ..

داخل معلف الهيلوان، داخل العالم المغلق. يتوارى في الأمكنة الباردة. الطنين يئز في مسامعه: من كان ومن سيكون رماد يصعد إلى السماء. أبراج مداخن الفحم الناري تملأ السفوح.
تراءى أمامه السرجان جاسر يطوق الكلونيل ومعاونيه، ويحيي علم البلاد وهو يُرفع فوق اسطحة الثكنة الغربية ..العالم يدفعه كي يغوص في قرار عميق. تراءى له ان المعلف بئر حقيقية تصل إلى عمق الأرض السابعة لقلعة الرحبة، أرض الجن والنار، غاص مع الذين يغوصون.
واستيقظ.

نهض من القرار. لقد خف الصدى وتلاشى. شيء ما يستريح تحت الماء. هدوء يسبق العاصفة. عاصفة قادمة. دلة الغانم- اهرب يا خليل!! تقودهم، تخب أمامهم كعجوز ماج، لسانها الأرقط يندلق من فمها المثغور، فيسيح على صدرها الأعجف. كان العالم يتوسع ويضج، فارتطم في أذنه صوت تشظي الباب الخشبي، وكزّ على نفسه يقول: جاؤوا يا هدّله!! أمامهم (حربّة) الغانم، تخبو كحصان أو بغل. صاحت بصوت أصفر: ورائي أدلكم عالباب. تحبو أمامهم عل أربع، وكانت دفقة من الهواء قد قلبت ثوبها إلى أعلى رأسها، فانكشف لرجال السلطان الثلاثة عظام ساقيها ورأوا بدهشة الثقوب العديدة في حوضها الخشبي. ظلت تتقدم وتحجل على ركبتيها، وتعلقت وزنة بخيط من

روحها لما رأتها تتجه بدهاء إلى الباب المخفي، فعرفت أن سر الأسطبل قد ذاعته خود. وبتثاقل فتحت الباب فانفجر المكان بضياء الشمس، وسمع حسن صوتها يئز في أذنيه: ها ها ها .. انت زاد تروح، مه بس خليل .. هع هع هع.

نامت العلوة ليلتها حزينة على قصة دلة وفعلها الشائن بحق بيت عبد الله. واعتبرت خود نفسها مسؤولة عن الذي جرى، فكانت تنعزل في زاوية المطبخ أو في طرف الحوش، بعيدة عن الأنظار، تبكي بحرقة مليئة بمشاعر الذنب. وكانت هدّله كلما تراها شاحبة دامعة توكد لها إن دلة هي السبب، لماذا لم تقم زوجة رداد مثلاً بإخبارهم؟ مع أن ابنيها ذهبا إلى النظام. إن دلة تكرههم منذ زمن وقد قامت بخبث في استجرارها بالكلام عن مخبأ حسن. غير أن دلة أعترفت بذنبها بعد يومين وأمام هدّله، قالت لها بأسى: ما أدري من اللي تلبسني يا هدّله، كنت من دون وعي، يا هدّله تصدقين او ما تصدقين دلة وقتها ما كانت دلة.

ولم تمض ساعات حتى فكرت دلة ان أخاها رافع الغانم سيحل مصيبتهم وسيزيل كربها. قالت لكُدريّـه: روحي إلى هدّله، لزوم نشوف حال لرجعتهم، وإني أبعث طارش إلى خاله رافع، ضروري يجي.

وجاء رافع على فرس شعلة. كان ممتلئاً، وجهه مستديرة وعيناه سوداوان، يتبند بندقيته العصملية وسيف الكردة. وصل الجوبة بعد أيام من رحيل ابن أخته خليل إلى سفر برلك. واتجه إلى مخدع أخته تحت أظلة الرواق.

كانت نائمة شاحبة ترمق عمود الرواق بخواء، فرفع عنها الغطاء، ومسد بيده شعرها المنثور، قال لها: دليّل، يا دا دليّل تراني هين. وقبل ظهيرة ذلك اليوم، أسرج رافع الغانم فرسه ومعه عبد الله الرحبي على حصانه الأشهب، تزودا بالتمر وقمر الدين وقربتي ماء وبالخبز ثم انطلقا تجاه (قشلة) الدير، فعلموا منها أن قوافل المشاة سارت منذ يومين تجاه عينتاب، مركز التجمع، فأمضيا ليلتهم عند مهيدي أخي هدّله، وفي الفجر تابعا الطريق صعوداً بموازاة النهر.
وأدركا قافلة المشاة في مساء اليوم التالي، كانت مخيمة جانب قرية القصبي، قرب النهر وتحت مرتفعات حصن حلبية، لتتابع مسيرها بعد استراحة الليل. وكان عليهما أن يتعقبا القافلة عن بعد، على مدى سبعة أيام، إلى أن تصل قشلة عينتاب، حيث تفرز الكائنات على الفيالق والسرايا، لتسير إلى الشمال والجنوب، إلى صربيا والمضايق.

كانت عينتاب خان تجمع وانتظار، ممتلئة بالترقب والترصد، بصخب الأقدام المترددة، الباعة الجوالين، الحريق والدخان. وصلا اليها وانتظرا حتى دخلت القافلة إلى سجن القشلة. بدت المدينة ولوهلة نائمة في قيلولتها الأخيرة. فبحثا عن ملجأ آمن. وكان هناك بستان قبالة القشلة، أشار عبد الله إليه بوهن: كأنه بستاننا يا رافع! فأجابه: ترتاح يا أبو محمد بالبستان لحين أشوف قصتي مع الأولاد.

البستان يحمل الكرمة وأشجار الكرز والزيتون، وقد غمرت الأشجار وجه عبد الله حين أراد ان يحد نهايته بعينيه الخائرتين. اقترب من بيت البستان وترجل عن حصانه الأشهب، ربطه بجذع شجرة، ثم تنحنح وحاول أن يرفع صوتـه: يا أهل البيت، أحـد هين. وجد أن صدره لا يتسع لهذه الكلمات الثقيلة، فاكتفى برفع يده حين لمح إحدى النسوة في فناء الدار. كانت شابة تفوح منها رائحة الحليب الطازج. بادرها بالسلام. فردت عليه. ثم أشارت له بالدخول، وسألته فلم يفهم منها، أومأ أن ابنه مسجون في القشلة، فسألته : أتحتاج إلى شراب؟

ولم يطل رافع الغانم غيابه، جاء إلى دار البستان بعد ساعة، كان عبد الله قد استرجع قواه، وعرف من غانم أن حارس السجن ذا القامة الطويلة، وعده سرّاً بإخراج أحد الولدين حين تأتي الفرصة، إذا أعطاه أربع نيرات ذهبية، وذلك قبل أن تفرز المجموعات إلى منـاطق القتال. واقترح رافع الغانم على عبد الله أن يقابل رئيس القشلة ليشرح وضع ولده الوحيد: يمكن الله يهديه ويفلّته.

وقابل عبد الله رئيس القشلة، بمساعدة الفتاة التي تمدهم بالحليب، شرح له تتبعه للقافلة من قرية القصبي حتى هنا، ومحاولاته في الطريق كي يعود مع ابنه إلى العلوة، بإعطاء مراقبي القافلة نيرات الذهب الخمسة الـتي يملكها. وقال أخيراً إن عودته دون ابنه سيفضل عليها الموت، فطمأنه رئيس القشلة، ووعده أن يرسل ابنه في أثره في فترة أسبوع أو اثنين .. واكتفى منه بثلاث نيرات ذهبية لبناء مسجد عينتاب.

*

عند طريق العودة طويل... كانت دلة تنتظر وكانت هدّله أيضا تنتظر.

قال له طويل القامة في الليل: هس هس! رفع سبابته: هس هس. كنمس يتسلل. فتح حارس السجن الباب لخليل: هس هس كوزلارم روح. فانحدر تجاه الشرق، وسار حتى ساعة البزوغ. مرّ بأقرب قرية واحتفن منها تمرا وقربة ماء. ثم ابتعد نحو التلال والمرتفعات، حاذى الظلام ونام منتظرا غياب الشمس. سيتابع مسيره مستدلاً بالنجوم وبغبرة كبش الخليل.

بحلول الليل وطلوع القمر. وكان بين فينة وأخرى يقارن بين هنا وهناك. لم يكن يدرك أن العالم هناك يختلف عن بقاع الأرض الأخرى.

في الجوبة بينه وبين صالح خطوتان، وبينه وبين دلة كذلك، وحتى كُدريّه غول نفسه، بينهما حاجز الخطوتين، ولولا علمه أنها ابنة نورا زوجة مواس لما اقترب منها يوم مرت جانب شجرة النخيل. فكر في ذلك وهو يمضي فوق تربة الأرض تجاه الظلال المتوارية عن حرس النظام. التربة أثناؤها جعلته يشعر أن العالم ما ينفك يتسع ويكبر. وسلّطت الأرض، في فضاء خال، أضواءً على جانب نفسه الخدرة، فأيقظتها للحظات، قدّر خوفه منها بالشهقة التي اعترته فجأة، وكادت أن تنتزع خطاف عقله. على حين غرة، اجتازته تيارات رطبة، تخللت نسجة الساخنة، فأدرك سذاجة الأشياء، الجوبة والعلوة وعينتاب.. كل الأمكنة بل كل العالم. دلة كانت ملتصقة به، صالح، كُدريّه. وفطن أن هذه المشاعر لا يدركها إلا عن طريق تحليقه في السماء، كطير تحرقه الرغبة في الابتعاد عن هذه الأرض، عن الجبال والوهاد.

حين اقترب المساء، راحت الأمكنة تتداخل دون ظلال، فيتابع خليل مسيره منحدراً إلى جانب بلدة (بيرجك)، استدل من أحد الرعاة: إنها تقترب من النهر، وتحتذي شواطيه. وتعيّن عليه أن يضع غمامة كبش الخليل، درب التبانة، في ظهره، ويتجه إلى مجموعة النجوم الأربع، التي تشبه ذلك الوجه الانساني الذي كان يشكله فيما مضى، حينما كان يستلقي على سطح داره ليالي الصيف. ولم يكن يجرؤ على الاقتراب من البلدة، بزغت أمامه على ضوء سحر، فتوارى عن حدودها خوفاً من عودته ثانية إلى قشلة عينتاب.

الشمس التي كانت تصعد في بداية النهار، بينما اختبأ في البساتين التي كانت بينه وبين بلدة بيرجك، ذكرته بصخب نهار البلدة. صخب النهار يعكس شالا أبيض، تنشره دلة باختيال في نور الشمس. العالم ضحى يتراجع إلى صورة فوق الحائط الذي يلف حوش الساير. وساءل نفسه حين رأى امرأة قادمة من بعيد: كُدريّه؟! لم يظن أن القادمة هي إحدى بنات أفكاره. تدخل بين الأشجار حذرة، تتلفت بين الخطوة والأخرى، وكأنها توارت خلف شجرة زيتون وهي تنظر إلى رجل يعتمر عمامة. وكان التعب قد أنهكه، فرأى أن ذا العمامة يُقْبل مبتسماً، ثم يختفي خلف شجرة زيتون أخرى. لم يتسن له أن يتابع بنظراته الواهنة.

أفاق على صوت يناديه من وراء شجرة بعيدة، شجرة مفردة لم يميزها. كانت الشمس تقرع رأسه ففتح عينيه إلى جهة الصوت. كان ذو العمامة يوقظه بلمسات من عصاه على رأسه الأشعث، يدمدم بكلمات لم يفهمها في البداية، والفتاة إلى جانبه، تنتظره بهدوء وسكينة. قال الرجل ببشاشة: أنت ابن عرب! ثم مال نحو الفتاة وقال لها: يما اعطه بسطيق وحليب يرتوي. ثم ناوله عصاة (المجناة) وقال: تحميك وتسندك، خذها.

أصبحت بلدة بيرجك خلفه، حينما ترك أحلامه، بقايا فتاة ورجل بعمامة. ومضى إلى مد البصر. كانت يده التي شدت مقبض المجناة بقوة، تجعله يزداد همة وعزماً. ودون توقف أو نوم.. الا لساعات قليلة، حتى دنا من جرابلس حيث ضفاف النهر، فاستلهم المكان، ولاحت المدينة أمامه، فأحس بالتوق والاندفاع، امتدت خطوته فكبرت همّته.
عبر وادي جرابلس، وهضاب الخطوط التالية. كل ذلك والشمس لم تغب عن يومها الأول، إذ أن النهار كان طويلاً، مليئاً بالليل وبفترات النوم ثم اليقظة، فقرر أن يقضي بعضاً من الوقت عند مصب نهر الساجور، ليستأنف رحلته حين تنكشف الدنيا في اليوم التالي.

ظلت أمام خليل مسافة طويلة، وتغيرت طبيعة الأرض، اختلف ثراها، أصبح ابيض متماسكاً. والسماء الناصعة تربط شمسه، أدرك خليل بالتتالي الشروق والغروب،لم يأبه بالنجوم، تمكن بقوة وإرادة من المكان.
تابع جريه، تنحى قليلاً عن النهر الذي سينعطف نحو الشرق. تضاءل الطريق أمامه مشكلاً في فسحته المترامية مفازات متتابعة.
هذه الأرض الفضية، واسعة الأفق واضحة المعالم، تبدو فيها أركان العالم قائمة بلا مواربة. صادقة مع النفس جريئة، يشدها الحنو إلى الخلف، فتستحضر أناسها وأبطالها، ولا تنسى. واقفة بصمت تردد ايماء الحياة: مرّ من هنا، يمر من هنا، سيمر من هنا، فيكون هنا.
خليل الساير هده الطريق، جذب عقله واضنى جسده. ولم ينه نصف المسافة بعد، فما زال أمامه الكثير. أحس أن أقدامه تنز وتتورم، حتى أن ساقي بنطاله العصملي أخذت بدورها تتمدد وتتلوى، تنحصر تحت ثقل العظام وتنخنق من اللحم المنتبج. كان يطوق العصا فتمنحه أحاسيس الأمان. وسأل روحه حين تراءى له ثلاثة أشباح يتحركون على صدر الأفق، بين اللهاث والآنات المتخفية: هذوك سراب يتحرك؟! كانوا يطوفون بين الشمس والسراب، يغيبون تارة ويظهرون أخرى. وأغمض عينيه ليزيل عنهما الكرب. ظن أنهم حكاية ضالة؟ لكنه رآهم الآن حقيقة، صارت قوافلهم تقترب منه، ربما عربان في طريقهم إلى أراضي الزور، إلى مريبط؟ يحاول الانحراف عن طريقهم، والغياب خلف التلة التي على يساره، تلة تبعده عنهم إن كان طريقهم إلى الزور، وكانوا قادمين من مراعي الحبارى والقطا. ولكنهم انحرفوا معه، رفعوا عليه راية الوقوف، كأنهم يقصدونه بالذات، ومظهرهم الملتبس لم يرحه. ومن بعيد صهلوا فيه: وقف أنت يا هين. كانوا ثلاثة رجال ملثمين على عجل، فوق حمير شهرية بيضاء منتصبة، يحملون سيوفا سيئة ومجناة، صاحه أحدهم: وقف انت؟ فأجابه خليل، يغرق في عرق ولهاث مرتعب: إني إني ، ايد .. هذا .. طريقي. فرد عليه احدهم: يا ول .. ما عندنا وقت إعجل، طالع

اللي عندك. ياللا طالع رشادياتك يا نغل .. هاتهم ياللا. وقال الثالث بصلف: شنهو هذي العصا يا ولد.. عصا موسى بها قريشات .. طالعهم والا نطالع روحك؟! فنظر اليهم متوسلاً، قال: والله ما عندي شيء .. تعالوا فتشوا. فردوا عليه: اذبحوه ياللا، واذا ما عندك شيء نذبحك وحق النبي. من عينتاب تراني جيت، سفر برلك .. والنبي ما عندي شيء. فأشار أحدهم: حدروا عليه. فقال لهم خائفا : اها .. اها .. ما بي عندي شيء. قال ذلك ثم رمى سترته المتعرقة، وناولها لهم، وفتح ذراعيه وربت على صدره وخصره وأردف: ما بي شيء، تعالوا فتشوا .. وحق النبي. فتفقد أولهم جيوب سترته ثم استعرضها أمامه ليرتديها، ثم راح يزدرد حبات التمر التي وجدها في جيبها. كما أخذ الثاني يتلمس جسد خليل، لعله خبأ شيئاً ما تحت ملابسه، ما بين فخذيه وتحت إبطيه. وقال الثالث بتجهم حين لم يجد الثاني شيئاً: ها... ولد اللي فعلها .. أكيد بالع نيرات الذهب. فعرف خليل مصيره المحتوم. تراجع إلى الخلف مدمدماً: والله .. ما عد .. ما عندي .. ول اني انهزمت من القشلة .. اني. ومرت أمامه قصص من قضوا نحبهم في أسفارهم ورحلاتهم، على أيدي قطاع الطرق الذين يظنون حين يعثرون على جماعة لا تحمل النقود، أن الرجال قد ابتلعوا نيرات الذهب قبل بدء الرحلة خشية السرقة، فكانوا يبقرون بطونهم لإخراج القطع الذهبية منها.

وأراد ان يتذكر صوت دلة، أهرب يا خليل .. ليل .. ليل، يتذكر سرايا أبيه، هواشة الساير، ملامح الرجال والنساء، الرجل مديد القامة الذي قال له في لجة الظلام، هس.. كوزلارم.. روح، يتذكر الليل والنهار، والصحارى التي قطعها دون توقف، الانهاك الجاثم على منكبيه، أقدامه المتورمة.

ونظر إلى السماء، وقد تعلقت روحه في قبتها، وتهامست دخيلته المحتضرة مع روحه المتأرجحة من سماء إلى سماء: هذا خليل راح ينذبح .. مسكين وحده. فضحكت روحه، هزأت منه، وشعر أنها شيطان كانت تسكنه على مضض كل سني حياته. ولهنيهات توثبت روحه، عندما رفع أحدهم السيف، لكي تطير وتغيب عن أنظاره، روحه الصفراء المذهبة ستتوارى عنه قاطعة الوشيجة الأولى. ولم يستطع أن يمسكها، أن يجعلها تعود وترجع إلى مخدعها سوى ذلك الجرم القادم من بعيد. لعل الجرم مجرة؟ سواه لم يكن. كانت عينا خليل مغلقتين، وجسده غائباً حين سمع صوته المدوّي في عمق البادية: هلّيل يا ول .. يا ول هلّيل: وقفوا فو فو. وسمع ايضاً حوافر الحصان تدك الصحارى: دب دب دب دب. وصوت الصهيل عند التوقف: ابعدوا عنه. ففتح عينيه كي يراه، كما الحلم، متيناً مثل برج، وصوت الصهيل عند التوقف، ابعدوا عنه، هليل هليل، ابعدوا، دب دب دب، وحوافر الحصان تدك الصحارى، يسيل منه الحمأ والسراب، على حصان أسمر متّقد: خلوه يا عجيان .. امضوا ياللا.

عندما راحوا في طريقهم، دنا منه، سأله: من أنت؟ فأجابه خليل. ثم قال له: ايه جاء بك إلى هذه الديار، أتراك مهزوماً؟ فيما بعد عرف خليل أن اسمه "كاتل السبع"، وقد التقى عايد الخضر ابا دنيا في مضارب ابن مهيد. ثم طلب منه أن يتقي شر الطريق، فتابع خليل خببا بينما امتلأت عيناه بوجه كُدريّه الضاحك الفرح، وانطفأ الحقد الذي تشكل في صدره منذ زمن، ضد صالح، رغم إصرار كُدريّه ان الأمر لم يكن كما ظن. كانت الجوبة تنتظره. المسافة التي قطعها، يجتازها المرء في أيام وأسابيع، وكانت الطريق العامة بعيدة عنه، طريق القوافل والتجارة إلى الاستانة، لا يراها ولا تراه. وفي مساء اليوم التالي لاحت أمامه رصافة ابن هشام، مهجورة خالية، دون أمير، تنتظره بصمت وسكينة، فدخل في فتحة سورها المنهدم، وصعد إلى أعلى السور، وعن طريق الدرج المشظى، مر بالنوافذ، بفوهات النبّالة والدفاع، تابع إلى أعلى السور المتداعي ثم هبط إلى مصطبة عريضة، كان وقف عندها يوماً ما قواد الدفاع والجنود، هناك ألقى جسده، دونما أحلام او ذكرى، نام تحت وجه القمر.

في اليوم الآخر سلك طريقاً يحاذي النهر ويشرف عليه، تخلى عن الهضاب والوديان، عن لقاء الجبال ومفازة الوحوش. ظل يحجل بلهاث، ومال إلى الشرق قليلاً عندما التقى بسفوح جبل بشرى، وحين أشرف على قرية القصبي المنخفضة، رآها، كانت جانب النهر، رأى سفينة عارضة، تريد العوم، ليست غريبة عنه، اتجه اليها غير عابئ بما سيواجهه من وشاية، الوقوع في فخ رصد لأمثاله. كان يقترب منهم بفرحة، وإذا صدق ظنه، فأصواتهم لها نبرة مألوفة، حناجرهم جهوره تصيح فيرقص لها قلبه. ولأنها وصلت إلى مسامعه كاملة، لا نقصان في حروفها، صاح بما يملك من طاقة: هين، يا ناس .. هجان الغانم يا خالي. من الطرف الآخر كان يصيح أحدهم، من الطرف الآخر على ظهر السفينة، كان يصيح: نعوم يا ابن غانم .. نعوم يا هجان. كاملة دون نقصان. فصات وشارة يده تلعلع في الهواء: إني خليل يا خالي .. تراكم .. خذوني معاكم.

رفعوه إلى السفينة معهم. كانت آتية بتجارة الشمال، تحمل الأقمشة القطنية والنّيلة لتنحدر معها إلى الزور الأدنى، مروراً بالدير والبوكمال، في طريقها إلى العراق. كان أخو دلة هجان الغانم، أحد أصحابها الثلاثة في هذه السفينة، ابتاعوها بعد حل شركة الهند الشرقية. وكان اذا ما مر من الجوبة يرسو مع طاقم السفينة أسفل البستان لساعات، يتبادلان ما يحتاجونه للطريق مع أهل البلدة، ولكي يتملى وجه أخته الذي كاد أن ينساه.

7

قبل أن تدخل العلوة، وأنت تعوم في النهر، ستنحرف مع المياه إلى الغرب، فتطل على العلوة الواقعة جانب الضفة اليمنى، وسترى النهر الذي ينعرج جنوبا ماراً بالبلدة. ولدقائق تنسى فيها العوم، تظن نفسك واقفاً على الضفة اليسرى تحدق إلى الضفة الثانية، إلى العلوة والجوبة. ثم ترى سفوحها الشمالية الغربية تميل حتى تصل البطاح التي تفصل البلدة عن قلعة الرحبة. وقد كان النهر في الزمن الأول لا ينعرج جهة الجنوب، يتابع انحرافه الغربي إلى الجدران الجنوبية لجبل قلعة الرحبة. وللحظات تشعر أنك ترى العلوة من الخلف، من الغرب، حتى تستدير مع المياه إلى الجنوب لترسو بعد قليل في جرف السابر تحت البستان.

وصل خليل إلى بيت دلة، وصل سراً وكان الوقت عصراً. لقد أبحروا صباحا من الدير بعد أن باتوا هناك لقضاء أعمالهم. وكان خليل عندها غائباً في النوم تحت مظلة السفينة في الهواء الطلق، ورمت الدير أضواءً شاحبة عليه، لوحت جسده نفح هواء يرسله أهلها كل ليلة كأدعية من نوافذهم العالية، أدعية استنجاد إلى خضر الياس. وقد تحركت سفينتهم عندما انتهى هجان من جمع أمواله المستدانة من الرحلة الماضية.

وما أن خبرت هدّله بوصول خليل السابر حتى انتفض جسدها، وحفزت تظن أن حسن مختبئ وراء الباب للمفاجأة. لكن هند العلي التي نقلت لها النبأ أكدت أن حسن ليس على ظهر السفينة الراسية، كان خليل وحيداً دون حسن الرحبي. وقد قال خليل، إن رئيس القشلة الذي وعد عبد الله بإخلاء سبيل ابنه، لم يُر طيلة الأسبوع الأخير في عينتاب، سمع بعضهم يقول، إن رئيس القشلة متغيب في الاستانة لأمر هام. فأوضح عبد الله أن حسن سوف يخلى سبيله اليوم أو غداً، حالما يعود رئيس القشلة، لقد وعد أن ابنه سيخرج في أقرب فرصة.

مضى شهر على ذلك، ومن المفروض أن يكون حسن قد عاد الآن، هذا اذا كان الأمر يعود إلى رئيس القشلة. فالمدة كافية لعودة حسن الرحبي. ثم من غير المعقول أن يتغيب رئيس القشلة كل هذه الفترة، كذلك فإن جنود ورجال

النظام كانوا يوشكون مغادرة عينتاب إلى جهة الحرب، في أقرب فرصة كما قال خليل، وهذا يعني أن قشلة عينتاب فارغة الآن من الجنود. ولم تكن هدّله لتهدأ لولا الثقة التي كانت تقرأها في وجه عبد الله أبي محمد. كان يقول لها، إن رئيس القشلة حتى لو تحرك رجال النظام من عينتاب فإنه لن يدع ولدهم يذهب معهم، سيرسله إلى هنا بأي طريقة، غير أن الأمر يتطلب قليلاً من الصبر.

ثم الأخبار التي وصلتها ابان الأيام التالية، أفقدتها الأمل. كانت تأمل كلما تطلع الشمس وكلما تغيب، وتتخيل أن حسن في طريقه إلى العلوة، في طريقه إلى الحارات والدروب، سيصل بعد قليل ليقرع الباب الذي ينتظره. ستسمع خطوات ابنها عند الباب. لقد جاء حسن يا هدّله. لكن الحدث الذي هز هدّله فأفقدها الأمل، كان مرور الأسطول العثماني في النهر، أربع سفن محملة بالجنود والأسلحة، متجهاً الى الحلة لدحر الانكليز، ولدعم القوات العثمانية في مدينة كوت العمارة. وفي إحدى السفن التي رست لساعات عند ضفة النهر، وجد عبد الله الرحبي معرفته القديمة حامد العبد الذي أخبره أن ابنه حسن كان مع الذين توجهوا إلى الشمال، إلى صربيا، شاهده في تجمع اضنه، في القافلة العربية المتأخرة يومين عن القوافل الأخرى.

هدّله الخضر التي أصابها اليأس والغثيان عقب مضي الأسطول العثماني، وما سمعته عن ابنها. قررت أن تغادر العلوة. وإذا كان أحد لا يوافقها على ذلك، فإنها ستمضي مع ابنها جاسر. لن تحتمل كل هذي المصائب. أراد أخوها عايد أن يهدئ من روعها ويطمئنها، فطرح عليها أنه سيذهب بنفسه إلى مكدونيا، للبحث عن حسن والعودة به، لكنها كانت تستعر وتغلي، كانت العلوة وسفحها الممتد إلى الضفة وباتجاه لسان الهواشة، شبح رعب لا يتوانى في الوقوف أمام هدّله ليؤكد لها: محمد راح، وحسن راح، وباكر يا هدّله الدورة على جاسر. وحين ألحّ عليها عايد الخضر البقاء، قالت له وعيناها تغرقان بدموع خائفة: إنّي يا أخوي ما أظل... ما أظل طالما "حربّة النجم" جوّاي عند الهواشة تتنفس. فأدرك عايد أن الأمر أكبر مما قدر.

8

خفقت قلوب الثلاثة وهم يغادرون العلوة. وشيئاً فشيئاً راحت أعماقهم تترح الى المكان الذي تركوه. وحين غابت العلوة وراءهم، برز العالم الساكن فيهم، عالم الزمن الماضي، راحوا يحدّون من نماء حنينهم، ويشدّون على نواجذهم. وكانت النظرات العتوم التي تنتقل بينهم تعرض عدم الرغبة في الإفصاح عن الوطان والحنين.
اقتفوا أثر العربات والقوافل، وكانت العربة التي تنقلهم، تئن تحت وطأة الكباد الذي أصاب راكبيها. تدور العجلات ببطء وعجز، حوذيها يترهل في كرسيه، ينود في الطريق الممتدة. وقدر جاسر الرحبي أن العالم الجديد الذي سيصله، عالم بعيد، لا يقدر على ملاقاته. سيركض في طريقه اليه، يمد خطواته تجاهه: من يملك ذلك العالم الملقى على بسيطة الضفة؟ - فبعد الزمن الذي امتلكه في سنوات الطفولة / ولسنين طويلة قادمة / يمد خطواته ويفتح رحاب صدره لهم، لكنهم، على بعد قليل منه يغولونه في دوامة الشارع، فيسمع من بعيد صوتاً يستحثه على المضي: أهرب يا جاسر. لعله صوتها، هدية السماء- مريم، ولو تأخر قليلاً لما كان بعدها. قدر أن العالم الذي يرحلون اليه عالم واسع، كل الأرض الباقية. وكان قريباً منه .. يبكيه، فنهره أبوه: يا ول تبكي مثل العجيان.. عيب، هذا أخوك ما به شيء، عيب دوخة بسيطة، صير مثل الرجال. فردد في نفسه، على ظهر العربة: إي مثل الرجال. غير أنه لا يحتمل ثقل فواز في لعبة الصميمة. يقول جاسر لعبد: نخّي شوية يا عبد. فيرد عليه فواز: اذا ما تقدر تنط يا جاسر، فنخّي انت. اللعبة على أمك:

بكـــارة بحـجـولـــــها جـولـني ما جــولها
حط الزعر فوق التـل جـت حمـيمـة تـتفتـل
تتفتـل عالهيلـوان

منذ الصباح وقبل أن يغادر العلوة، راح جاسر يتأمل الأمكنة، الأسيجة والدور. تمعن في الغرفة ورأى إلى أمه كيف ترتب وتنضد أثاثها، لتحتمل العزلة الطويلة، فأزاحت الصندوق الذي احتوى ذكريات زواجها وشبابها الى

وسط الغرفة. ورمت غطاءً أسود على وجه المرآه التي تذكّرها بوجه عبد الله أيام الشباب والفروسية. ووضعت حجارة النفتالين في تلة الفراش ثم جللته بجلالة خضراء.
اتجـه الى غرفة المؤونة، هذه الغرفة التي ستصبح، حين يعود بعد ثلاثين عاما غرفة سكنه وتأمله. تفحص حيطانها وأركانها. وهيج قلبه كي لا ينسى، تنسم رائحة الحوش المخمورة، كأن العالم ولد من جديد: غرفة القعدة وغرفة المؤونة والمطبخ .. نافذة السقف الوحيدة في غرفة القعدة .. الربيع، سهرات الصيف، الليالي، ومنظر النهر بعد الغداء، من المكان الذي هجست فيه هدّله مع ابنها محمد بدوامات النهر وبالضفة وبالأرض.

هند العلي، قبل ان يصعد الى العربة كانت عيناها الدامعتان، حين الوداع، راجفتين .

العربة تسير. هدّله وعبد الله- والى اليسار الجبل وعلائمه: مزار الشيخ أنس بن مالك، قلعة الرحبة، وسراب متلاشي لمزار العين، عين علي بن أبي طالب، والى اليمين ينهر الماء بانحدار الى العلوة.

وفي لحظة غفلة التفت جاسر، التفت الى يساره بشدة. كأنه أحس بظلال تتبعه. تذكر عيني هند، العربة لم تقف، وهدّله تنوس وتحترق. بقيت العربة على عجلات خشبية أربع.

وإذ رأى عبد الله أن الصمت لم يعد يطاق، على الدرب المسننة، قال: وكّلوا الله! فردت هدّله: نوكل الله. وراح الحوذي يقول: الأيام الجاية باذن الله أخيّر يا أبو محمد. ثم أردف: باكر يا أم محمد تشوفين الدير، راح تعجبك .. وما تتحركين منها بإذن الله. زينة وهواها يفيّح القلب، وهسع يقولون حاكمها "علي سواد باي" راح يسويها جنة. وغمز قائلاً: هو وفرحان ومهيدي مثل الأخوة. فنظرت الى عبد الله وقلبها يتلجلج، وفكرت في نفسها: بس ما يكون بها حربّة نجم أخرى، آني أترك العلوة لو ما حربّة النجم!
أما جاسر الذي لم يكن يأبه لخوف هدّله وهمومها، فقد أصابه البله مما هوس أنه يلاحقهم. اضطرب وهو يحاول إخفاء ما تخيل أنه قد رأى. لمح شبحا يتبعهم فوق الجبل - هذا الجبل الذي ترتفع معه اليابسة لتشكل بسيطة تمتد الى أراضي تدمر والشام، ولعل سفح الجبل الآن كان جرفاً لاسلاف النهر الحالي، وكانت تمر بمحاذاته المياه كي تحفره باستمرار، الى أن تراجعت جافة ناضبة الى النهر السليل- وخال جاسر أن التفاتة أخرى، بعد قطع مسافة قصيرة، لن يرى ما تخايله على الجبل. صبر لدقائق على صرير العجلات،

والتي لا تكاد تدور، الى أن ابتعدوا عن النهر. كان النهر يدور، لينتهي خلف الانحدارات التي قالوا عنها إن حية جفر السلطان أتت منها الى خلف أسوار البلدة، كي تبتلع من يذكّرها بالطوفان الذي حدث منذ أربعين عاماً، طوّف حينها البلاد وحمل الزور أشلاءً الى سفوح الهضاب البعيدة.

تخيل جاسر أن قلعة الرحبة تتبعهم، في المنطقة التي يقوم فيها الجبل على تلال مرتفعة، وهناك طرق غير سالكة، صعبة العبور. يستحيل أن تكون الرحبة، لا محال، إن كانت فستقع عليهم من فوق التلال. ليست هي – تابع أيها الحوذي- تابعي أيتها العربة- الحصانان، أمه هدّله، تابع أيها النهر، وإلى جانبه رؤى – أين عينا هند؟! فدق قلبه – قليل- جزع- سوف يقع في اللعبة، ما دفع جاسر الى سد أذنيه بباطن راحتيه، تقلص، رعب، انفجار، صميمة الصميمة، تدهده جبار، شظايا في الفضاء، ولن تدع لهم فرصة للنجاة، العربة صغيرة، عجلاتها واهية، وستنطوي في باطن الأرض، وسينطمرون بلمحة عين تحت طبقاتها السبع العملاقة. الرحبة تقع علينا يا أبي!!

بعد مضي وقت كاف لكي تحدث الكارثة، فتح جاسر عينيه واستدار برأسه الى التلال، فلم يجد أثراً للرحبة. عرف عندئذ، ان ما تهيأ له كان وهماً وعجزاً. وتساءل: كيف تتحرك الرحبة، كيف تتبعهم، هذا الطود العتيق؟

الأراضي التي تقطعها العربة خالية من البيوت، فهي حماد في طبيعتها. وقد ظل الجبل ينبطح، كلما تقدموا في عربتهم، حتى وصل الى المكان الذي التقى فيه مع اليابسة، ولم يعد المرء يميز في هذا المكان أثراً لجبل أو مرتفع. اقتربوا من بيوت سعلو، فقال الحوذي: هذي سعلو .. ما تكاد الأرض فيها تخلى بالليل من السعالي والجان، ما ينمشى فيها يا أبو محمد، هذه مفازة الليل. وانطلق يحكي قصص المسافرين الذين قطعوا أرض سعلو وما لقيهم من تدابير الجان والغيلان، كان يرى أن الطريقة الوحيدة للنجاة منهم قراءة المعوذات وذكر اسم الله، ذلك ما كان يفعله كلما مر فيها ليلاً، يقرأ الآيات التي تطرد كل خبيث.

وظن جاسر مرة أخرى أن طبقاتها السبع تتغلغل فيه، فانشدّ الى الخلف، ثم انشدّوا معه، عبد الله وهدّله، الحوذي والحصانان، في وقت واحد، في مكان واحد. انشدوا كالمجاذيب الى الخلف. سمعوا صوت الحفيف، فاستدارت العربة، وأصبحت وجهاً لوجه معها. أمامهم خيال شفيف لقلعة الرحبة بجدرانها واعمدتها. أفواههم مفتوحة، وعيونهم مشدوهة والسنتهم يابسة. ورفع الحصانان عرفيهما الى الأعلى، الى الأفق حيث قلعة الرحبة صامتة، تنظر اليهم. قال جاسر: يابا تراها الرحبة به به. امتدت يده الى جدرانها: يابا الرحبة.

لكن والده الذي استفاق من ذهوله قال له: يابا تراها سراب لا غير، اتركها، نمشي ياللا.

وصلوا بعد ساعات الى الدير، فاقترحت هدّله أن ينزلوا في بيت أخيها مهيدي ذي الغرفتين الكبيرتين. وكان مهيدي قد فتح فناء داره على حوش فرحان وغرفه السبع، ذلك بعد زواجه بزهية ابنة فرحان. ولم يوافق فرحان هدّله في اقتراحها، قدم لهم غرفة من غرفه ليسكنوها. قال فرحان: الدار واسعة اختاروا اللي يعجبكم منها. وكان جاسر في وسطهم يتطلع الى فرحان يدمدم ويقول: الرحبة .. يابا .. ما تسعها الدير كلها. فقال فرحان، كان مع الشمس، وعيناه الهام وأمل: بلى يا ولد تسع .. اذا ما وسعتها الدير، إني احطها بقلبي.

وسط الحوش بركة صغيرة، تـُغذى من البئر المحفورة في الزاوية. وبالقرب منها شجرة توت كبيرة. نهض جاسر الذي أرقه المكان الجديد مع الفجر، وجلس على حافة صحن البركة. ومن بين أوراق الشجرة وأغصانها، التمسته نسمة باردة اقشعر لها جسده، كما دغدغت ورقـة صفراء سقطت من غصن الشجرة رقبته، فارتجف بنشوة الصباح. وللحظات نسي أنها الدير، نسي أن هذه الغرف السبع تتنفس جميعها رائحة النوم والأرق.
كان وحيداً في الحوش، أعاد الى ذهنه المتقلقل رواية البارحة: فرحان في وسط الحوش، يده على صدره، فوق حزام جلبابه الرصاصي، يقول هي في قلبي.
لو كانت الرحبة هنا، لنام ليلة البارحة قرير العين دون أرق. الرحبة ليست هنا، لقد عادت. ذلك لأنه سمع هدّله تبكي بصمت وحرقة في منتصف الليل. وخطر له أن يقوم الى الديوان، مكان نوم فرحان، يدخله دون ضجيج. يكشف عنه الغطاء القطني، ليتأكد من وجودها في قلبه. فتسلل كالقط، خطا على رؤوس أصابعه. قبل ان يصل الى قبضة الباب. تلفّت الى هنا وهناك فلم يجد أحداً في صحن الحوش. وأخاف نفسه من الصوت العتيـق المدوّي، يهبط عليه من السطح، يصيح فيه حتى يوقظ النائمين. ومن كان ذلك؟ تذكر مرتين متتاليتين، ذهبت الذكرى في عمق خياله، ثم عادت. مرتين حدق الى الصورة البعيدة في مخيلته، وكانت تمد خياله بينما رفع يده لامساك قبضة الباب الصامتة، وبين بين: يقفز من السطح الى الدرب.. السطح لا أحد يقدر الصعود إليه. يقفز صائحاً بصوته الطوب: أنا أخو هدّله. الحوش ساكن نائم. لم يضع يده على قبضة الباب، صدره ينتفض، وبسرية أغمض عينيه، كمن يقف على قمة تطل على واد عميق، ليقذف نفسه الى القرار. نصل قلبه وهو يدير قبضة الباب، لم يكن هو، كان شخصاً آخر . فتح الباب، لم يكن الباب هو الذي انفتح، فتح عينيه، لم تكن عينيه، كان شيء ما يدعوه الى الدخول. زاغت عيناه،

وارتفع دمه في الهواء، صار إلى فراغ، فتراجع، انتفض في مكانه خائراً. أغلق الباب ومضى عائدا، وشعور قوي يغمره: داخل العالم النائم، عالم يحيا ويعيش، لا تعييه الحركة ولا تصده المرتفعات ولا رؤوس الجبال.
أسند جذعه الى جذع الشجرة، واسترخى من العناء الذي استبد به.

حين أنهى فرحان صلاة الصبح، استيقظوا دفعة واحدة، وتعالت أصواتهم فخرجت كالعصافير من النوافذ والأبواب. كانت نسمات مشمسة تلعب بمرح في أرض الفناء والرواق، وحركة النساء المستعجلة، رتلا لا ينقطع، بين المطبخ والبئر والبحرة، يحضرن سفر السيّالي، افطار أهل الدار وضيوف فرحان، تجار النسيج، الذين باتوا في داره البارحة، كي يستأنفوا سفرهم الى حلب صباح هذا اليوم.
بعد الافطار خرج معظم الرجال الذين كانوا في بيت فرحان عبد الغني الشاهر. سرحان ومهيدي الخضر، والرجال الضيوف. فرغ البيت وخف التهجس. وراحت الأسرة تجتمع في غرفة الديوان الثاني، الى يمين البهو المفضي الى فناء الدار. كان هناك فرحان وعبد الله وجاسر والاولاد الذين لم تسمح أعمارهم ان يلحقوا أخوهم سرحان في أعماله التجارية. هناك أيضاً زوجة فرحان، شاها المطر، وبناتها مريم وهند وزهية زوجة مهيدي، وجاءت بعد قليل جارتهم سعدة زوجة عبد الرحيم وابنتها عفراء لتتعرفا الى هدّله.
غص البيت فاصبح مهرجان وجوه، ووجد جاسر أن اختيار اصدقائه لا يشكل ثقلاً عليه. كان عبد الغني ابن فرحان الذي يكبره بعام واحد شديد الشبه بفواز رداد الزغير، وأخته مريم تذكره بنجود العلي صاحبة الصوت الذي يطرب العلوة والجوبة. وهناك راشد وعبد الحكيم وهند الفرحان يصغرانه قليلاً. وجد في كل منهم شبهاً ما مع صبيان العلوة.

تفقدت هدّله بعينيها المحسورتين ابنها جاسر، بينما جلس الى جانب عبد الغني الفرحان، في غرفة القعدة. كانت ملفعة بشال خمري غطى رأسها وصدرها بينما أظهر وجهها المهموم. تفقدت ابنها فوق مصطبة الغرفة القائمة في الصدر، وقد دفن ساعديه في وسطه وراح يراقب الوجوه والأحاديث بذهول. الأحاديث وما رافقها عبرت عن حالة من الحب والارتياح، كواجب من واجبات الضيافة. نقلت عينيها عن وجه شاها المطر زوج فرحان، حين خيّم على المجلس صمت مفاجئ، بعد الصيت والهرج. وقد نقلت عينيها عن شاها بابتسامة شاحبة الى ابنها المنزوي في ركنه. رأت هواجسها مرسومة في محياه، وذكرياتها تطوف في خياله. وأفاقها من انكفائها الى ابنها صوت شاها الرخيم: شكون به جاسر .. لسة زعلان على العلوة؟ فالتفتت اليها تحاول الخروج من عذابها. وانتقلت الأنظار الى جاسر الذي ارتهن بالعيون المحدقة نحوه.

انتابته أحاسيس من سراب، جعلته يعود الى هند العلي، يترك المجلس بشيء من الغفلة. استيقظت مشاعره على المضي في ذاك الاتجاه، وكأن احدى قدميه سقطت عن المصطبة دون ارادة منه فاهتزت أوصاله. أراد الانطلاق والتحرر من مصيدة الجدران الأربعة، السقف، رائحة البخور المتصاعدة. تخيل أن المكان غصة في حلقه فأناخ رأسه واستكان. لكن مريم أخرجته قائلة: جاسر! تومئ الى قمر ينير ظلمة طريق .. أشجار على كلا الجانبين .. والضوء الساطع يعكس البريق.

فكرت أمه أن حالتها أثرت في ابنها، وجعلته يمزج الحنين الى المكان القديم بالقلق عليها. فاعتقدت أن تناسيها السريع لما كان، سيوفر لابنها ما فقده خلال الأيام والأشهر الماضية. ذلك أن احساسها، في الأيام الأولى للاستقرار في دار فرحان، بمقدرة الجو الجديد على حمل جاسر على النسيان، لم يتحقق، فحملت على أن تناسيها هو المقام الأول. عليها أن تنسى أولاً كي ينسى، تريح نفسها من الثقل الذي جثم على كاهلها. فلولا النسيان لما دفقت الحياة ثانية، لظلت باقيـة في حنين الساعات الأولى.

بدأت يوماً جديداً، فتحت النوافذ. حاذرت في إبعاد اللحاف ببطء عن جسدها ان تزعج زوجها النائم، وتنصلت من المكان القريب تقف جانب النافذة المشرعة، ربطت عصبة رأسها وعقدت شالها على شعرها. ثم تنفست، فتحت عينيها على ضوء الصباح وهي ما زالت جانب زوجها تحسه وترغبه، فاستدارت الى نومه العميق، ثم هبت من فراشها الى حيث وقفت. وكان الحوش يطل من النافذة المفتوحة: أعمدة الرواق التي تظلل الغرف الثلاث مع غرفتي الديوان، والغرفتين المقابلتين للديوانين في طرف الحوش بجانب المطبخ والحمامين، ثم بركة المياه وأغصان شجرة التوت التي جردها الخريف، البئر والى جانبه الدرجات الأولى من سلم صاعد الى سطح الديوان. والى يمينها مدخل دار مهيدي وزهية، الدار ذات الغرفتين. وكانت ترى من مكانها جزءا من سور حديقة مهيدي القائمة في نهاية الحوش، قبالة الغرفتين. ولتوها سمعت صوت عبد الله، فعلمت ان حرصها على تجنب ايقاظه قد أخفق، أزاحت الستار عن النافذة، وأخذت ترى المشهد الممتلئ بيقينها الجديد.

قال لها عبد الله مدخلاً يده الثانية في كم سترته البنية: نلحق فرحان ومهيدي للشغل، يكفي قعود يا هدّله. ثبت عقاله على رأسه ومسد سترته فوق كلابيته متابعاً: إفطري ويّاهم، لا تنتظريني. ثم ألقى نظرة الى ابنه المستغرق في نومه وهو يستدرك: اقعديه اقعديه، إن الولد فاقت من الصباح. وسمعت صوت عبد الغني يسأل إن كان جاسر يريد الذهاب معهم الى حويجة النهر، لتحضير الوليمة التي سيقيمها فرحان لاصدقائه، كوداع لنزه الصيف.

غادر عبد الله البيت الى الدرب المفضي نحو الشارع العام، اجتاز بيت عبد الرحيم بغرفتيه المشرفتين على الدرب، واجتاز المنازل الثلاثة ليصل زاوية الشارع العام، وكان عليه ان يلتفت نحو اليسار، مولياً التكية ظهره. ومستديراً برأسه الى مئذنة التكية، بدا الشارع الممتد شرقاً، الى العلوة منطوياً على نفسه، متداخلاً في رواه، رغم المبادلة بين الأعراب وأصحاب الدكاكين الماثلة أمام عينيه المنحرفتين: فأنزلت جفان اللبن عن رأسها المنزوي تحت الثقل، واستكانت قليلاً موحية أن ثوبها لم يلتث بالجفان وبالدرب الطويل، فنفضت بيديها ردفيها ثم انحنت على ساقيها. يسمع بأذنيه ويرى، وهو لم يلتفت الى جهة سيره بعد. ثوبها الطويل ينسرب امام عينيه، يهف برنين الأساور التي ملأت العنق والساعد والساق. ما زال يسير .. لقد أرخى شفته السفلى من طول النظر حتى ارتطم بنفحة ساخنة، وضعته أمام عربة محملة ببراميل ماء الشرب، وسمع من بين الحصانين وبين أوهام النجاة تمتمة الحوذي: هوش هوش! لذلك استدار برأسه الى طريقه، اندفع متراجعاً الى الخلف، ثم

مقرفصاً، تجلى العالم له خلال قوادم الحيوان وأرضية العربة مسرحاً طفولياً بعيداً.

وصل الى متجر مهيدي الخضر، تاجر السمن والصوف، معفراً بالحادث متطيراً، فأجلسه مهيدي مكانه، على كرسيه الواسع المنسوج بقصب الشجر. راح يسترجع ما حصل، مغمض العينين متجهماً، مداعباً إبهامه، ضاغطاً على ناجذه: وغيره لكان ذهب تحت العجلات، أسفل الحوافر، وكان ارتمى عنه العقال، انحسر رأسه وتفرع، لكن الحمد لله تصرف بهدوء وسلامة، وعَبَر المحنة متماسك الأعصاب. وسمع بالقرب منه هسهسة الخلاخل، تعبر بطيفها الى المتجر المجاور.

كان أحد دكاكين فرحان، الدكان الرابع باتجاه الغرب، على طول الشارع العام.

وسأل عبد الله مهيدي: سرحان على طول يظل بهالدكان؟ رد مهيدي: سرحان هون، وفرحان بالمتجر الكبير. فاستوى في جلسته قائلاً: أروح أسلّم عليه وأرجع بعد شوية. وحين لمحه سرحان قادما بادره: أهلين أبو محمد. ثم استطرد قائلاً للفتاة: ستة أذرع خام خاصة يا شابة. محدقة به وتكاد الدهشة تغمرها ثم أمالت جسدها تجيز له بالمرور، ولعله التزّ بها، وجدته يلهث، فسبقته مجاملة: زين قحزت بسرعة، والا كان رحت جوّاهم، عفية يا ربي .. وأخذني قلبي عليك. تنظر الى فوق، الى السقف المغطى بحشائش رطبة. ينظر الى القلادة المسترسلة في سنابل شعرها فيما اذا نزعت عنها الخمار، والى العقد المنداح على طوف صدرها إن انتزهت في شتائل الهيام. ربط الأذرع البيض بخيط الكتان ثم ناولها محيياً: يهتري بالعافية. ومضت تتمايل في مشيتها، ويتلوى في نظراته المتتابعة: إنه سيعاف هدّله اذا ظلت متوانية عنه.

استيقظ جاسر، أيقظته هدّله. أو انها ترددت، سمحت لعبد الغني برفع الغطاء عنه، والشروع بتدليك صدره، سأل عبد الغني: يتأخر بالنوم كل مرة يا خالة. فردت: لوجه الصبح ما ينام. فقال: ناقصه شغل، لو يشتغل ويعمل مثلنا كان ينام من المساء. فجمجم جاسر: أتركني يا أخي... أتركني أكمل الحلم. وكانت مريم قد فتحت الطريق لمملئ المياه، يملأ مزامل الشرب، في المدخل وفي الرواق بجانب غرفة القعدة.

حين استيقظ رأى هدّله، وإن كان عبد الغني يحدق في وجهه، ينتظره كي ينهض، لكنه رأى هدّله، تريد له الذهاب، وعبد الغني يردد: أمامنا نزهة النهار بأكمله. فنهض قائلاً: مستعجل على إيش يا أخي، لسه وقت وما قام النهار بعد. ورمى أذيال الكلابية المنحسرة على ساقيه النحيلتين، ثم سأل: كلنا نروح الى الحويجة؟ فأجابته أمه: أنت وأبوك وأعمامك والولِد. وظلت تقول وهي تكتحل

في المرآه: اطلقوا روحكم في الحويجة. فألفاها تنظر اليه خلال مرآة نصف قامة، مثبتة في الجدار، ما بين نافذتي الغرفة. وكان عبد الغني ينقل نظراته بين جاسر وبين هدّله والمرآة.

وقفوا على الضفة ينتظرون عودة الطرادة من الحويجة، جاسر وعبد الغني وسرحان ومعهم خروفان، كي ينتقلوا بدورهم اليها. وقفوا يتملون النهر تارة، وانعكاس الأشجار القريبة في المياه تارة أخرى. الأثر الباقي من الخريف يفتح فجوة أخيرة في لبدة الغمائم الراحلة. وكان أحدهم يرفع رأسه الى السماء ليرى ما إذا سيصدق ظن شاها في هذه الرحلة الخائبة. وأخذت السماء المتلبدة تتجلي عن سحابات بيض هلل لها كل الذين ظنوا أن ظهيرة اليوم ستكون مناسبة لنزه الحويجة الشرقية، هذه الحويجة الواقعة في طرف البلد.

سوف تعود الطرادة بعد ان نقلت قرب الماء ودلة القهوة مع بعض الأواني والخيمة الكبيرة التي اقترحها فرحان لمواجهة احتمال المطر. قفز حمزة المجدّل من الحويجة الى الطرادة، وراح يسيّرها بالمجداف في خط مائل، عكس اتجاه النهر، ليرسو عند سرحان والأولاد في الضفة. وأشار جاسر لهم: ان نتقدم باتجاه النهر ويطوف حمزة بخط مستقيم دون مقاومة المياه، أسرع لنا وله، نختصر المسافة والوقت. وأنشأ جاسر يلوّح للسفان، من هنا ـ بيده يخط جهة المنحى، ويرسم في الهواء الإشارة التي تدله على تقدمهم باتجاه النهر، ويمد يده اليمنى بموازاة النهر، هكذا، حيّد مسارك وصاح يلفت انتباهه: حمزة! فرفع الأخير يده اليسرى بعد ان ثبت المجداف باليمنى: ماذا تريد؟ وكادت السفينة عند ذلك، أن تسقط في المياه، لكنهم تداركوها، وناضلوا لتجنب البله الذي سيصيب فرحان لو علم بالأمر. ورفع نفسه بعد حين من السفينة ملوثاً وباحثاً عن يشمغه بالعينين الممطوطتين التي أضفت على وجهه علائم التساؤل والدهشة، وكان سرحان يستفسره ماذا حل بك، ما حدث؟ فقال حمزة وهو يهرش شعره الأشعث: ما أدري دارت الطرادة بيّ، كأن شيئاً من جوّا شدّها، لو ما ربك سترها وثبتتها زين كان المي غوّلها. اما جاسر فقد استغرب سلوك السفان، أشار بيده هكذا، جهة المياه، اذهب باتجاه النهر، الى الشرق، دون مناحرة الدومات، الى هذا الطريق الآمن ـ لأن التيار سيمضي قدماً معك، سلساً ناعماً ونحن نتبع الضفة الى المرسى، حتى نصل اليها ويتسنى لنا ان نقفز لنعود من حيث أتينا، أليس كذلك؟ سرحان يفتل شاربيه ويقرأ المنظر بعينيه الزرقاوين ـ لأنك لا تعرف الدير بعد، تصورت هذه الخرافة يا جاسر!

ونقل أقدامه ببطء في المياه حتى وصل الى السفينة فتناول منه حمزة دلة القهوة وسطلاً احتوى على أقداح الشراب والفناجين، وتبعه عبد الغني يساعده سرحان في حمل قرب الماء. وقال سرحان: إعجل، فبعد صلاة الظهر يجي

عمك فرحان وربعه. رد حمزة: لسه وقت، نجهز كل شي وقبل ما يجي أحد. وأطلق عبد الغني ضحكة طويلة قائلاً لجاسر: حدّر بالمي اسبح .. شكون بك ترجف.. ارم الكلابية وبلل جسمك بالنهر. وحدق جاسر الى أنفه الحاد الذي يحث المرء على دفع الآخر، إلقائه من فوق الهواشة كي يسبح ويعوم، أو يطوف قريباً من صخرة الهواشة المتداعية، المانحة من أخاديدها فرصة سحرية للنجاة. ومَن يا ترى يجرؤ الآن على القفز؟ سيعقل أذيال كلابيته، يعضها بأسنانه. ورأينا ساقيه تتراوحان في القفز من الهواشة الى الأمواج الراكضة اليها، فتساءلنا في سبيل الإنقاذ الأخير.
ارتسمت ابتسامة عريضة ملأت وجه سرحان، واذ كانت دوائر المياه الصغيرة تكبر وتزداد كثافة، استمر شعوره بالزهو، ذلك انه وضع راحته على صدره، واستنشق عبير الرطوبة المتبخر، وسمع قرقعة سوق هشة وتكسرات أوراق شجر يابسة، هكذا صعدت نفح الغار تفتح خياشيمه وتجلي ذهنه. فمنذ الصباح عارضتهم شاها، أو من الليلة الفائتة، قالت: يا أبو سرحان، المطر ما راح يتركَكم، اذا مو الصبح، الضحى او الظهر او العصر، راحت أيام النزه يا أبو سرحان. فأقبل ناحية إبنه متجهم الوجه قائلاً: باكر، تسري الى خان الدواب وتنقي خروفين زينات، وتوصي الخبازة هسّع، تروح اليها وتقول لها على عجنتين، وتشوف الخيمة ايش لونها، ولا تنسى المي، يملي قربتين كبيرات، ونشوف ظنون أمك الشاها يا سرحان. فقامت شاها، وقفت بين سرحان وزوجها، معتمدة بيديها على خاصرتها وقالت: شكون! ليش تحججت بالمطر يوم أمس ومنعت سرحان يروح مع ربعه للحويجة؟ فأجابها: ما زال .. ما زال صغيراً، اذا نزل المطر ما يتدبرون أمرهم، أما نحن.. فقاطعته شاها قائلة: صغير بعينك بس يا فرحان، ابنك زلمة، انشاء الله باكر ينزل المطر ونشوف من الصغير ومن الكبير. وحدث سرحان نفسه: أشوّفه، بس أريد أشوفه فعايل الصغير اللي ما معبي عينه، بس هو يحسب حاله زلمه! كل قطرة هاطلة .. وماذا ترسم؟
ينظر اليها .. لقد ارتجت المياه وأخذت الأخيلة تتمدد ثم تتلاشى، لقد ابتلع الماء كل شيء .. أين نحن .. ولا أحد على الضفة .. هذا المطر يبعث الظن باننا نغوص، نحن الثلاثة في القعر فلا أحد يرى الآخر.
الى أن توقف المطر، وصحت السماء. ثم فجأة ضحكوا، أولهم عبد الغني .. وثانيهم سرحان، عبّر عن النشوة بابتسامة رضى، استدار ليرى ما وراء جاسر، تيهان الهضاب والبراري، والى ناحية أخيه، يحدق الى الذي صعد الحويجة وغاب. أما جاسر فكان يمسح البلل عن شفتيه، ويقول: حظنا سعيد لأننا.. فقال عبد الغني: وضعت أذيال كلابيتك في سروالك، وتأهبت للجري حتى شجرة التوت هذيك، لتحتمي بفنائها. وتقدم منه يمد بوزه مستطرداً: اذا خلص المطر، حدر المي، إرم الكلابية وبلل جسمك بالنهر.

وحينما وصلوا الحويجة مع الخروفين، عادت الطرادة إلى الضفة لتنتظر فرحان وأصحابه. راسية هناك، وحمزة المجدّل يشغل نفسه بالاستغراق في صيد السمك، رمى الصنارة في الماء، وجلس على مقدمة السفينة جاعلاً قدميه يعبثان بصورته المنعكسة في المياه. وكانت قصبة الصنارة تمر بين ساقيه فتميل مع مقدمة السفينة، وكان يرى من مكانه كيف تركوه وصعدوا الحويجة. وسأل نفسه، ألم يأتوا بعد؟ كل هذا الوقت والشمس وصلت الى ذاك المكان ولم يأتوا؟! يمكن أبو ناصح يأتي معهم، ولعلهم في الدير يترقبون وصوله كي ينطلقوا الى هنا. اذاً ينتظرونه، وكل شيء أصبح جاهزاً، العربة التي ستقلهم، أدواتهم، رباب مهيدي وناي عبد الرحيم، انهم ينتظرونه في متجر فرحان، بعد توصيته لسرحان: اذهب يا أبوي وجهزوا انت والأولاد كل الأمور. وأراد ان يرفع صوته: تعالوا، لم يبق الا أنتم، كل الأشياء حاضرة، لماذا تأخرتم؟ لماذا لا نستطيع سماع صوت أحدكم على طول الطريق الذي يبدأ حيث تنتهي البلدة، الذي يبدأ حيث نستطيع رؤيتكم: أربعة رجال أو خمسة في عربة تتحـول عن آخر درب في البلدة حتى تأخذ طريقها الشرقي نحو الحويجة.

في الحويجة، بعد كل ذلك، مساحة لا بأس بها، تنتصب فيها الخيمة. ويكون المنحدر نحو المياه بأرضه المطروقة بالصعود وبالنزول علامة للعابرين. سيأخذ حمزة سمت ذلك الممر بين شوك العاقول المنتشر على طول سفح الحويجة، وهو معهم في المياه.

وجاسر الذي لم يرهم بعد، يجلس على المنحدر ويهجس: ألم يبلغ الأمر حد التيه .. نتيه ويتيهون؟ ربما نحن أو هم .. وربما سلكوا طريقاً آخر، وهم الآن هناك، في حويجة أخرى، استخدموا درباً مختلفاً، أتكون نزهتنا بهذا القدر، وضيعنا الوقت في العبور والانتظار؟ وكيف يتسنى لنا اطلاق الروح في الحويجة كما قالت هدّله صباح اليوم؟ الحويجة كلها أحراش وأشجار، ثم أين سرحان وعبد الغني؟ ولم يبق لهما أثر، إن كانوا قد ضاعوا كالآخرين؟

وتفقد نفسه، ثاب الى وعيه. فرش يده على ساقيه، مد الأخرى الى وجهه يقول: هذا أنا .. هذا أنا. أدار جذعه الى الخلف فرأى الخيمة في مكانها، داخلها قرب الماء الفارغة والمشارب وسفافيد اعتلاها السواد، ومخمر الخبز ... بقايا الخروفين بالقرب من شجرة كبيرة. تلمس وجهه: ان أنفه الأشم جاء من ناحية أمه هدّله، وهو يشبه أنف شاها حين دقق فيه وجعل يقارنه مع أنف أمه، ولم يتصور أن انفه ليشابه أنف ابنها، فالأخير ذو أنف حاد يمط بوزه هكذا ويتقدم قائلاً: إرم نفسك في النهر، أو أنك تخاف وترتجف من برودة المياه. كان المنظر مشرفاً على الانتهاء، كـأن الجميع تحضروا لمغادرة النزه، في جميع الأنحية، ولم يبق سوى الشمس، أصيل وشفق أخير، وكل شيء كان يذهب الى الغروب. أنشعل النار؟ نضيء ظلمات الليالي الباردة ـ قالت هدّله: البس ثوب

الصوف. لكنني أحب عبد الغني يا أمي، أحببته منذ هذه النزهة، ورأيت السفافيد وهي تحمل الى داخل الكيس الذي سيحوي الأطباق والأواني والقِرب. وكأن العربة عند الضفة ـ تقلنا الى البيت؟ نعم، كلنا سنركب، ولنقلة واحدة. كيف ستهدمون البيت، الخيمة؟ وفجأة انهارت ولبثت سحب غبار تحوم حولنا حتى غاب عني مشهد النزهة، وأحست تحت الشجرة ان الأرض تتقشر، وقدماي تميلان الى الانغراس في أديم منقشع عن سطح الأرض.

الليل. أول مرة يدخلها في الليل، بعض الجوانب كانت منارة. في رأس كل زاوية أنارت الكهربيات مساحة صغيرة. كانت البلدة موزعة بين الظلال وبين الانارة المرهفة. والكهربية التي أعلنت بداية البلدة للقادمين اليها، كانت معلقة في زاوية يلعب بها الريح، تتقلقل، تهزها الرغبة نحو الرؤية. اذاً من هنا، حين اتضح الدرب الذي سيفضي الى الشارع العام. وارتفع لطيم العجلات وجعلت حوافر الحصان ترجع الصدى على الطريق الاسفلتي، تصاحب الأصوات الخارجة من الأبنية الساكنة.

كيف كان هذا اليوم؟ إنه طويل... طويل... ولا يذكر حدا له... انه بعيد. يوازي سبعة أيام، يوازي الوقت الذي رافقهم في رحلتهم من العلوة الى الدير. منذ متى أيقظه عبد الغني؟ باردة وتصيبه قشعريرة كلما تذكر... ضياء يشي ببرودة بعيدة، كل الوجوه كانت فضفاضة، حتى هدّله والمرآة، والطريقة التي مسد بها صدره ودعك عينيه، كم هو ناء ذاك الصباح؟! بعيد، أبعد من صباح أمس بل من كل الصباحات التي مرت عليه في الدير. وهي ترتج على الطريق وكأن الليل وسّع العربة، جعلها تحمل أثقالاً لا يتسع لها النهار.

هل تشعرون بالجوع؟ سألتهم شاها حين عادوا، فارتموا من الارهاق في الديوان... إلا أنهم استرجعوا الطرف والمُلح. قالت شاها في سرها، أنقذهم الله من المطر، وخطت الى الخلف لتعود الى المطبخ فاستقبلت جاسر وهي تستدير، اعترتها رجفة أن تصدمه، فأمسكت ثم أمسك ـ وجدته يمد يده فمدت يدها، وكاد يضمها، هرع للقياها ان تزل قدمها، قالت له: هكذا يا بني. وسمع منها همهمة وآهة لم يسمعها من قبل، إنه بهذا استغرق في شاها، وتغضنات عينيها انطبعت في خياله. بالقرب منها ظن أنها عادت الى شبابها، وراح يتخيل أيام صباها، قبل أن تصيبه السنون.

غير أن التعب هبط عليه، وهم يضحكون، مستلقين على ظهورهم ومستندين على الحائط وقد باعدوا سيقانهم، ينظرون الى يومهم وما فات من المسرات والنكات. وخطر في بالهم إعادة حوادث يومهم، فوقف فرحان في جانب، وعبد الله ومهيدي وأبو ناصح في جانب آخر... سرحان عبد الرحيم، وكان جاسر في جانب لا يصله أحد، ودخل عبد الغني والسفان حمزة المجدّل الى وسط

الحلقة كأنهم يعومون ويحاولون الوصول مبكراً. وتدافعت النسوة والصبايا والأولاد الى النوافذ والأبواب لمشاهدة ما قد حدث، وأخذت مريم في كسل ولا مبالاة تنظر اليهم، تعرف انهم ربما يفعلون أشياء لم يفعلوها هناك، فأصابها ملل وشرود تنوي العودة. وجدت طريقها الى الحوش، تسللت الى المكان الذي وقف فيه جاسر. وخمنت انها تلاقيه لأول مرة.

هكذا اذاً، شهقت ضاحكة، وهي تعبث بجديلتها، تتملاه مرددة، ثم ماذا؟ في ضوء القمر على بسطة الدرج. وخال جاسر ان التعب الذي ألمّ به وهمٌ، وقال: انتظرناهم كثيراً، حسبنا انهم ضاعوا أو قد أعدلوا، فجاء حمزة بالسفينة ثم صعد الى الحويجة وجلس بجانبي ينتظر عودة سرحان وعبد الغني من عمق الحويجة، ولعله سمع ما لم أسمعه، زئير اسود وضباع، فانتفض واقفاً، ثم خطا هارباً فوق شوك العاقول باتجاه المياه... ولقد استفسرناه بعد ساعات، ما الذي دعاه الى الجري، يطأ نبت العاقول، مدمياً قدميه غير آبه؟! إن دغل الضفة الأخرى لا الحويجة القابعة في وسط النهر، تعيش فيها الأسود والضباع!

أما عبد الله فقد أصابه الوسواس حين ذهب إلى النوم، كيف يهب جاسر وراء حمزة، أسمع صوت أسود أم لم يسمع. لأن خوفه لن يدعه يستدل كي يرى ما الذي يجري، سيلحق بحمزة، وان كانت المياه ستزيل كرب السفان فانها ستزيد ما ألمّ بجاسر. تجعله يحار في مصدر الخوف، أمن الأرض أم من الماء؟ سوف يلقي بنفسه في المياه. بات عبد الله ليلتها يتوسوس بالنهر الذي يشل قدرة جاسر على السباحة، ولا ينتبه اليه ابن المجدّل الماضي يعبر المياه خوفا من الضباع والأسود، فلا يقدر جاسر على طلب النجاة، يتلعثم حتى تخور قواه. وهكذا ينبهت عبد الله في الحويجة، وحين يسأل: أين جاسر؟ يجيب سرحان مشتت النظر، تركناهما معاً، وحينما رجعنا من طرف الحويجة وجدنا السفان يعالج ساقيه وقدميه، يزيل إبر العاقول، وبدورنا سألنا عن جاسر.... فتنذهل الحويجة، لا تصدق غرق جاسر.

لقد غرق جاسر، يا ربي! يضرب الوسادة بقبضة يده، ثم يضم قبضته مدمدما: كأننا رحلنا من العلوة الى الدير دون رحيل، هذا الليل وذلك النهر، وتعالوا للنزهة الى الحويجة وداعاً لأيام الصيف! واذاً لماذا الرحيل يا هدّله؟ "ما أظل بالعلوة طالما حربّة النجم جواي عند الهواشة تتنفس". لماذا تركته معهم؟ كان.. كان علي أن أراقبه على الأقل عن بعد، لكن ان أتركه بلا رقيب، ينتهز الفرصة للنزول وراء من يفر الى الماء طلباً للنجاة.. حتى يغوص ونبحث عنه دون جدوى.. ثم .. ثم كيف كنا سنعود؟ ما لون الوجوه؟ يصيحون قبل وصولنا، واقفون عند الباب، ينتزعون هدّله وسط الدرب، تلطم نائحة باكية على ولدها: أين جاسر؟ لماذا لم يأت معكم؟ وبعد.. ماذا كنا سنفعل؟

نترك الدير أيضاً! واذا قلت لها كل الأمكنة فيها ماء يا هدّله، فانها لن تصدق، تنزوي في الغرفة واجمة لا تسمع ولا تعي ما حدث. أين كنا سنذهب؟

المرة الثانية لن أذهب الى الحويجة.

من زجاج النوافذ نظروا إلى المطر. لو كان اليوم يوم نزهة لما ذهبوا! لكانوا استمتعوا بيومهم داخل الغرف، لا يخرجهم الا العوز. ونسي عبد الله ما عاناه في الليل من الوسوسة في غرق جاسر.. ذهبت أوهامه في رحم الليل، حيث كان نائماً، واذا تذكر مقدار الخوف الذي أرقه، هز رأسه: الليل حياة أخرى، يغرّب الانسان عما يحسه أثناء النهار. عبد الله لم َهجست بذلك الخوف؟ ما زال جاسر الى جانبي، ولم يلق بنفسه في النهر، ظهر البارحة وجدناه غارقاً في الضحك من السفان الذي اقتعد الأرض بجانبه، يخرج ابر العاقول من أقدامه المتورمة. سمعنا الضحك قبل رؤيتنا له، كانت الأشجار تحجب عنا الرؤية، باسقة ومرتفعة، تنال السماء، لا ترى عيوننا السماء، مظللة معرشة. وجئنا من الخلف، طافت بنا السفينة من مرسى البلدة، ثم انحرفنا الى اليسار حين واجهتنا الحويجة، من الخلف، رست فينا في ظهر الحويجة، في الطرف الآخر حيث كانت الضفة اليسرى قريبة. لذا صعدنا نتحذر شوك العاقول المنتشر يطوق الحويجة. وصادفنا الضحك ثم ظهر جاسر، يرنو الى الضفة اليمنى وينتظر مجيئنا من هناك. كأننا أردنا مواجهتهم من الخلف لنعرف ما ينتظرنا منهم. أبو ناصح وأنا وعبد الرحيم وفرحان.. والى يسارنا الخيمة والخروفان، اذاً بنوا الخيمة بأنفسهم، وأتقنوا نصب الأعمدة. رد فرحان: صحيح انني منعتهم من النزهة في الأسبوع الماضي، لكن ليست المرة الأولى التي ينصبون فيها خيمة. مرت ليالي عديدة بعد نصبهم لأول خيمة، وتعلم سرحان إدارة الحانوت بمفرده.. وجاسر سيحذو حذوهم اذا شاء الله.

وبعضهم حاول الخروج من باب الغرفة. يفتحه كي يكتشف كمية المياه المتساقطة. إنه المطر. ومن زجاج النوافذ نظروا، قدر بعضهم بانهم لن يستطيعوا الخروج الى فناء الحوش، لقد امتلأت البركة بالماء .. انداح المطر يسيل باتجاه غرفة هدّله.. الأرض مائلة باتجاه هدّله.. يسيل الماء اليها .. ويترى يسح على بطنه .. وفي عتبة الباب قنال لتصريف المياه. ورأت ورأينا كيف كان الخوف ينتشر، رغم النشوة الظاهرة في مصاهرة الهطول. وفي أي وقت نحن؟ البارحة كنا في النزهة ..هذا المطر.. اشارة تعجب.

هذه الدفقات ذكرتني يا هدّله بيوم كسر السدة! فرمقتنا بعينيها، كنا خلفها نشاهد دوائر المياه، نظرت شزراً، وشممت رائحة النوم تنبعث منها. فاعترفت .. لولاي لما تذكرتْ أياً كان، فقال الوالد: أسكت.

وأرض الحوش ملساء، مرصوفة بعناية، يغلب عليها اللون، أو هكذا يبوح الإيحاء عند النظر. ملونة، تميل بالمرء الى الاعتقاد ان الحالة حالة وصال عقب هجران أخفاه النسيان. وأي لون هو؟ هذا اللون الطاغي حيث لا لون ولا رائحة، سوى الهذيان الذي طلى الزجاج ـ الأنفاس الحارة تطلي زجاج النوافذ. وكانت هدّله رطبة، وصدرها المستيقظ يومىء بالالتقاط ـ يمسك حبال الأرجوحة حين تنتابه رعشة السقوط فيصم يديه، وينهد في صدرنا:

صميمة الصميمة   علــى النبي صلينا

صلـينا ما بطــينا   صلينـا عالهيـلوان

ولولا الرواق الذي حجب عنا السماء وأبعد جبهة الهواء لأسمعنا زجاج النافذة نقرات الهطول. الرياح تهب من الشمال، فأغلقوا الشمال، في أي زمن نحن.. حيث لا زمن ولا لون. لو كان اليوم يوم نزهة لما خرجنا البتة. وكانت الأرض مائلة الى طرف هدّله فأخذ المصرف يدخل المياه الى أرض الغرفة.

قال عبد الله: وكاد ما راح يتوقف المطر حتى تغيب الشمس! فدمدمت هدّله: هو بي شمس تا تغيب! غابت الشمس منذ الصباح، منذ مساء البارحة. وسأل جاسر: أي بارحة؟ فانسحبت هدّله من بينهما، أمام زجاج النافذة، ذهبت الى ما بين النافذتين حيث المرآة لتبحث عن نفسها في الظلام. وتساءلت في المرآة: أين أنا منذ البارحة في المرآة؟ رأيتهم فقط يتكومون البارحة فوق بعضهم في الديوان، لكنني لم أرني معهم، كنت مع جاسر ومريم عند مصطبة الدرج، البارحة.

ان القمر الذي أرسل أشعته، والهواء المنتشي برطوبة الضفاف والنظرات المتبادلة بيننا، حين روى لنا جاسر ما حدث بالحويجة، جعلت الأيدي تتقارب. أسند جاسر مرفقه على الحائط فأستندت مريم كذلك، بينما وقفتُ بينهما أرقب ضحكتها ولمعان أسنانها تحت ضوء السماء. هكذا اذا، شهقت ضاحكة. وكان يصلنا حديث رجال الديوان من النوافذ الثلاث المطلة على الحوش، فنخمن انهم يتبادلون النوادر، ولقد ارتفعت أصواتهم حتى بدت لنا قريبة مسموعة من مصطبة الدرج.

البارحة؟ لا أكاد أصدق ظني.. وسمعنا فرحان يقول: اذا ظل الأرمن يتقاطرون علينا هكذا، ما راح يسعهم وسّع. فرد أحدهم بصوت خفيض ينم عن الأسى، رد بصوت مكبوت يشي ان صاحبه قد أطرق على الأرض عندما بدأ الكلام، كان الكلام غير مفهوم، فلم نستطع تمييزه، راح صوته يخفت ويخفت، ان الكلمة الأولى كانت يا أبو سرحان، ثم انخفض الصوت الى الحد الذي جعل

أسماعنا ترهف وترهف لسماع ما يخرج من النوافذ الثلاث، وكادت مسامعنا تحس بخفقان القلوب في ضوء القمر.
اذن لقد اقترب منها. كانت بسطة الدرج قريبة من البئر، وكانا يريدان الصعود الى سطح الديوان، وعندما لحظا هدّله توقفا. أوقفتهم هدّله..أوقفتهم بإيحاء من المطر. وخمنت مريم: اذا استمرا بالصعود فإن السماء ستمطر. فتوقفت عند بسطة الدرج. وقالت هدّله: أنا.
ربما كانا سيقتربان أكثر لولا وجود هدّله. ظل جاسر مستنداً على مرفقه، وان أمال اليها قليلاً، فإنه لم يلامس سوى حفيف ثوبها، وهكذا حزرت هدّله كيف كانت الرغبة تنخلق في جسده الشاب. انه لم يتغير الا في هذه الليلة، فلو كان واقفاً معها الآن لرأت ما لم تره البارحة، فجمجمت: (كم هي طويلة هذه الليلة ؟)، ولقد بحثت عنه طويلاً حتى رأته في المرآة: يتنفس فيها ليسكب وجهه في صدرها، ورددت أعماقها: انه ممتلئ، فلولاه لما استنشقت رئتاي هذه النشوة، وتداركت: مبـارك لك. فقال الأب مغتاظاً: ما الذي لوث ثوبكَ؟ كذا وكذا .. عليك الانتباه من الآن فصاعداً .. المياه تدخل من المصرف، تبقى تسيح عند عتبة البـاب، كذا وكذا .. ما الذي لوث حجرك؟ تنتبه من مياه الحوش والغرف .. حتى وأنت نائم .. تلطخ ثوبك وتنتشر هذه الرائحة. فردت أمه: ان الرطوبة أحيتها طول الوقت .. الى الصبح كي نستطيع استنشاق رائحتها، وحالاً ستغيب الرائحة، حالما نفتح النوافذ وننشر الثوب على حبال الغسيل. فقال الأب: عليكِ غسيل ثيابه الداخلية .. ملوثة هي الأخرى.
عليك اللعنة. فكر عبدالله: حينما شممت الرائحة، ظننت يا هدّله انني قضيت وطري منك، ورحت أتساءل متى كان ذلك؟ في الحلم أم في اليقظة؟ تفقدت أشيائي على غفلة منكما. استدرت بينما كنت تنظرين في المرآة .. كان كل شيء في مكانه، فخمنت ان الأمر من المطر، الى ان قلتِ مبارك وعيناكِ لا تفارقان حجره.
وكان باب الغرفة مغلقاً، لم يشأ أحد منا فتحه. باب من شجر الجوز مغلق على مصراعيه، متين مغلق. احتجزنا الى حين توقفت السماء، واذا كان باب الغرفة يقاوم المطر فإن النافذتين المطلتين على الحوش ليستا كذلك، تسمح للرذاذ الشارد عبر الرواق بالعبور. لقد نسي فرحان تدعيم نوافذ بيته يا هدّله، ودائماً ينسى الأشياء الصغيرة، لا يقيم لها اعتباراً ـ حتى كاد المطر ان يترك الباب ويدخل من النافذة يا هدّله. أيضاً انت تلاحقين خيال ولدك في المرآة وتنسين طيفه اللاهث خلفك، وقد عب الهواء يحيله زفيراً في المرآة. لكن يا ربي ما هذه الرائحة، لعلي فعلتها في غفلة النوم! آه كم هي كريهة، وتقبض النفس. وما بال هدّله لا تضم الفراش؟ ان الرائحة آتية من شقوق النوافذ، من الحوش! ما بال هدّله، تنتعش كلما اقترب منها ابنها؟ اذاً اغلقوا النوافذ .. هدّله لماذا لا تفتحين النافذتين؟ فرحان لم يفتح لنا النوافذ ولا شاها ولا حتى

سرحان! لم يكن أحد قريباً من أحد الليلة الفائتة، كانوا بعيدين، أنا وأنا وأنا .. الا ابننا جاسر، هذا الغادر الذي يقترب منك أكثر كلما صرخت أحاسيسك في المرآة: انه ممتلئ .. وقاهرة أنت أيتها المرأة، كم تخيلت أنني ملكتك حين زفتني العلوة اليك!

طاف أرض الحوش بالماء، كان سطح المياه يوازي مستوى البركة، وعندما توقفت السماء عن المطر غدا الفناء بركة مياه واسعة. وقال فرحان من نافذة الديوان، فتحها وأشرأب برأسه: الأبواب تبقى مغلقة حتى تبتلع الأرض المياه، ومن يريد الذهاب الى الحمام والمطبخ ، عليه الشّمير والتطواف، واحذروا فتح أبواب المرافق لأنها ستمتلئ في الحال، ادخلوا عليها من نوافذها. الا ان سرحان أطل من غرفته المقابلة لغرفة الديوان وقال: يابا ترى باب الحمام مفتوح ، المياه دفعت الباب .. تراه ممتلئ بالمي. فرد فرحان غاضباً: كان أغلقته زين لما شفت المي يفاتح الباب، يا ابني يا ابني هسع امتلأ بالمي، كان أغلقته وأنت قريب منه .. كان من الشباك يا سرحان، تنط وتغلقه زين. وردد: خلص خرب الحمام والمرحاض ، تعبأت الحفرة وما عاد منها نفع.

ترا الدير طافت زاد يابا! سمع الصوت يأتيه بعد أيام من توقف السماء. توقفت السماء عن المطر ففتحوا شبابيك الدرب. لوح فرحان بيده قائلاً: الشبابيك من الجهتين تنفتح، ومن جهة الحوش وجهة الشوارعـ للديوانين ست نوافذ على الشارع. ومن المؤكد ان شمس الدير لن تجفف مياه الدروب والساحات على مدى حول كامل. يحتاج الأمر الى سنين، لأن الأمواه تغلغلت في أركان الدير، وأخرجت العفونة الرابضة منذ قرون. ما قولك يا فرحان بفتح الأبواب أيضاً، تغسل المياه الغرف وأجزاء الأساس؟ لا يا أبي محمد يتبلل الأثاث، وتدخل الرطوبة الى الفرش واللحف ولا يعود الدفء الينا. لنحمي أنفسنا وبيوتنا يا عبد الله، ثبتوا المصاريع جيداً، اغلقوها بالرتاج، اغلقوا أيضاً باب الحوش بالرتاج ولا تخلوا سبيلاً للرشح، ان مستوى مياه الشوارع أعلى من مستوى مياه الأقنيةـ النهر أزاد المنسوب في الشوارع والدروب، ليكن خروجكم ودخولكم من النوافذ. وسأل عبد الله: هل فاض النهر يا فرحان؟ فأجابه وهو يستدير الى الخلف ليرى منسوب المياه في الشوارع: ان سطح الماء في الدرب يوازي مرفق النوافذ، يا عبد الله لقد فاض النهر. فقال عبد الله: اذاً لقد فاض النهر يا هدّله. وسمع فرحان يؤكد: نعم وهو يسير في الشوارع العامة، لقد ارتقى الحويجة كذلك، ربما لم يبق حويجة يا عبد الله. واستفسرت هدّله: هل رقى الى علوة الدير؟ فرد فرحان مستنداً الى نافذته: غمر سفوحها بالتأكيد. وقالت شاها: بيوت العلوة التي في المرتفع أم التي في السفح، اذا لم تغلق أبوابها فانها ستغرق في النهر.

علينا يا عبد الله سد مصرف العتبة بقطعة قماش، وحصر الخرق في شقوق النوافذ ما دامت السماء تهطل. يا هدّله احذري ان تزعزعي النافذة، لا تضغطي بقوة على إطار الخشب، ليست النافذة مصرفاً لتدفعي الخرقة بهذه القوة، كلما دفعت أكثر ازداد الشق، يا هدّله احذري، اذا استمر عنادك ستحولين النافذة الى خرقة كبيرة. يا أمي توقفي توقفي، لقد فتح فرحان نافذة الديوان، توقفي كأن الرياح سكنت، اصبح الهطول عمودياً. وسمعوا فرحان يصيح: افتحوا الشبابيك، الرواق يحمينا .. افتحوا الشبابيك دون الأبواب. ورد عليه عبد الله: يا فرحان كلما نقول خلص ما ظل مطر ولا دنيا، ما ندري الا وتنقلب من جديد، أنوب، وتزيد أكثر وأكثر .. وعاد هذا ينراد لها سفينة النبي نوح ..

نحن لسنا ميتين حتى تمطر كل الوقت، لسنا ميتين! فكر فرحان وهو ينظر الى السماء، التي تابعت بعد برهة توقف. هذا بلاء يا شاها، تعالي أريدك .. تعالي الي يا شاها .. كيف يا فرحان ان يرانا أحد وأنا أطوف اليك؟ الكل يعرف أنك ستأتين سباحة، وهم سيغضون أبصارهم، لا يرونك وأنت تطوفين .. ألسنا ميتين يا شاها!؟ وفكر فرحان ان شاها ستجيبه ببلى، نحن ميتون يا فرحان. وفكر أيضاً ان هدّله بجانب عبد الله، وستنتظر حتى ينام جاسر: تطوف النساء الى أزواجهن عبر الأقنية الى نوافذ الغرف.

وهكذا حتى الموت لن يمنعنا من التطواف. نبدأ بفتح النوافذ، وننتظر لنرى ماذا بعد. انظروا الى السماء، ارفعوا رؤوسكم الى فوق: ها لقد انتهت وقرت وتبدت، السماء مرتفعة فوق رؤوسنا.

يا سرحان، صاح فرحان بأعلى صوته، وتابع : اغلق باب المرحاض. فأجابه سرحان ان المرحاض لا يعمل. وتذكر فرحان مجيء شاها، سباحة اليه، وهذا السرحان لا يفارق النافذة: اذهب يا بني سباحة، عبر النوافذ .. وافهم لنا ما الذي يجري، لماذا السماء لم تنقطع؟ ومر سرحان اجتاز الديوان ثم قفز الى نافذة الشارع ورمى بجسده هناك.

يا شاها افتحي نوافذ الديوان الثاني، والعبور سيتم منه، أنا من ناحيتي سأغلق النوافذ، ان العبور من الديوان الآخر، تعالي يا شاها قبل أن أغلق النوافذ. فالتفتت شاها الى مريم قائلة: ساعديني يمة أطلع من الشباك .. أبوك يريدني. فردت مريم متلهفة، ترفع أمها من عجيزتها: روحي يما الى أبوي وأنا أسبح لأفتح شبابيك الديوان. فحذرتها شاها وهي على مرفق النافذة: ارفعي يا مريم ثوبك زين وانت تعومين، انتبهي لا يبتل. واذا كانت شاها تطوف جانب أعمدة الرواق لاحت لها هدّله تمد رأسها من نافذتها مبتسمة، انت محظوظة. صمتت تنتظر مبادرة هدّله وتتابع العوم ببطء، قالت هدّله متلكئة: أقول .. ولِدكم طلعوا؟

لندع جاسر يخرج معهم، الكل يلعب في الدرب، وهذا فرحان بعث ابنه سباحة الى ساحة الدير ليتقصى الأمر، ربما عاد اليوم أو غداً .. واذا كانت السماء ستمطر فانهم قريبون من النوافذ يا هدّله، لا يمنعهم بدء الهطول عن القفز الى الديوان.
لكن الثوب فرّش في الماء، أفلتت أذياله عن قصد، وانها غفلت قليلاً في دوائر الماء فرفعت يدها المضمومة عن ثوبها لتحد براحتها اضطراب المياه. كان التيار يدور حول ساقيها وانعكاس أشعة شمس في داخلها يبدد ظلمة الرواق، وخمنت مريم انها وحيدة في الحوش وتركت إخوتها في الدرب، وتمعنت في الانعكاس، رأت زغب السيقان وارتجاج الباطن في صفحة المياه، هكذا اذاً عن قرب، تنهدت يا ربي، أرادت ان توقف الرجرجة، فنسيت وبسطت راحتها. تخال أنها في حمام مغلق، رغبة الاكتشاف تدور في أعماقها. لكنها أجفلت بالبرودة المفاجأة، سرت داخل كيانها مرعدة مقلقة، وزاد خفقان قلبها، وشعرت للحظة أنها تغوص في أعماق محيط، والماء يغلفها ويحتويها، وتخيلت ما يجري في الديوان، اقتربت تسمع ما تصور لها هواجسها / أنتِ بعد كل السنين الماضية، وقفنا خائفين من التنين، تجرّين أذيال الثوب الليموني، من فوق السد ذي الألسنة الثمانية.. وتقولين تعال/ حتى انتبهت، تذكرت ان السريان كان آتياً من النافذة المفتوحة، نافذة هدّله، استرجعت من ذاكرتها أمسية الليلة الماضية البعيدة، عند بسطة الدرج، في ضياء القمر.
وهزته المفاجأة، نزلت من حيث لا يدري، فنهض وسط الغرفة قائلاً: قوم يا أبني قوم العب مع الأولاد .. هاي مريم تصيحك، ما ظل أحد بالبيوت، كل الأولاد طلعت الى الدرب. فاستيقظ جاسر ونادى: مريم، أنت بالحوش؟ يربط أذيال كلابيته في وسطه ويرفع كميه عن ساعديه. وهدّله ترمقه بلحظها متجاهلة المياه والدير والسدة والهواشة ورجال السلطان. إلا ان أباه فكر إن طاف ابنه في الدرب، فلن يصل الى شارع التكية، وهو لن يخشى تداعي مئذنتها: يا هدّله ما بك خائفة الى هذا الحد، أتينا الدير من أجل ابننا جاسر، من أجل أن يحيا أكبر قدر ممكن، الحياة والخوف شيئان مختلفان يا هدّله!

كانت المياه أول مرة، التقت سيقانه مع سيقانها، فشعر بالبرودة والحرارة معاً، استند اليها عند مرفق النافذة، وأخذ يتباطأ بالنزول مستشعراً بدقات قلبها المبتل، بالرطوبة في جسدها الاسفنجي، وبهذه التلاع الرابضة عند مخرج النافذة، تسنده في صفحة وجهه وتومئ له بالبقاء، بذات النفس وبذات الجسد، بالخطايا المحفورة في وحدتنا وليالينا الساهية. وتنهد عبد الله وهو يتملى طواف ابنه مع مريم، وهو يعبر النوافذ، يرتطم بمياه الدرب.

في ذلك اليوم الذي أمطرت فيه على غير العادة، طافت المتاجر بكامل حوائجها في الشوارع، ووجدت أبواب الحوانيت مفتوحة على مصاريعها، وقد تسربت البضائع والغلال الى الجهة التي سار فيها النهر. ساحة البلدة القائمة في بسيطة التلة من الشرق كانت هي الأخرى قد نقلتها المياه، فذهبت معالمها تطوف كي تبقى بقعة فارغة صغيرة وسط الساحة، وانحرفت فامتزجت بواجهات متاجر الشارع العام الى الشرق.. ومتجر سرحان ومهيدي ثم بالتكية ذات المئذنة المائلة، حتى طريق القوافل الترابي الموازي للنهر.

كان سرحان يطوف مصعوقاً. التفت وهو ينثني، عند رأس زاوية دربهم، التفت الى مآل المئذنة الصامدة في وابل المطر، وحال لونها من طول المجاهدة فتهدلت شرفتها العليا وانسحنت أفاريزها، وبابها إما مفتوحا واما مغلقا، حيث لم يميز لها باباً ومدخلاً، غمرته المياه وهصرته الأرض. وكان الشارع العام متداعياً، يدوّم فيه الماء ويلعب في حواشيه وخباياه، وما انغمر منه يماثل ما ربى، فكان يتردد، مرة تغوص الروابي فتظهر أطراف الأرصفة والمصاطب، وأخرى يعود فيها ما غار وانطمس، تعود الروابي والسقوف الى مجلى النظر، فتبدو كأنها أرصفة ومصاطب تصعد الى الأعلى، فتنقلب الوجوه وتتردى المعالم. وترقرقت عيناه اذ مر بجانب متجره فلم يجد فيه شيئاً، انه خال فارغ .. ذهبت منه الرفوف والمناصب والخزائن وما حوت من القماش والملابس.

ورأى بعد ذلك وهو يبحث عن الدير، انه لم يبق شيء، كل الدير، سيقول لفرحان، طافت عن بكرة أبيها، ويلزم إنشاء دير ثانية، دير جديدة، تمتد من القشلة الغربية وحتى المدخل الشرقي للمدينة، وينبغي مد جسر جديد، عندما نتبين الأرض من النهر، لقد تهشم جسر الفرع الثاني من النهر، الجسر الخشبي القائم على السفن ودعائمها، وجعلت السفن الناجية من الغرق تدور في نواحي الدير، تبحث عن المرسى ولا تجده. وقال في نفسه: أو عجاج أو فيضان، ولا وسط!

واذا كانت بيوتنا المشيدة بالأجر والحجر ، متينة البناء ، وذات الميازيب والمصارف، قد غرقت أفنيتها بالماء فما حال المآوي الغربية ، منازل الصفيح والقصب الخالية من الأسيجة والأروقة ، المشرعة جميعاً ؟ وانني لا أرى منها شيئاً ، كأنها لم تكن . وقف سرحان أمام حي المهاجرين الذين فروا عصباً من أرارات . لم يظهر أمامه ما يدل على ان هذه الساحة المموهة كان فيها يوماً ما إعمار. وأين ذهبوا ؟ هل سلكوا طريق البادية ، بادية الشام ، حيث الأراضي المرتفعة المأمونة ، ام ان النهر قد ابتلعهم ؟ واستدار سرحان الى المكان الذي يتفرع فيه النهر الى فرعين ، فرع يمر بمحاذاة الدير وفرع يبتعد شمالاً ، وأمست كلها طوافاً ، حتى شجرات النخيل التي تفصل بأرضها النهر الى فرعين ، توارت واختفت ، وأصبح النهر كله ماء . انحدر سرحان الى ضفة

النهر التي قدرها دون رؤيتها ، وحادث نفسه : ان كان النهر سيبدأ فان اليابسة ستغيب ، لا تطأ قدماي الأرض . من هنا ، انه الفرع الأول من النهر ـ تخفق الساقان باتجاه العوم .
في ذلك المكان ، كانت الدير خلفه ، وكان في شمال الدير ، يبحث عن جسر الفرع الأول من النهر ، الجسر الحجري المرتفع الذي يصل بين سفح العلوة الشرقي والجزرة الواقعة بين الفرعين . وظن سرحان ان الجسر الحجري اختفى أيضاً . لم يظل أحد يا أبي ، علينا العمل ليل نهار كي نعيد الدير .
وجرى إحصاء جديد ، اليوم التالي ، عندما وصل اليهم سرحان يحمل أخبار الطوفان . البلاد كلها طافت لا طرقات ولا معابر : عدد الأشجار الباقية ، عدد المنازل الصالحة ، الأرصفة والدروب ، المتاجر والمحال ـ هل بقي السوق المقبي أمام العلوة جانب الساحة ؟
وبدت المدينة كشبح ، تريد النهوض والقيام من جديد .
وحملت شاها على دارها تنظفه وتخرج العطونة والرطوبة ، بينما راح سرحان يسدد خطاه الى ناحية أخرى ، معه كل الذين وجههم فرحان عبد الغني الشاهر الذي اقترح في ديوانه الليلة الماضية ان تتعاون جماعته مع جميع الديريين ، فيعتبروا الأمر غزوة جاءتهم من طرف الأعراب أو البدو ، حق عليهم الجهاد . هكذا تأخذ النساء الدور والحواش ، بينما يقوم الرجال بأعمال الترميم الخارجية . يرممون السوق ، فيعيدون قباءه ، يجددون ما تلف من الخشب والصفيح ، ويدعمون الجدران والعوارض ويدهنون الحيطان بالملاط والجص ، ويقومون بصناعة المناصب والرفوف والأثاث ، يستخدمون أشجار الجزرة بعد تجفيفها في أفران شي القرميد (النامورة) وإعداد الأفران لذلك الشأن .
وشرعت شاها المطر في التنظيف ، تعينها هدّله وابنتها زهية زوجة مهيدي ، ومعهن مريم وعبد الغني وجاسر وبقية الأولاد ، وكان سرحان يلبي ما يلزمهن لاستمرار عملهن ، وانضم حمزة المجدّل يساعد أمه ، امرأة المجدل ، في تأمين شؤون الطعام والطبخ ، لرجال الديوان الذين كانوا يأوون منهكين بعد صلاة الظهر وعند المساء . وقالت شاها : نبدأ بالديوان ثم ننتقل الى المرافق وبعدها الى بقية الغرف حتى اذا انتهينا ذهبنا الى بيت مهيدي . ولسهولة الحركة ارتدت النساء سراويل أزواجهن ، وعقدن شعورهن بالعصب وشكّلن أذيال الفساتين بمحازم الوسط . ووجد جاسر نفسه كالضائع في الأيام الأولى . يقف وسط الحوش الى أن تأتيه توجيهات شاها أو زهية : اذهب الى هناك وارفع مع عبد الغني .. اجلب لنا من أرض الحوش يا جاسر .. وما بقي من الأثاث .. احمل عن هند اللحاف ان تلوثه بالطين .. ساعدهم في حمل الأريكة .. خذ من عبد الحكيم وارفع المتكأ مع عبد الغني ـ وأخرجن في نهار مشمس الأثاث والفرش والسجاد لتشميسه فوق السطح . وأرشدت هدّله

ابنها جاسر الى السلم قائلة : تحمل السلم يا جاسر الى الديوان .. الشرخ كبير أعلى الحائط ، اجبل الملاط وارفعه إليّ ـ أعلى درجات السلم صعدت بينما كان جاسر يرفع رأسه ويديه كي يناول هدّله الملاط . وكان راشد يشير الى هدّله : يا عمة هناك شرخ آخر ، جانب جاسر ، فيلتفت جاسر الى الشرخ الآخر ويرى أنه غير عال ، قريب ، وسأل جاسر راشد ان يجلب له السلم الصغير كي يقوّم الشرخ ، فما تبقى من الملاط يكفي . وهكذا اعتلى جاسر السلم الصغير ، يسنده له راشد بيد ويحمل بالأخرى صفيحة الملاط ، وأخذ ينهمك في إصلاح الشرخ . وقالت هدّله وهي أعلى السلم : ادفع الملاط يدخل ويتغلغل في أعماق الشرخ يا جاسر .

أما حمزة المجدل ذو العينين المموطتين فراح يعيد على شاها المطر حكاية الماء الذي نزل عليهم من الجبل مرات دون ملل : بالاضافة الى السماء كان الجبل ، سيوله ضربت واجهة الدار وراح الفيضان يسير في الغرفة حيث شاء وأراد ، ونحن الذين داهمتنا السيول لم نجد بداً من الانتقال الى كشك الحمّام العلوي واحتمينا هناك طيلة فترة المطر ، وإن هدأت الدنيا ظلت السيول الجارفة في البيت ، الى الآن يا عمتي أم سرحان . وفكرت شاها في كيفية إصلاح المرحاض الذي امتلأ بالماء ، لا بد من تصريف مياه الحفرة الغارقة حتى فوهتها . وألمح لها قائلاً : لا بد من حفرة ثانية يا عمتي أم سرحان ، وإن كانت الدار لا تتسع ، علينا استعمال حوش خالنا أبي عفراء ، فهو كبير ولا يهمه حفرة ، في أطرافه ، مسقوفة منيعة . وأما الحائط الذي بينكم فلا خوف عليه من الانهيار ، سنأخذ ذلك بالاعتبار . خلف بناء المرحاض سيتم الحفر ، وسنفتح فوهة القسطل أسفل الحائط ، ونغير ركن القاعدة ، نصلها مع القسطل المؤدي الى الحفرة الجديدة . هكذا أفضل من هدم المرافق كلها لبناء جديد .

وزهية ومريم حملتا على إصلاح النوافذ التي خرجت عن أطرها . فأعادتا تثبيتها بالأسافين من جديد ، وغيرتا الزجاج المشجوج وأضافتا عجينة الزجاج للتماسك ، ثم دعمتا الشقوق بالعجينة نفسها ، حتى اذا ما انتهتا من ذلك انشغلتا بتجديد الدهان للأبواب والنوافذ ، ولبستا لذلك مريول الدهان واستخدمتا غطاء الرأس لحماية الشعر الأسود .

يبدأ العمل بعد الافطار ، عند صلاة الفجر ، وينتهي بحلول المساء ومجيء الرجال منهكي القوى من أعمال الترميم ، ويتم بتحضير أواني الطعام الجاهز المرسل من قبل امرأة المجدل . وعقب نهاية العمل اليومي كان بعضهم يتملى الاضافات الجديدة التي حدثت أثناء النهار ، ويجد ان استمروا على هذا الغرار، فسيتم عملهم ويكمل .

وأخذت النشوة بنياط قلوبهم عندما تحركت الحياة في الأمكنة القليلة المنتهية ، وزادتهم همة المشاعر الجديدة المتولدة عن التعاون والرغبة في الفوز على الخراب . وكان الجسر الخشبي إذا انخفضت المياه وبان مكانه ، يقلق العمال

في أسلوب تنفيذه وفي إقامته وما ينجم عنه تدخل متصرف المدينة وأعوانه ، هؤلاء المشغولون في شؤونهم وشؤون الاستانة والحرب التي لن تنتهي أبداً . وقال لهم فرحان بألا يقلقوا ، ليتركوا ما بأيديهم وينفذون أوامر المتصرف الجديد ، ينفذونها دون تذمر ، لأن المدينة بالنهاية لنا ومهما طال الزمن . ثم إن أرجأنا بناءه اليوم فأننا سنبنيه غدا ، نحن بحاجة اليه . وهذا ما جعل ورشات العمل تنتقل الى ناحية الفرع الثاني للنهر ، وفرغت الساحات والدروب من الرجال ، إلا من قادته خطاه للبحث عن بقايا السفن المنكوبة في أرجاء البلد . وراح رجال الديوان يتأخرون عن مواعيد الطعام ، فتنتظر شاها والنسوة بفارغ الصبر ، ان يأتي الرجال كي تستريح الليالي في الدير .

إبان ما جرى لبناء الجسر الخشبي تذكر جاسر الرحبي بناء السدة . وراودته الأطياف البعيدة ، الساجية على ضفة النهر العلوة السدة الهواشة وشجرة زايد ـ يا أبي . كان التراب الذي نثره بينما جلس أعلى السدة ، على قمة الأمواج المتلاطمة يمر بخياشيمه ، مرت به كُدريّه ـ لا كإمرأة بل كهاجس يصيبه ما كتب الله له من حياة . وهاهي بالقرب منه تمس أهدابه الساكنة ، ذات العينين الراجفتين أيام الوداع ، يماثل بها كل النساء الرائعات ـ يا أمي . أراد في لحظة واحدة ان يقول انها هند .. / .. ومن تكون بعد السنين الطويلة غيرها على حافة السد ذي الرؤوس الثمانية .. تندلع الرائحة الوحشية من ألسنته المتدفقة على الطريق الترابي ، لم كل الأيام العجيبة مشتركة ومتشابهة ؟! .. تمسين أهدابك في ساعديّ وترتجفين من البرودة الصاعدة وأنت في ثوبك الليموني / وأتاه صوت عهده منذ القدم : كل الأيام سواسية ، كسر السدة وبناء السدة كسر الجسر وبناء الجسر ـ كنا نلعب يا أخي لعبة الصميمة على النبي صلينا ، عندما أناخني فواز ، قال لي نح جسدك الى التراب ، أنت اليوم مسبوق ، وسمعت منك يا أخي الصوت الذي قفز من أعلى السطح صوت الطوب وال هدّله . كالطوب على حصان الهيلوان وهيلوان الشكشكان شكشكان البقارة . لم كل الأيام وراءها ليل يا أخي ، كم أنت ليل أيها الليل ؟!

لم يبق ليل وما جاء الرجال يا أمي قال جاسر لهدّله وصارت تنود من النعاس والجوع . طلع الفجر يا جاسر ؟ سألت هدّله . فرد جاسر : ابداً ما يظلون الى الآن يا أمي ما يظلون الى هالوقت . لعل سرحان يأتي بأخبار تزيل الخوف والوسوسة .

وأخبرهم سرحان عند عودته : قبل فوات الأوان هربوا ، رموا أنفسهم في النهر واختفوا فيه . وسمعنا اصطفاق النهر ، فحدق الجند العثماني بجحوظ وبلاهة الى تحت وصاح أكبرهم : اذاً أين ذهبوا ؟ ولم يكملوا بناء الجسر بعد ، انكم تخفون أمرهم عنا : ولك بوشمان عكروت ، صيح اللي يعمل في بناء الجسر يجون الى هون . وأمر الجند بالبحث عنهم وبالانتشار على طول

الضفة للقبض عليهم متلبسين بالجرم المشهود . ثم اقتاد الجماعة الحاضرة على الحدث الى القشلة الغربية ، اعتبرهم على علاقة ما مع الفارين . وتأخر الذين ظلوا عند الطرادة الأخيرة يصلونها مع التالية ، فيقدمون هذه ويؤخرون تلك كي تتطابق الأولى مع الثانية ، وكي تتداخل الأفاريز وتلتحم الاعضاد ، بما يؤمن متانة التماسك . وسألت شاها إبنها ان كان الرجال الذين اقتادهم الجند الى القشلة سيبقون هناك حتى يُقبض على الهاربين . فقال سرحان : ما لهم ذنب ، لكن راح يظلون بالقشلة الى ان يفرجها ربنا . وتحمدت هدّله ربها قائلة : الحمد لله يا بني كنتم بعيدين عنهم ، هذول مثل الشياطين ، الواحد منكم لزوم يبتعد عنهم بكل ما يقدر ، يتهمون الواحد بلا أي سبب . وطلب سرحان من أمه إيقاظ الجميع عند الفجر ، رغم تأخرهم هذه الليلة ، سيتفقدون الأسماء في بداية العمل ، ومن يتأخر سيقاد الى القشلة الغربية ، وأردف : ما بقي يومين ثلاثة وننتهي من هالماخوذ ، ونخلص منهم ومن أشكالهم .

وقبل أن ينام ، وأن يضع رأسه على الوسادة ، وجد ان إيقاظ أهل الدار عند الفجر أمر صعب ، لا يستطيع أحد منهم الاستيقاظ بعد كل السهر . وتخوف في رواية سرحان في تفقد الأسماء ومن يتأخر يسجن في القشلة جزاء على تأخره . وكان يسمع شخير أحدهم ، يبين مقدار التعب الملم بهم ، يسمعه من الديوان حيث تبات الرجال ، عبد الله ومهيدي وفرحان وعبد الرحيم .. وفطن كذلك الى النسوة المتعبات من الانتظار ، لم تنم أي منهن قلقاً على زوجها . استلقى جاسر الى جانب عبد الغني وراشد في الديوان الثاني ، حيث نامت فيه النسوة ، جانب بعضهن . لقد أطفأ بيده لهيب الضوء ، نفخ الهواء على الشعلة المتذبذبة ، فبدا بارداً معكراً ، تنفس بحرقة كي يسمع أيا كان ، انه ما زال مستيقظاً ، ويريد أن يشاطر من يرغب بالسهر وبالتوجس ، فأطفأ القنديل، تقدم الى مسنده في الجدار الجانبي ، ووقف على رؤوس أصابعه ، كان ينعرج متمايلا ـ طريق الضوء الذي تفتحه شاها أو مريم عند المساء ينتهي الآن شاحباً ذابلاً ، فيتحول الى هباب ينتشر في فضاء الغرفة .. ذليلاً من الضعف فيراه يتكلم بوهن : كفى .. كفى . وتقاعس قليلاً الى الخلف ليرى الزجاجة البيضاء .. كانت بيضاء ، تختلط بالزيت والسناج .. وخلفه كانت النائمات ، فاذا عاد الى الوراء فإنه سيعثر بأقدامهن المليئة باشنيات رطبة ومطر هطل بغزارة . وتشبث بأصابعه المرتجفة من السهاد والغربة ، بأطراف مسند القنديل ، وما زال على أصابعه المتطاولة الى حيث ـ لا أدري . وكان يلتفت الى ما وراءه كي يرى حركة النوم والليل . أطفأ لهيب الزجاجة وتنفس بقوة ، قبل انتشار رائحة الفتيلة والكازولين المخمد . وعاد يتصنع الحذر ، من أن يطأ بأقدامه أقدام المستلقين جانب بعض ، فوصل الى الفراش الواسع التي فرشته شاها لهم ، وتحسس أطرافه العالية ثم قفز ما بين النائمين فوق اللحاف . وكان يقرفص ويسند ظهره الى الحائط البارد ويرى الغرفة وقد

امتلأت بأشباح أخذت شكل خيط متمايل منهك . وامتلك في لحظات وهو ينظر الى الظلام والسديم ، كل الذين حوله ، فأحاطوا به مطأطئين : كل ما تريده يا جاسر ونحن نائمون . وأحس بحرارة في رأسه عندما تخيل أن سرحان يندلس مع عفراء دون علم أحد من أهل الديوان ، ينام معها في الطرف التي تنام فيه هند ، ومريم التي أحاطتها بذراعها ، نائمة ولا تدري بسرحان الذي أبعد هند مسافة أرادها كي يبقى الى جانب عفراء . هكذا اندلس كالآخرين الى جانب راشد وعبد الغني ، وشعر بدفء النوم والراحة من الظلام والخوف .

البارحة ، كان السقف في عينيه مظلماً ، البارحة كادوا ينهون ترميم غرفتهم ، الغرفة الملاصقة لغرفتي مهيدي ، والمفصولة عن الحوش بجدار كان قد فتح مهيدي منفذاً فيه حين تزوج زهية ابنة فرحان ، وبيده كان يقود المدحلة لتقوية سطح الغرفة ، واسترجع ثانية خفقان السطح إذ مر بالمدحلة من وسطه . ووقف في وسط السطح ، لا يتحرك ، يجر المقود الى نهايته ، مانحاً للمدحلة ، الوصول الى آخر السطح بقوة الدفع الذاتي ، حتى إذا وصلت حوّل مسارها ، يشدها ثانية الى الاتجاه الآخر ، دون أن يغادر مكانه . ينسحب معها اذا اقتربت ، ويندفع معها حين تبتعد ، فيدور بوسطه الى الناحيتين ، حتى اذا مرت بقربه أبعد أقدامه الى الوراء خشية أن تهرسها. ولكن الرقصة لم تدم ، قبض على فرائصه وهو في الفراش يتخيل ذلك ، سمع صوت ولولة النساء يصعد اليه من الفناء ، ورأى مريم تركض باتجاهه على الدرج ، تشير بيدها وتصرخ : بس يا جاسر . تكاد تقع من الخوف : بس يا جاسر . واسترعى انتباهه ما يجري تحته ـ ان الارتعاش الناشئ ليس من أقدامه ، والرقصة الموفورة ، يميناً وشمالاً ، لا شأن لها بالاندفاع والانجذاب مع المدحلة . كان السطح يرتعش ويخفق ، فترك جاسر المدحلة ، تدرج على السطح بخط مائل باتجاه سطح مهيدي ، وتراجع الى سطح الديوان ملتقياً بمريم اللاهثة ، يندهش ويتفزع مما يجري . ونظرا الى المدحلة السائرة في طريقها تدب على أطراف سطح مهيدي ، كالسائر في نومه ، وأمسكت مريم بيده ، غرزت أصابعها خوفاً الا تهدأ حركتها المتجهة الى فراغ . وكيف أفلتها ، لم يوقفها ! الوقت أمسى برهة للحركة ، ليندفع اليها قبل وقوعها ، لكنها كانت شكل الانتهاء والصمت ، فوقفا ينظران في حيرة من أمر فر من أيديهما . وشهقت مريم اذ توقفت المدحلة . نصفها على السطح والآخر طليق ، تسكن على الوضع القلق فلا تستقر أبداً . وانطلقا متحاذرين ان تسير أو تميل بأرضها نحو الفضاء الواسع ، وجرّت نهايتها يساعدها وتساعده . كلتا اليدين ممسكتان بالمحور والمقود المترنح .

كاد يتم تسوية السطح ودكه لولا الارتجاج ، ويصل الى النهايات عندما حدث ما حدث . كانت المدحلة تمر بطيئة ثقيلة بالقرب منه ، فيبتعد متقاعساً الى الخلف ، ويحس باضطراب البناء واهتزازه كلما وقف وسط السطح ، ينتظر

اقتراب المدحلة من جديد . تموج السطح يدفع عنه الضيق الخانق فارتعب في انهيارٍ محتمل للبناء .
ولاحظته هدّله الخضر ـ وإنها هدّله ذات الساقين الطويلتين ، تمر من بينهما المدحلة ، حرة لا تمس جوانبها فضفاض السروال الصوفي ، وباليدين تشبك هدّله مقبض المدحلة ، محنية الى الأمام وتغرز قوتها فيها ، ثم تسحب المقبض ، حتى تمرره من الأسفل ، واذا أصبح المقبض خلفها رفعت إحدى يديها الى وراءها تمسك بحركة انزلاقية ساق المدحلة ، وتمر المدحلة مبتعدة الى وراءها ، فترفع يدها الأخرى تسبق الحركة الصوانية ، المِدكّة ، وتسمح باليدين المتشابكتين للمرة الثانية ، خلف ظهرها ، بدفع ما تبقى من الساق الى نهايته ، ثم تجذب الحركة وقد انحنت الى الأمام أو الى الخلف ، كما يطيب لنا، تغير وجهة المدحلة لتعود من حيث أتت ، أسفل أم بين .. وأمامها الى مدى الطرف الآخر من النهاية الأولى . في مكانها .. تهبط ثم تعلو على مسند يديها وساقا البنطال الصوفي تتباعدان ثم تقتربان حسب المرور .. ولا تراها اذا درجت خلفها .. تقدرها .. أين موطئ الأقدام ومستوى الربوض .. على مسند يديها .. ويا إلهي انها في الرحلة التالية تصم كلا اليدين فوق ظهرها ، المدحلة!
هدّله الخضر، أم محمد الرحبي، تلعب الصميمة فوق السطح، مع المدحلة الصوانية ـ مستوى الارتفاع في الهواء يوازي أغصان شجرة التوت العليا، ويوازي عنق شجرة النخيل في حوش مهيدي مهيدي الخضر أخي هدّله. وتقفز بارتياح على مقبض المدكّة ، تبعد ساقيها الصوفيين ، هكذا، صلينا ما بطينا ، الهيلوان يرجم الضفة في تيه .. المدكة المصمتة . وعندما رآها جاسر ، وما زال في فناء الحوش ، تركض .. تنبسط .. تقفز .. فوقها .. ولا تدع شيئاً من المقبض يمس انفراج الساقين .. تنط وحيدة في المدكة فوق السطح ، ويسمع أثناءها لهاث أمه ويرى أطراف العصبة ترتطم بجدائلها فيتخيل .. / انها هي / صعوداً اليها ، على الدرج المتسابق نحو هدّله . فقالت أمه : ثقيلة عليك يا جاسر .. شوف عمل آخر . وارتجاها الابن : مرة واحدة يا أمي ، أدرجها مرة واحدة بس .. من هالطرف الى هذاك . وأشار بأصبعه الى طرف السطح البعيد. فتوقفت مقطوعة الأنفاس ، حدقته وصدرها يرتفع وينخفض ، قالت : لا تجرك .. احذر لا تسحبك المدحلة يا جاسر، هي .. هي ثقيلة . وأخذها ، أمسك بقبضتها ، تلمس صلابتها ، ورمق أمه تنظر اليه بتوجس فرد عليها : شوفي يا أمي . وراح يجذب بكل طاقته ، بكلتا اليدين ، من هذا الطرف الى ذاك الطرف. ثم أوقف الحركة يلهث ، وسط سطح الغرفة ، وأومأ لها وهو يلصق ساقيه ويدبك بقدميه على السطح اللين : شوفي .. السطح هش ! وكاد إذا ما يندعم ، هين ، ترى ينخرق .. هه هه .. من هالمكان . فتقدمت هدّله منه ،

تحسست الموضع بأناملها وقالت بجلاء : إنـه هـش يا بني ، هش ، ونوبة نوبتين بالمدحلة كان سيقع .

ان الوقت لم يحن لصلاة الفجر ، فدفن جاسر رأسه في الوسادة منتظراً حلول الصباح ، ولم يعد يسمع سوى الهدوء ثم الأزيز ، لقد غاب شخير المتعبين ، واستقر النوم . النوم والظلام واللحاف تترقب صياح ديكة أبي فاطمة ، في العلوة ـ ومحمد وفاطمة تحت . والمنزل الساكن المتداعي في رأس العلوة خال من الأهل والأقارب ، ولا يكاد يمر به عايد الخضر لأن الأشباح ترنو ، من السجف التي كللت بها هدّله الفرش والأثاث.
لو نسي ، وأخذه الدوار ، دوار المرتفعات والبحر البعيد ، لأعاد الكرّة الأخرى ، والأخرى . ذلك ان الرابية الشاهقة خطفت كيانه ، وتذكر كثيراً الرحبة - مرتفعة وأسارها محيط . تشهق خوفاً . أول مرة أرى شجرة النخيل من أعلى السطح ، على أنني صعدت السطح مرات دون رؤية شجرة النخيل في حوش خالي مهيدي ! وأطبق حنكه بقوة ، ذلك للقدرة التي منحته قوة الكشف : انه هش يا أمي . وضغط بوسطه المستلقي في الفراش ، مرة ومرتين، صعد وهبط ، وكأنه فوق الفراش والمرمر ، هكذا الى أن بزغ الفجر.

12

الديوان فتح أبوابه بعد انتهاء الترميم في المدينة، بعد إصلاح الجسر الخشبي، جسر السفن الممتد في الفرع الثاني للنهر. وعادت منافسات لعبة (الدوملا)، لعبة الشياب كما يطلق عليها فرحان، ذلك لأنـها تستقطب شيب الحي، فينزوون حول اللعبة، غير منتبهين الى الأخرين، مستغرقين في لعبتهم لا يشتت انتباه أحدهم سوى رفة جفن أو ضيق صدر.

وتفترش أرض الديوان الطويل طرحات ومساند جدارية، تفصل بينها النمارق بارتفاع مرفق اليد. وتقوم في وسط الديوان مدفأة فحم، تصعد من أعلاها أنابيب دخان الى زاوية السقف. جانب المدفأة كانون نحاسي للقهوة المرّة، يظل متقداً وبداخله دلّتا قهوة مع فناجين على مصطبته. أيام الشتاء تغلق النوافذ، ويكتفى بالباب الرئيسي فينغلق الباب المجاور للدرج بمتراس ورتاج. وفي المساء يتهافت الضيوف الى الديوان، يمتلئ بعد صلاة المغرب، ومع ان البعض يأتيه بحلول العصر، إلا أن ما يجري فيه بعد الصلاة يمنحه ملاحة السمر. وقبل المساء يضيء سرحان مصباحي كاز معلقين في السقف الى قضيب حديد، وينتظر عودة والده من تكية الراوي، مع من يتبعه في جدل ديني يستمر الى حد دخولهم الدار، فيسمع بعض المحاورات التي فتحها لهم إمام التكية وشيخها، قصص التقوى والحساب، خاتمة الصلاة التي تتسع وتتشعب.

وتطول الليالي، فيبقى الديوان مناراً، يسهر على خدمته كل ليلة سرحان وعبد الغني، الى وقت تثاؤب فرحان بجانب الباب مودعاً الزوار. ولا تفوت الشباب ما يقال فيه وما يحتسب من القضايا الهامة. كانت الأخبار والقرارات المستعجلة تنتقل عبر سرحان وعبد الغني الى مجلس النسوة. واذا كان سرحان مواظباً على الخدمة فيه، فإن أخاه عبد الغني لا يتردد في المكوث في مجلس الأسرة الذي يتخذ في إحدى الزوايا لعبة الكعاب أو الدارة قرميداً: رحلنا نزلنا بداره جديدة يا منقاش الله تكون بهذي النقطة .. (لعبة الصغار)

الذين يتحلقون حول اللعبة للمشاركة فيها. أو لعبة الحزرات، بينه وبين مريم وعفراء ومن يشترك معه من النسوة الصبايا.

انهم يستلقون جانب بعضهم، وكثيراً ما تجمعهم بطانية وغطاء، ويجدون لذة في ارتطام سيقانهم، يتغطون مستندين الى النمارق الملصقة بالجدار، فيسأل أحدهم، ما هو الشيء الذي يتطاول في صغره وينتهي في كبره؟ الشيء الذي نهايته كبيرة وبدايته صغيرة؟ طاسة طماسة ببطن البحر غطاسة ..؟ أولها عين وآخرها شين! حتى يناديه سرحان أو ينبعث في نفوسهم الملالة فينحون الى التغيير. كل الأيام كانت هكذا ما عدا الأيام التي يذكرهم فيها فرحان بالعودة الى قراءة ختم ربع ياسين، وقراءة بعض سور القرآن جماعة.

عبد الغني يمط بوزه، يساعده في تشكيل مقصده أنفه الحاد، لا يمكن لجاسر أبداً أن ينسى يوم النزهة- من منكم يستطيع فعل ما أفعله؟ ان جاسر سيحمل نفسه على الابتعاد، لكنها تستوقفه. أنت يا جاسر تريد ان تكون كعبد الغني.. ولا تقوى على رمي نفسك في النهر.. في المياه.. أنت!

وكان اليوم الذي دخل عليهم سرحان. واذا كان جاسر لم يحدد وقت دخوله الى الديوان، فإنه حدّد الرسالة التي حملها. عرف الرسالة من الجهة البعيدة ـ وكانت آتية من هناك. فتسمرت الوجوه، استقرت في شبه سكون، جامدة في مآقيها، وجحوظ وندم، أحاسيسهم تأنيب ضمير. ووضع فرحان يده على صدره، فلاحظ سرحان وهو ينقل النبأ أن والده قد توغل في الشيخوخة، توغل قبل الأوان. وانتقل ما قاله سرحان الى الديوان الثاني، ثم الى بقية الغرف.

لقد أمسك الدرك بالهاربين، عند محاولتهم تبديل مكان المخبأ، وعندما لم تقدر الضفاف والقرى، الأراضي الواسعة، على احتضانهم أطول من ذلك، أمسكوهم. كانوا قد هربوا باتجاه مجرى النهر، ومن على الجسر الخشبي المحطم، جسر السفن الضائعة في فيضان جاء عن طريق الهطول والسماء، كانوا يدركون ان الهرب هرب مؤقت.
وضع سرحان كلتا اليدين، على طرفي الباب المفتوح، وكان الرجال ينظرون اليه مخمنين. وكانوا متأهبين كي يسمعوا منه.. فصمتوا. ربما كان الوقت مساء، وخمن جاسر أكثر من ذلك.. الليل والمساء والعصر الى نهاية الصباح، كلها نقلت الرسالة التي حملها سرحان، فلم يكن الديوان ممسياً ولا معشياً، كان الديوان في ذلك الوقت ينقل ما قاله سرحان. وتخيل فرحان أنهم سيبدأون التحقيق معهم، حالما يصلون الى القشلة الغربية. قال سرحان، كأنه يلهث، وما

زال في الباب: إن المتصرف نصب المشانق في الساحة منذ الآن، قبل وصول المتمردين، يقال ان العقاب سيتم قريبا.
وساد صمت ثقيل في الديوان، مدد فرحان قدمه اليسرى الى أمامه، واستند بيديه على الأرض، ثم أطرق واجماً محنياً. وردد أحدهم: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. وتدخل رجل عجوز ظل يقبض على حصى الدوملا بيده، قال ببحة الكبر: يا أبو سرحان.. نشوف ولد العايد، وكاد عندهم حل، ويؤثرون على المتصرف. فاستدار اليه فرحان دون أن يتكلم، رفع جبهته الى مكان آخر، يتصور كيف يستقبله أولاد العايد.. وأردف ثانٍ: نروح كلنا يا أبو سرحان .. نمشي إليهم عشائرية. فقال فرحان: الموضوع ما ينراد له عشائرية ولا مشية.. اذا كان فيهم دم مسلم يتصرفون رأساً .. وما ظني عندهم هالشي.

اقتحمت الأفكار رأس جاسر الرحبي، كيف يحدث هذا في الدير؟ حين كَسْر السدة، كما رووا له، لم يجازف رجال ابن المضحي في التدخل، بمنع أخيه محمد من كسر سدة الساير، وقفوا كشاهد على ما حدث، ولم يبددوا طلقة واحدة. أما هنا والآن...فإن التهاون وعدم الحرص يدل على التخريب والخيانة وتنصب لأجل ذلك المشانق!

وكانت الرياح تلعب بهم، تؤرجحهم يمنة ويسرة، حتى كادت الأعين الدامعة تترك ما تراه مكرهة. وقال في نفسه، انها المشانق يا جاسر، أول مرة ترى هذي الحبال، حبال الموت. في الساحة المشتتة نصبوا ما استطاعوا من الأعمدة والصلبان ـ تدلوا الى ان الأرض كانت واقفة! وقدر من مكانه ان أحدهم يشبه خاله عايد الخضر، هذاك .. ذو الشاربين المعكوفين، كأنه عايد الخضر، ذو السروال والجلباب الفاحم. لذلك أحال الليل الأشياء الى سواد. والكهربيات المضيئة، عند نهايات الشوارع، وفي الساحة، جعلت الأشباح المترنحة تعود الى زمن عتيق، أطراف الأراضي الخاوية. وهو إذا عاد فلن ينسى ما رأى.. وأضحت الحلقة التي تحيط بالمعدومين ضيقة، خانقة، أزادت الإظلام فمنعت الرؤية. ووجد وجوه الناس الذين حضروا ترتفع الى فوق، تحدق في المكان الذي كانت المشانق فيه.. وأين الصلبان والأعمدة المرتكزة على الساحة المصنوعة من الورق المقوى، المصنوعة من بقايا ما حملته الأمهات والصبايا الرازحات تحت الظلال والجذوع المنسية؟

قبل أن ينقل سرحان الخبر كان مع الآخرين تحت غطاء البطانية، يستشعر المدى الممكن، والى جانبه عبد الغني وراشد وثمة نسوة كثيرات كانت معه. يخيمون للسمر والحزرات الملغومة. غاب عبد الغني في زاوية الغرفة والى

جانبه جاسر ثم راشد ولقد تقدمت اليه من الطرف الآخر مريم ثم هند .. وهكذا تشكلت سلسلة كانت عفراء نهايتها وبدايتها.
صمت يتملى سماء الوجوه الغارقة في تفكير وحلول مناسبة. وما زالت لعبة الحزرة. عفراء ترنو الى عبد الغني، ومريم تجاهد في البحث والاستقصاء، وجرب مرة كي تلتقي عيناه بعينيها، فرأى الى وجهها الساهم دونما جدوى. ولم تره كما رآها، فأخذ يبتعد عنهم، أطرق برأسه جانباً ونسي وجهها المعفر بالأسئلة والحلول. غاب عنهم. يقيس مساحة خطوة واحدة ليصل اليها .. حتى استفاق على صوت شاها الرخيم: شكون به جاسر لسه زعلان على العلوة؟ وكم كانت هذه اللمحة طويلة، أحس ان الحياة، كل الحياة كامنة في المرور الخاطف.
استمر شعوره، حزن واحباط. مريم تجيب على الألغاز ببراءة ثم تحدقه بكبرياء، فيلتفت الى هند ثم الى عفراء، يتمرى بقية الوجوه التائهة. ولقد أخذتهم الألغاز، تنامت فيهم ضرورة الزهو والمنازعة. وعندما سمع ما قاله سرحان لرجال الديوان، كان قد غاب، سمع سرحان يؤكد ان المشانق نصبت لمخربي الجسر الخشبي، والذين لفقت لهم تهمة الجسر وتهم أخرى. سيشنقون عند المساء، بحلول الليل، ستلعب بهم الرياح، ترنحهم كالنواس.

وسلطت الظلمة برودة، أنزلتها كالجليد، فتحولت الساحة الى وجوم وذهول. وبالكاد استطاع الرجال الحاضرون رفع وجوههم الى المشانق الغائبة. وكانوا يشدون ياقات معاطفهم بقوة ان يتغلغل الجوى الى صدورهم. وكانت أوهاق المشانق مغلقة على الرقاب ويبس الصقيع قد نال الأجساد والحبال، لا فرق أجساد ميتة أم أجساد ما زال الدفء يمر فيها، دفء قديم. ورفع سبابته اليه: أعايد الخضر؟ الشاربان معقوفان الى الأعلى، والملامح متأهبة للدخول في حجرة نار، والكهربيات تلقي عليه الضوء، يخيل اليه انه عايد على فرس طائرة في السماء.

قرفص، ألصق ساقيه الى بطنه، وتجاهل السريان الذي نقلته السيقان، نسي الوجوه المشتعلة، اللاهبة. تحول عن أنفاسها وعن الالتصاق العذب تحت غطاء البطانية. وتجنى على نفسه: إنه منفي، لا يروق لأحد، ولا يحزر ما يريدونه منه. لذا تحول عن مريم، وعن النكات والألغاز.

وجاءت أخبار سرحان له، له وحده. لا تعني أحداً سواه، فزم شفتيه يظن ان بينهم عايد الخضر. وما زال في جلسته ينحي الغطاء عنه، يقوم الى سرحان كي يتأكد ثم ينفذ الى طريقه، ماراً بالصامتين من رجال الديوان الذين اقترحوا الذهاب الى أبناء العايد لتخفيف حكم المتصرف. وسمع ورأى، ما قاله سرحان

عند عتبة الديوان، يقف متصالباً مع الباب المفتوح. باب الديوان الأول قبالة باب الديوان الثاني، بينهما الممر، ممر مفتوح على جهات أربع، الحوش والدرب، الديوانين الأول والثاني.. وحاول جاسر تقليد سرحان في وقفته، فمد يديه الى ضلعي إطار الباب ومس ببنانه الإطار، وكأن ما نقله سرحان الى رجال الديوان نقله جاسر الى الديوان الثاني، دون ان يلتفت اليهم، قال كما روى سرحان: انهم ينصبون أعمدة المشانق، وأضاف قائلاً: في كل البلاد.

من خلف ظهره أراد ان يقول، بلا التفات، بينهم يا هدّله عايد الخضر. لكن الممر الضيق وظهر سرحان البادي أمامه والعيون المحدقة، جعلاه يفوت ما حاول قوله. التجأ عند طرف الباب منزوياً ومنكمشاً على نفسه، وان تقدم داخل الممر ليرى من تحت إبط سرحان وقع المفاجأة على الجميع. نظر الى المجلس المتطلع بفيه مفتوح، من تحت إبط سرحان كان يرى مدى الأفق وصدر الديوان. ولاحت له مريم تريد ان تتعرف عليه من جديد. جانب الباب ووراء العتبة، يتخيل منظر خاله عايد في حبل الإعدام وضوء الكهربيات يملي عليه بعض الوقار. ووجد حاله يسأل أمه عن عايد الخضر، الا ان هدّله ظلت مستغرقة بما جرى، لم تجب ولم تعر انتباهاً لابنها الغائب في هواجس أفكاره. هكذا اذاً، قال لنفسه، عايد معلق من رقبته ولا أحد يدري.

لم يمر بنا منذ زمن بعيد.. اذا هو معلق من رقبته الى مشنقة!

بعد ان امتلأ الممر بالنسوة يستمعن الى ما يقال في الديوان، ترك جاسر الدار غارقة في صمتها المطبق.. الثقيل. عندما أطرق فرحان الى الأرض، غادر جاسر الممر، اجتاز مريم وأمه وشاها .. الى الخارج الى الشارع العام الى الساحة في نهاية الشارع: انه الكبر يا جاسر .. لم أعد أملك شجاعة الإقدام والبطولات وها أنا أقع وغمرتني الشيخوخة يا ابن أخي. والهيلوان هدته المسافات الطوال، قضت عليه فترنح تعباً، مات قبل موتي يا ابن أخي.. الهيلوان، وتراه مضى بي الى اليمن والحجاز، عبر المتاهة يا جاسر وقطع بحار الدنيا السبعة! وكأنني أحكي ولا أحكي، الحياة ليست حكاية، انتهى عهد الحكاية والهيلوان! انتهى ونكاد نصل.. والمساء قد حل والساحة راحت تغيب.. لم يفتتها المطر بل المساء الغامض، العتمة أحالت لونها وجعلتها تميل كما المئذنة، مئذنة الراوي يا جاسر، انظر اليها مائلة وستسقط عما قريب، ستسقط الساحة يا جاسر! انتبهوا وابتعدوا. فغادر جاسر الدار مسرعاً دون انتباه أحد. ظلت الدار تطيل التفكير بلا توقف، لدفع أولاد العايد على التوسط لدى المتصرف، بينما ذهب جاسر وحيداً، الى المشانق الى الساحة الى الشارع العام، والحوانيت المغلقة والمئذنة المائلة، غادر بيت فرحان تلازمه وتمنحه

مرفقها لتقوده بين الأحراش والبساتين المعزولة في أقصى البلاد. وإبان ذلك هبّت نسائم طرية بلّت جسده الجاف وحرفته حيث الساحة المنصوبة، منصوبة من غير إعدام، وتراءى له عايد الخضر يتشبح بين الإعدام والصبر.

ستمتلئ الساحة عما قريب، حين يجن الظلام، عند مجيء العسكر بالمتهمين، أيكون عايد الخضر بينهم؟ رجاء الخضر نفسها لا تعلم، وهي رافقته في الطريق وفي زاوية الحجرة أثناء التجوال والتحرر من الألغاز والمصائر الموجهة. وشعر بنفسه يقفز الى رواية أخرى..رواية ثانية، رجاء الخضر من على السد ترمقه بنظراتها الشاحبة! ولم يميز دخول سرحان الى الديوان ومعه الخبر، فقط عرف ما سيحدث في ساحة البلدة. كان جاسر يسير الى مكان الإعدام حيث صادف في طريقه عدداً من الرجال الذين أشاروا اليه بالعودة، لوحوا له بصمت: ارجع، الوقت غير آمن، لا تحمل نفسك على المخاطرة، فهم يعدمون من يرونه، ارجع. وتساءل ان كان الشنق يخيف الأبرياء الأحياء!؟ المنظر يبعث المرء على الشعور بالذنب وبالخوف من الميتين المعلقين بالحبال! ومهما يكن سيمضي الى الساحة حيث الجنود المدججون بسلاح العصملي واقفون للإشراف على الحكم. واقفون يمنعون الناس. وكانوا واقفين صفاً أمام الحبال والأخشاب والصلبان والمتهمين، يحملون البنادق.. وقيدوا المحكومين من معاصمهم وأقدامهم. حين بدأوا بتنفيذ الحكم وجاء دور عايد أراد جاسر التدخل لمنع ما سيحدث، انطلق كالسهم الى الدائرة الوسطى، بالقرب من الجلاد نزع السيف والحبل، ثم حاول إنزال الرجل من كتف المشنقة، ودفع بالرقيب ثم انقض على الباقيين يناورهم للمجزرة، واستطاع استلال مدية حادة طعن بها أحد المتقدمين وطعن آخرين أرادوا منعه بالقوة. ولقد جحظت عيناه وعض أسنانه غيظاً وهو ما يزال واقفاً في زاوية المكان يحقد على ما كان من أمر الساحة والمدينة المختبئة في دواوينها وحجراتها. ولتوه عرف انه يشرف على مشهد الموت، المشهد الذي ما إن بدأ حتى تراجع الأهلون جزعين، الى طرقاتهم ومعابرهم الآمنة. ولم يدر كيف اقتاده أحدهم من يده مبعداً إياه عما سيجري في ساحة الإعدام قائلاً: ابتعد .. أنت صغير على هذه الأمور.. عليك الإحتراس من العصملي في هذا الوقت، انهم يشكون بكل صغير وكبير ولا يرحمون، إبقَ بالبيت.

في الديوان، وجدهم مهمومين. سألته أمه: أين كنت يا جاسر؟ سألته ببرود، فأجاب: كنت في رأس الدربة مع رفاقي نتحازر. ووقف بالممر حيث كانوا يستمعون الى ما يقوله فرحان: ان أولاد العايد ما يطلع منهم شيء بهذه القضية، يمكن هم أنفسهم الذين أوحوا للمتصرف بالإعدام.. لكن هذا الأمر لن يمر بسلام.. طلبوا منا بناء الجسر، وفعلنا حتى التمام، واذا كان بعضهم عاف

الشغل فهذا ما يستوجب ولا حتى سجن، كيف اذا إعدام؟ وكلكم شفتوا، ما تأذى أحد من العصملي.. يعني واحد اثنين طلع منهم شوية دم وانفشخوا، خلص خربت الدنيا! هذا العمل ما يصير ولا يجري أبداً ونحن ما نرضى. ان كانوا صحيح إسلام فهذا ما هو عدل .. لا الله ولا عبده يقبل بالشيء الذي يسوونه، بس بس نقول الصحيح هي مصالح الحرب اللي تحركهم، وشافوا أنفسهم خسرانين بالحرب وراحوا يتحججون بالعباد، لا، هذا ما يمر علينا بسلام أبداً وما نسكت.. يسمعون وتسمع كل الدير.

دُم ددم ، دم ددم ، دد دد انه قرع طبل يا هدّله! فقالت هدّله: لا، عسكر الغروب، العسكر العثماني، يمرون فوق الجسر الخشبي. وأكملت شاها المطر: رايحين الى ماردين، بلا رجعة بعون الله. وضحك فرحان، اتسع شدقه كما لم يتسع من قبل، فتح فمه لكل أيام النزه الماضية، فمرت خلاله الخراف والقهوة المرة والطرادة والخيمة الكبيرة، اللبد التي ابتسم لها سرحان، فأيد ظنون أمه الشاها، ستمطر عما قريب وستفشل النزهة. وبدت بطنه تتقلص ثم تتمدد، يزمها الحزام الملون.

هدّله الخضر قالت لابنها منذ أسابيع، اذهب مع عبد الغني الى السوق تتعلم التجارة والبيع، رافقه كي تصبح كخالك مهيدي. غير ان عبد الغني لم يرق له قط، يظل يمط بوزه مشيراً: لا تستطيع قذف نفسك في النهر، تخاف البرودة والبلل، والبلل قاتل يا جاسر. ولقد وقع قلب جاسر، تذكر عندما حمل أخوه المسحاة وسيف الكردة لكسر سدة السابر. تذكر ان أعماقه اختلجت وهو يرى ما جرى. وقال أبوه في أحد الأيام: ابعد .. وتبكي مثل البنية، أخوك ما به شيء. وبعد كل ذلك يحسها كطيف، تمنحه ما مقداره كي ينهض. ما اسمها وما لونها هذه التي تمر به كالحلم، ايسمعها أم يراها؟ يظن انها الأشجار والدروب. لكنها لوحت له، فوقف في المكان لا يتحرك. لقد مر الزمن بسرعة! هذه الحياة الدخانية تلف ذكرياته، طيفها أمامه وعمره كل السنين / وأتيتِ كدخان وسراب .. تحملين القلب بين يديك الى جذوع النخيل، وبدت قدماك تمشي على المرايا.. حتى امتزجت مسامات ساعدي بالمسامات الرطبة .. وكنا على سطح .. بدنة السد ذي الالسنة الثمانية.. تجذبينني .. تعال .. تهزين رأسك الرمادي تعال/

في داخله شيء ما، فحين يتذكر أيامه في العلوة وأيام الدير القليلة، يتغلغل في أعماقه هذا الشيء. أما حينما تمر به يحسها كطيف ولوعة، فإن هذا الشيء يخرج ليتمثله، يخرج أمامه طيفان- هل هي رجاء الخضر؟ فيختلط عليه الأمر: من منكما رجاء الخضر.. يلتفت الى يمين هنا والى يسار هناك .. من منكما رجاء الخضر؟ ويكاد يعلق بالنسوة المارات فيظن انها واحدة منهن، لا تلتفت الى الفتى المسجى في الزاوية الضيقة، بين الأشياء الرطبة. ويتنسم حفيف الثوب ورائحة البرودة المنبعثة منها، تصعد السطح فيستمع الى غزو أقدامها الصاعدة، والحفيف كالريح والحرير. لكن لم كل هذا القلق يا جاسر؟

سألته أمه وهي في وسط الحوش، مستندة الى جذع شجرة التوت جانب بركة المياه الفارغة. رفع رأسه اليها، فتبدت له وهي تعتصب هبرية مزركشة. ذلك كان أيام العلوة، عندما استندت الى سور الحوش المطل على النهر، على سفوح العلوة، على صباها، وسمع جاسر ما ترويه هدّله: كانت تسأل أخيها عايد حين تهوى أكلة السمك قائلة: ما تقدر تصيد سمكة واحدة .. والله إني أروح للرحبة روحة جية، أحجل برجل واحدة. فيرفع عايد صنارته مبتسماً، ينزل من بيتهم الى ضفة النهر وهو يقول مؤكداً: تحجلين ها .. للرحبة .. وهاي جاي بعد شوية ومعاي السمك. وحين تسمع صوته يصعد من سفح العلوة الى بيتهم: هديّل يا هديل تعالي. تهبط كالحمامة اليه، تمس بجفول الضفة، ثم تنزلق في الماء مبتلة حتى وسطها، فتتكئ على جذع عايد، تلمه في حضنها بمرح، تضغط على أسنانها قائلة: انك تريدني أحجل؟! فيرد عليها ضاحكاً: هاك واحدة كبيرة .. هذه السمكة لك وأنت تطبخينها. كانت أعماقها تروي له تلك الذكرى. متى تهبطين يا هدّله الى جذع عايد؟ متى نعيش يا أمي من جديد؟

سألته لم هذا القلق يا بني؟ سؤالها كان لها هي، وليس لجاسر. بعد قليل تركت جذع الشجرة وعادت الى الغرفة. وتبعها جاسر.

الغرف الأخرى فارغة، لا يوجد فيها أحد، الديوان الأول والديوان الثاني .. وكذلك غرفتي دار مهيدي، خرج سكانها، ومعهم الصغار، خرج الجميع عند الصباح، حين قال لهم فرحان: نطلع كلنا الى المهرجان في الساحة العامة، نشوف الدير الحر بعد أن تحرر من العثماني، نشوف الدير الجديد. وبقي جاسر يحاور نفسه. وكان قد سار عند الصباح خلف عبد الغني، وئيداً خلف الرجال، واذا تكاثر الناس في الطرقات، تقهقر الى الوراء، ثم جعل الساحة خلفه، وبدت مئذنة تكية الراوي تريد النزول الى المهرجان الصاخب، نحو الساحة والشارع العام، مائلة باتجاه دبكات النسوة الملثمات اللواتي رحن يقطعن الشارع العام جيئة وذهاباً على نقر دفوف الرجال الواقفين على طول الشارع، وكان يسمع صوت هلاهلهن الحاد فتسري فيه القشعريرة ذاتها، قشعريرة ورقة التوت الساقطة. وكانت الواحدة منهن ترفع يدها فينحسر ردنها الى أسفل مرفقها، فيندهش الرجال: أين كن مختبئات، الجمال الناصع، كل هذا الزمن؟ ثم تغلغل عائداً الى البيت، دفع بابه السميك فانفتح عن فناء فارغ صامت.

في البداية ألبسوه ثوب النساء. يوم أمس جاءت مريم وعفراء، ضاحكتين، قالتا له: شكون يا جاسر؟ تطلع معنا باكر بالمهرجان، تدبك مع الصبايا، ما يعرفك أحد، نمرد وجهك ويديك ونلون وجهك مثل العروس! ووافقت شاها،

قالت: ومعكم راشد وهند. ثم استطردت تنظر الى عبد الغني: واذا عبد الغني يريد، بين الصبايا باكر، رقصه زين وأحسن من كل البنات. فضحك سرحان معلقاً: أخاف يشم ريحة وحدة منهن، ينسى الرقص وينكشف أمره، ينراد له يا أمي واحدة ترقص معه على سنة الله ورسوله، بغرفته هو مو بالدرب. فرد عبد الغني: لي واحدة يا أخي ولك واحدة، ما أتزوج قبلك، ياللا سوّيها يا سرحان. فقالت شاها مبتسمة، كأنها تكلم نفسها: والله يا سرحان انت اللي ينراد لك واحدة على سنة الله ورسوله. فنقل جاسر نظرات لا إرادية بين سرحان وعفراء وقد غلبها الحياء، فأطرقت بشحوب ورقة، وكاد جاسر يكلم نفسه بصوت مرتفع: يا عفراء، كل الجمال والحياء، يصعد الدم الى وجنتيك وتصبحين كوشاح. لكنها تقدمت نحوه، تملت وجهه كيف يصير، شفتيه المرسومتين على هيئة قبلة، عينيه، أول مرة ترى عينيه من هذا القرب. عيناه العسليتان .. يمتزج فيهما اللون - ان الانحدار المرسوم على السفوح والضفاف.. وحالة السماء أيام الإضاءة.. عندما تنار النجوم وترتفع فوق إظلام البوادي، هكذا ارتاحت في عينيه، الدخول بين طيات واستغراق المدى. جاسر الرحبي وصل معها الى حيث وصلت معه. أحس بأن روحه انتزعت عنه غفلة، فهبط قلبه، ورأت عفراء مع مريم آثارا في ملامحه - تقوض قلبه وخمن أن الحياة منحت قلبه لمريم وعفراء، ووجد المكان هالة حول السرة، ان يكشف ثوبيهما، يرفعه أعلى الصدر، ثم يحدق باحثاً عن المكان الذي أدخل قلبه. هذا اللحم يخفق بأسرار الروح، وأضلاع الصدر تتنفس ملاحم البراءة، تنهض الأضلاع فيرى شفاف البطن- يملأ المكان بقطرات مطر آت من بلاد البحر، يعوم فلا يغرق، يبلل جسده ولا يبتل. فتروي له مريم: هذه بطني يا جاسر، طاهرة، فيها ألوان وألوان، يغلبها معظم الأحيان الجوى والشياط، الرياح الساخنة تجتازني.. وهذه لعفراء، أودعت سرتها معي، فكانت في الليالي تلتقي بطني مع بطنها، ننساب في نهر. انظر، فرفعت فستانها، لا تحول عينيها عنه، مطأطئة اليه وتحني ظهرها قليلاً ليرى منَشدها. أنظر.

وفتح عينيه، رأى مريم تمسح وجهه بهدوء. وكيف يصبح اذا ظللنا الوجنتين بالشحوب نفسه، وكيف يصبح اذا زججنا الحاجبين، وكحلنا العينين، ونقطنا الشفتين بماء الزهر، وكيف يصبح اذا لونت الأشياء بالحنة وخضبت بتراب الجنة؟ أنت جميل يا جاسر، لو أنك الفتاة وانني الفتى!

وقالت عفراء: انزعي ثوبك يا مريم، لنرى كيف يبدو على جاسر! فبدا فيه كالمهرج، أكمامه الطويلة وصدره الفضفاض، فبادرت هدّله: إشلحه يا جاسر، إشلحه، ترا كبير عليك. وفكرت مريم أن ثوب هند مناسب، على مقاس جاسر، أكمامه وأذياله، ثم التفتت الى أختها تقول: تشلحينه يا هند، نشوفه على جاسر. فتبسمت هند، أخفت ضحكة تقول: لا يطلع عليه هو الآخر كبير .. بثوب البنية يصير جاسر مثل العنز!

وإذا أطل فرحان على غرفة الديوان الثاني، فسيرى جاسر في ثوب مريم، يقف بين دائرة النساء الجالسات. وخطر ذلك في بال هدّله فرفعت صوتها: إشلحه يا جاسر، كبير عليك، ما يلائمك. وقالت في نفسها: كيف اذا دخل فرحان ورأى جاسر بهذه الحالة؟ فضحك فرحان، ثم قهقه: شكون يا جاسر؟ قال ذلك رافعاً يده ومستنداً على خصره، مدركاً المقلب الذي رسمته مريم، واستدرك لما نظر الى مريم في ثوبها الداخلي: إلبسي القصيرة يا مريم.. وقال لنفسه: هي لابسة القصيرة، كان يجب ان تدرك ما يسترها.. الثوب الداخلي يظهر عريها آ آ ..آ إلبسي الثوب لحمك طالع يا مريم. وانتبهت هدّله الى الابتسامة الغامضة على محيا هند، فقالت لنفسها: تشبهه بالعنز .. كبح الله وجهها .. والله اني ما أحطك خادمة ببيته يا فاينة. وكررت هدّله، تخشى مجيء فرحان: إشلح الثوب يا جاسر، اعط الثوب للبنية. فرد جاسر: الثوب أزرق، أزرق أدكن. يحلو لي ثوب أزرق يميل الى الدكنة، ورائحة مريم ما زالت في الثوب يا أمي! وكانت رائحة مريم. ثم تابع: رائحة مريم مثل رائحة هدّله. ثم قال فرحان: شكون يا جاسر؟ سوّوك بنية يا مخجل، تخسأ يا ول، انت ولد هدّله يا ربي؟! فتنفست الصعداء، ثم حمدت ربها ان ولدها سيرمي عنه الثوب. قالت له ببرود: إمسح وجهك من الغوى يا جاسر، وباكر تنزل مع الولد الى المهرجان.. ظل مع عبد الغني ولا تتركه.

لذلك. نفى أن يكون قد انجر الى المهزلة بإرادته. وكانت رائحة مريم الطاغية قريبة منه. قدر انه سيشم مريم. وتبقى أطيافها عالقة بالفستان، حتى وإن نزعته عنها. ثوبها الأزرق. فكر: سيلامس مريم من الداخل، وستتعلق مساماته بمساماتها، وعن طريق الثوب سيعرف أين مريم، صدرها، الحوض، الساقين، ثم عمود ظهرها. وأراد نزع سرواله وثيابه الداخلية كي يرتدي فستانها. كذلك، كور قبضته فوق صدره، يشير الى ما كانت تضعه مريم هناك، فوق صدرها، كان يريد: وحاملة الصدر يا مريم، أيضاً. وقالت عفراء: نصنع عقيدة ونمرد شعر رجليه. ثم كررت هدّله بقسوة: إشلح الثوب يا ولد، جاسر روح خليك مع الزلم، أدخل مع سرحان لديوان الزلم يا جاسر، يكفيك تهبّل، تراك ضيقت خلقي.. يكفيك تسوّي مثل العجيّات. ورفعت صوتها في وجه جاسر الذي لم يولها انتباهه، ظل يكور قبضته فوق صدره، رفعت صوتها بدون وعي: يا جاسر يكفي .. يكفي يا ول. فالتفت إليها كالأبله، لا يثنه عن طريقه غضب أمه.

يا ول يا خبل يكفي.. وهي تهب وتلهث وكأن صدرها ضاق، واستحال عنه الهواء، وراح رذاذ فمها يتلون بالغضب ويدكن، ثم مال لونها الى الزرقة. وهكذا رأى جاسر الذي تراجع كالممسوس، ترهلاً في الصدر وفي الجسد، ترهلاً جاء عن انتفاخ مفاجئ، ضرب العنق ثم انتشر في الوجه والفم، وغارت عيناها حتى انطمست المعالم، وبدت هدّله الخضر تغرق في رغوة فمها،

فصاحت شاها المطر، لطمت تصرخ ـ ان الأشجار الباسقة، اشجار النخيل المجذولة، يا هدّله أنت يا واقفة كالمفازات والمدى، الليل سدى ثم الصباح دون هدى..حتى انسكب الديوان الأول في الثاني، دخلوا عن طريق الغرفة المجاورة، والتفوا حولها، كانت مستلقية في قاع الديوان. كم هي هدّله .. ورأيناها طويلة تلامس بجسدها الأرض.. مستلقية وأقدامها متباعدة وقد طاف الزبد فوق وجهها. فتقدم فرحان ونزعها عن صدر شاها، أخذها عنوة. زعقت في وجه زوجها: إبعد، الحرمة الحرمة .. هي دايخة وإني أصحّيها ما يجوز يا فرحان ابعد عنها! وراح فرحان، عندما استقرت على صدره، يدعك وجهها ويقبض بقوة.. يشهق ثم ينفخ.. ثم يميلها الى الجانب الآخر، مستلقية على بطنها، وينقل قبضته حيث يريد ـ كل هذا الجسد يا هدّله.. إن شاها لا تملك نصفه.. ولا ربعه.. هدّله، على طول الأضلع والجذوع.. هدّله .. يجب نزع ملابسها كي نقف على موضع القلب والرئة.. انظر يا عبد الله، يا ابن عمي، إن أختي هدّله لا تتنفس، يجب نزع ثوبها.. ياللا إخلوا المكان، أخرجوا كلكم.. إبق معي يا أبا محمد، إبق لننضو ملابسها.. ثم اسدلوا الستائر، واخرجي يا شاها، أخشى عليك.. النسوة لا يحتملن هذه المشاهد أليس كذلك يا عبد الله .. لتخرج شاها.. وتمنع الدخول.. واقفلي وراءك الباب يا أم سرحان .. الى أن تصحو هدّله.

ورأيت أمي كما هي! ثم أحسست ببعد الدير، لم نصل الدير يا هدّله، لم نصلها قط؟ وهذه ليست دير.. أمي .. المستلقية .. في غرفة مقفلة! وابتعد جاسر، لم يجرؤ على النظر الى الباب الذي وقفت شاها عنده تمنع الدخول، توارى خلف جذع شجرة التوت في وسط الحوش، توارى في فستان مريم. وتبدت أمامه الزاوية الضيقة، بين الأشياء الرطبة، بين البئر والمطبخ. ثم راح يزوي عينيه، يريد الالتفات بدون أن يراه أحد، يريد: اما زالت أمه غائبة، وشاها تقف بباب الغرفة تمنعه من الدخول؟ لكنه، في ثوب مريم، سيدخل المطبخ، يدلق على الثوب زيت كاز ثم يشعل النار فيه حتى يحترق ويحترق ويحترق. هذا الثوب التعس. الثوب، رائحة الثوب، فتغيرت أمامه المعالم، بدأت، هكذا، منذ البدء الأول، منذ كسر السدة، منذ النزول من قلعة الرحبة، ومن المشاعر المنفردة لطيفها المتبدل، أن يرى أو يسمع، وظن انتظاره لاستيقاظ هدّله وهم وزيف، لا يمكن ان تظل بين الاثنين، والآخر ينظر اليها.. بنهم وجوع! هدّله ليست غائبة عن الوعي، فقط الفرحة جعلتها لا تملك نفسها، فخرجت عن طورها..

كلهم فرحون، ولقد نبه فرحان لضرورة التحضير للدبكة التي ستجري في الشارع العام والساحة. كان جاسر خلف جذع الشجرة، يرى الى الزاوية بين المطبخ والبئر، يتذكر ذاك الصباح، حين استيقظ قبل الجميع، وجلس وقتها

على حافة البركة، عرف أين تستقر الرحبة، وتخيل أيضاً، اليد التي كانت ستدفعه في صدره، ترميه الى قاع البئر. البئر كان مغلقاً بالصفيح والخشب، ما عدا فتحات أنابيب المضخة اليدوية بسعة اثنين (انش)، المنتهية بصنبور، مضخة تدفع المياه من القعر. وبعد ذلك.. لم يعرف كيف جاء الليل، تفقد لباسه وهو في الفراش، كلابيته هي هي، لا وجود لرائحة مريم.

لكن، ألم تكن الرحبة هنا؟ إن كانت هنا فكيف جاءت؟ وان جاءت فكيف ذهبت؟ نحن يا أمي لسنا في الدير، إننا في مكان آخر، ربما في (...) آخر فقط، حيث لا مكان لل (مكان). هل الرحبة رافقتنا أثناء المجيء؟ قال ابي إذ خرج من ذهوله: إنها فقط صدى. ولم لا يكون هو الصدى؟

الشارع طويل، في الصباح البارد، لبس حذاءه ومكّن قدمه فيه، هناك أبوه عبد الله الرحبي ومعه أمه هدّله معافاة، لا أثر لانتفاخ، وجهها يطفر بالصحة كما عهده منذ وعى. الشارع العام امتد فجأة وامتلأ بالمحتفين. خرج من الدار مع عبد الغني، أمام الرجال الذين راحوا يراقبون كيف تمضي النسوة الملثمات الى طريق المهرجان. وحين غصت الشوارع والدروب، وقف الرجال على طرفي الرصيف يحيون الراقصات مسرورين بالمشهد الذي طالما انتظروه. كان يود التفرّج، ففتح شدقيه، ضحك بعصبية فلفت اليه نظر عبد الغني، فسأله: شكون شفت يا الله، شفت شيء؟ لم ير شيئاً. وطال الشارع العام، وقت الشارع العام، زمن الوصول الى ساحة المدينة، بدا هذه المرة طويلاً. فتخلف عن عبد الغني، ينتظر وصول حلقة الدبكة التي شكلتها النسوة. راح صوتهن يقترب، وأزاده الاقتراب نفوراً، عندما تخيل انه معهن. ومن تشبهه في حلقة الرقص تلك؟! تلك التي أخذت تقترب منه.. أهي فتاة أم فتى؟ بُنيتها حسنة وصوتها خافت، أتكون هي مثلا من جاسر؟ لو كان بينهن لما كانت هذه الفتاة، الفتى، هنا. لكنها بطول قامتي، وترقص بقوة رجل! وتذكر ثوب مريم ففاجأه لويٌ وقيء ، فنحى مسرعاً الى البيت، حيث لا أحد سواه. وهدأت قيئتة عندما دخل الدار. كان الدار فارغاً وراحت من جديد تمر به الأطياف، وهل هي رجاء الخضر؟ جلس في زاوية الدار بالقرب من البئر يتحسسها، يختلط عليه الأمر ويتساءل: من منكما رجاء الخضر، أنت أم أنت؟ يتنسم حفيف الثوب ورائحة البرودة المنبعثة كالحرير والريح.

حلم بها، في ليلة ما، تلتصق وتراوغ.. حتى اندلقت أحاسيسه الى أسفل بطنه. وتشمم السيحان باستيقاظه، ثم شعر بأمه تنظر الى حجره بارتياب، وانتبه أبوه - بعد انهمار المطر.

كانت ستدفعه الى قاع البئر، تدفعه في صدره، فحمد الله لأن البئر مقفلة، هناك فقط فتحات ضيقة لأنبوبة مضخة الماء. تدفعه قائلة: عجي... روّح سوّي مثل الزلم. لقد نسي مكانه، أين كان وعند أي زمن؟ معلقاً بين الأغصان.. وأوراق الشجر تخفيه عن الأعين، ووراءه الخوف، ان يأتي بحركة يفشيها حفيف الأوراق، وكان أهل الدار يمرون بجانبه فلا يرونه، فقط تراه هي، من بين خشخشة الأوراق، يصمت فيها ويحنّ لأن يضمها. وتبين عينيها! فراقه العذاب المخفي وراء صمتهما.

شجرة التوت. أبعدت هدّله يدها عن جذعها، وعادت الى غرفتها، مرت بين أعمدة الرواق، انحرفت تترك الشجرة، متجهة الى غرفتها في زاوية الحوش، وظلت تسير. وجاسر يراها تعبر الرواق معتصبة بالهبرية المبرقشة بلون تلك الذكرى، فحمل على انه سيقوم من مكانه بين المطبخ والبئر، يقوم من المحشرة الرطبة، والتي خالها حال من الذكرى، ذكرى جاءته عند سماعه صوت الرحيل، العبور الأخير لفرسان (الغروب) الى ماردين. وقام وراء أمه يمر جانب الشجرة بالقرب من البركة الفارغة، الى زاوية الدار حيث هدّله والمرآة والنافذتان المدهونتان.

الغرفة فارغة، مليئة ويلفها الظلام. ورأى نفسه في المرآة مشوشاً يضطرب، وتراءى له أنه سيقوم بالبحث في صندوق شاها، صندوقها الخاص، كي يرى ما تخفيه ابنتها مريم فيه. الصندوق في الغرفة التالية، أودعت شاها فيه حوائجها، واستعملته في المدة الأخيرة ابنتها مريم. لا أحد في الدار حتى هدّله التي دخلت قبله الى الغرفة، لم تكن. ولكي يتأكد من الفراغ، دخل الغرفة، وفتح بابها، ثم جال في أركانها، ولقد انحنى بجذعه يستطلع زوايا الدار، وبدا البيت يعكس في صمته طبيعة نفسه: لا أحد هنا، الغرف خالية، اذهب الى صندوقها في الغرفة الوسطى، الغرفة الواقعة بين غرفة هدّله والغرفة الصغيرة التي يدخلون منها الى الديوان الثاني.

ووجد في الغرفة الصندوق المغلق. صندوق رصع بأحجار كريمة، وثبتت عليه قطعة قماش عليها صورة قمر أضاء قافلة جمال تسير خلف دليلها، الى بيداء ورمال تغطي الهضاب، وقد ابيضت أرضها، وأصبحت رطبة، تشي بضرورة التوغل، ففتح زري صدره. ولم ير الصندوق في مكانه من شدة الظلام، كان قاتماً، لا يميز شيئاً، حتى اصطدم بزاويته اليسرى، صدمة بالغة أوجعت ركبته، فاقتعد الأرض يكظم غيظه، ولا سبيل الى فتح الصندوق الا بهذا الألم! شد على أسنانه، وبطريقة الغضب مد يده الى القفل ففتحه، ثم رفع الغطاء المزركش بالنقوش، وأركى الغطاء على الجدار وتطلع الى ما حواه الصندوق.

انها قطع قماش، ملمسها ناعم ومتين، تتكوم في طيات، كأنها مادة خام لم تذهب فيها الأيدي، تنتظر ان ترفل بالجسد الندي، ان تمتص عبق اللزوجة، وتنهدات من لا يملك برودة الصباح. فتح الصندوق وراح يحدق فيه، ويقلب يديه، يبعثر أصابعه في أطراف نهاياته، ووصل الى جدار الصندوق، فتوقف برهة عنده: إن هذا الجدار الداخلي، المتواري عن العالم لِمَ خلقه الله؟ اذا كنا لا نراه من الخارج، فهو جدار مهمل. لم يحدث وفتحت شاها الصندوق في ضوء الشمس، حتى وان كان ذلك، فإن الجدار الداخلي لا يظهر أبداً. هذا القماش تلبسه شاها وتلبسه مريم. ثم راح يطيل التحديق، وأحس بكلتا يديه تنجذبان الى أطراف الصندوق، كأنهما ثابتتان هناك، واذا حاول اخراجهما تقوس الى الداخل، ضغط برأسه على قطع القماش فألفاها كالوسادة، قادرة على منحه مقداراً من الإغفاءة الرطبة، وتلمس بحنو الجدران المتوارية، فتذكر المهرجان، النسوة اللواتي دبكن بفورة ونشاط على طول الشارع العام، يرفعن أيديهن ويترنحن بمرونة، وأصواتهن الآتية من هناك مسموعة، وحاول ان ينتزع يديه عن الصندوق، لكنه تساءل: لم لا تخرج الجدران الداخلية، هي الأخرى، الى المهرجان؟

ثم عادت مريم، ودخلت الدار برنين حذائها الفضي، الحذاء الذي جذب نظره حين سار وراءها في الطريق الى ساحة المهرجان. حذاء يمنح ساقها جمالا. وأمال رأسه الى ناحية الباب ورفع عينيه قليلاً عن حواف الصندوق ليرى. لم كانت الجدران الداخلية لا تخرج الى مهرجان الفرح؟ ان الالتصاق بالجدران جعله وحيداً لا يقوى على الإنطلاق، ومتشبثاً، بكلتا يديه، حتى حسبنا ان ذلك من قبيل التقوى والبرهان. ان العفة كانت بيننا فحملناها، هنا، حتى يحين الوقت! وعندما نظر فرحان الى جاسر في إحدى الأمسيات، قال له: مريم كأختك يا جاسر، كأختك في العلوة، فرد جاسر: انه لا أخت لي يا عم، لا في العلوة ولا في أي مكان آخر. وكان سرحان يقول، اذا رأى جاسر مع مريم، وقريباً منها يكاد يلامس صدرها، كان يقول له: مريم كخالتك يا جاسر، ان لم يكن لك أخت فخالة يا جاسر، كخالتك في العلوة. وأخذ جاسر في حسبانه حالة

الأرض والمرايا والطبيعة المقترنة بسرير النهر ممتدة الى غياب الشمس، أوحى أن هذه المرأة ليست من لحم ودم ، انها من أحاسيسه العميقة، عندما تميل الشمس الى الغروب وترسل إنبعاثها الأخير. عند شاطئ النهر، من فجوات الغمائم تخرج حزمتان منفرجتان تخضبان أعماق النهر.

ان الدار فارغة، لم تنته مسيرة الفرح بعد، ووحيداً لا يمنعه احد. فيسمع طقطقة الحذاء، يسمع صوت مريم يجتاز الممر في طريقه الى الحوش. ويعلم انه لا أخت له ولا خالة. مريم حين تدخل الغرفة سيدور في خلدها ذلك أيضاً، الوحدة والانفراد بالآخر، في غرفة تلفها الرطوبة والظلام، ستحمل الى الاعتقاد ان ذلك الخلاص والطمأنينة، ستجعل أحدهما يرى الآخر عارياً .

عارياً. كان جسده بعد فك النطاق ثم الإزار، مرمي جانب الصندوق، وطبقات القماش تحيط به، تغلفه كشرنقة. وسمعت كذلك صوته العاري وهي تجتاز الممر، وكانت لمحته وهو يتهيأ لأن يغادر شارع المهرجان، وعلائم التقئ ظاهرة عليه، وربما أحاق به الخوف مما سيحدث في المهرجان، ظن ان عسكر السلطان الذين نصبوا أعمدة المشانق في الساحة المظلمة سيعودون، يعودون ثانية وثالثة، حتى وان فرح الأهالي ورقصت الصبايا، سيعودون وعندها ستحدث المجزرة. فشعر بالتقيئ وطفق هارباً. كان الطريق الى الدار مضنياً. عبر كتل المتفرجين، يتمايل لفرص النجاة، ويرى أن الانحناء أثناء الاجتياز، بين فرج الأقدام ونوافذ الصدور، سبيل آخر للمرور، أخذ ينضغط ويتمدد حتى يملك زمام نفسه ويلوح له الدرب المؤدي الى بيت فرحان.

دفعت الباب، دخلت الممر تدق بحذائها أرض الردهة المفتوحة على الحوش. ووجدت اليه الطريق. انه جاسر وانها مريم، مريم الواقفة في الباب. طويلة وتكاد تلامس أعلى الباب، وزاد الحذاء من طولها، رفع رأسه الى الأعلى كي يرى الارتفاع، لم يرفع رأسه كما فعل اليوم، وحجبت جدران الصندوق قسماً من جسدها العالي، رأى الجزء الأعلى فوق جدار الصندوق، بينما غاب باقي جسدها خلف أغطية القماش المتراكمة، ومس بيده الاسفل النظري لجسدها الغائب، عند هذا الحد ستكون البطن ويكون الحوض، ثم تأتي بعد ذلك بقليل أقدامها الواقفة على مسند العتبة، حجب الصندوق جسد الفتاة، ونظر الى الثوب الذي غادرت به الدار الى المهرجان، يغطي الجسد الى أن قلنا إن النحر انحجب بقطعة قماش، انحجب عنا ولم نعد نرى الا الثوب، وبقية الجدار وطيات القماش التي شكلت القسم السفلي للجسد المستند على الباب. كنا نتساءل لماذا غطت ما اختفى عن ناظرينا، لماذا غطت بفستانها قيمة الجمال؟ ولقد رأينا البدن العاري، في المخيلة وفي أجساد العاج ولم نتخيل ان الافرازات الساخنة تدخل في التركيب النظري للفن، شبكت يديها الى وسطها، كأنها تريد

الابتعاد. وقلنا لها تعالي، هززنا لها قلوبنا: تعالي. من فوق السد ذي الألسنة الثمانية تعالي.

كنا نعلم أن أحدنا الى جانب الآخر، وشعرنا، ثم شعرنا بالرضاب يسيح كالماء على أغطية القماش. قالت لنا: مدّوا أغطية الخام فوق أرض الغرفة، مدّوها كي لا تعيقنا الأرض الجامدة، واجعلوا بعضها فوقنا، تحمينا من ضروب الحرارة الخانقة. وحاولنا فك ياقة الصدر، ونزع الفستان ومكان زبونٍ غير ملتبس، نزعنا ما كان علينا، وقالت لنا: تعالوا ندخل التجربة الأولى، فوق الأردية وفي ظلام الأغطية. وكم لاح لنا جسدنا المنتصب في الفراغ قاتماً.

وذلك حتى انتهى المهرجان. وراح الناس يعودون الى ديارهم. وأخذت الأصوات تنتشر في الدروب، تردد صدى احتفال بقي في النفوس. وكانوا يعودون، تنسمع طرقات أحذيتهم بوضوح وتتردد في المسامع شحطات الأحذية الرخيصة.

كان يريد أن يمضي أكثر لو لم يدخلوا عليه دفعة واحدة. جاسر الرحبي! فنظروا اليه مبهوتين، كأنهم لا يصدقون ما رأت أعينهم، نظروا الى حيث انتهى الحفل، لعلهم يرونه حقيقة هناك، ومتى ترك الاحتفال؟ يحتمل ان يكون جاسر طيفاً وخيالاً مرسوماً بالمقوى، وأعلنّا: هذا ليس جاسر الذي عرفناه في الصباح وفي يوم أمس. لقد اختفى الذي عرفناه، ربما ضاع في زحمة المهرجان، وهذا ليس جاسر، أيقظوه لتعرفوا الحقيقة: بينما جاسر كان في زحمة الاحتشاد ضاق صدره فحلق الى السماء؟

ربي ربي، شهقت أمه، وكانت ستصيح وتعول، لكن شاها أسكتتها براحة يدها، قالت لها: أسكتي يما، الوليد تراه صحيح وما به شيء، يمكن لعب الشيطان بعقله. ثم دمدمت: كل الولد ينصابون بمثل ما انصاب، سرحان وعبد الغني عملوا مثله وأكثر، أسكتي يا هدّله. ثم تقدموا منه، فأوقدت مريم القنديل وهكذا وجدت شاها نفسها تقول لمريم ولبقية الأولاد: كلكم الى الديوان، وما أريد أحد هون حتى أنت يا مريم، عيب ونريد نعرف شكون به الولد؟ فضحكت البنات، تراجعن خلف بعضهن، ولمزت عفراء مريم، قرصتها من خصرها وأومأت: شكون يسوي جاسر بغرفة الملابس، فاتح صوان شاها!؟ وكانتا غارقتين مهولتين بما أصاب جاسر، تتهيب كل منهما النظر الى الأخرى، فما الذي جرى؟ لماذا فتح صوان الثياب وأخرج منها الثياب؟ وقالت شاها: ولدك أصبح شاباً يا هدّله. وردت: علينا كتم هذا يا شاها، لا يرضى بذلك عبد الله ولا فرحان.

كان يطوف في الرذاذ العالق بالنقوش وبأحواف المخرمات المطرزة. وفرد الألعاب بجانبه، نثرها في كل الغرفة وتمنى لها الدخول، تختار ما يناسبها، واذا كانت الساقان طويلتين على مقاس الأقمشة، والصدر ناهداً في ياقة الفساتين، فإن ذلك من ضيق الجمال بالجسد. لذلك خرج من عبء اللحم وقال في نفسه أمامها: هذا المكان الخصب فيه من الحرارة ما يقتل، تعالي نتعارك على أرض واحدة، أراك كما أريد وترينني كذلك. فاقتربت منه حتى طوقته بشعرها المسترسل، أرسلت يدها الى يده الموسومة بطيات قماش الخام، وجعلت تقارن جسدها بجسده الى أن أحس بالحرارة تنساب داخل فضائه المغلق، وعندما سرت المباغتة تظهر تراسيما جديدة، واضحة نادرة، كرر في لحظة: أين وأين كانت تختبئ هذه البصيرة، لم أر قبلاً ما أراه الآن، واذاً لقد تمدد العالم، وأظهر ما أرادوا إخفاءه عني، الملاعين، ما زالوا يحتفلون بالعيد كما يحلو لهم، يرقصون ويراقبون من يشتهونهم. فأبعدت يديه عن جدران الصندوق ورمقته بنظرات شاحبة، تنزع ما تبقى من ثيابه وتوسد رأسه بمرفقها المغطى بالأقمشة على امتداد أرض الغرفة المظلمة.

تذكر مريم، بعد خروجها من غرفة الملابس مع بقية الأولاد والذين تخيلوا بدورهم ما كان يفعله جاسر هناك، الابتسامة التي اعتلت وجه عفراء وسؤالها بخبث عما كان يفعله جاسر في صوان الملابس، ثم التجهم الذي اعترى ملامح أمه وزوجة فرحان بعد خروجهما من الغرفة منهكتين، وآثار التطير بادياً على وجهيهما، فلم تكلما أحداً، بل راحتا تزجران النظرات المرتابة والمتسائلة، وسمع من كان قريباً من الام نداء مهموماً، دمدمة تخرج من شفاهها بحرقة ويأس: الر .. بة .. نج.. الهواشـ .. طالما. ورأت مريم ورأت هند اللتان استرسلتا في الاستفسار عن الأمر بصوت تحمل عباراته تأنيب ضمير، عبرات هدّله تلمع في ضوء القنديل. كانت تشهق بعمق مجروح، فشلت فيه كل المحاولات لتفادي ما كنا نخشاه وكانت المصطبة الى يميني واذا حاولت الصبايا تجاهل ما حملني على ما أنا فيه، يهربن من التقاء نظراتي مع نظراتهن، فيستدرن الى جهة أخرى، فإنني لن أوقف هذه المشاعر، رغم ما صدر عنهن من مواقف تلمح بأن المسألة ليست بهذه الحرقة والألم، انها وحدة طارئة اخترقت أحاسيي: انا يا هدّله، انها أمور تجوز يا هدّله. كما يرى سرحان الذي ابتسم عندما سمع ما قام به جاسر، وابتسم كمن يتذكر مغامرة سرية لا عيب من تذكرها الآن، وهز رأسه ومضى يومئ بأن الفتيان يستهويهم اكتشاف ذاتهم بأنفسهم، فلا خوف يا هدّله.

المصطبة هناك، ولقد جلس عليها عبد الغني. في غرفة الديوان الثاني هناك مصطبة يا هدّله، في دار فرحان ـ هناك في الدير .. يا هدّله .. بئر ومضخة

وبركة ينزل عليها الماء والعصر والخريف من فوق الأسطحة، أسطحة المرافق، مرافق حمزة المجدّل، في غرفة الديوان لم يعلم الرجال بما فعله جاسر، اكتفى عبد الله بأن نظر إليّ، واكتفى فرحان كذلك، ولم يعرفا ما فعلت، أمي تقول، ولدي الوحيد ملقى في أرض الغرفة وعلامات الوحدة بادية عليه، وانه لن يظل معنا أو مع نفسه بعد اليوم.

أطيافه واضحة للعيان، منفرج الساقين عارياً وتبدي كل شيء حتى ابتلعت شاها المطر رحيق الشهوة. جاسر! هذه الكثافة والدغل المستتر عنا منذ يوم المطر والنزول المروع للسماء، وشممنا رائحة الود فشخب ريقنا ورحنا نتصنع المضغ، الجوى والصدى، لإبعاد الشبهة عنا، يا ولدي. عبد الغني كان يتسلى في مراقبة زاوية السقف، والظلال العاتمة المتحركة مثل فرجة أنثى، تتبدى له، هو مثلك يا جاسر الآن، لكنه صامت لا يثير الشكوك، حتى ان جسده مغطى بالقماش فلا ندري كيف سيكون غلام عبد الغني، كثيفاً أم غير ذلك؟ يستتر بالكلابية وقد شدها بين ساقيه كصفيح صلب ينسى من يراه ان الدنيا مخفية تحته، كل الدنيا. وكان الى يميني، يضع أصبعه في فمه: لعلني بريء من فعلة ابنها، ثم لا أعرف ما يعرفه ابنها، لم أدخل الى غرفة أمي الشاها منذ وعيت، كانت مغلقة أمامي. وصوان الثياب.. كل الناس عندهم ثياب يا هدّله، لا أذكر مرة انني افترشت ثيابها على الأرض، ولا أعرف ماذا تلبس شاها، أرى ثوبها يغطي كل شيء، من عنقها الى أسفل الكاحل، جسدها الأبيض. كانت مريم تسترق النظر إليّ يا جاسر، عيناها تقولان: ألم تهدأي يا عمتي هدّله؟ جاسر بخير.

هي قريبة الى قلبي، وأعرف انها تحبك، قالت مرة أن أنفك يشبه أنف أمها الشاها، أنفك أشم، ولك ذات العينين. أكاد أقول ان جاسر يشبهني يا هدّله. مرة يا بني كانت ترسم بعينيها وجهك دونما قصد، غارقة حتى نبهتها شاها الى أين يا مريم تنظرين، أين تسرحين؟ وأعرف ان الرعشة سرت في أضلاعك حين نقلتك من نافذة الغرفة الى الحوش الغارق بالماء، وكنتما تخوضان معاً مخاصرة، في أرض الحوش، وفيكما طبيعة النزول المفاجئ للنهر، غرزت أصابعها في جنبك وغابت عنا يدها المغمورة بالماء والجسد.

ويوم وقفت عند بسطة الدرج تستمع لرواية جاسر عن النزهة والمباغتة التي دفعت بحمزة المجدل الى قذف نفسه في النهر دون تجنب شوك الحويجة، والاقتراب الملح لجاسر وهو يشرح لها كيف حفز حمزة كالمجنون باتجاه النهر. وكذلك يوم أنزلته من نافذة الغرفة الى الماء، كيف لمس ساقها ووقف برهة صامتا لا يتحرك، وراحت تتذكر أيضاً وهي تستند الى المصطبة التي جلس عليها عبد الغني كيف لمحت جاسر ينظر الى ناصح في ديوان فرحان، ناصح الذي راح الآن يرتفع في حسبان أبيها، كان جاسر يزوي عينيه ويلوي شفتيه قبالة ناصح الخلف، ناصح الخلف الذي قالت عنه شاها إنه شاب مناسب

وأخذت مريم تتساءل، بعد هذا، من الذي اختنق صدره وانتفخت أوداجه، عندما ألبسوه فستان المهرجان، هدّله أم جاسر؟ وهو ملقى أمام عينيها، في أرض الغرفة، عارياً مضرجاً ولفافات تستر ساقا مثنية على الموت القاصم الذي ألمّ به.

فتراجعت مذعورة، وتمثل لها موت جاسر في أرض الدار، هذا الموت البعيد الذي انتزع منها المكابرة. ولقد امتدت الأرض أمامها، أخذت تتكون عن بيداء لا تنتهي، أحست بنفسها تتخبط على غير هدى، تسير ضمن الجزع الذي هبط عليها، طالما تنقل ساقيها المنحلتين أمام المطاردة العاتية، الرياح المشابهة هوشت جدائلها ومزقت لفعتها، مريم! فارتبطت بالأمل المستحيل، أمل الأفق الغادي كالسراب، لا تصل ولا يقف مكانه، أرض التبدد والفلتان، وراحت ترى الخوف المرتقب رغم ما سمعته من جارتها عفراء: شكون كان يسوي، فاتح صوان الملابس؟ يؤكد الرغبة في عدم الخوف على حياة جاسر المرمي في أرض الغرفة جافاً متشنجاً كالمومياء، وبدا لها لطيم هدّله آتياً من باطن مفازة، لا يهدأ ويشي بالرحيل.

حسبت شاها ان الأمر وقف عند ذاك الحد، وراحت تؤنب هدّله على همها الموهوم في كل مرة تراها سارحة، فتقترب منها، وتلمس يدها: قولي لي يا هدّله .. أنا لست غاضبة .. جاسر كإبني. لكن هدّله تعود الى حيث كانت، تغرق في همها ثانية، فتدرك شاها ان كلماتها لم تؤت ثمارها، هناك ما لا تعرفه، يقلق هدّله، ويبدو أنه أكبر مما ظنت.

وإن كان الخلاص يأتي عن طريق الزواج يا هدّله، فالبنات كثيرات، إسأليه أيهن يرغب. هناك من تزوج في عمره، والبعض تزوج أصغر من ذلك، الزواج يا هدّله يهديه الى الرشد، يتجنب الأفعال المشينة التي يقوم بها، ويصبح رجلاً يعتمد عليه، على الأقل يهديه البيت الزوجي الى الصواب. لكن هدّله ظلت صامتة. فالأمر غير هذا وذاك، فهو شيء عميق. يا هدّله اسمعيني، محنة جاسر هي محنة سرحان، محنة الأولاد كلهم، واذا كان غير ذلك فما الأمر؟

وحاولت هدّله شرح مخاوفها لشاها، مخاوفها الناجمة عن وسواس لا يزال يؤرقها، فالعمر الذي يجتازه جاسر يوافق سن أخيه محمد عندما طوحه الصداع لمدة أسابيع، شيء وحيد فقط كان يخفق بين أضلاعه ـ وكنا نرى قلبه يرتعش بين الفينة والأخرى حتى نادتنا فاطمة من فوق الجدار الذي يفصل بيتنا عن بيتهم، فتوقف عندها القلب وسمعنا صياح هدّله وجدته وزنة ثم غابت عنا فاطمة، اختفت خلف الجدار، وسمعنا بدورنا صوت ارتطام الجسد النحيل بالأرض القاسية، وكان الصوت كالطبل، ولقد انزلقت عن أحجار الأثافي التي رفعت فاطمة فوق الأفق، وأحسسنا بالحجر والأرض الصلبة والجسد في حالة لاتوازن- وكان بعد سنوات، أخوه حسن الرحبي، في بلاد الشمال في نفس العمر، قلب الأم لا يخطئ، في نفس العمر، خرج حسن من عند جدته وزنه أصغر سناً، وكان أمامه أقل من حول ليصبح في سن أخيه محمد. والآن جاسر يقترب من سنهما. وهكذا تذكرت، تذكرت هدّله أخاها عايد الخضر، تذكرت الهيلوان.

لكن جاسر ما زال عفياً، لم يند عنه ما يدفع الى هذا الوهم، خرج من غرفته ودخل الى المطبخ. امه وشاها تجلسان أمام (وجاغ) الفرن، وكان ارتياب الشاها قد زال حين لحظته يقترب. وما بالك يا هدّله .. ألا ترين ولدك بكامل

صحته ونشاطه.. كبح الله الوسواس، كنت مثلك أتوهم مرضه، الفتى معافى، أنظري اليه. واستبقته شاها: أهلاً يا جاسر.. شلونـك زين؟ فهز رأسه وقال: يُما يريدك أبوي. وردت عليه شاها: أريدك تقعد بسدّي الى ما تجي أمك .. أحكي معك كم كلمة! وجلس جانب شاها على مقعد خشبي صغير مرتبكاً محرجاً بينما خرجت أمه من المطبخ وتشاغلت شاها، لتذهب عنه الحرج، بتلقيم الفرن بشدف الخشب وهي تقول بصوت مسموع: كادت النار تنطفي. ثم استطردت: شكون يا جاسر ما تحب هذه الأكلة؟ فرفع رأسه علامة الإستفسار ثم سأل: شنو اسمها؟ فأجابته: سنبوسك .. يمكن ما تعرفها.. هذه العجينة نحشيها باللحم المفروم.. تستوي وتتقمر بالفرن، وبعدين تنأكل ويّا اللبن. كانت نار الفرن تنير شاها بطيف حسبه منذ رحلة النزهة، استعاد في لحظات شعوراً اعتراه حينما اصطدم بها جانب باب الديوان، وند عنها أثناءها آهة خيلت لجاسر كيف كان صبا شاها، يركض في النسغ والشرايين كالرحيق. لقد مررت بصبا شاها! مررت وأعتقد انها كمريم، شاها في مريم ومريم في شاها. وقال لنفسه: اذن انا أجلس جانب مريم. ففتحت فمها باستغراب وتساءلت: ماذا يريد مني الفتى؟ أمام الفرن وكان وهج النار يسري اليها فيخيل اليه أنها تناجيه بالوحدة ذاتها. وراحت عيناه تذويان الى النار. ولاحظ انه قريب منها، وتكاد ركب السيقان تتماسان، فسرت فيه نشوة الإقتراب، نشوة الإلتصاق مع الآخرين تحت الأغطية، نشوة التداني عند الجلوس في كرسي صغير أمام موقد المطبخ. وظن لوهلة ان باستطاعته التخلص من ثيابه رغم برودة الطقس، فالدفء في المطبخ أمام ألسنة النار التي تغيب في عنق الفرن، ثم تظهر، يجلب الرضى ويلغي فارق السن، لذا باعد ساقيه واقترب من شاها فوضع راحتيه على ركبتيها. ولم يكن يتمنى سوى ماء الحمام المجاور، الماء الساخن. يسري الماء من مكامن النار، الى الحمام، عن طريق بابه الداخلي، ومن خلال النافذة الزجاجية المطلة على المطبخ، وكان باب الحمام المغلق قبالته ووراء ظهر شاها التي تناولها سحر الزيغان. ورأى للمرة الأولى زغب ساقيها، لمحه عندما استدارت شاها الى باب الحمام، تتأكد إن كان مغلقاً أم لا، ورأت في عينيه ما دار في خلده، فحدقت الى ثوبها المنحسر وقالت في نفسها: فات وقت العقيدة، مر أسبوع على وقت المرد وما فطنت! وحدث نفسه: اذا كان شعر ساقيها كثيفاً، ففخذاها كشأن ساقيها، فخذا الشاها غير أملسين! اعتقد ان الزغب في جسد مريم لا مكان له، فجسد مريم أملس. وراح يتلمس الشعر حول ركبتي شاها بنهايات أصابعه، لعله يشعر بالجسد المستدير الى باب الحمام المغلق، كان يتلمس الشعر من فوق الثوب المنثني. وفخذاها سمينتان كآليتي رجل، رجراجتان، حتى زحف فوق الثوب المنثني، بأحاسيسه وما تبقى من راحتيه الملتهبتين.

ان جاسر مريض، مريض في الحب و (الذاكرة) و (الزمن)، لم يميز شاها عن ابنتها مريم! صرخت شاها. كانت يده متوغلة في الفرق بين شاها وبين مريم، يقارن الإبنة مع أمها، هذه مريم وهذه شاها! ولماذا تفرقينني عن فرحان وعن سرحان؟ لست إلا هما يا شاها. أنا فرحان الشاهر ابن هدّله الخضر! وضحك في فمها المطبق على صرخة لم تخرج، أطبق على شفتيها وتذكر ليل النزهة والقمر وبسطة الدرج بمحاذاة الإبنة، ويده لا تكاد تنزل عما اشتهت أعماقه الدفينة. وبدا له الدخول الى الحمام يمر عبر باب المطبخ، يواجه الفرن، ثم ينحرف الى اليمين يفتح الباب المغلق، باب الحمام. وقبل هذا أطل على المستحمة من خلال نافذته الوحيدة المشرفة على المطبخ، صعد على الكرسي الصغير جانب الفرن، وأزال ستارة النافذة وراح يرى الى الجسد الغارق بسنا النار. وقال لاهثا: لماذا لا ندخل الى الحمام الدافئ اذاً؟ لن يضيرك شيء، تتذكرين سنوات الطفولة والشباب، ولا تخافي، لندع مجيء هدّله محكوماً بالصدف، صاحها أبي عندما كانت تجلس بقربك أمام موقد الفرن. اما باب الحمام الذي طلبه فرحان ان يكون في داخل المطبخ، إتقاء لبرد الشتاء، في الجدار الداخلي، فيدعوا المرء الى البهجة، حيث يصدمنا بخار الوهج حين نفتح باب الحمام فجأة ونحن لم نزل في أرض المطبخ، يختلط بخار الحمام ببخار الفرن. ونظرت اليه شاها، نظرت طويلاً وهو يتلوى. لم تكن الحكاية كما فهمتها شاها، لقد التبس عليها ما صدر عنه. نظرت الى وجهه المخنوق وقالت: يا بني قوم، قوم وصيح أمك، أمك هدّله لزوم تعلم بما يجرى عليك.

خيالها كان مرسوماً أمامه حين وقف وسط الحوش مردداً: هدّله يا هدّله تريدك الشاها، الشاها تريدك يا هدّله، اطلعي عاد من عند عبد الله: ان الشاها تريد أمي الهدّله، عجب! كانت هدّله هنا قبل مجيئي، لماذا لم تردها حينها؟ هذه المرأة لها طبع غريب. وكفن يديه تحت حزام كلابيته وبدأ يتحسس بأنامله أمعائه الساخنة ولفظ بخار أنفاسه ثم شهق هاجساً: عند الميعاد، يجب عليها الحضور، لأن الحوش واسع لها، غير ضيق، فيه شجرة التوت ومضخة المياه والبركة .. وان كانت ستتشبه بمريم او ب / هي / فإن ذلك لم يعد ينطلي علي، وكشفتك ايتها المدهوقة .. مرة تظهرين وكأنك شاها المطر ومرة كأنك هدّله وأخرى كمريم ، وأخشى أن أكون أنا أنت، فأبحث عني في كل الزوايا، في الغرف والصناديق والحمامات والمطابخ، أبحث عني في قعر كل آبار الدير، لكنني سأعرفك، سأسدد يدي إليك، وأقول بصوت عال: أنت، أنت هي. ومهما يكن فإنك حين تأتين وتمثلين جاسر، انك جاسر، فسأعرف أنك هي، لأن جاسر لا يتحول إليك. وصاح بصوت عال: أنا جاسر الرحبي. فسمعته شاها وهدّله، سمعته مريم .. وكل الذين أشرعوا نوافذهم وطفقوا يضحكون مستندين على الحواجز والمرافق.

أيكون قد فكر بذلك حقاً؟ وقف وسط الحوش يصيح هدّله هدّله هدّله، وغرة شعره منفوشة عن شماغه بفوضى وغباء، ويداه مدفونتان تحت حزامه الأحمر، وانتصابته المائلة تقول: ما عاد الحوش يسَع يا هدّله، ما عاد الحوش يناسب، الكل يحقد علينا تعالي نبتعد عنهم، يريدون موتي يا هدّله، يريد أهل الدار ذلك لي ولك، ربما ستأتي شاها ومريم معنا، سنبتعد عن أهل الدار، ولا ندع فرصة واحدة لهم.

وخرجت هدّله تركض، واستفسرت بحرقة: جاسر!؟ فرد عليها حانقاً: شنو؟ ليش يضحكون عليّ الكلاب .. الزنوات .. امهاتهم وابهاتهم.. ليش يتكهكهون.. شنو لهم عندي؟ ثم نظر اليهم يصيح: أنا مضحكة أبوكم؟ شوفو اللي ما يفوت الى داره ترى يسمع كلام ما هو زين، ياللا تا أشوف. كل يوم عاملين عرس عليّ، شنو !؟ وأمرت شاها بصوت رجولي أهل الدار: فوتو كبحكم الله، شكون بكم، شكون بكم؟ عجيان وعجيات كلكم الى البيت وما أشوف واحد رافع راسه. ثم قال جاسر لشاها: شوفي يا شاها. فقاطعته هدّله بحزم: عيب يا ولد..عمتك أم سرحان .. تناديها .. عمتي .. يكفي هبال ول! ياللا فوت .. تعال يا أبو محمد خذ إبنك.. زيادة يا عبد .. هذه زيادة يا عبد!

وانزوت هدّله تبكي كما لم تفعل من قبل، واذا جاءت شاها تهدأها، سمعت دمدمتها: هذا كثير يا أمي.. زيادة يا أمي.. وما عاد طاقتي تحمل.. زيادة. تالي الوليد اللي ظل عندي انهبل. وهذا ليس كل شيء، عبد الله الرحبي لا يهمه غير العمل الذي كلفه به مهيدي، وراح يقضي وقته في حسابات لا تنتهي: حقق السمن الصافي، وحقق السمن المخلوط، جزز الصوف، وأنواع التمور وأسعارها، وكمية السمسم في المحال والثمن الحالي لها. وراح في المدة الأخيرة يقضي وقتاً إضافياً في تجارة الدواب، الجمال والحصن بأنواعها. ورفع صوته في داخل الغرفة يقول: ما أقدر أجيء لحظة على هالبيت .. تخلقين ألف مشكل ومشكل يا هدّله، شنو انا فاضي لك ولولدك؟ وردت هدّله بغصة: أعمته المصاري .. عمته الفلوس .. هي تدخل يد ابن آدم وتخليه بخير؟! تالي الليل مشغول عنا بعدّ المصاري .. وبالنهار يطلع من الفجر الى "الماقف" وما يرد لحين العصر .. ومن العصر وطالع بالديوان أو مع ربعه .. ما يبين علينا قبل العشا .. يقضي الليل يعد الفلوس الملعونة. وقطع عبد الله فسحة الدار مشيراً الى جاسر: اطع أمك يا ول .. ما ني فاضي ها! ثم وقف أمام مدخل الدار تحت الرواق: يا هدّله ماية شغلة برأسي، وانت ما عندك غيره ..

شكون؟ ثم زم سترته فوق كلابيته وعدل العقال واختفى. وتلفتت هدّله الى شاها التي قالت، وشعوراً متبادلاً يغمرها: أين تروحون، تغيبون كل النهار؟
خرج صوت عبدالله من الغرفة يؤنب ابنه: يا ولد يا جاسر .. عيب .. وتسب من، أولاد عمك يا أحمق؟ أسكت يا ولد، يا صغير. ورأى جاسر والده واقفاً

في فتحة الباب يقول له: قلنا أنك صرت زلمة وكبرت، شكون لسة ما عقلت؟ ودمدم جاسر بغضب: ما تشوفهم، هم اللي كانوا بادئين .. ما كلمتهم والله لا بشين ولا بزين! وعاد عبد الله الى الغرفة ثم خرج قاطعاً فناء الدار غير آبه بما جرى، وقف في بداية المدخل يفسح المرور لمريم التي خرجت من الديوان تحمل دلتي القهوة.

تقدمت منه شاها قائلة: يا جاسر أنت يا ابني ما عدت صغير، اليوم ما في مانع، بس باكر تروح مع عبد الغني أو مع سرحان، وما نرضى ترجع مثل كل مرة، انت هسع رجل ووجوب تتعلم.. تشوف لك شغلة، اما تظل مقابل الصغار والنسوان، ترى طول عمرك ما تصير زلمة، سمعت؟ فهز رأسه وقال: أروح ويا سرحان وما أظل مع عبد الغني، بس يجي عبد الغني الى سرحان أترك وأجيء يا هدّله الى البيت. فقالت شاها: لأ، تظل مع سرحان حتى لو كان عبد الغني هناك، ظل معه ولا تتركه، مالك علاقة مع عبد الغني، يجي يروح شكون دخلك؟ فأجاب جاسر: هو ابن عمي صحيح، بس هو دائماً شنو عملت وشنو سويت وليش هذه ما بمكانها، وما تعرف تقص ولا تقيس، ما تعرف ترد طلب ولا غيره، هو يكرهني. وكررت شاها: من باكر يا جاسر .. وانا أحكي مع عبد الغني تا أشوف.

النوم. فيقضي المرء عمره نائماً، تحت اللحاف، يتوسد هواجسه، ويحلم. وفي الشتاء، البرد والصقيع، الهواء يلفح الوجوه ...الى الضحى. وندهت: كفاك نوماً، طلع الظهر! ترى سرحان ينتظرك في المتجر يا جاسر، كفاك.. الرجال راحت الى أشغالها، ما ظل أحد في البيوت. ورددت في نفسها: يا ربي شنو أعمل مع هالولد، تراه راح يجعلني خراب؟! وسمع صوت شاها قادما من طرف الحوش: شكون لسة ما فاق، أفوت عليه تا أشوف ليش ما يفيق؟ وفتحت الباب بقوة، سمعها بينما أخذ يتكور ويدفن رأسه تحت الوسادة، وكرر في أعماقه: ول .. إنها داخلة. ورفعت شاها صوتها في وسط الغرفة: أعطيني العصا تا أشوف ليش ما يقعد هالكسل.. ليش؟ ورفعت عنه اللحاف وقد زمت شفتيها وقطبت: شكون يا ولد اذا أمك تدللك، عندها تتدلل .. هون ما بي دلال.. ياللا اقعد مثل أخير آدمي. وكشفت عنه اللحاف، وجدته نائماً على بطنه والوسادة فوق رأسه، قال: اسمعي، اتركيني أنام.. والله وجعان وما أقدر أفيق. رفعت عنه الغطاء وثبتت يديها في كتفيه ثم هزته بعنف وقلبته على ظهره قائلة: أقعد مثل بقية الناس.. بكل الدير ما ظل أحد نائماً.. ياللا. ولمحته، أو ان الانحراف أصاب ناظريها، وقعت عيناها عند ساقيه، هناك كان منتفخاً وبارزاً كخيمة، فتوقفت وَتَنَتْ لبرهة، وقد غلبها الخجل، ثم غالبت الحياء وتبسمت وهي تنقل بصرها الى وجه راح يحتقن، قالت: شكون يا ول .. عكروت بمن

كنت تحلم .. ياللا قوم. ورفعت صوتها الى هدّله التي دخلت الى الغرفة: شكون يا هدّله، الولد كان يحلم بالعروس .. نزوجه باكر أخير!

وكان النهار في بدايته، هذا الحمل الثقيل، وانتابه احساس المضادة: في وسط النهر، ان يقوم سباحة ضد مجرى الماء، وان كان سيطفو فوق موجة وموجتين، يعبرها مناحرة، فإن الموجة التالية سترهق قواه، إما تبقيه مكانه واما تدفعه الى الخلف، والموجة، لها ظهر عال، ظهر طويل.. سيعيد القفز كرة أخرى، لأن فواز عندما ينحني، لا ينحني كما يجب، فقط يميل بجذعه الى الأمام، الى الأمام قليلاً، وانه يزغل يا أخي، هذه ليست انحناءة أبداً، تقلص كتفيك دون احناء ظهرك. اننا لا نستطيع القفز بهذه الطريقة يا فواز. ليكن ظهرك عموداً على الساقين، قاطعاً للحوض، ويستند بالساعدين على ركبتيك، لتكن قدماك فوق الأرض ثابتتين، قويتين. فتتلقفني الأرض حين تزيح ظهرك وأنا أقفز، فأقفز فوق فراغ الأرض الصلبة جاسية القرميدا الصادّة الرادّة ـ الدارة قرميدا رحلنا نزلنا بدار جديدة .. عمي فرحان مرحان اللي يطعم ابنته شحمة لحمة يا منقاش الله تكون بهذه النقطة. اه.

أقول لا أريد الذهاب الى المتجر يا هدّله، لا أريد لا أريد. كأن وقت أروح للمتجر تطلع مني روحي، ما أريد. فقالت شاها: والله اللي يسمعك يقول هذا بنية، شكون بك!؟ الشباب كلهم يشتغلون، صير مثلهم. لأ، اشتغل غير شغلة إي، بس روحة للمتجر ما تصير أبد. اه.

ووقفن للحظات، كانت هند خلف شاها ومريم خلف أمه، سكن الجميع في هيئة تمثالية، حتى الشجرة امتنعت عن نقل الرطوبة وعن الحفيف الأجرد، وتوالت في ذهنه تيارات الماء والرذاذ، واين نقل بصره، كانت هند كالأفق الخلفي، بعيدة عن أمه وعن مريم وشاها، رأى الأنف الحاد يشير اليه: ما تقدر تقفز الى رطوبة المياه، الأنف والحنك بارزين كمحراث. بارزين. ورفعت ريح الصمت ذيل فستانها الأحمر، ورأى هناك أنفها الطويل، يمتد حتى الكعب، ويناط بخيشومه أرض الدار المبلطة. وراءه أو أمامه، عندما يزوي عينيه، تتبدى له بأنفها، اينما وقف واستدار. وحاول وضعها خلفه، يخفيها تحت الدرج، في ظلام لا يراه أحد.

لقد دار نصف دورة، ولبث قليلاً بمكانه يتصور كيف ينظرون اليه، من الخلف، غير مكترثين لاختفاء هند، تحت الدرج جانب باب الديوان المغلق بالرتاج، وفكر ان يستل نفسه من بينهم، يقود خطواته بحذر الى طريق الدرج والممر المغلق، ليرى ان كانت هند هناك أم لا، قبض أذيال كلابيته وانحرف الى الرواق، ثم دار الدورة، وجعل يتحرز في نظراته .. وخطواته .. رويداً ...

رويداً، وكأنهم. (جامدين). ومريم ظلت ساهمة الوجه، وهدّله الخضر، بعصبتها المرفرفة مثلت له مومياء تشير الى الحركة المستحيلة، وشاها التي كادت ان تصل الى بداية النطق والتحرر من الوقوف، مثلت له المعنى بين حركة الوقوف وبين نطق الصمت. ورفع أذياله تشده الرغبة في اكتشاف الإختباء المدون في ذاكرته، فمال الى اليسار، واجتاز صمت الحوش وسكونه، وأراد ببطء وتمهل إنزال المفاجأة، فالتصق على سور الدرج وراح يتسلل الى الفجوة التي اختبأت فيها هند. وانتهز فترة غفلتهم، سيقوم بالنشاط الإنساني الجديد، الجديد منذ الهطول الماضي، وضع مزيداً من أذيال الكلابية في فمه المبلل، وراح يتقدم الى الفجوة، أمام الباب المغلق وأسفل الدرج. ووصلت الى مسامعه ضربات قلبها، أسفل فستان صدرها الخائف، وقال بخفوت: اذن مختبئة هنا. هند يندف صدرها فيزداد جاسر ثقة ورجولة، ولا يلتفت الى الخلف أو الى الأعلى، وإن كان الناس يراقبون ما يفعله.

سمعنا صراخها الكتوم، ولهاثا عاجزا لا يعرف الدخول.

فتمتمت شاها المطر: هند! قتلتها الواقعة فخانها الصوت، تمتمت تحت طوفان من الحمى: مستحيل .. ما.. برنزة .. هلب .. ذبح دمها. واتكأت على هدّله. واندفعت مريم، بين أمها وبين ما رأت أسفل الدرج، اندفعت كالهبوب باتجاه جاسر، فرفعته من قذاله ثم لكزته بقوة الى الخارج، وتفحصت بقلق أختها، وحملقت الى المكان حتى تبينت الإغماءة التي طوفت مدارك اختها ونشجت برعب: يا مسخمين على هالسالفة، أركضي يا هدّله واغلقي باب الدار، لا أحد يفوت وننفضح.
التقط شماغه ورمى على جسده أطراف كلابيته وانطلق على وجهه دون سمت ولا منحى.
دارة قرميدا رحلنا نزلنا بدار جديدة عمي شويخ لويخ اللي يطعم ابنته شحمة لحمة يا منقاش الله تكون بهذه النقطة. اه.

16

خرج جاسر هاربا من دار فرحان، فوقفت هدّله حائرة أمام ما جرى، ان تتلهف على ابنها الوحيد والذي لن يعود، أو ان تستنكر مع مريم وشاها ما فعله، فتحمل روح البغضاء والكره على خطيئته التي لا تغتفر؟ كانت واجمة ذاهلة ولا تعرف طريقاً للخروج، ولا تصحيحاً لما حدث. ولما أرادت مفاتحة شاها في أمر ما كان، ترددت حتى فقدت القدرة على ذلك، وفي كل مرة تجد الشجاعة لمفاتحتها، وتتذكر كيف كتمت شاها الأمر مع ابنتيها، اذ ان الحدث لم يلث براءة الفتاة، تعود الى ترددها مخافة ان ينتكئ الجرح.

واحتارت في كيفية إعلام عبد الله، ماذا ستقول له، وماذا ستخترع من الحكايا؟ جاسر أين ذهب يا هدّله؟ سيسألها عندما يفطن لغياب ابنه، يسألها اليوم أو غداً. لو كان عايد بجانبها لهان عليها الأمر. وزهية التي وصل إليها الخبر دون رؤية ما جرى، هل ستخبر زوجها مهيدي، بطريقة أو بأخرى؟ ثم هل ستمتنع شاها عن إعلام فرحان لمدة طويلة، تنسى فيها وينسى تأثير ما فعله جاسر؟

تمنت مرة فقط، ان يكون مهيدي مثل عايد، حتى وإن كان أخاها من أبيها، مثل عايد لتلجأ اليه في محنتها، لكنها استبعدت احتمال ما تمنت. ومهيدي وزوجها لا هَم لهما غير التجارة. وخشيت كذلك أن تكون زهية غير قادرة على كتم سر الدار، سيقود هذا الى إعلان حقيقة إختفاء جاسر، وبالتالي ستختلط الأمور وتبطل عودة ابنها. وتجرأت وقالت لشاها بحضور مريم: سوّد وجهنا، الوليد سوّد وجهنا يا أم سرحان. وصمتت لترى وقع الكلام على شاها التي اكتفت بإشاحة وجهها وترديد: تربية سيز .. سيز. وسمعت شاها بعد فترة أطرقت فيها، وجاءها الكلام من فوق، سمعت مريم تسألها بطريقة لا تخلو من الحزن والملامة: ما عرفتي اين راح؟ فرفعت رأسها وقالت بصوت خافت مخنوق:

من أين أريد أعرف؟ فردت شاها بهزء، كأنها تكلم نفسها: أين يريد يروح يعني .. تراه عند المجدّل البارحة واليوم.

كتلة وجسد. وتذكرت مريم ساعة انتزعت جاسر من تحت الدرج أنها أحست بالصوت يجري متوسلاً مستنجداً، واستطاعت ان تفسر العبارة المبتورة التي تفوه بها في خوف وعجل، وحسبت انها رأت تعابير وجهه حين مضى يلم أذيال كلابيته باتجاه باب الحوش، كان الهلع مخيماً عليه، لا بسبب ما اقترفه، بل بسبب آخر لم يفطنوا اليه. ولقد تأكدت من مشاعرها حين أتاهم حمزة المجدل وقال لهدّله بحضور زهية ومريم: ابنك يا هدّله ما هو زين.. ترا زعلان شيء ومرضه شيء.. يا هدّله جاسر يقوم بالليل بدون وعي ويمشي لعند المي، يدوّر عن الهواشة، مرة مرتين لحقته، بس ما أدري، اذا سهيت عنه مرة شكون يعمل بحاله؟ عندها تحققت مريم مما خمنته وانطلقت لتقول: شكون .. تتركونه تا يضيع من يدك.. يا هدّله.. الحقوه ترا الولد ما هو برأيه من زمن .. واستدارت الى أمها تقول: لا يتيه، أدري والله وقتها ما كان بروحه، الولد ما هو زين يا أمي. بين الهبوط والصعود، ومريم فوقهما تحاول انهاء المشهد، ليكن ما يكون، فأدخلت مشعاب يدها في تجاويف ظهره المرن، فسمعته يرطن: كلكم متجمعون عليّ أنت وهي وهي وهي كلكن كلكن كلكن.. بس يا الله اتركوني. ورأت كيف اقترن حاجباه رعباً، كأنه يحدق في أعماقه، يبحث ليهرب من الزوايا، يبحث عن طريق لا حدود له ولا آفاق ـ من يملك العالم في هذا الامتداد الضيق؟ من اليسار.. وبالقرب منه باب الديوان المغلق ووراءه باب الحوش الفرعي، المغلق، فانتحى طريقه هارباً منها، المضخة البئر الزوايا الرطبة في المحشرة المسكونة فيه.

وسأل حمزة المجدّل: ليش في شيء ثاني، ما هو زعل بس، وردت هدّله: زعل بس .. الوليد خرج زعلان مني. وعاود حمزة: شكون بي؟ فقالت شاها: خلص، روح هسع ونحن نتصرف. وكانت مريم تلاحق خطاه الوئيدة باتجاه الدرج، فزوت عينيها الى ما سيفعله جاسر، وظلت صامتة متوقعة ما سيقوم به، وكيلا تخرجه من غفلته كتمت رغبتها في تتبعه الى النهاية، ظلت ساكنة لا تأتي بحراك، وهي ترى أطراف ثوبه وحركته المشوشة. وحين سمعت صيحة شاها المكبوتة، طارت من فورها الى مكان جاسر، تحت الدرج، ورفعته عن أختها. لذلك خرج من بيت فرحان لا يلوي على شيء، كانت أصابع مريم المغروسة في ظهره تمنع عنه الرؤية. الى أين يتجه؟ راح الى الشارع العام إلى المئذنة إلى النهر، ثم ارتد الى بيت حمزة المجدل أسفل الجبل الشرقي.
وكان سؤال فرحان عن جاسر في اليوم التالي لمجيء حمزة المجدل مربكاً لهدّله ولشاها، رغم ما تأملته هدّله من طريق محتمل لعودة ابنها بتدخل فرحان

نفسه. سأل فرحان باهتمام: أشوف جاسر يا هدّله ما يبين، عساه بخير؟ فردت شاها بعد ما تبادلته من نظرات مع هدّله، ردت: ما به شيء، راد يقعد كم يوم عند المجدّل. فتمتم: عند الجبل، شكون يسوي غادي! وتابع: اليوم ما يبات.. تراه يجي أخير وآمن. وتابع فرحان بعد صمت حمل تساؤلاً: يقولون .. ان العربان يتحضرون لمنع الفرنساوي من دخول الجزيرة والشامية، فات الفرنساوي بالشام من أشهر، والشيخ حاجم يحضر قواته لردهم من عند الرقة، يجي أخير يا هدّله .. ما يدري الواحد شكون يصير؟

مضى. عندما ارتد عن النهر والمئذنة والشارع العام، مضى الى الجبل الشرقي، وبان له من بعيد بيت المجدل. كان على سفح الجبل المطل على الدير ـ سنرى منه الدير وكل الحويجة اذا صعدنا. وبدا البيت أكثر تناسقاً مما كان عليه قبل الفيضان، أقاموا غرفة إضافية أيام الترميم، ودعموا سياج الدار، وأبدلوا النوافذ والأبواب، وبنوا مرافق جديدة بعد ان انتهى حمزة المجدل من بناء مرافق بيت فرحان. وتبدلت مشاعره عندما اقترب من الدار، أخلى من قلبه الخوف، وانتقلت مخيلته الى مكان آخر، حين كان يأتي الى هنا فيقضي عدداً من الساعات والتي تمتد أحياناً الى قبول المبيت، وذلك تحت رغبة متابعة السمر وإلحاح المجدّل نفسه، كان يقول: إبقى يا جاسر تروح الى ديوان فرحان شكون تسوي هناك.. هون نتعلل ونتقشمر الى ما شاء الله، صحيح ديوان فرحان أكبر يابا ..! يقول هذا مبتسماً، وينظر الى زوجته التي كانت تنهيه كلما تطرق الى مقارنة كهذه. والمجدل طويل القامة يا مياسة .. أعرف أنك تدافعين عنه أمام أمك، لا ترضين هجومها عليه: مهما يكن يا أمي هو أبي، المجدل، ما نرضى تحكين عليه قدامنا.. أبداً. وهذا الشعر المخضب بالحناء حتى حسبته، ثم عيناك الواسعتان، يغطي شعرك الوجه الأبيض ذا الملامح القريبة من قلبي، أشعر أن وجهك فرات يسري بين نياط القلب، حسبته يا مياسة شتاء وربيعا ويبقى الرذاذ يندف فوقنا على طول الرصيف المؤدي الى البساتين، وسأحزر ان دوائر المياه فوق السطح تشبه وجهك، كطيات شعرك، كأنك المياه يا مريم! وشعرك كان رغم أراضي الطين ورامات الوحل الملتصق بأعقاب الأقدام ملاذاً للرغبة في كشف النقاء المضوع بالندى. اه .

كأنك مريم. لذا فسروالك الصوفي يجعلنا نظن بطيبان الحياة تحت غطاء البطانية، كمريم أختي، وكحالة جسد بعد استحمام أزال عنا العناصر، فأصبحنا متشابهين، لا يسترنا حجاب، ولكي نوكد الحميمية بيننا نظرنا الى بُعد الحياة وقلنا من هنا مرت الحياة، من هنا مرت الكذبة الأولى. وإذا طال بنا السهر وغفا حمزة تسألين من سيطفئ القنديل يا جاسر أنا أم أنت.

ثم عادت مشاعره الى الهرب والخوف، كيف سيقضي الأيام، ثم اذا كان ثمة عودة فكيف سيقابل من هرب منهم؟ ودخوله الآن الى بيت المجدل، إذا علموا بما جرى، فما لون الدخول او بالأحرى المكوث الذي يمكن ان يطول؟ هل ستبقى الآماق معلقة بين جيزان السطح وأحلام السهار كل ليلة؟ وخطرت في باله العودة، خطرت في باله العودة الى العلوة. سيوازي الجبل، يسير متواريا عن قطاع الطرق، يتزود للطريق المقفر الخالي، في ناحية ما .. وفي كل خطوة يخطوها الى العلوة سيستقبل الشمس. ان البرد قارس لذلك سيختار زاوية الشمس، الزاوية التي يحدها الشمال والجنوب.

لا حاجة للباب، بأن يبقى مفتوحاً في النهار وفي الليل، في ايام الخطر وايام الأمان، ومنه يظهر الفناء، وفي بطن الفناء، كأن لا، في داخل الحوش، السفح. لا حوش، أذاً لم السور الواطئ، في داخل الحوش سفح وفي داخل السفح حوش، فلِم سياج الطين الذي لا يحد ولا يمد؟ ومن الحوش سنصعد الى اعلى الجبل ونرى الدير، ونرى من فوق كيف تتحوج الأرض في قلب النهر. ولكي يذهب جاسر الى العلوة عن طريق ظهر الجبل، سيخرج الى الحوش ثم يصعد أعلى الجبل، يتوارى خلفه، فيصبح بينه وبين الطريق جبل. يظل يسير، يعتقد ان الرحبة ستلوح له قبل غياب الشمس. وعند ذلك، قبل غياب الشمس، سيرتقي أعلى الجبل من جديد ثم ينزل الى سفحه الآخر، من بطن الجبل، عندها سيرى العلوة. قبل الغياب. اه (انتهى)

كل الدير في الليل. وأغلقوا باب الغرفة من برودة الطقس، وزرعوا في ارض الغرفة مدفأة، بدون أنابيب دخان، كان الدخان يخرج من الثقوب الصغيرة التي تكورت في ثنايا الجدران. لكي تدفأ الغرفة حاول حمزة إزادة شعلة المصباح فسكب الزيت الإضافي في قاعدة المصباح، وبلل مقداراً أكبر من الفتيل، فوسع الرقعة التي تنقل الضياء. وسمع جاسر المجدل وهو يقول: ما نقول لك ابقى، انت حر، تريد تظل، تريد تروح، والبيت بيتك واحنا أهلك زاد. ففتح جاسر عينيه يقاوم النوم، وقال متثائباً: أريد أظل، الوقت هسع متأخر. فضحك الجميع وسأل المجدل: شكون جاسر، انت نايم والا قاعد؟ فتمتمت مياسة: يمكنه يحلم يابا، أشوفه نام بسرعة هذه المرة! وفرشت له في زاوية الغرفة وهي تقول: نام وّيا حمزة، وتابعت: لا تلز جسمك على الحايط، خذ الوسادة حطها بينك وبين الحايط. واستطاع ان يسمع وهو بين النوم واليقظة لهاث مياسة وهي تغطيه باللحاف وهي تميله قليلاً لتضع بينه وبين الجدار الوسادة كي تقيه برودة الحائط.

ورأى الليل كثيفاً، ينزل من الجبل كالمارد، ويطبق ببطء على البلدة، يدخل في النفوس، ويزيدها ظلمة. هكذا شعر بالتبدد وانه يتفرق فيصبح أشلاء فضاء، ويرى الليل مكفناً بالصقيع، بالخوف من أعمدة المشانق المترنحة. وتساءل: طيب أين الليل وأين المياه؟ لقد ضاع النهر في جوف الظلام. ولولا الخرير المجاور لمسامع أذنيه لقال ببعد الماء عنه، لقال انه في الدياجير العميقة، لكنه سمع سريان النهر يستيقظ في باطنه وسمع ضحكات الأمواج ترتطم بحافة الهاوية.

وروى حمزة المجدل تتبعه لجاسر، لقد أيقظته مياسة، لكزته في كتفه مهمهمة: أقعد يا حمزة، ترى جاسر ما أدري اين راح بهالليل؟ ورآه من بعيد، يلفه الإظلام، طالما يسير في ارض ممتدة. ساحة رأيناها في الليل، ولا يحجبها عنا سوى ظل الأرض الكثيف، وكان الظلام يتبدل بين لحظة وأخرى فعرفنا انه طيف جاسر يأخذ وجهة الشمال، الى طبيعة النهر الليلكية. اذاً هو، سوادة تتحرك، فانبطح على وجهه كي يرى لماذا يسير وحيدا على مهل وخلف من؟

كذا يا هدّله، ابنك كل ليلة. فخرت هدّله على ركبتيها، ارتمت أمام الشاها ثم رفعت وجهها وقالت: يا بني .. اني يا شاها ..! ورفعتها مريم وشاها، رفعتها زهية، وكانت مرافق هند تطقطق تحت ثقلها، هدّله وهدّله وانحلت عصبتها وتناثر شعرها.

ثم عادوا بجاسر، فأمرت شاها ربطه أثناء الليل، لئلا يمشي في نومه، يربطونه بالرباط المتين، كي لا يعاود الكرّة. وحتى يرون صرفة مع مرضه ومسه المباغت. قالت زوجة فرحان: الى ان تفتح له هنوف النجم اربطوه زين واربطوا الحبل بالحايط، دقوا الحبل لا يحله. هنوف النجم. أنا طاوعتكم أي، تربطوني تحلّوني أي، لكن هنوف النجم ما أصلها، ما أروح الى هنوف النجم. فردت شاها: ترا اذا ما رحت الى هنوف تظل مربوط طول عمرك! ورد جاسر: هئ هئ ما أروح .. أني ما بيّ شيء، انتم تتوهمون. ورفع عبد الله صوته: باكر تروح ويّا أمك الى هنوف يا ولد، باكر من الصباح، خلص ما ظل حكي بهالموضوع. وقالت زهية: هنوف النجم تحل كثير أمور، وهذه أبسطها، كل الدير تروح لعندها، يروحون لبيتها نسوان وزلم .. ما بها شيء. وابتسمت شاها قائلة: تجمع الحبايب وتلاقي الغياب.

تمر هذه الحوادث صورا، يحس ان الدنيا لا ترى من هذا المكان، هناك ميدان آخر لها، غير ما يقام الآن أمامه من أفعال وأقوال، فهم يولون اهتماماً يجهل معناه، فما الداعي لكل ذلك؟ والدنيا الحقيقية لا أحد يعيرها انتباهه، كأنه يراها صامتة في زاوية مهملة وقد تسربلت بمئزر أزرق، مثل الأبواب والنوافذ، مطلية بنفس اللون. أو انهم يفتعلون المواقف، ولا يريدون من أحد أن يذهب

الى هنوف النجم، فقط جاسر، يريدون ذهابه! ان الدنيا في مكان آخر، غير المكان الذي يحيون فيه، هم وراء الهامش ولو كان فرحان معهم فهم وراء الهامش، أما نحن ففي الأعماق، في مركز اللعبة. وننتظر حلول الليل، من المفترض ألا يمكّنوا الرباط لهذا اليوم، سنقول لهم: غدا سنذهب الى هنوف النجم فما حاجة الرباط؟

لا داعي للحبل يا هدّله، غدا سيذهب الى هنوف، فلا داعي له، الليلة الأخيرة سماح وحرية، مرت ليالي وهو لا يقدر على مغادرة الغرفة، نعتقد ان حالته تحسنت، لن يخرج الليلة، الليلة لن يمشي جاسر في نومه. ارم عنه الرباط. فرمت عنه قيد الحبل واكتفت بإغلاق باب الغرفة بالمفتاح، وخبأته في ثوبها الداخلي. وقال الليل ـ يا حسن ـ ثوب هدّله الداخلي أصفر، مخرم ومطرز بـ(القنويشة) بالخيوط الزرقاء ذات المساس الناعم يا أمي ثوبك الداخلي، تحت ثوب الكاريه (البونج)، المفتاح في شلحة هدّله تحت ثوب البونج، شلحة هدّله الـ (جكر) أو الـ (أطلس). المفتاح في جيب هدّله الواسع من خصرها الى أسفل فخذها. في الظلام نبحث عن المفتاح، أين المفتاح يا أمي؟ واذا كان الجيب طويلاً ملفوفاً، فكيف سنأخذه من الفراغ الرطب؟ وضحكنا لهذه الفكرة فقلنا بصوت واحد: أمنا لها فراغ رطب، ربما تخفي فيه المفتاح! لماذا تخفين المفتاح هناك؟ هناك مكان أنزلنا من الرحبة، فنزلنا! لذا سالت يده من كمه الطويـل وسرت تبحث بصمت عن مكان هدّله، واذا وجدته عند السفح، تنبأ جاسر بالمصير، فتنفس الصعداء، لن يكون هناك باب مقفل بعد اليوم. وبيدي تحسست جسدها، كان كالليف المنتبج، ساقها الممتدة، تعانق ساق أبي، وكانت ساقها كالماس، تنشر الضوء في أركان بطني فصعدت الهلامة الى أعلى، الى الخصر، لقد اجتازت اليد الحوض، وترقرقت فيه لبعض الوقت، وشمل البكاء عين صاحبها، فسمعنا تنهدة وعبرة، أعلى الخصر تبحث عن جيب المفتاح وأينه يا هدّله؟ الى ان وجدته، وجدته فغرقت يدي فيه، وما وجدت المفتاح وأين المفتاح؟ في الجيب المثقوب على إهاب هدّله، وكتمت الصوت حين تلمست، فانتقلت مشاعر اليقظة الى هدّله، وكانت اليد تتسيح في المغرة تبحث عن مفتاح غاص نحو الأجيال القادمة. في هي.

لن نخرج من الغرفة حتى تستيقظ هدّله يا أبي، في جيبها المفتاح، وضعته هناك قبل نومها. فأيقظ عبد الله زوجته هدّله قائلاً: أين المفتاح، شكون بك .. ترا نحن مه بقشلة، تقفلين علينا هكذا .. اعطنا المفتاح يا هدّله، وقومي .. يكفي نوم، تحضري تا تروحين الى بيت هنوف النجم. وكان الصباح الذي أطل من نافذتي الغرفة موعزاً ببداية يوم جديد، يوم في حال هذا الزمن، يوم لا يعود على نفسه كل صباح، له آنة تأخذنا في رحلتها.. في عربة رباعية ندور بها

حول العالم، ندور أو يدور حولنا العالم، نبقى في مكاننا ويلف حولنا العالم جديداً جديداً حتى يأتي المساء، فنفاجأ بمن يأتي ويقول: أنظر اليها، هذا الحجاب وهذه الجبة من عند ربة، تمشي في الطرقات، رأسها كالقبة أنظر اليها حربّة الرحبة لها في ثنايانا حبة. فشتم عبد الله: يا ولد يا زنـ .. تروح تروح وخلص. فتدخلت شاها قائلة: روحي انت لعندها أولاً وشوفي اذا تريده يجي، واذا ما تريده، وتسوي بدونه، يكون انحلت المشكلة.
وخرجت هدّله الى بيت هنوف النجم، في طريقها الى تلة الدير فوق الساحة العامة، ساحة السوق. تسربلت بالعباءة وغطت وجهها بـ (القنوع) بعد ان ثبتته بعصبة، أخفتها تحت العباءة. وراحت ترى العالم من خلف الستارة الشفوف.

عليها ان تصعد تلة الدير، العلوة، حتى تأتي بابها، بابها باب دف أصفر، وفي فناء الحوش شجرة نخيل كبيرة تطل على سفح التلة، جريدها ممتد. وهناك في خيالها صور محمد وحسن وجاسر، ويتراود في أعماقها صراخ أولاد الملاعب، أولاد الدرب، عندما يمتزج الخارج مع الداخل، فلا نعود نفرق بين الاثنين، من يلعب في الدرب ومن يجري بين المطبخ وبين غرف المؤونة المقبية.. وكنا نطل معها على سفح العلوة من سور الحوش، كنا خلف هدّله، ونرى سريان النهر المنعطف، قبل ان تدخل العلوة وأنت تعوم في النهر تراها من الخلف، وكانت تسمع أصواتهم فتميز بينهم حسن وفواز ثم بعد ذلك كان جاسر يصوت: صميمة الصميمة، على النبي صلينا. وشمت رائحة السجور، سجور الشيح وقصب نبتة القطن، تملأ المنحدر الصاعد الى بيت هنوف، ورأت جريد النخيل عندما رفلت برأسها الى أعلى العلوة، علوة الدير، ثم كانت النخلة واقفة في الوسط، كفتاة انتهت توا من الرقص فانتشر شعرها وتخضبت وجنتاها، تتمايل بجذعها هوينى كيلا تقف عن الرقص الذي أوقفته بجسدها، بينما ظل يتردد في أعماق كيانها دونما نهاية، لقد دفعت بابها الذي شرع يصر خارجاً عن محوره ووصلت مع لهاثها المتباطئ الى هنوف النجم بعد ان عبرت الفناء وتركت الباب مردوداً دون رتاج.

وسمعت وهي في فناء الدار، صوتاً يخرج من الغرفة، يؤكد للثاني: ترشينه ليلة البدر، قبل ما تنامين معه. وأجابتها الثانية: وكاد يا شيخة ما أنسى. ولاحت لها في باب الغرفة، متأبطة صرتها تحت عباءتها، تتأهب للخروج. واختلجت هدّله حين التقت نظراتها السديمية بنظرات المرأة العابرة. أرادت ان تتوقف وتلتفت، لتطابق صورة السنوات الماضية. لكن الأخرى مضت، وراجعت هدّله في مسامعها الصوت: وكاد يا شيخة ما أنسى. فتبين لها انها هي. ولما لمّحت للعجوز المحنية التي قامت لملاقاتها، عرفت منها ان هذه المرأة كانت

عندها منذ الضحى. ولقد جاءت من علوة الرحبة، بقصد معالجة زوجها وطرد الوسواس من صدره، قالت: مسكينة صار لها زمان متزوجة، زوجها ما يفعل معها شيء، الزلمة مرصود، وعلوة الرحبة ساحراتها كثيرات، يرصدن النملة ما تتحرك. وأردفت بعد قليل: مسكينة هذه المرأة، العمل مدفون في قبر ميتة، ماتت يوم ولادتها، لكن بإذن الله إلها فكة.

وأكدت هنوف لهدّله تطمئنها، انها المرة الأولى والأخيرة التي تزورها فيها، قالت هنوف: انشاء الله ما تعودين ثانية يا أختي، لأن ابنك سيكون طبيعيا وزلمة قد الكيف، هناك رجل في ضوء القمر على حصانه، بالقرب من الضفة، يساعده كثيرا، ويسلم، وراح يفك الحصار، بس هسع شوية ملتبك، باكر يطلع منها بإذن الله. وفي زمن تلوح له امرأة تشغل باله، تكاد تهد كيانه، غير ان حركة من أصبعه، فلا يرفع عينيه الا وهي في أرض الشارع، عارية زرقاء بجسم ميت، وفي الأزقة الكثيرة يحودونه، يمنعون عنه الطريق، وهذا ترياق لوقت المحنة يشربه تراه زين. وقالت أخيراً: اطلعي يا اختي، ابنك ما به شيء، اتركيه لشأنه، ما به شيء، بس الجايات على الناس، مه بس عليك، أعظم.

17

ذلك الصوت المألوف، الحركة المتخفية خلف حجاب، ثم القامة الخشنة، مع توكيد قدومها من العلوة، جعل هدّله تيقن انها كُدريّه. كُدريّه جاءت الى هنوف النجم لرقي زوجها المحجوم. وأعادت هدّله كلام هنوف عن نسوة العلوة الساحرات: يرصدن النملة ما تتحرك. ومن أين هن؟ أمن العلوة أم من الجوبة؟ حتى بنات الجوبة قد أصابهن ما أصاب بنات العلوة؟ هي رحلت عن هواشة الجوبة، ظناً ان الهواشة قد رصدتها من بقية النسوة، اختارتها لأنها في مرتفع العلوة. وخمنت انه برحيلها ستنتهي العراقيل، تزول حالما تبتعد. وخطر في بالها، ان تكون كُدريّه قد جاءت الدير من أجل هدّله لا من أجل نفسها ونفس زوجها، نعم لقد جاءت كُدريّه الى الدير من أجل هدّله الخضر، وإلا لماذا هنوف النجم، في هذا اليوم، في هذه الساعة؟ لكن هذه اللعبة لا تنطلي على هنوف النجم، كانت ستكشفها وتتعرف بنواياها. ربما هذه المسكينة تعبت كثيراً مع زوجها وكان لا بد من هنوف النجم، والتي يطلق عليها في العلوة الشيخة هنوف.

وصار في نفس هدّله ان المسألة خوف زاد عن حده، ابنها كما بينت هنوف، صحيح وأمامه حياة طويلة. اذاً لا خوف على حياته، هناك بعض الهموم، ستتراجع مع الزمن، وكل انسان يمر بما مر به جاسر. قالت لها هنوف النجم قبل خروجها: دعيه كما يشاء، ولا تبقي يا أختي وراءه، الولد ترا شوية حساس، خليه على راحته. ولزيادة الحيطة ناولتها ترياقاً للأيام السوداء المحتملة.

المهم ان جاسر معافى، لا يصح بعد اليوم ان نخلق الأوهام والوساوس، نكبر ما صغر.. لا لزوم لمزيد من القلق، والوسواس هو مرضنا، ويجب معالجته، لا معالجة جاسر. كان عايد في عمره ولا يرجع في المساء الا وفي حجره سمكة تكفي لطعام العشاء، سمكة أو سمكتين. كان ينادي وهو في المياه: هديل يا هديل تعالي.. هذه السمكة لك.. وأنت تطبخينها. كان في عمره لما بحث عن الممر السري الذي ربط الرحبة بالعلوة، فحفر في الطريق المؤدي الى الرحبة، ظناً منه أنه سيعثر عليه، وكانت الحفر تضايق الصبايا اللواتي يحتطبن مع الفجر في سفح الرحبة، كانت واحدتهن اذا ما عثرت بالتراب وانحرفت قليلاً

عن الطرقة تتجنب الآبار رفعت صوتها غاضبة: شنو يا هدّله أخوك؟ الله عليه .. يدم هالحفر .. قولي يحفرها أحد برأسه عقل.. على شنو يدوّر؟

وحمدت هدّله ربها، ان الحالة بسيطة، نزوة غلام خلبه حب الاكتشاف، وحمدت ربها كذلك لأن جاسر لم يكن معها أثناء ذهابها الى هنوف، فكُدريّه كانت ستنشر الخبر في العلوة، فله حديث ولهدّله حديث، ذلك حتى لو تعرفت كُدريّه هدّله، إنها تعرف ما تفعله النساء عند الشيخة هنوف، وهما متساويتان، بينما لجاسر حديث آخر.

رغم أن الجو راح يتعكر، والرياح التي هبت تنذر بعاصفة ستكنس غبار الدروب، تثير ما حط في المزاوي والساحات، فإن هدّله عادت الى بيت فرحان مع ذلك صافية القريحة هادئة، ناعسة القسمات. قال لها عبد الله: لم أرك هكذا منذ زمن يا هدّله. في دمها روح تضحك وتنوي الرقص، دنت من جاسر في الحوش وهي تقول: اذا ما تدبك هسع يا جاسر ترا نربطك بالحبل، ثم استطردت متساءلة: آدمي ينربط بالحبل! كم كنا مجانينا؟! فرد جاسر مقهقهاً: تحسبون شنو؟ كنت أحل الرباط بعد ما تنامون، وأعيده قبل ما أرفع اللحاف عني، أنتم اللي كنتم مساكين وما تدرون، تدقون بالحايط سكة وتعقدون فيها الحبل، والعرق يتصبب من عبد الله، وهدّله توصيه أعقده زين لا ينفلت، مكّن هذيك العقدة وشدها بقوة، وأنا أضحك منكم.. بس قلت خليها والى نهايتها تا أشوف شنو يصير؟ ونظرت مريم الى السماء فانقبض وجهها وزمت عينيها قائلة: عجاج يا ربي؟ عجاج هسع! سكروا الأبواب وما يظل أحد برا، فوتو كلكم الى الديوان.

قال فرحان بينما اجتمع في الديوان: والله خوش، بدل ما تمطر الدنيا بهالوقت.. تعج! وضحك عبد الله، وجد نفسه يضحك لا لشيء، وانساق يقول: في الشتاء برد وعجاج، وفي الصيف حر وعجاج! فرد سرحان: زين اغلقنا الدكاكين وجينا، هي لا مطرها بعقل ولا عجاجها بعقل، شيء طبيعي ما بي.. ثم راح يحكي مع نفسه: نحن إيش اللي عيّشنا بهالدير، الواحد يروح يسكن الشام أو حلب، بيروت، انطاكية..ماية بلد أخيّر من الدير، الله يرحم شاهر الأولي ما شاف أحسن من هالدير ويسكنها؟

هذا العام إذا لم يهطل المطر فإن أغلب العربان سيرحل مع الأبل الى الداخل، يترك البادية الى هضبة حلب، الى مراعي تل أبيض ورأس العين والى رأس الجزيرة. واذا امتد القحط فإن اللحم سيبذل ويندر السمن واللبن، سينقص الصوف من السوق، وتجد الكثيرين يهمون لنحر ما تبقى لديهم من رؤوس غنم وأباعر، لقلة العلف واختفاء المراعي. كذلك سيقل الشراء وتكسد البضائع، وسيرفع الأغلب حاجة هذا العام الى السنة التالية، يصبر ويحتمل

لعل السنة التالية خصبة مثمرة. وكانت الخشية تلاحق مهيدي، بعد ان خزن في متجره أطناناً من السمسم. قال له فرحان، بعد ان حذره المجازفة: ما يهم السمسم اذا تخزن زين، تحول عليه السنة وما يناله شيء، المهم الواحد ما ييأس، نحن لسة بأول المربعانية.. وهذا العجاج عجاج كذوب ما له علاقة بالخير ولا بالشر، واللي كاتبه الله يصير. فرد مهيدي: والله يا أبو سرحان تأخر المطر، العام الفايت ومثل هالوقت كانت تمطر للمرة الرابعة والخامسة زاد، ترا الدنيا هذا العام خالية ما بها شيء. وقال فرحان وهو يسعل: وكل الله يا ابن الحلال لسه أولها.

ظلوا في الديوان حتى انقطع العجاج، وانكشفت السماء وراحت تسكن، وجعلت النظرات التي انتقلت بين فرحان ومهيدي تؤيد ما قاله فرحان: لا يمكن ان يبقى العجاج في هذا الوقت، العجاج عجاج عابر ولا يدل على الجدب. وخامر مهيدي شعور انه اذا سلم في هذه السنة فعليه الا يخاطر ثانية، ورجى الله هطولاً يندي الأرض ويحي المرابع. ثم نظر الى هدّله فأعاد في سره قولها: يا أخي تشتري سمسم الزور كله، عجل تريد تأكل الدنيا؟ خلي شوية من هين وشوية من هناك. وكأنها حين التقت بنظراته خمنت ما دار برأسه من مخاوف فرددت: بالعون الله .. انشاء الله خير، هالعام خير يا مهيدي، لا تخف.

وتملت مريم الحوش وقد تحول الى أرض رصاصية، غطى التراب بلاطه وطبقات من الغبار على أغصان الشجرة وعلى أعمدة الرواق، وغابت معالمه وتحولت البركة الى حجر دائري مجوف، وكانت أنابيب مضخة المياة الرصاصية مخنوقة، فدقت ساعد المضخة وانتظرت كي تسمع صوت الصدأ وانسحان الغبار العميق في قاع البئر .

وتشكلت أمامها صورة رمزية لشطف الحوش. كان الماء ينهال كالشلال من فوهة المضخة اليدوية. تغلغلت النسوة في أعمدة الرواق وصعدن شجرة التوت وهززن عنها التراب وبعد اتجهن الى نفض الغرف ونزع ما علق بها، وكانت اللدونة تسبي أعين المتطلعين، تشربت الأجساد برذاذ الماء وشقّت الأثواب، وراح المساء يحي الخيال ويعيد ما غاب خلف ظل الشفق.

بعد انتهاء الشطف وسكون أهل الدار، اتفق جاسر في المساء مع سرحان على العمل في متجره كمرحلة أولى، ثم ينتقل بعدها حيث يشاء، الى مهيدي أو الى أبيه عبد الله الذي بدأ هو الآخر ينفصل في عمله عن مهيدي. يلازمه ليفهم طبيعة السوق وطبيعة العربان الذي يجتازون النهر، يأتون من قرى الجزيرة في الجانب الشرقي من النهر، وهمس له سرحان: اذا عرفت طبيعة الشاوي والعُربي فإنك تمشي تمام في السوق والتجارة.

كان السوق ممتداً.. ولم يأبه الناس للزوبعة التي اجتاحت المنطقة يوم أمس / فانزلت جفان اللبن عن رأسها المنزوي تحت الثقل، واستكانت قليلاً موحية ان ثوبها لم يلتث بالجفان وبالدرب الطويل. نفضت بيديها ردفيها ثم انحنت على ساقيها صاعدة هابطة، يسمع بأذنيه.\ وسأل هدّله في الصباح: هسع يستناني سرحان، إني رايح الى الدكان، تريدين مني شيء؟ فقالت هدّله: وفقك الله.

هذا الضجيج! ليست أول مرة، فكيف يكون اذاً جفاف ومحل؟ كل الأصوات تدور وتتلاقى تحت قبة السوق، وهي متصاعدة متراكبة في الضحى والظهيرة، وتفتر بعدها ثم تغيب. وفي الشارع العام كانت الحوانيت والتي لم تجد مكاناً لها في السوق المقبي، متناثرة على الجانبين، تشير الى التوسع القادم للسوق. وكانت وراءه مئذنة الجامع المائلة وأمامه على بعد ما، ساحة الشارع العام، ساحة السوق، والى يمينه كان السوق المقبي، وقبل ان يصله عرج الى دكان سرحان بعد ان مر بمتجر مهيدي ووقف يتأمل خاله بين رجلين، داخل المتجر. يساومان في شل كبير من الصوف. انتظر هناك أمام حانوت سرحان حتى انتبه اليه الأخير، فرفع رأسه قائلاً: أهلاً يا جاسر، قلت والله مِن تأخرت كل هالتأخر ما راح تجي.. فوت اقعد بسدي. ففتح جاسر باب الطاولة الممتدة من جانب الدكان الى الجانب الآخر، وجلس بالقرب من سرحان واتكأ بمرفقه على الطاولة وهويقول: تأخرت شوية بالنومة، باكر باذن الله أسري معك. فقال سرحان: ما يهم، تعال على راحتك.

الرفوف في عرض الحائط، مليئة بالأقمشة الملفوفة (طابة) على عارض خشبي، وبقطع من أمثلة القماش معلقة على مشابك تقوم على عمود مربع، تعرض اللون والجودة. ولقد مد سرحان بعضها فوق المشابك حتى بدت كخيمة تخفي داخلها عروساً منعها الحياء أن تظهر. جلس جانبه على كرسي نسجت قاعدته من نبات القصب، أخذت شكل مربعات ودوائر متشابكة غطت قاعدة الكرسي، وسمع سرحان يقول: من هسع وطالع يخف الشغل، العربان تبدأ ترجع الى أهلها، ويظل الشغل بس لأهل البلد، وهم قليل. ثم أردف وهو يشير الى كانون الفحم: اذا بردان اطعمه كم خشبة، برا الدكان، وبس يجمر، نحط فيه دلة القهوة.. تراه الآن خبا، كنا من الصبح نتدفى ونتقهوى عليه. فسأل جاسر: شراره ما يصيب القماش؟ فأجاب: لا، الواحد يكون واعي شوية، وعندما ينس جمره ندخله الى الدكان.

أمضى اليوم الأول داخل الدكان وهو يتطلع المارة الذين يمرون أمامه، وكأنهم يكتفون ببضع خطوات في هذا الشارع الطويل. يمرون بالحد الأول من زاوية الرؤية وينتهون عند الحد الثاني، يظهرون بخطوة ناقصة غير تامة، الخطوة الأولى والأخيرة تأخذان شكل سقوط. وانه مقطع من شارع الحياة، شارع الدير العام. كان يرفع فنجان القهوة المرة الى شفتيه عندما أحزر

سرحان قائلاً: احزر يا سرحان هسع من حد الشمال من اللي يظهر، رجل ولد بنية امرأة.. وشنو لابس؟ فضحك سرحان وقال: والله خوش تسلية أقول راح يظهر زلمة.
وهز جاسر رأسه ، يتابع وماذا بعد، فأردف سرحان: ما هو شاب، زلمة كبير، وكهل زاد .. وزاد يتعكز .. ويمكن لابس طربوش.

كان المارة وهو في الدكان يجذبون عينيه من جهة الى أخرى، فكأنه يمر معهم، ثم يعود الى من يمر الآن، معهم حتى حسب نفسه خارج الدكان. فقال له سرحان، لما رآه وقد أطال النظر ولا يهدأ: الواحد يا جاسر ينتبه على الشغل، ما يهمه من يمر ومن لا يمر، انتبه الى ما ينباع وما ينشرى، أولاً الشغل واذا انتهينا دحق على الرايح والجاي. وراح جاسر يراقب كيف يصر سرحان القماش، كيف يقيسه بالذراع ثم يطويه طيات متلاحقة الى ان يصل الى ما يريده من مقاس، وكيف يقطعه بعناية وخفة، ثم كيف يعامل المشتري برقة واهتمام.

ثم ساعده بنشاط في إغلاق الدكان، دفع شرعتي الباب بقوة كي تنطبق فيدخل المتراس الأوسط في حلقتيه، ولقد جذب المتراس السفلي الى فوهة القفل ثم أقفله بنشوة أشعرته بانتهاء العمل. وسارا عائدين، في الشارع العام، الشارع الذي أغلقت معظم حوانيته لصلاة الظهر.

خلف وراءه فراغاً، الفراغ، كانت الحوانيت المغلقة، فارغة من الداخل، لا أحد فيها، وانجذب الى سرحان، كأنه يلتصق به، وكلتا يديه تمسكان بمرفقه ورأسه مستقر على كتف سرحان. وقد خلف وراءه الفراغ.. الى ان وصلا بيت فرحان، وهو يرى تفاصيل يومه فتبعث فيه حياة جديدة.

ستشعر ان الكل يترقب عودتك، ينتظرك بشكل أو بآخر، وسيتغير العالم من أمامك، ينقلب على وجه مختلف، لم تكن لتراه أثناء مكوثك جانب هدّله. في كل مرة تعود فيها سترى البيت بلون جديد، وستجد الأيام مليئة سريعة، لا تقف ولا تني. وقتها يا جاسر سيحكمك قانون كبير، يسيّر الشوارع والدروب، يسير فرحان وعبد الله .. سترى فرحان في صورته الحقيقية، وستكتشف الدوافع التي أدت بعبد الله الى نسيان هدّله وابنها، الى الاكتفاء فقط بعد النقود كل ليلة.
ورمق المئذنة المائلة من خلال كتف سرحان ورأى أن إحدى طيات سترته تقترن بشرفة المئذنة، كأن احدهم يطوي نفسه هناك فيؤذن لصلاة العصر. في هذا البرد يصعد المؤذن الى شرفة المئذنة يدعو للصلاة، يلفحه هواء بارد فيزداد بذلك الارتعاش والجمال واحتمال ان تميد المئذنة. وعندما اقتربا منها

انحرفا حيث شارع فرحان. بدا البيت الجديد، يضحك له، مستقراً في هيئة استقبال، ووطأا الرصيف النظيف، وفتحا شرعة الباب الكبير.
وقال سرحان وهما في الشارع العام: لقد تأخرنا على البيت، وسبقنا الجميع، لولا بضاعة الفتاة لما تأخرنا الى هذا الحد، المشكلة انهم يودعون أغراضهم عندنا الى ان ينهو أعمالهم في السوق فنتأخر ونحن ننتظرهم.. لولا الفتاة لما تأخرنا الى هذا الوقت، كنا عدنا الى الدار مبكرين.. في البيت يشربون الآن الشاي. لقد فاتنا الغذاء معهم، أكيد ان فرحان قد خمن السبب، أنه البيع. لقد أخذت الفتاة قطعة النسيج ثم طلبت إبقاءها عندنا كي تلحق أمها الى متجر البقالة عند رأس الشارع، ومكثنا ننتظر رجوعها مع أمها، ونحن نرمق الشارع ورأس الزاوية والمتاجر التي شرعت بالإغلاق ولما لم تعد صمم على إغلاق متجره فارتجاه جاسر ان يبقى قليلاً لعلها ترجع وتأخذ حاجاتها.

قبل سنين، قبل ان يغادر العلوة كان يمر على خاله مهيدي في السوق، أيام كان عمله في العلوة، ويأخذ من محاله ما تحتاجه جدته وزنة أو أمه. وحين يقف في دكان خاله لبعض الوقت ينتظره حتى ينتهي من الزبائن، يجد نفسه في عالم غريب لا يفهمه، بين كرات (القنويشة) وطيات قمر الدين وصناديق الحلوى والسكاكر، بين أيد تعطي مجيديات وأيد تأخذ ما تريده من أغراض. وكان يشعر ان الحركة في السوق تقف وراءه فلا يراها، كان يرى خاله فقط، من زاوية مفتوحة على طلب هدّله ووزنة. وكان يقول في نفسه، حين يحضر أمامه مهيدي طلب وزنة، يقول: ما أعظم بله من يبيع ومن يشتري.. يقضون نهارهم كله في السوق المقبي، يتبضعون وينسون ما يجري خارج الدكاكين، ينسون أولادهم ونساءهم... اليوم وهو يعود مع سرحان، وجد ان عالم الأسواق عالم يظهر فيه المرء على طبيعته، ينحي عنه سجاياه، ليواجه العالم الآخر، العالم المرتد. ولهذا تكثر فيه الضوضاء، وتمتزج في مناحيه عالم الأصوات المختلط. وجرب حين كان في دكان سرحان، ان يسمع الأصوات مجتمعة في حزمة واحدة، توحد الجميع تحت قبة السوق، ثم اغمض عينيه، ألبس الجميع ثوباً مشتركاً، وازى به الرجال والنساء، وبدت أمامه الصورة مشوشة غير قادرة على تمييز المشترين والبائعين، سراباً يتحرك، وكان الصوت يتردد واحداً واحداً متباطئاً متراكباً. الا انه انتبه الى الفتاة التي أودعت بقجتها عند سرحان وقالت وهي تغادره: ما أتني .. أعود بساع ويّا أمي هناك براس الشارع. وأدار نظره الى عيني سرحان اللامعتين تشيعان تميّس الفتاة.
لكنها لمست يده ثم تحسست القماش المنفرد على طاولة العرض وسألت: بكم الذراع؟ فأجابها منبهراً والشوق يرتسم على شفتيه: ما يهم .. غالية والطلب رخيص. واختفت يده تحت ستر القماش، فوق الطاولة. وحاول كل منهما كتم الألم الناجم عن انصهار الأيادي المتعانقة. وسمع جاسر ضحكة

خرجت عن إرادة الفتاة، ورفع لها سرحان عارضة الباب كي تدخل وطلب من جاسر يقول: جاسر إطلع عمر لنا الموقد ثانية. قال جاسر مندهشاً: ما انتهى العمل لسه؟ وسمع إصرار الفتاة: لا لا لا تقوم .. انني رايحة.. أرجع مع أمي بعد لحظات.

وكانت عيناها وهي تغادر المحل قد رسمتها المخيلة، رمت عليها عصبة رأسها الوردية حينما مضت في الشارع العام، وتخيل جاسر شعب الذهب في أذنيها وهي ترن وترن، وراح يتابع رنيماً يسير في الشارع. قال في نفسه: أين أنت يا هدّله منها.. وسأل سرحان: أين أهلها؟ فأجابه: نواحي سعلو من ضفة النهر الثانية، عليها العودة بعد قليل والا اضطرت الى المبيت لليوم التالي في الدير، تأتي كل أسبوع مع أمها للتحوج. وعادا فأقفلا المتجر ثم سارا في طريقهما الى بيت فرحان.

لولا الفتاة لما تأخرنا يا هدّله، كنا سنأتي معهم ونحضر الطعام معهم، لكنها تؤخر يا أمي .. وتظاهر سرحان بعدم الاهتمام، فأراد إغلاق المتجر قبل مجيئها. ولو انني ما منعته لما أقفل، وعندما جاءت مع أمها وقف سرحان معهما زمناً طال حتى حسبت انه عدل عن العودة الى البيت، ثم قال لهن مشيراً إليّ: هذا ابن عمي.. ابن اللي صدمته عربة الماء في العام الفائت.. تقدرون تعتمدون عليه اذا ما كنت موجوداً. وسأل جاسر سرحان عنها، فقال: كانت حاضرة على عربة الماء، وقت صدمت أباك، ولقد رأته هنا في نفس اليوم. وحاولت هدّله تذكر الحادثة، استعادت حوادث العام الماضي، ثم سألت جاسر ان كانت قبل النزهة التي قاموا بها الى الحويجة أم بعدها؟ ولم ينتبه جاسر الى سؤال أمه، ظل صامتاً أمام المرآة مضاءة بنور دخل عبر زجاج النافذتين، ولمحته يتعذب في الظلال غير الواضحة في المرآة، والتي عذبتها قبله، فقالت له: اذا تريد تدوّر عن وجهك، انقل المرآة الى محجر النافذة، ترى عندها وجهك تماما. فأجابها جاسر: يمكن قبل النزهة يا أمي، تذكرين وقت صار حكي بهالموضوع، أظن ان عمي فرحان طرح وقتها ما جرى وقال لو ان الحوذي ما كان يقظان كان تصوبت يا عبد الله، تذكرين؟ ودمدمت هدّله: ظنيت انها كانت دعابة من عمك فرحان، لكن ما علاقة هالشاوية اللي كانت تتدلّع عند سرحان؟!

وأخذ عبد الله يحصي النقود في ضوء مصباح كاز متجاهلاً قول هدّله فيما جرى اليوم وفيما فعله جاسر في متجر سرحان، فتاة أودعت حوائجها عند سرحان الى حين عودتها، وأخرت إغلاق المتجر، ينتظرون عودتها مع أمها لأخذ حوائجها، ظناً منهم انها ستبات في الدير اذا أقفلوا المتجر، فقريتها سعلو ليست قريبة كي تذهب وتعود في اليوم التالي. ظل يكرر العد حتى اطمأنت نفسه، ثم قام متثاقلاً باتجاه المصباح، اطفأه يعود الى الفراش بجانب هدّله. واستيقظت عندما اندلس في فراشها، وسألت عن جاسر، فأجابها عبد الله:

سيبات عند سرحان حتى يذهب معه صباحاً الى المتجر، ثم تظاهرت بالنوم، وأركد رأسه على الوسادة يتذكر طيف وملامح شمسة وعصابتها الوردية وخلاخلها المتراقصة. ومن خلال رائحة الكاز التي انتشرت بإطفاء المصباح، كان يتحسس بيده أوضاعاً عجزت مخيلته عن احيائها في هذه الساعة، ولمس الحرارة الساكنة خلف ستر هدّله.

على غير العادة، جاؤوا كلهم قبل الظهر، أغلقوا متاجرهم وعلامات الإنذار مطبوعة على سيماهم. وكان البرد قد أدخلهم الى غرفة الديوان الثاني، الى النساء والأولاد، والتفوا حول بعض صامتين، يغلبهم أسى ونظرات قاتمة.
شعروا ان بعدهم عن أسرهم في هذا الوقت الحرج سيزيد الطين بلة، فاجتمعوا في مكان أوحى لهم انه خير الأمكنة، بين الأطفال والصبايا والعلاقات الصغيرة يقضون فترة تصديق الخبر. وان الأمكنة الأخرى والتجمعات في ديوان فرحان انتهت دون قرار، لذا حملوا ان ما يجري هو عليهم كلهم، الصغير والكبير الساذج والحاذق.

فرحان عبد الغني الشاهر دخل الدار مدلهم الوجه مزرق القسمات، وخلفه رهط ينقل خطاه على مدار خطواته المضطربة، وكان الوجل قد سكن في النفوس ومنح للخيال مناوراته السريعة: أين يذهبون اذا ما حدث مكروه، أو ارغام على اقتراف ما لا يقبلوه؟ وطرأت في خيال عبد الله فكرة العودة الى العلوة، على الأقل هي أبعد وآمن. أما مهيدي فقد تأرجح بين السمسم والمواسم المجدبة وقلة البيع والشراء، في خوف الإفلاس والخسارة اذا كان الخبر صحيحاً. ولم لا .. انهم قادمون في طريقهم، وطريقهم نحونا.

رائحة مشروب نومي البصرة كانت تعبق في غرفة القعدة، وكان الدفء يحيي في النفوس تفاؤلاً ممكناً. واتجهت الأنظار الى تدفق متوال خلخل الأمكنة وغيّر مواضع الجلوس، واتخذ الرجال من مصطبة الغرفة مكاناً لهم بينما انتقلت النسوة أبعد مما كنّ عليه، حياءً وانتظاراً لما سينقله الرجال من أخبار وشت وجوههم بها.

ليلة البارحة حلمت بها، وكان وجهها بين عينيّ، والطراوة القرمزية أحيت الحب الأول فقلت: وكم حبك ندي دافىء، البرودة تلفح الوجه! وأنتِ هيئة لمريم، رأيتك ابنة أو حفيدة لها، بشعرك يناوب الريح ويدعو مطر مطر. وحينما أدخل في الحلم ، تسيرين خلفي حياء، تسيرين مع أختك في برد الشتاء والمساء، في طرقات الدير، خلفي، ولا تستيقظان، ولا تدعان فرصة للقاء أخير، فرصة لقاء أخير مع مؤلف الزور البعيد، فتمضيان في طريق يغيب في مطاوي الخيبة، خيبة الحظ المعاكس. وكنتِ تنظرين اليّ دون ان أستدير، كنت خلفي، في القاع وعلامات حب بادية في ظهري ثم في وجهك وأنحاء جسدك

مغطى (بالمانطو) أنت، وقلت: أنت وهي الحياة خالية وحانقة. تمضين في طريقك، طريق مريم، ولا تعرفي تاريخ جداتك المريمات اللواتي كن يسرن خلفي في مساء الشتاء البارد، الهواء يلفح الوجه حتى أدمعت عين فرحان ومسح الانسياب بردن المانطو الأسود. ثم في زمن أسود تساءلتُ: هل تستأهل كل هذا الحب؟ انها وردة فولاذية تمشي في الدروب والطرقات الزحمة ثم تعبر ممراً ضيقاً، خلفي، وتختفي. ومسح المدامع الباردة عن وجهه بردن المانطو الأسود ثم التفت الى الرجال الذين تقدمهم وقال وهو يسير: ما نقول للنسوان أي شيء، هسع بس نسكت، والله يحلها.

أظن، والاحتمال قوي، ان لرجاء الخضر عينين يمتزج فيهما الأخضر مع البني، ولقد لمحتها البارحة في طرقات الدير، وكان شعرها قد مسته سمرة الضفاف، وراح يشتعل فوق كتفيها تحت أضواء المحلات الساطعة. ومؤكد انها تعلم بما جرى لامها وأم أمها وجداتها السابقات، في هذا الوقت من العام من البرد من الصقيع الذي ينتشر فوق الدير، كان الوقت الذي سارت خلفي حين نزلت من الحافلة، نفس الوقت، لم تمتلك نفسها مريم الفرحان في نفس الوقت، في مساء شتاء أركان الدير، فتململت في غرفة القعدة وجالت بنظراتها الى المدى.

ومضت عينا جاسر الى ثناياها وهي تتململ لتنهض، فرأى العتمة داخل أروقة الثوب، وكادت الفوانيس الضئيلة تفوت عليه فرصة الجلاء والتمييز. وما خفي عنه، تخيله بأنقى مما هو عليه، وعبرت بوابة غرفة القعدة الى الغرفة الصغيرة، وسمع جاسر وقع خطواتها في ممرات الحوش الواسع. بعد ذلك وجد ان الجميع لم يثن على شيء، فانتهز حالة وجودهم في غرفة القعدة وسل نفسه من بينهم دون لفت انتباه، وتبع وقع الخطا حتى اقترب من الفتاة، حدقت به بوله لا تصدق انه أدرك معنى إشارتها، فتراه يقودها الى مكان ما، تمنح له يدها، يمضي ربما الى غرفتي مهيدي وزهية، سيكون المكان هادئا في احدى الغرفتين المتجاورتين، في غرفة نومهما، وحيث لا أحد هناك، فالجميع في غرفة القعدة ذاهل، يفتح باب غرفة النوم الدافئة بخوف وتوقع مفاجأة.

كل أجرام الزمن تتحرك كما خط لها، كانا وحيدين في غرفة مهيدي وزهية، والباب مغلق، انسدلت ستارة النافذة، قال في نفسه وهو يسمع لهاثها ويرى في عينيها بريق الخلوة الأولى: وكاد خائفة كما أنا خائف... أول مرة لي ولها. ظل واقفاً يرى الى ثياب تطير عن جسدها. ارتفع الثوب الخارجي فارتفعت معه ثيابها الداخلية، ظهرت بطة ساقها بيضاء وهجت في أعماقه يوم أنزلته من نافذة الغرفة الى الحوش المليء بالفيضان، وانتقلت الى سرير تستلقي بدفء

وتتلوى فوق شراشف مخرمة بحرير، أضواء قمر يعبر شقوقا صغيرة في ستارة مسدلة، الطيف المرسل تبدد على صدرها وترنح بخفة حول وسطها، ثم وجد دربه الى أنحاء جسد صاف، جذوع أغصان تلتف بخريف بائس وبزخات ضباب وندى يتشكل أوان الفجر وعند طلوع الشمس. لكنه ظل يجحظ كالمخبول، وفتح فاه استغراب واندهاش، تتلون وتريه الجوانب القصبية فيجد كأنه ينازع في موت مجروح أدمى بطنه وخلق دماراً ألهب ذكرياته وما ظل من خوف في صباح اليوم الذي أعادهم الى منازلهم كالحملان. راحت الرياح التي هزت البسـاتين والأشجار المواكبة لأحلام نصف الساعة، تردد وحيف الطيور المحلقة وصوت الرنين المتخلف عن تشظي مفاصل مكائن غارقة في العمل، وهمست وهي تقضم بأظافرها ظهره: شكون اللي رجعكم آه؟ وابتدأ يلملم فمه المشتت وتصور كم سترضى هدّله عندما يطلب الزواج من مريم، تحته، فوق السرير في غرفة مهيدي. وهتف بصوت عال: كأنها ليلة الدخـلة يا مريم الله الله! وأدركت مريم إذ أحست بالسكون الذي أهمد جاسر، وبصدمة التوقف، وراحت ترى الى الخمول والكسل، الذي أكمد همة الرجال وأنضى عنهم الرجولة. أما هو فاستطاع ان يحس رائحة مريم بأقوى خلجات قلبه، ودقت رائحتها في مخيلته رتم ترم رتم ترم فشم رحيقها الداخلي.. ولمس رضاب ساعات مخضبة برائحة شواء، وظن انه نوع من التدني الحيواني والجنس السافل المنسوخ الى صورة شيطانية. اذا دخلا الى الغرفة المنعزلة، وقد استلقى كل منهما على حده، يسترجع حياة البدء في سكون مطلق، يسمعان نديف قلبيهما ند ند ند، ثلاثة لمريم والأخرى لجاسر الذي لوث ما بقي من شفتيه بدماء عاتمة.

خرجت مريم تمسد ثيابها، وتبعها جاسر منهك القوى. وهو يتخيل أن ما كان لم يكن. وتذكر صباح يومه في المتجر عندما سمع أحد معارف سرحان ينقل خبر الكولونيل الفرنسي، ظن أن اسمه "ترلنكة"، وانه على مشارف الدير، سيدخلها بعد محاصرة القشلة الغربية ذلك ان لم تستسلم بنفسها. وقبل ان يدخلا، قبل ان يعانقا الخوف تحت غمائم المساء سمع جاسر وسمعت مريم صوتاً آتياً من فوق، من الأسطحة المجاورة، فتراجعا يتطلعان الى السماء، وقال الصوت: يا اخوان، يا أهل الدير الكولونيل حاكم الدير ينهيكم.. وغاب الصوت مع الريح. ولم يعرف جاسر كيف اقترب منها، اقترب منها وضمها بقوة، ثم اطبق فمه على فمها ومنعها ان تسمع ما سمعه أهل الدار الذين خرجوا الى فناء الحوش وكانت آذانهم المشنفة تمنعهم من رؤية الظلام والعناق المتبادل، رغم ملاحظة هند لطيفين متعالقين يمتنعان عن الانفصال، وقدرت من ثوبها وشعرها ثم من كلابيته المرفرفة في تيارات الهواء ومن الآهات المكتومة في صدري الشابين، الواقفين بحذاء الرواق الأول، ناحية غرفة هدّله، انهما سرابان تحولا الى شكل إنساني لإخافة أهل الدار.

وسال اللعاب في فم جاسر حينما رشف من نومي البصرة الساخن، وتعرف في لحظة إلهام الى الجانب المظلم من حياته والى امكانية اجتنابه. كان الشيطان يوسوس في رأسه حين قدمت له مريم كأس النومي الساخن، مدت يدها واستطالت بجذعها توصل الكأس الى جاسر. وكانت كمهرة تتمرح تحت ناظريه فانتبه الى متانة ساعدها وهي ترتكز عليه بينما قدمت بيدها النومي، ونقلت لذلك جسدها المستند على ركبتيها وعلى راحة يدها الأخرى، وتخيل انه على ظهرها، يحطها بفخذيه وتنقله تلك النقلة الى خارج غرفة القعدة، الى سرير زهية. وتساءل الجميع في مصدر الصوت الذي سمعه البعض وفهم مقصده على الفور. وارتفعت الأصوات: شكون يصيح؟ هذا من الدرب أم من التكية؟ ربما من التكية.. يروح مع الهواء ويجيء .. وهو من التكية .. اطلعوا نسمع. وخرج الجميع من باب الغرفة الصغيرة، وتجمعوا في الحوش يصيخون السمع، ولعل الصوت يعود ثانية فيفهمون مرامه. وصاحت شاها المطر: البسوا الأحذية لا تبردون. ووجدت مريم نفسها وهي تجمع الأحذية وتخرجها لسكان الدار. وقال الصوت ثانية، جاء مع هبات الريح وتياراته المنسكبة في دوار الفناء، وقال أحدهم: من التكية من التكية! وكانت الكلمات الأولى واضحة: يا أهل الدار. ثم انسحب الصوت وخبا وراء الأسطحة والمنازل، ثم عاد بعد قليل، وسمعوا ثلاث كلمات: ت..لنك..ه حاكم الدير، وآب الصدى متراجعاً حتى عاد متقطعاً يحمل كلمات تقول: باسم افرنسا .. العقل الذي قابلت جنود .. افرنسا .. الدير. ثم سكن الصوت .

شعرنا في وقت واحد بأجساد النسوة وهي تنتفض، هدّله الأرض مائلة هدّله وهدّله ورحنا نحدق في الوجوه الكالحة ورأينا شاها المطر تقول اربطوه بالحبل لا يفلت اربطوه زين ودقوا الحبل في الحائط لا يحله. وقالت عفراء إنزعي ثوبك يا مريم لنرى كيف يبدو على جاسر. ثم دخلنا معهم الى غرفة القعدة اتقاء أسئلة طرحتها الريح والصقيع.

أشعلوا المصابيح في غرفة القعدة، وجلسوا يتواسون فيما سمعوا. كانت أخيلة الوجوه ترتطم على مساحة الجدران الغافية، ويبدو ان أنف أحدهم قد استطال كثيراً وارتسم على الحائط كخيمة ممتدة، فتذكر جاسر أنف عبد الغني والذي يشير الى أنك لا تستطيع إلقاء نفسك في النهر البارد، تركض الى هذيك الشجرة لتحتمي بفنائها من ماء السماء. وهند نفسها، هذه، بعد ان انفتح جسدها أمامه تحت الدرج، ورأى كيف تتلون تحته قبل ان تزعق طلباً للنجدة، هند هذه تملك ذلك الأنف المتطاول على الحائط، وأصبح شعرها يغطي قسماً منه، لذا بدا الآن أقل وضوحاً من الأنف ذاته. ونبهتها شاها المطر قائلة: ابعدي يا هند عن القنديل، لا يحرقك السنا وهباب النار. فابتعدت وهي ترمي الجميع بنظراتها: انها ستجعل الوجوه أكثر إنارة ووضوحاً. ثم استأذن عبد الرحيم

يلحق بعفراء وزوجته سعدة، وغفل مهيدي في مكانه وراح عبد الله ينود وهو فوق المصطبة، يحرك أصابع يديه بطريقة العد والإحصاء، كما كان نابليون يحركها في فيلم واترلو، وهكذا أخذ الزبد يسيل من أعلى شاربه الأيمن، ينحدر على صدره وأذيال كم يده المتصالبة مع صدره. ووجد فرحان ان رأسه يتصدع، يخرج عن نطاقه، حتى الطاقية تحت العقال أخذت تشد الرباط، وتمعنت شاها في وجه فرحان فجزعت من نحوله وشحوبه المفاجئ، سألت إن أصابه وجع عارض، فأجابها انه بخير ولا يحتاج الى بابونج أو شيح، تراكم العمل أرهق جسده وأوهم عقله، يحتاج الى راحة تعيده الى نشاطه السابق. واحتقنت ملامح زهية ودارت الهواجس في صدرها: هل سيخسر مهيدي كل ماله، ستبور تجارته؟ هل ستذهب الى العلوة، تعود مع مهيدي الخاسر؟ وراحت الظلال ترتاح على الحائط، تقف بدوائرها المرسومة ثم تدنو من بعضها فتدخل الوجوه في الأعقاب الثقيلة.

في الليل اقترب الرجال من هدّله وشاها المطر ومن سعدة وزهية، والتفوا حول الأجساد المنتصبة، بعد كتم الأصوات، أمضوا الليل بطوله معهن، كلما ينتهون يأوبون الى أول الفكرة. وشرحوا لهن كل آمالهم ومخاوفهم من الأيام المقبلة، الى ان سمعنا نحن الثلاثة، انا وجاسر ومريم، ما يجري في الحوش، وحسبنا ان الأمر قد اقتصر على غرف النوم فقط، كانت مغاطس الحمام الساخن تولد أبخرة الرغبة في متابعة العمل الذي شرعوا فيه منذ الليل. وانتهزنا الغفلة، خرجنا من الغرف التي ربطنا الآباء فيها، فتحنا الباب، فأطل الحوش أمامنا، تلوح مريم بيدها: اتبعاني. ورحنا نتسلل على رؤوس أصابعنا باتجاه المطبخ بعد ان عبرنا البركة الفارغة وشجرة التوت العارية. وهكذا شعرنا بالنسائم الباردة تطوف على وجوهنا المترقبة، وكانت مريم، عندما اشتركنا معها في كشف ما كشفناه، وانتابنا إحساس بأننا قطعة واحدة، ولحمها من جسدنا فوددنا ان نقطع ربلة ساقها اللينة ونخبئه بين أضلاع صدرنا، لكي نحس بالدماء الساخنة المتدفقة من ساقها وهي تسير ونحن نسير وراءها قطعة واحدة، ساق مريم المقطوعة تلتف حولنا وتنتهي بدمها ولحمها المقطوف أعلى صدرنا وتشخب منها الدماء فتدفئ مساماتنا وموتنا، لذا كانت تنقل خطاها بحذر وتمرس، نحن وراءها، وفجأة رفعت راحة يدها ان: قفا لا تتقدما. عبرنا شجرة التوت العارية ولاح امامنا باب المطبخ مردودا وشرعته موسومة بهيئة رجل أتعبه الإنتظار. وعندما كشفت مريم اللعبة، سرقت النظر الى فجوة باب المطبخ، استدارت الى جهتنا مكفهرة الوجه وهمست بفم معبأ بالرضاب: باغتهم يا جاسر باغتهم .. كلهم جوا بالحمام مع النسوان كلهم مع أمهاتنا. لكن الرجال الذين في المطبخ، سمعوا الهمس وأحسوا بالمباغتة، ففتحوا باب المطبخ وهم يشتمون الثلاثة ورفع فرحان صوته الى مريم قائلاً: يا بنية

احشمي نفسك، بين رجلين شكون تسوين، احشمي .. شكون نسيت انك أنثى وبمقدور أي واحد منهم أن ينزو عليك .. يا مريم الأنثى؟ بلا فضايح ! ابعدي عنهم واجعلي هذا الشيء ينتهي على خير.

وعدنا راكضين الى ان بزغ الفجر، هربت الظلال الى أعماق الأرض، وبحث كل منا عن غرفة كي يدخلها.

في الصباح أوصى فرحان انه علينا نسيان الماضي، فنرى الى طبيعة هذا اليوم، نضع الحد بيننا وبينهم، ثم نقوم بأعمالنا على هذا الأساس. اليوم هو يوم اختبار. فسرنا خلف بعض، فتحنا باب الحوش الخارجي، وكنا أول الناس الذين خرجوا الى السوق من ناحية شارعنا، وهتف عبد الرحيم من خلف نافذة داره وسأل: شكون، ما بي منع تجول؟ فرفع فرحان يده: اتبعنا، الحياة تسير طبيعياً. ولم يظهر حتى الآن تغير في ما وصلناه، السوق عند تلك العطفة، ظل هناك، حين نعطف الى الشمال ونضع تكية الراوي خلفنا، مندفع في عمله المعتاد، فأنزلت جفان اللبن عن رأسها المنزوي تحت الثقل واستكانت قليلاً.

الخوف الذي ولد فينا، مع ان أحداً منا لم يظهر ذلك، جعلنا نستطلع طريقنا بأعين جديدة، نحاكي صمت الجدران والدور لعلها تحمل ما غفل عنا يوم أمس، ونحدق في وجوه المارة، نحاول معرفة ما جرى من خلال الملامح والصيغ، ومر بعضهم بنا فألقى علينا السلام، يريد ان يعرف ما نريد ان نعرفه، تبقى أيدينا مرتفعة تحية له بعد ان نقطعه بمسافة كبيرة. الى ان امتد أمامنا الشارع العام وبقيت تكية الراوي خلفنا، بمئذنتها المائلة، وظهر السوق يموج بالمشترين والأعراب الذين أتوا من وراء النهر يحملون بدالهم من الصوف واللبن والبيض والإبل والخراف الى خان الوسط لبيع وشراء الحيوانات بأنواعها. ودمدم فرحان في أذن مهيدي: الحياة طبيعية ما في شيء. وهز مهيدي رأسه وقال: انشاء الله ما يجري شين علينا وعلى أمة محمد. وأوقد جاسر كانون الفحم خارج متجر سرحان، في الشارع العام، صب الزيت فوق أخشابه ورمى فيه عود الثقاب فارتفعت ناره وانتشر بقربه الدفء. وراح بعض المارة يقفون قليلاً وقد مدوا ايديهم فوق الكانون يأخذون من وهجه، وصاح أعرابي في وجهه بينما استغرق جاسر في جهة ثانية، صاح أعرابي بحنجرة رنانة: آح آح. مغلغلاً يديه في سنا النار المرتفعة. فانتفض جاسر من الرعب ثم التفت اليه قائلاً: شنو آح آح تدفأ واسكت! فرد عليه: وكاد ما انت ديري، عرب من؟! فأجابه : عرب ما أحد، روح بطريقك يابا. وسأله الأعرابي بعد قليل: يقولون الفرنساوي دخل الدير.. ما شفنا خيرهم من شرهم. ورفع جاسر صوته: روح يابا روح بطريقك، شكون لزقة؟ وانحنى جاسر على قطعة خشب أكلت النيران نصفها، ولوح بها أمامه وهو يتوعد: أخرب وجهك ها، امض من هنا. وسمع الأعرابي وهو يرد عليه مبتعداً: عوذا عوذا. فرد جاسر: عوذا من أمك يا جرو. وقال له سرحان: أتركهم يا جاسر، لا

تختلط وياهم. فقال جاسر: يريد يستروح عندي، فاتح مضافة له ولأمثاله، كبحهم الله. واقترب منه أبو بديع جار سرحان في المتجر، ورفع صوته ضاحكاً ليسمع سرحان أيضاً: هذول الشوايا ما يقدر عليهم غيري، حضرت لهم هالعصايا، كل ما يسأل واحدهم بكم هالفستان.. لزوم منه يشتري، ان ما اشترى أظل أضربه حتى يشتري.. تشوفهم يلزقون، بكم هالقطعة ونريد هذيك الشققة ونأخذ قياس البنية يمكن أكبر ويمكن أصغر.. يبقون يترددون ويحتارون حتى أظهر لهم العصا، واذا ما اشترى الواحد منهم أطرقهم، وأين اللي يوجعك. ودخل الثلاثة الى متجر سرحان بينما دفن جاسر دلة القهوة المرة في المجمرة المشعة.

بعد الضحى خرج أبو بديع من دكانه المجاور وهمس لسرحان مقترباً: سمعت يا سرحان. فرفع رأسه بالنفي، واستطرد أبو بديع متهولاً: يقولون الفرنساوي أخذ كل دواب خان الوسط، صادر الإبل والغنم وحتى الحمير. وتساءل جاسر: لا؟! وتابع أبو بديع: إي، شوفوا حركة ما طبيعية في الشارع. ونظرنا الى الطريق الى الساحة ورأس الشارع العام والى حركة المارة التي راحت تخف من البدو والأعراب وسكان الدير.

أشار أبو بديع: بينهم ناس من السنغال ومن المغرب. كجذوع النخيل، وأطرافهم نحيلة وعالية، كأنهم يمشون على مسند إضافي، ملونين كالسودان، تظن واحدهم يطوقك اذا دنا منك. مروا بالقرب من دكان سرحان يحملون البنادق، أمسك كل واحد منهم برأس البندقية، ونظر جاسر الى شفة احدهم، أحد الثلاثة، كبيرة ومندلقة، وجرّت كل فمه الى الخارج، وتصور ان فمه شفة تعرت من داخلها، وضرب اليباس أجزاءها الحية، وراح اللعاب المتخثر عليها يملأ الشقوق والثنايا حتى اذا أطبق شفتيه ثم رفعهما بقيت خيوط اللعاب معلقة بين الشفتين، تندفع الى الخارج مع الصوت وتنجذب الى قعر الفم مع الشهيق. وقفوا امام دكان مهيدي يجولون بأعينهم في أركانه. وخفق قلب سرحان وقال بصوت ضعيف: أكيد راح يصادرون نصف السمن، تراهم واقفين يتمتمون بالكمية .. نغلق الدكان يا جاسر أخيّر .

هؤلاء الثلاثة وهم واقفون أمام مهيدي يستطلعون حقق السمن ودنان الراقود المثبتة في زاوية المتجر، جعلوا مهيدي يحار في كيفية التصرف معهم. ورفع رأسه مرحباً: أهلاً وسهلاً على الرحب والسعة، أطلبوا يا باشا. فلم يردوا عليه، ظلوا يحدقون الى الدنان، متجاهلين أمر البائع. وقال مهيدي: اللي تطلبونه تحت أمركم تفضلوا فوتوا شوفوا بأنفسكم. ووجدهم يقولون: مسيو. ولكزوه بعقب بندقية ودخلوا الى مخزن المتجر. وافترت ملامح احدهم بعد ان ذاق السمن من ظرف مفتوح، وجه الكلام الى زميله الآخر، قال وكأنه أدرك ما قاله إنه سمن سيفرح له الكولونيل. ثم رآهم يطيلون التملي بالأكياس المتراكمة فوق بعضها، في ناحية المخزن الشمالي، ويسأل أحدهم:

كاسكوسي؟ فرد مهيدي: ها .. نعم؟ وضرب بحربّة كانت في وسطه، عرض الكيس، فانسرب منه خيط من السمسم، تناثر على جزمة الجندي الذي شرع بقضم حفنة ملأها سلسبيل الخيط المندفع.ثم قالوا لمهيدي بصوت جهور : افرنسا يشتري منك سمن وسمسم.. وي. فأجابهم بأعين متراقصة: وي.

أغلق محاله وعاد الى دار فرحان، عاد تشده رغبة التحليق والطيران، حكى مع نفسه: أكيد مؤمنين، المؤمن ما يجي إلا الى المؤمن، كنت محتاراً وخائفاً أين أروح بالسمسم.. الحمد لله، ياخذون السمسم وزود اذا انوجد. وفرك راحتيه بقوة وقال: ربحنا يا أبو توفيق ربحنا يا مهيدي الله يديم السنغال وفرنسا.

في دار فرحان انتظرت زهية مجيء زوجها على أحر من الجمر، قال لها فرحان: لا تهتمي قلنا له امشي معنا.. كان مبسوط ومرتاح.. يمكن خير يا بنتي. وتحدثت مع نفسها: طيب اذا أقفل المتجر من ساعة، أين راح؟ ثم قالت لأبيها باسترسال وعفوية: أكيد هسع بالقشلة وإلا كان رجع.. يابا إسأل عنه. ودخل أثناءها عبد الله وكان قد سمع ما قالته زهية فأجابها بصوت مطمئن: هذاك هو يدرج ورائي.. براس الدربة، شكون زهية خايفة على زوجها من الفرنسيين؟ واستطرد عبد الله: زين هذاك هو جاي، سكن قلبك يا زهية. ودمدم: هذول ما ينخاف عليهم، يطلعون منها مثل ما تطلع الشعرة من العجين، هذا مهيدي يا زهية خذيه على صدرك. ووقف بعرض الباب ورفع صوته بنشوة، قال: أريد فنجان قهوة يطرح الخوف وساعته.

ارتمت عليه، تشده برغبة أم، واعتقدنا انه الحب، لقد نسيت جمعنا، وأبيها الذي جعل يشيح بوجهه عن مريم وهند وشاها المطر. فلا ينظر الى النسوة الذاهلات، واعتراهم الحياء ان تستمر في عناقها وتزيد. فارتطمت به ومرغت أنفه في صدرها، ونثرت على وجهه حسرة رأسها ثم أرسلت جدائلها تحت ياقة زبونه، وتشاددا في مكان واحد، وظنت هدّله انه اجتاز حدود الآداب، فنقلت أقدامها بعجلة وخرجت من الغرفة بينما وقف الآخرون مترددين كيف يتصرفون أمام البنات والأبناء الذين صبروا حتى تأتي المبادرة من أبيهم فرحان، وسمعنا كلمة خرجت من فمها بدون إرادة، سمعنا: شكون؟ واشارة استفهام موجهة الينا، وسددت الصبايا نظراتهن الينا فرأينا جسدها المرن، في المانطو الأسود، طولها العاجي، ثم أخذنا نرمقها من خلف النافذة اليسرى ونسأل : أهي ابنته؟ ابنة صاحبنا.. وكم هي جميلة وعذبة، كنا معه أيام الصبا، نجري خلفها ونغازل التراب ومكان المرور، وجديلتها المرسلة على ظهرها كالفحم، والمانطو المناسب للون الجديلة وجذعها المتين وهي ابنتنا ونحن وراءها دون حياء ووجل ابنتنا بهذا الجسد وبهذا الوجه المراهق المليء بالبثور والرغبة .

19

لا نذكر على وجه التحديد كم مر من الزمن. ولقد انهالت ذكريات قديمة، وظن البعض ان العمر انتهى، ضلت الشمس وتهالكنا في التحديق حيث اللا شيء. أغمضنا نصف أعيننا ورحنا نميّل صفحة الأفق.

الى ان الأرض كانت واقفة. واقفة. الى. رغم مروره المكرور بديوان فرحان في المدة الأخيرة.. وتأمل جاسر ما يجري أمامه: تفتحت مفاتن مريم، وراحت توسع آماقها بالمكاحل والذرور، توهجت بعطر الريحان، وشعرها الفاحم يبين نصاعة عنقها، وامتد جسدها ورشق، وأخذت، عندما تمر بجانب جاسر أو سرحان، والإخوة الباقين، تتيه بمشيتها. وكانت شاها المطر ترى ان هيئة مريم الجديدة تخفف وهج الحرارة القاتل، كانت تبقى قريبة منها تحتمي من قيظ الصيف، فتتنسم هواء عليلاً يتضوع من ازار ابنتها، ازارها العائم بهواء حل بالفتاة. حتى اذا ابتعدت مريم عن أمها شعرت الأخيرة بالأملاح تنز عن الجسد الرطب، فتسأل بعصبية: أين مريم .. مريم يا مريم أين رحتي. وتردد بتهالك: الهواء الهواء.. أعطوني هواء. وتمسح شخب المسامات. وقالت لها هدّله: اذا عدلتي النفس يخف عليك القيظ، وتبردين باذن الله. أجابتها وهي تلهث: ما أقدر، الشحم يثقل عليّ يا هدّله. وتستغل فرصة غياب الذكور كي ترفع عنها ثوبها وتفتح صدرها لباب المزامل البارد، وطالما أسندت أعضاءها الى الجفان، بعد إغلاق باب الحوش والطلب من الفتية في الدار عدم النظر اليها وهي تبترد تحت رشح المزامل. وزفرت من قلبها: هذا الصيف ملعون.. أو أننا شيبنا، كبرت أجسامنا وما عادت تحتمل كل ضنى الدير. ثم تذكرت العجاج، وسرحت بخيالها: اذا جاء العجاج في هذا الوقت .. فستموت شاها المطر يا شاها.

وتذكر جاسر يوم النزهة الذي حضره مع بيت فرحان، كان في فصل الخريف (الصفري) وكم يحلو الآن زيارة الحويجة، التبرد برطوبة الأشجار والماء يحيط بالجوانب، لا حاجة للخيمة الكبيرة، ولا الاحتماء تحت الشجر من وابل المطر، فلا نركض الى فناء تلك الشجرة، في مثل هذا الحر، نلقي بأنفسنا في ماء النهر، ولا نخشى برودة الماء. لكن فرحان عرض عن هذه الهواية،

تركها مكرها، ولم يعد يفكر بالتمشي على ضفة النهر، عند العصر والمساء، وجد ان القعود في البيت خير من كل شيء، يتسلى في الديوان الذي ينتقل الى السطح حينما تغرب الشمس، فتطيب السهرات بحلول الظلام. وطرق فرحان عصاه على الأرض يسأل سرحان، وكان ضوء القنديل في زاوية الصدر، ومدوا السطح بالبسط الرقيقة وفرشوا عليها المطارح الصوفية وجعلوا بين مجالسها الوسائد والمرافق، وكان فرحان يستند الى سور السطح. طرق بعصاه، فالتفت اليه سرحان، وقال الأب: أشوف ناصح اليوم ما بيّن.. عسى المانع خير؟ أجابه سرحان: مر بالدكان بعد العصر، يمكن راح على زرعه بعين بو جمعه، قال لي يتطمن عالزرع ويشوف الفلاح. وسأله فرحان: مريت اليوم وشفت كيف حال أبو ناصح؟ ورد سرحان: زين ومتحسن، اليوم.. أفضل من البارحة. ورفع فرحان بصره الى السماء وردد: الحمد لله على كل حال.. الواحد اذا كبر تزيد عليه العلل، وما يدري علل الحر أم علل البرد.

وجد جاسر ان رأسه يشتعل، شعر بشيء داخل رأسه ينتقل ويميل، وكظم ما في نفسه وظل صامتاً لا يأتي بحراك، تخيل ان الماء الذي سيلقيه عليه عبد الغني بارد كالثلج، ورياحه كما الرياح التي حكت عنها هدّله أيام أثلجت أربعين يوماً. وقتها ظلت ندف الثلج الكبيرة تتساقط حتى منعت الطرق، ولولا إزالة الثلج المستمرة عن أبواب البيوت لانحجز الناس في المساكن، وظلوا فيها لا يقدرون على الخروج، وكان الثلج فوق الأبواب جداراً لا يطاق، سد المنافذ الأخرى وكان سيمنع السكان من الخروج الى الفلاة، لولا الإزالة الدائمة، يفتحون دهاليزا عبر هضاب الثلج، من باب الدار الى باب المطبخ ثم الى البيت المجاور فالشارع، ونامت المدن داخل شرايينها أربعين يوماً، وانطمست المراعي وغابت الأبل تحت المدافن المقدرة. هز رأسه وتذكر قصة ذلك الشتاء، وتخيل لو كان ناصح وقتها، لو كان قد غرق في ماء النهر وانتهى.

متضوعة الى هذا المكان، وشفوفها يطير من بركة المياه، ويرتفع الى السطح، يحلق ويرف بياضاً، حتى ترتفع معه أعين الرجال الساهرين، معه، ويرى البعض القمر وخيالات مريم البيضاء، في شفوف سحابي، ترتفع كلتا يديها ويرى الجميع نطاط صدرها وما تحت ابطها، وشعرها المرسل الى ثلمتي قدميها، وينظرون الى عينيها المنارتين والى عنقها المرتفع. تمنى الجميع ان تهبط، المرأة المعلقة، وطاروا دفعة واحدة اليها، تحلقوا بجسدها العطر، ووجد الكثيرون انها غمامة تلاشت حالما هبوا لإمساكها، ورددوا في سرهم: يهنأ ناصح الخلف، يهنأ كل من ينام بحضنها. واحمر جسمه وأحس بأصابعه وهي تقذف لهبا، وانتبه فرحان، فقال: جاسر .. شكون؟ ووقف جاسر يجيب: ما أقدر يا عمي تراني بردان.. تراني مريض. فأشار سرحان: انزل يا جاسر

انزل جوا. ووقف معه وقاده من مرفقه على الدرج وحين وصل فناء الحوش تقدمت منه هدّله فقال لها: تراه ساخن كثير دثروه وبس يعرق جسمه يروح عنه الشر.

ومدت هدّله فراشه في أرض الحوش، قال لها وهو يرتجف: انقليه الى الغرفة، تراني بردان وهواء الحوش يوخز عظامي. وأغلقت هدّله نوافذ الغرفة وردت الباب وراحت تطل عليه بين فينة وأخرى، تفتح شرعة الباب ثم تتقدم على رؤوس أصابعها، وتلمس براحتها جبينه وصفحة وجهه. وسألها عبد الله، أطل برأسه من سور السطح وصاح: هدّله يا أم محمد كيف صار جاسر؟ أومأت له برأسها، انزل شوفه بنفسك. وتلمس أبوه حرارته ثم همس: ساخن يا هدّله حطي كمادات مي بارد عليه، من البئر من جفان المزملات ايهما أبرد يا هدّله، لا تتركيه. ثم عاد الى السطح وهو يردد: راجع بعد قليل.. بعد قليل.

واستيقظت هدّله من فراشها في الحوش، في منتصف الليل، كانت في حلم أرعبها: رأت الماء والنهر ذا الضفتين، كأنها العلوة يا عبد الله، كان تيار النهر يمشي وسنسول الهواشة أحمر. فقال عبد الله في الصباح: عيني خير.

ولقد وصلوا الحويجة، عبروا الماء من أجل ذلك، وتهطل السماء، في هذا الوقت، فيتجمعون تحت الخيمة الكبيرة، ورأى فرحان لو ان ناصح حضر مع الأولاد، وقال لأبي ناصح: كان أحضرت ناصح معك، والله هالأمور زينة للشباب. والتفت الى حمزة المجدّل وقال: بس ترجع بعد شوية، روح ويا العربة الى بيت أبو ناصح، وهات ناصح معك. فقام حمزة الى هناك، عبر بمجدافه النهر، ثم ركب العربة الى الدير لإحضار ناصح. ورأى جاسر ناصحاً، التصق بعبد الغني يسأله: من هذا؟ فقال عبد الغني: ناصح الحويش ابن هالزلمة. يلبس البنطال والقميص الأبيض، وكان البنطال عريضاً ومناسباً لهذه الرحلة، وأكثر من مرة شمّر جاسر عن كلابيته، عقدها في وسطه، وبدت سيقانه الرفيعة السمراء، وركبتاه العجراوان، منفرة، والبنطال الذي لبسه ناصح أفندي، رمادياً خفيفاً، وقد فرق شعره، وقلبه لامعاً، بلون خرنوبي، ناعماً سلساً، أو ان جاسر اعتبره ناعماً سلساً، لأن ناصح قد أحكم تسريحه، ووجد جاسر انه ذو وجه أبيض مليء بالشامات، وكانت شفتاه ورديتين، ولم ينبت الشعر على لحيته. وأردف عبد الغني: لا تشوفه هكذا، هو أكبر منا بكثير، يجي أكبر من سرحان. وحكى لجاسر انه ذهب مع أبيه الى مصر، ونقل لهم ما شاهده هناك، من صناديق الحديد التي تسير بدون أحصنة، تدوي في الشارع وتنشر عجاجاً كعجاج الخيالة المسرعة، وتحدث عن أشياء عجيبة أخرى، أجهزة صغيرة لها فم يحكي لمسافة بعيدة، وبوساطة الحبال والخيوط السوداء تستطيع ان تتكلم مع شخص آخر موجود في الطرف الآخر من الدير أو في العلوة وفي أي مكان تشاء. ثم عن ليالي اللهو التي تحييها النساء،

يرقصن ويغنين دون خجل أو ارتباك، ثم الموسيقى المذهلة ترغم المرء على الغناء والدبك.

هذا الجسد الأبيض الشفاف، ثم شمر عن يديه ورأى جاسر عدد الشامات التي تغطي ساعديه، وتخيل انه جسد من الشامات، فهو من أهل الجنة، وعدّ جاسر شامات جسده، راح يفتش عن أي سواد محتمل في جسمه الأسمر، واذ لم يعثر على أي، ألقى بالمرآة مغتاظاً ومتحسراً انه لن يكون من أهل الجنة كما سمع من شاها المطر، يحملون سبع شامات على الأقل في جسمهم، علامة الصلاح والاستقامة، وفكر ان أهل الجنة سيعرفون أنفسهم، ثم تذكر ان هذا محال، لا يعرف المرء نفسه أثناء حياته على الأرض انه من أصحاب الجنة أم من أصحاب النار، وهراء ما تقوله شاها المطر، وأكيد انها وقفت يوماً ما أمام المرآة عارية تميل الى هذا الطرف والى ذلك الجانب تتفحص جسدها الحنطي وتبحث فيه عن علامات الفوز بالدنيا والآخرة.

وعندما ألح جاسر في السؤال عن ناصح، زم عبد الغني شفتيه وجمجم: شكون يا ول يا جاسر، هذا عاجبك .. هالبنية عاجبك؟ سأله جاسر: شنو يعني بنية يا غناوي؟ فقال عبد الغني بصوت منخفض: هذا العجي .. كل السرسرية يركضون وراءه.. كانوا ما يتركونه أبداً، كان يغنيهم عن الشيء الفلاني والشيء العلاني. طأطأ جاسر رأسه متأسفاً. وتخيل كيف تسير لياليه: تسأل أمه أباه: ما عاد ناصح.. ترا تأخر زيادة يا أبو ناصح.. ابنك تأخر؟ يرد أبو ناصح: خليه على كيفه هذا شاب .. خليه يشوف حياته. ثم يمضي ناصح.. الى الزوايا .. الى منحدرات النهر العاتمة، حيث يغيب مع الأصدقاء عن الأعين، وتتيه الحركات في دلهمات الليالي.

لكن سرحان بعد ان لاحظ أخاه وجاسر، دنا منهما، وقف جانب الخروفين المربوطين الى جذع الشجرة العملاقة، وعنّف قائلاً: عيب، عيب عليكم .. هذا الحكي ما ينحكى.. وكله كذب، وانت يا غناوي ما تترك هالعادة الشينة، عيب عيب. وحار جاسر في ان يصدق ما سمعه من عبد الغني، او ان يكذبه.

وقال ناصح في احدى المرات فوق السطح، يداعب بيده شامة في وجهه: يمكن يا جماعة يدخل الفرنساوي هالبلاد .. واذا دخل تتسود وجوهنا ونعود الى أيامنا السابقة.. يحكون. فقاطعه فرحان: انه يا ابن أخوي اللي ينقال بالشام وبيروت ما ينقال بالدير .. لع ثم لع .. هذا ما يصير .. وطالما بي عندنا جيوش رمضان شلاش ما نجزع وما نخاف .. ثم يا ابن اخوي الشيخ حاجم يقطع عليهم الطريق.. يرجعهم من الرقة.. انت شكون تقول؟ فاحمر وجهه ورفع يديه الى السماء ودعا: انشاء الله يسمع منك يا عمي وما يقدرون يدخلون علينا. وعلا صوت مهيدي: وكاد ناصح خايف .. ولا تخاف يابا، نحن باذن الله محميين.

والآن والدثار يكمم جاسر، يسمع تهاجس هدّله وعبد الله، وبين آن وآخر ينتفض عضو من أعضائه ويسري فيه رجفان محموم. تذكر العلوة والسدة وتلك التلويحة المائلة وما كان منحسراً عن يدها وعينيها الراجفتين. هند العلي نصعت في مخيلته، وحسب انه يرحل الآن.. والآن ينزلون من العلوة، بل في حقيقة الرؤيا الآن ينزلون من الرحبة. انهم ينزلون من الرحبة. وتبدوا أمامهم العلوة وقد انحسر النهر الملتوي عن هضابها وراوح يتمايل حتى أنزلهم من الرحبة. فخرجت البيوت والقوافل في طريقها الى العلوة السابعة، العلوة المبادة سبع مرات بأيدي السماء والأرض والمخلوقات العجيبة التي كانت تدفق عبر مطاوي الليل، من حملات الجفاف والأعراب، وهم يتحلقون حول الرحبة للمباغتة في غزوة واحدة سريعة، وحين ينفتح الباب الطيني ينهالون بفرسانهم فيصادرون الأملاك ويسبون الصبايا، تخرج عندها صرخات النجدة وصيحات الأمهات والصبايا متحشرجة ثقيلة كأنها الانفجار.

وتذكر أشياء كثيرة، تذكر فواز وعبد السليمان، تذكر الصميمة. هل يستطيع الآن القفز فوق ظهر فواز؟ لا يفشل في تجاوز ظهره، حتى يغضبه ويرفع هامته قائلا لجاسر: أشوف بعد هالروحة الى الدير صرت تقدر تنط .. ول ول يا ابن الملعونة ..

وسمع جاسر نواحاً قادماً الى أذنه، وكان الوقت بين الصيف والشتاء، قال فرحان: هذا ريح ثلج ما هو ريح طبيعي. ثم سمع هدّله، فعض على نواجذه وأخذ بالبكاء، بلل الوسادة وتلمس بجفونه صفاء المآقي المغسولة بالدمع. وجلست هدّله في وسط الغرفة وقد نثرت شعرها وأحلت على وجهها الخراب، رمت يديها في حجرها، فتحت فاها وطوت وجنتيها، وسمع فرحان يقول: هذه الحمى ملعونة يا هدّله، ينراد لها برودة تطفيها.. قوموا اصنعوا له الكمادات.

أثناءها كان القمر بدراً، يضيء مساحات الليل، حتى ان ظلال الهيلوان كانت واضحة على تراب الأرض، تضلع بقوائمها فوق الطيات الصغيرة، على الحجارة التي تسجن خيال الحصان وفارسه. كان يسير في الوهاد ونفسه تهمس مدمدمة : أو أنا يا حربّة أو أنت ، ما تظلين أو ما أظل.

من كان في هذه الساعة من الليل يبحث عن الثاني، هو أم هي؟ كان ينقل عينيه على المدى الواسع. مرة يوازي الضفة بنظراته الثاقبة، لعله يرى طيفها في منحدر ما، في ظل شجرة كليلة، ومرة يزفر بمرارة، يتطلع الى نجوم الصيف تملأ السماء. وحصان الهيلوان يخب من جهة الى أخرى. ودون أن ينسى ملامح أخته وهي تضرب الأرض بحرقة: ما أظل طالما هي جواي عند الهواشة تتنفس.

اني يا عبد احترت، أين أروح يا دا. يا مريم شوفي حالتي، تراني مالي ديار هالحين، الولد راح من ايدي، تركت العلوة وابتعدت عن البلية وما خلصت، لاحقتني من ديرة الى ديرة، أين أروح يا عالم، تراني انسكنت بها يا ناس.

همس صوت في قعر الليل: يا هدّله انت درة وما تريد سواك، تريد تسكنك انت أو ولدك. تراني يا هدّله ما أسكت اني وراءها وراءها. وكان يخب على حصانه المبرقش بنجوم الليل.

عايد الخضر. وظهره المنتصب على الهيلوان الذي يخب بنشاط رغم شيخوخته، ورفض صاحبه إبداله، قال لوزنة التي لن تموت: هذا حصان غالي عليّ وما أبدله يا أمي. ورفعت وزنة أصبعها تشير الى عظام الهيلوان البارزة: وكفله عظام يا عايد، كافي .. اريحه على الأقل! فأجاب أمه: الهيلوان ما يرتاح الا للموت يا وزنة، واذا ما فارقته يوماً واحداً، وركبت آخر غيره يزحر بأرضه ويموت. يبقى يخب من البوكمال حتى الدير والقصبي، على طول الضفاف، وكثير من الأحيان يسلك طريق الضفة حتى الرقة، الى مضارب الشيخ حاجم. يمر بقرى الزور، سعلو وبقرص والموحسن.

وبعد هذا الانقطاع، وما زالوا في الدير، غاب، يمكن انه غاب عن ذاكرة جاسر. واذا غاب فلأنه البعد، وكان صغير السن بالكاد يدرك حوادث كسر السدة وبنائها، والوقفة التي وقفها عايد كما يزعمون في أعلى العلوة حينما كان محمد يكسر سدة الساير. ولم ير كيف طار الى كُدريّه وشالها على حصان الهيلوان وهي تنتفض فزعاً. وإن أدرك فإنه أدرك تعابير عايد الخضر وهو يحاول منع هدّله عن الرحيل. قال عايد لأخته هدّله: آني أروح على صربيا الى مقدونيا أروح يا هدّله الى تالي الأرض وأرجع ومعي حسن أرجع ومعي حسن يا هدّله.. بس انت ظلي بالعلوة!

في السنوات الآتية، سنتذكر عايد الخضر وهو في منحدرات أو مرتفعات العلوة البائدة، وهو الذي لا يفارق السرجان جاسر، في غرفته يتأمل الماضي، والحاضر. ولقد امتدت العلوة وصارت المساكن تقترب من أطراف قلعة الرحبة، واذا كانوا قد نزلوا يوماً ما من الرحبة، فها هي البيوت تتسرب، فوق الأرض، في محاولة متخفية للعودة الى الرحبة مرة أخرى، وابتعدوا عن العلوة وهجروا النهر، وأخذت بيوتها تتقوض على ساكنيها فتنخفض، أو ان السفوح المحيطة بها ترتفع، وشمخت الأبنية ورفع الكثير مصاطب منازلهم،

ارتفعت الدروب وغابت رويداً رويداً طبيعة العلوة، لقد غاصت بفعل الأهالي الذين رأوا انها محط غربان ونذر سوء. في السنين القادمة سيكون وقت لتنسم الرماد والبهتان، يتقابل العجوزان، السرجان جاسر و (عظام الكبة) الشيخ عايد الخضر، يتقابلان في غرفة جاسر المطلة على النهر الأخير، ومن النافذة المحددة بالقضبان، سيتمليان انسياب النهر المتكاسل ثم يلتفتان هازين رأسيهما انه ما مضى من السنين حمل حياة واحدة، لا تتكرر .. ثم لا تتكرر، اما الآن فإن كل شيء تغير، أصبحت السنوات، الحياة، كأبنيتها، حديدا، خرسانة قاسية لا تميل مع الرياح ولا تدلف في المطر، ولا تنقل نشوة الهطول الى حيطانها وأراضيها.

وتراجع الأولاد الى حجرهم وغرفهم، وكانت البناطيل الضيقة الناصعة، والقمصان المزمومة ذات الياقات المخنوقة تعيق الالتفات والاستناد، والأحذية المختصرة في الأقدام الملمومة، تعيق نقل الأقدام من جانب الى الآخر. وتطل الأمهات منادية الأبناء: تعالوا تعالوا .. انضبوا في البيوت.. تعالوا شوفوا أفلامكم المفضلة، لقد آن أوانها وصار لكم في الشارع نصف ساعة على الأقل، ونحن نخاف عليكم من السيارات، نخاف من النزلة الصدرية ومن ضربة الشمس، نخشى ان تتسخ ثيابكم، نخاف ان تتجادلوا فيقوم أحدكم بضرب الآخر، نخاف عليكم يا أولاد. وسأل جاسر نفسه بصوت مرتفع: أشوف يا الله .. انه نسوا اللعب، لعب الدروب والحارات.. ما ظل أحد يلعب لا ضايع ولا صميمة؟

اشرقت في ذاكرتهما السنوات البعيدة، كانوا يترقبون وقت بناء السدة فيتحلقون في حلقات الدبكة والغناء ويتم في جانب ثان اجتماع اولاد الصميمة، وكانت النسوة ترمق بفرح الفتيان الطائرين فوق ظهور بعضهم بعضا ومع أصواتهم: صلينا ما بطينا .. صلينا على الهيلوان. تنداح عواطفهم فتشرق وجوههم، وينتظر فتية آخرون غياب الشمس للتفنن في اختراع مخابئ جديدة للعبة الضايع. ينسمع في أنصاف الليالي ترداد أصواتهم المحمول بنسيم الليل: ضايع بالبلد ضايع .. ضايع بالبلد.

والآن وجاسر في دثاره، وقد فشلت محاولات شفائه، رجعت هدّله تدلق في فمه ترياق هنوف النجم. نبهتها شاها قائلة: يا فاينة بدل ما تندبيه، انت شربتيه شراب هنوف؟ فتحركت ملامحها في علامة نسيان ومفاجأة، ونهضت، ربطت بكلة شعرها وضمت وجهها. وتفقدت تعزيمة هنوف، فتهللت بشائرها، وندمت على نسيانها الرقية. فراحت تدلق الشراب في فمه وكانت تظن أنه الشفاء الذي يريدونه. وانتظرت هدّله الوقت كي يأخذ الشراب مفعوله، لكن حرارته ظلت

تتصاعد وكمية المياه التي يطرحها تتزايد، ذلك كلما شرب من زجاجة الشيخة هنوف، فتوقفت، لكن شاها رأت ان مفعول الرقية غير فوري، قالت: يلزمه يا هدّله ثلاثة أيام أربعة أيام، كل شيء له وقت.

هذا الصقيع كأنه الشتاء بعينه يا هدّله. يحملني على تذكر الشتاء، رغم انكم تقولون اننا في الصيف، هذا ليس وقتاً للحر، ان القيظ الذي في الخارج يتحول في جسدي المرتعش الى برودة ساكنة تلفني بسماكة كبيرة، بطبقات من الحجر البارد، حجر الليل والمقابر، الهواء والخوف. والعالم أمامي عالم بارد، جامد لا يتحرك، لذا يا هدّله وقفت الأشياء، فأبطلت الحركة.

ونقله نوع من التأرجح، نقله بعيداً، كأن الدنيا أمالت كيانها الى زاوية سفلى، ارتفعت أقدامه الى مزوى الغرفة وانحدر رأسه الى أرض القاع. وعاد يسمع ما حدث وما سيحدث، نسي كم من الوقت مضى. كان يسمع نواح هدّله، وهي تتمايل كالنخيل في وجه الهبوب، مرة يأتي صوت الأنين من ناحية ومرة من اخرى، وأحس جاسر وهو في أرضه بمرونة جذع هدّله، وبارتفاعه، ينزل عليه الصوت من فوق، يتدلى كالكهرباء القادمة. وحدث ان كان الوقت زمناً عارضاً من أيام الشتاء، ولمح لأول وهلة خاله عايد الخضر، ملثماً عابراً مساحات شاسعة فوق حصانه، وكانت خلفه الرحبة والجبل، وان عايد يسلك هذا الطريق، طريق سفح الجبل الممتد على طول الزور، يحاذيه في رواحه، وطالما يمتطي صهوة الهيلوان، يميل مع السفوح، ولا يهبط الى ضفة النهر الا في الليالي للتزود بالماء.

على حصان الهيلوان، الحصان الذي أنقذ عليه كُدريّه. نفس الحصان، ولقد ترقرقت أمامه، وكانت الصورة تغيب ثم تظهر مضطربة في مستنقع كبير، كانت تغذيه ينابيع من فُج الأرض، حتى توقفت ومالت الأرض وأنزل رأسه الى القاع. وتداخلت الصورة ثم تذكر ما قاله ناصح الحويش عن جيوش رمضان شلاش وعن الشيخ حاجم الذي سيقف دونهم في خطوط الرقة، لكن فرحان هو الذي أورد أخبار رمضان شلاش والشيخ حاجم، وهكذا كانت في مخيلته صورة ناصح وهو يرفع يديه الى السماء يدعو الله اجتناب المصائب. وسأل أثناءها اذا كان رمضان يستطيع رد الجيش الفرنسي عن أراضي الزور كلها، فأجابه فرحان: يقدر يا جاسر، يقدر وخاصة اذا اتحد ويّا الشيخ حاجم فانه سيردهم على أعقابهم، ثم رمضان شلاش سيعود الى الزور للمّ الشمل الذي بدده الانكليز. وسأل عن مكانه، أين مراكزه الرئيسية؟ فرد عليه فرحان: مراكزه متنقلة في البادية، وما يعرفها غير جنوده واتباعه والذين يعتمد عليهم.. مثل خالك عايد اللي حمل أكثر من مرة رسائله وتوصياته الى الشيخ حاجم والى الانكليز في العراق أو الى أي مكان صعب. وفطن الى أمر خاله

عايد، لماذا انقطع عن المرور ببيت فرحان، لماذا لا يريد ان يرى أخته هدّله؟ منذ زمن لم يأت عايد الخضر.

وفي مدى آخر، بعد سنوات بعيدة، سيذكر السرجان جاسر شباب هند العلي، يتذكر، وهو في غرفته في العلوة ينظر الى النهر، ومن النافذة المطلة، كيف اقتربت منه أيام عاد فيها من الدير، اقتربت منه فتفتحت في خياله صورة تلويحة الوداع، وكأنه امتلأ بها، كيف يمتلئ الانسان بهند العلي؟ بعينيها الناعستين وصوتها الذي يذكر بالمآذن، ينحدر الصوت في الصدر والضلوع، وخرج في نبرات متواردة مثال لصوت غناء فحاول جاسر تذكر ذلك الغناء، وعندما ذهب غناءه مهب الريح حسب انه نبر ورقص لنجود العلي أيام بناء سدة الساير، أيام ترميم الهواشة. واذ يقابله عايد، يعود من حلقات الشباب الذين يتقبلون في مجالسهم وجهة الشمس يسترجعون السوالف والحكايا، وينظرون في مصير العلوة الهابطة فيقولون بأسى: أيام كانت العلوة مرتفعة وبيوتها معدودة، كانت الأحلام ما تنتهي وكان النهر كما البحر لا يحده حد، والشباب يعقلون السبع ما يخافون، والواحد منا يهزم مية وما ينهزم. يقول عايد الخضر: فتشوا هسع في العلوة وكل البلد، ولدت الدنيا مثل أبي دنيا عايد الخضر.. ما عاد تولد النسا سوى الحريم يا عالم ونحن راح زمننا.

وكان عايد الخضر المنكفئ في شيخوخته، الشيخوخة المغلفة بحاجبين أبيضين أشعثين ورأس صلعاء، وفم مرول، يذكر أيام رمضان شلاش العتيقة ويحكي دون ملل كيف طلب منه، دون بقية الرجال، ان يذهب على الهيلوان في صقيع الشتاء الى الانكليز في العراق، يحمل رسالته الأخيرة لهم.

سلّمه وقتها رمضان شلاش النص المغلف وهو يقدر الصعوبة التي سيلقاها في رحلته في حماد الشامية. كان وحيداً تحت احتمال شبح غارات الانكليز وطلقات نيرانهم.

لا شيء يذكر من تلك الأيام الغادية، سوى ان عايد حين وصل الى بلدة القائم في العراق رفع للانكليز منديله الأبيض، فأتوا إليه، قيدوه معصوب العينين متجهين به الى حاميتهم حيث أمضى فيها قرابة ساعة، ثم ردوا عليه الجواب وساقوه الى حيث رفع لهم الراية. كان الليل يهبط، ورذاذ الخوف معلقاً في السماء. في تلك السنوات البعيدة، وهذا ما يذكره العجوز (عظام الكبة) كما سيطلق عليه في حي العلوة. كان ليل الشتاء لا ينتهي، طويلاً بالقدر الذي يسمح للمرء بالنوم فيه ثلاث مرات دون ان ينقضي. لكز حصانه في طريق القوافل تحت سماء منذرة متوعدة، مغطاة بالمتاهة والضياع.

في خرفه المتشابك مع أيامه القديمة، كلما التقى السرجان جاسر المتوحد في غرفة حياته الباقية، كان يقول له: آني يا ثرتان تاثر لو ما تتلت هربة النتم انت تروه مه المتاهرة ها ها ها. فيضحك بعمق، يهتز جسده الضئيل مرولا.

وفي ذاك الليل لكز حصانه بقوة، سمع من بعيد عجلات متعثرة بالخوف، بوحشة الخلاء تحت السماء، كانت أمامه عربتان تعبران أقاليم النفوذ محملة ببضائع مهربة، تصعد باتجاه الدير، واستنجدته قائلة: هنالك قاطعو طرق، سيسلبون أحمالنا، ابق يا أخي معنا في مفازة الزور، على الأقل نقطع معك تلة الصالحية.

وحين قطعوا درب الصالحية، تزود منهم بحقة سمن وصرة من الرطب الأسود، ثم سبقهم على حصان ينطلق في ظلمة مضاءة بذاكرة مروره السابق.

كان يعد على أصابعه العجراء، مررت بالقرية الفلانية والعلانية، أربع قرى خمس قرى بعد قلعة الرحبة. ولم يكن الفجر قد بزغ بعد، وكان الجواب تحت إبطه. وقال في نفسه: ما زال هناك بعض الوقت للخروج من ظلمة الليل، وتلك مجموعة البيوت، لعلها قرية سعلو، وقد هده الظلام والجوع. فنحر الهيلوان اليها. عرج الى جادة الضفة. كاد الهيلوان يقع في حفرة احتفرتها له ساعات منتصف الليل، قفز الحفرة دون جموح، وخلفها وراءه، محبطة في تجربتها الأولى، وسمع عايد الخضر دمدمة تقول: كيف مر الحصان من فوقها دون ان تميته؟! وبدت أمامه الضفة، تعكس في صفحتها المدلهمة فراغاً لا قرار له. كان كل شيء ساكناً، ما عدا خبباً دلـها لحصان منعه الكبرياء من التوقف: سنابك الخيل ترجم الضفة، تمزج صوت الصدى.. فمال عرف الحصان تحت شجرة كبيرة، شجرة نصفها ليل ونصفها الآخر هلوسة.

كانت الأرض مبللة بقطر الندى، الذي ساعدنا على أن نجدها أو ساعدها على اقتفاء أثرنا. ولوحت بصوتها عبر رطوبة هواء منعش، حتى مال عرف الحصان، وكان هذه المرة مسموعا قريبا. لقد وقف الحصان فاستدار عايد الى الخلف ـ انتظر حتى خرجت من العتمة. كانت هناك امرأة تبكي بأنين بعث الشفقة في قلبه، فسألها: ما لك يا أنت؟ ردت بنشيج مسموع: تائهة يا أخي، تائهة من مضارب نائية، ولم أعد أميز أين أنا، يا أخي! اقتربت منه وكانت ندية شاحبة مثل لحاء الحور، وطلبت متضرعة: خذني معك يا أخي، من البوعمر، قريبة من هنا، ضائعة، الله يجازيك خذني معك. قال لها: اركبي ورائي، ونحن نرتاح بس نصل الى الضفة. وشبكت يديها البضتين حول وسطه، فشعر بدفئها وحنانها، ثم التزت بظهره. فأحس بوسطها وهي تشده اليها، رائحتها نسيم ودفئها خدر. سألها: أجائعة؟ فأجابت متنهدة: أريد أهلي يا دا، بس امشي انت وما عليك حرج. عرج مع الحصان يصعد معه الأرض الموازية للضفة. قال: علينا ان نصل قبل ان تطلع. فقاطعته قائلة وهي تضحك: الشميسة! زين، زين، انشاء الله انفك كربك يا فتاة. فقالت: اسرع، زوجي لم ينم، وينتظر عودتي. ثم ضحكت بصوت عال: ها ها ها أكيد هسع يتقلب فوق فراشه من الغيظ، قال لي تأتين قبل حلول الظلام.

وتحولت يداها الى نطاق جلاد، كلما تقدم الحصان ازدادت قوة. هبط الليل في أرض قفراء مترامية تردد رجع الصوت. تصور يا أخي زوجي ملعون، لا يكاد يهدأ، مرة رأيته نائماً مع أمه ومنذ ليلتين كان مع جدته العانس ، وكثيراً ما كان يتركني الى فراش أخته، صحيح انني أجمل منها، لكنها كانت تمنحه الكثير، تخيل انها تقضمه عند مطلع الشمس، يا أخي انا لا أستطيع ان أفعل مثلها ها ها ها ـ فلكز الهيلوان الذي راح يجر قوائمه بصعوبة. وتساءل: ماهذه المجنونة التي أحملها ورائي؟ وفكر في الهيلوان، فلكزه: ما لك يا هيلوان أعجزت؟ فأجابت: ثقيل يا دا ما يقدر على الحمل، تراه بعد خطوتين تنكسر ضلوعه! فالتفت الى الوراء، ولهاث الهيلوان يتزايد. قال بصوت مسموع: قف يا هيلوان. فالتفت الى الوراء، ورقبته الطويلة تترنح، وعرفه مغسول بعرق متصاعد.

وكان عايد يتذكر، قلت لها بصوت مسموع بعد ان دارت الفكرة في رأسي: تعالي يا بنية نستريح، نأكل شوية من السمن وشوية من الرطب. وعيناي متحجرتان في قحف رأسي. فالتفتُ الى الوراء في عتمة الليل أنظر إليها، فإذ بها امرأة عارية، تضيء ظلمات الليل، شعرها طويل ويداها غائصتان في أمعائي، وكان فخذاها يلوذان بوسطي ثم يعودان الى الخلف، ينزلان عن الحصان الى أسفل القوائم، حتى يعوثان في التراب، لا يتحركان من هناك، ثابتتان متطاولتان، بينما كان الحصان يتقدم لاهثاً، يجر ساقيه بعجز. وقلت حين ملكت الشجاعة: قف يا هيلوان، ننزل يا أختي هين بسد الضفة ناكل ونمرح شوية.

وبينا كانت النار. دارت فكرة في رأسي، فجمعت كومة من الحطب، وأشعلت الحريق. ولاحظت صدرها المتدلي الى فخذيها، وقوائمها المتشابكة والملتفة كثعبان. ناولتها حبة تمر منتظراً تسرب الحرارة الى حقة السمن الجامد. قلت لـها: كلي. فرفعت لي رأسها قائلة: أنت أولاً يا عايد! فرفعت حبة التمر الى فمي ورفعت بدورها حبة التمر الى فمها. مضغت لحائها لافظاً لبها، فمضغت لحائها لافظة لبها. لاحظت، نعم لاحظت حين تحركت يدي دون شعور مني، الى كوفية الرأس، انها حركت يدها الى شعرها الأشعث تقلد حركتي، وحين أملت بجذعي الى الأمام أمالت بجذعها كذلك. فعلمت إنما تفعل كما أفعل. فتناولت بيدي غصناً جافاً لم تصله النار، وغمسته في طرف السمن الدافئ، وهكذا فعلتْ كما فعلت، ثم رحت أدهن جسدي المستتر بالسمن الدافئ، وراحت هي كذلك تدهن جسدها العاري، ثم صالبت جسدي بالسمن، وكذلك منكبي ثم شعري وفعلت كذلك صالبت جسدها وشعرها الطويل المهوش حتى راح يلمع في ضوء النار. فاستدرت، أخيراً استدرت ثم استدرت واستدرت، ولقد أعطيت ظهري للنار ووضعت كفي على عيني، وكذلك فعلت، وضعت يدها على عينيها مستديرة بظهرها المغطى بالسمن. وبلمحة عين، انحنيت

بخفة الى غصن محترق، وقذفته عليها وأنا أجري، متفادياً وقتها الضئيل كي تصنع بي مثلما صنعتُ بها. واستدارت اليّ جزعة، والغصن المحترق يحترق في جسدها ويلتهم السمن والشعر المهوش. وكنت أجري بينما هي صامتة هلعة فيما وقعت فيه. وكان جزء من العالم يركض مبتعداً وجزء آخر يراقب بعينين منحرفتين. ثم اختبلتْ كي ترمي بنفسها في النهر، أسرعت تجري الى هناك مخلفة وراءها بحراً من نار هشيم، جرت وهي تصيح ولقد ارتج الفضاء من صواتها، صاحت مرددة: قتلتني يا أبو دنيا، قتلت الحربّة يا أبو دنيا. فرفعت صوتي، اتجهت الى قبالة الدير ثم العلوة ثم الى بيت فرحان، الى مسامع هدّله، ناديت بصوت حفيف أغصان شجرة التوت: يا هدّله أنت يا نائمة في أحضان الغربة والحزن، عودي كما تعود الفصول الى أراضيها، الشتاء قد أتى وقد جاء الربيع، والخريف والصيف- يا هدّله : ترا إنني قتلت حربّة النجم.

* * * *

--------- ----------

انتهى الجزء الأول

حسين سليمان

hsolaiman@hotmail.com

صدى الزور البعيد

الجزء الثاني

آه يا مريم، لقد امتلكك الغريب......
في ليلة الزفاف، أمسك بذراعها، وقادها الى بيت أبيه في حي الجبيلة من الدير في عربة تجرها أربعة خيول. وكانت صورة باهتة، هذه الحياة، وسرابها يملأ النفس. مريم في ثوب زفافها الأبيض، مدت له يدها....

الهواء المنعش يقلق الباب، انها الآن له.. وسمع جاسر زغاريد الديار والنسوة تلوح باليدين، وتخرج المزغردات ألسنتهن من الفوهات المستديرة، فيرى سقف الفم وأصبع اللهاة وبطانة الفم الوردية والأسنان الموبوءة بالشهوة ... وتخيل شاها توصي مريم كيف تتصرف في الليلة الأولى فتقول لها: هوّني عليه الأمر يا مريم، واجعليه يفعل ثم افعلي...حتى نقف سوية... ويتلون المنديل ويتخضب، فنضع حدا للأقوال وما تردد في أمر أختك هند وأمر جاسر تحت الدرج.

وكأن الدار التي فقدت مريم، فقدت شيئا عزيزا منها، فقدت المكان، ربما شجرة الدار الكبيرة ..... الشجرة .. ما زالت في مكانها، تتمايل بهوب الريح، والهواء يعوي فنسمع حفيف شجرة التوت والشجن الذي تسقط به ثمرها في البركة، تطوف على السطح أو تغوص في المياه حتى تغيب عن الأعين، ونلتقط ثمرة ثم نرفعها، ونميز اننا نهز بحركة استنبولية السطح الرائق، نغسلها من العوالق التي التصقتها أثناء هبوطها.. ولقد فقدنا بعضنا بعضا ..... برحيل مريم في عربة تجرها أربعة خيول.
وتكورت كتلة الحوش، انتفى ما اسمه أحواف وزوايا، أصبحت أحوافه محنية كشيخ في الثمانين. تمهلوا اذا صعدتم الدرج، أخذت درجاته تنهار وتميل على أخواتها، أمسى قديما ولزوم نهدمه ونعمر آخر جديدا.

وجاسر ظل يبكر كعادته، يرافق سرحان في البيع، ويستلم شؤون المتجر أيام تعقب سرحان لخليلته شمسه، بعد ان تنزل جفان اللبن وتنفض بيديها ردفها وساقها ومشيرة بذلك الى ان ثوبها لم يلتث بالجفان وبالدرب الطويل. ولمحت خاطرة في ذهنه بينما قضى يوماً بكامله وحيداً في المتجر، خطر في باله إن كان لشمسه أخت صغرى، وتجلبها معها كلما أتت الدير، وأجاب سرحان:

يعني لها أخت أصغر، لكن ما أظن تجي معها الى الدير، بس أسألها بنفسي يا جاسر.. تكرم يا جاسر.. هي تظل عندك وشمسه تروح معي. وأردف: يعني تريد هيك يا جاسر. ثم ابتسم وتابع: لزوم تحن لجنس حوا .. نوبة انت تظل بالدكان، ونوبة أنا، أو نشوف حل ثاني يا جاسر، بس انت أصبر.

وتذكر جاسر، مرة تذكر، يوم أنزلته مريم الى فيضان الحوش، طوق عنقها بذراعيه، ثم قفز، أمال بجذعه عن النافذة وقفز اليها يتحسس بوسطه وسطها، ويميل بساقيه الى ساقيها النديتين. حاول ان يذهب أبعد من ذلك، يسهم في تصور ما جرى. لكن تجسدا ما لاح أمامه، حالاً من جسد ما لاح له، لا يظهر منه سوى القسم السفلي، ومشمراً فستانه ومبرزاً فخذين جريئتين، تغوصان حتى الركبتين في الماء. ولتوه عرف ان نصف الجسد الماثل أمامه ليس الا جسدها، جسدها وجسدها...فأراد ان يقول ان الجسد الواقف فوقه هو جسد أخته كدرية عندما جلبت له سلل الطعام وهو ما يزال مختبئاً في نهاية البستان خوفاً من رجال السلطان. ما يزال خلف شجرة النخيل يتلصص على وقفتها، وهي تتيه في شجرة زايد الصامتة، ثم ترى عند منحدر العلوة كيف تهبط فاطمة، تحمل طاسة اللبن الطازج، وهو وراءها يتخيل...ويسأل لبرهة من هو محمد الرحبي، محمد عبد الله الرحبي؟ يجيب انه عاشق ميت. ومع كل ما كان فإن محمد أجدر بإن يكون زوجاً لمريم من ناصح. وهما يبحثان عن الجسدين الواهنين، في أول ليلة زفافهما يتعرف الواحد الى الآخر، بوساطة النظر المستحيي فيكتشف شبه الجسدين المستلقيين الى بعضهما، مريم وناصح، ويرى كل منهما حالة الهذيان التي أصابت الخيال وهو يشكل جسداً مقترحاً للآخر، يتضوع منه شيح البراري وإلهام الحب. وكان فستانها المبتل بالماء يظهر ثنايا ما اختفى خلف القماش، وبادر نفسه لعلها عارية الا من الفستان هذا. لاحظ بزاوية عينه وهو يرفع رأسه الى فوق، لاحظ الزغب الذي ملأ بشرة الفتاة، فتذكر الليلة التي حضرته مريم للمهرجان، وانمرد شعر ساقيه وما نبت في وجهه. بدا ليلتها كالفتاة، ومر أمامه جمع من النسوة الرابضات جانب الحوش وهن ينزعن شعر السيقان بالعقيدة. لبث وقتاً يستمع لصوت النسوة المحلقات حول مريم، يجهزنها للزفاف بالزينة ويتفقدن أماكن العطب والذبول فتبل احداهن ريقها تمسح به أماكن الجليد، ويتساءل مع مريم: لماذا يا ربي يحدث هذا الحرج في مثل هذا الوقت؟ يسمعان معاً ما تردده ام العريس فيختلط عليهما قولها: ربما يوحي حديثها الى ريبة محتملة دارت في نفس الأم وابنها! لكن شاها المطر وبإيحاء من هدلة قالت: ليس فيما تشكين الا وهم، مريم جاهزة للزواج في أي وقت تشائين، اطمئني انت وناصح، هي جاهزة في أي وقت يرغب ابنك. ورأينا هدلة، كلنا رأينا هدلة تخرج فرحة فتساءلنا لم كل هذا؟ كأن العرس عرس جاسر، لم يا هدلة؟ ولقد حفرت أرض الدار

بحذائها، صوته مسموعاً، ينم باستنطاقه الأرض ان هدلة فرحانة، فرحانة عبد الغني الشاهر.

تعرفين يا أمي أنني أحببتها، فقلت لي انها كبيرة عليك، ابحث عن هند، هي كبيرة. ورأيت ما جرى لإبنك.
هدلة ذهبت الى هنوف النجم لطرد الحب الوحيد. صعدت تلة الدير، ورأت ما رأت عندها.. كدرية تفتش عن رقية لها أو لزوجها.. كدرية التي ولدتها المياه حين غرقت أمها، رماها أحد أبناء الساير، فولدتها من تلك الرمية.. ثم لأنك لا تريدين رؤية ابنك يتزوج بحبيبته.. هي كبيرة عليه. لماذا جئت بنا الى الدير، قلت ما أظل طالما هي جواي عند الهواشة وأمام عيوني تتنفس. أمي وأمي وتخرجين أمامي تلاعبك فرحة غامرة وتضحك عظامك!؟

تترهل هدلة بهذه المشية، وأحسب انها تغازل الهواء، تنقل قدميها بغنج فاضح، هدلة تميل بثقلها ووسطها فتكاد تعثر في الحوش. أتقع هدلة في بركة المياه الساكنة؟ تمور داخل فقاعات المياه والهواء والنجدة، فيقفز اليها فرحان ويغيبان تحت الماء الراكد زمناً نحسب فيه انهما اختنقا تحت، تحت يمسكان بقضيب النافورة أسفل البحرة بينما تخرج للعيان نهايات أقدامهما، تسبح بحرية فوق السطح ويبقى ممسكاً بعنان الفورة التي تسمح لهما بالبقاء أطول فترة ممكنة.

ان العالم يمر من أمامي دونما تمايز، أظن بعض الأحيان اننا في النفق، نفق الموت الصامت. ويشير جاسر بلا وعي الى جهة الدرج والى ناحية مضخة الماء، يقف جانب بركة الماء ويرى فيها مقاطع من انعكاس لشجرة التوت، شوهتها طبيعة المياه وما استمر السقوط الهاطل كالمطر، حبات التوت تتساقط داخل البركة، وتخلق فقاعات شبيهة بالتي تخلقها هدلة اذ نزلت بركة الحوش لتنتظر نجدة فرحان، سيقذف نفسه خلفها بدون ان ينض عنه زبونه ورأسيته، ورأى سرحان ما يدور في نفس جاسر، فتقدم منه وأسرّ: لها أخت .. شمسه يا جاسر لها أخت، المرة القادمة تجي معها. ونظر اليه جاسر، فدمدم سرحان مبتسماً: بس هذا الشيء بيني وبينك، وما أحد يعلم به. وهز جاسر رأسه وسأل: باكر تجي معها؟ أجاب سرحان: غداً سنقول لها، اجلبي لحبيبنا جاسر أختك الصغرى، ثم صمت يرفع رأسه عن البركة الى الرواق ثم مثبتاً ناظريه في قبة السماء وتابع بعد برهة: عندها أخت يا جاسر أحلى منها بكثير. ومرت غمائم جلبتها ريح قادمة من الشمال.

مهما كان، أعندها أخت أم لم.. عندها أخت .. مهما كان، فإن ناصح الحويش قد أخذها. أوقف عربته أمام باب الدار، تجرها أربعة خيول توقفت لبعض الوقت بينما يجرها من بيت أبيها، من معصمها الذي راح يخدر في خيالي، خيالي خيال جاسر عبد الله الرحبي، المعصم الذي أغلقه الخيال وجعله سحراً لا تمسه سوى الروح، تلمه بين أضلاعها الوثيرة وتمضي الى حيث تريد عبر الأراضي. ومعصمها الندى يذوب في مسامعي كصوت نداهة يتبع آثار مرورنا السابق، يقتفي ملامحنا فوق صدر الأرض، صوت. وعلت الزغاريد حين وطأت قدمه ارض الدار، اجتاز الازدحام الممتلئ بالبخور وبعبق الانفاس المسترسلة نحوه، يجر ساقيه المرتعشتين الى كرسي الصمدة، مرتفعة ثلاث درجات، جانب عروسه مريم، مليئة بالشموع المثبتة في قوس صمدة الزفاف. وتختلف الأعين اليها، الى جمال مشكل في ثوب كان يتهاطل فيها، تنحجب تارة فيه، وينحجب تارة فيها، وفيها حتى بدت لجاسر الذي استرق نظرة سريعة من شقوق النافذة، غيمة طارئة لوّنت سماء السهول. ينقلها ناصح وسط الزحام المضطرب، فتميل اليه فيضمها بضعف وخوف، ثم يميل اليها، وتدفعه احداهن بكفلها المدمن، فيندفع نحو مريم بقوة فتحضنه بثبات في مجرى الصخب حتى مخرج الدار المحتشد بالمتقدمين اليه ينهلونه من ذراعيه كي يصعد معها على درجات العربة التي توقفت احصنتها الأربعة لبعض الوقت.

وطرقت، سنابك الخيل ترجم الضفة.. ستة عشر مطرقا، مدامع شارع الدير. سمع جاسر من مكانه في غرفة الهيلوان رنين الرحيل، فعرف أنها تبتعد وتنأى. كان مختبئاً عنهم في غرفة أغلقها بإحكام، وقد اغلق الغرفة، وتطامن بأن هدلة لن تأتي اليه، فهي مشغولة عنه بضجيج القوم. وامتلأ فناء الحوش وصعد من لم يجد له مكاناً يرى منه صمدة العروس، الى شجرة التوت، جلس بعضهم على أغصانها الممتدة حتى رواق الديوان، الممتدة الى الغرفتين المقابلتين للديوان وحتى غرف المرافق التي بناها حمزة المجدّل ايام المطر العصملي. فناء الشجرة غمر فناء الحوش، وتطلعوا الى صمدة العروس في رواق غرفة صوان شاها، الغرفة المحاذية لغرفة القادمين من العلوة. وأغلق الغرفة، فأرخى ستائر النوافذ يتجنب ضوء القناديل الموزعة على اعمدة الرواق، احس بالحرارة، بالقيظ والضيق.

من بعيد بدت له هدلة ترقص! كيف ينتظرونه كل هذا الوقت؟ منذ العصر وقبل ان تغيب الشمس بدأ الدار يترقب مجيء ناصح، وأمرت شاها المطر ان يشعلوا المصابيح ويعلقوها على اعمدة الرواق حتى اذا فاجأهم الظلام ولم يحضر العريس يجدون، بالأضواء المتمايلة عند اعمدة الرواق، معنى لحفل الزفاف. وتأخر الى هذا الحد؟ لم يحضر! لعله ابطأ متقصداً، لكن نساء

الحويش ملأن غرفة الديوان وساحة الدار، وبعضهن راح يطمئن العروس ويشجعها، انه في الحمام مع اصدقائه، عندما ينتهي من هناك يقوده رفاقه الى دار فرحان، وقالت واحدة منهن: لا داعي للقلق، ناصح في طريقه الينا الآن.

يتجه موكب العريس من حمام الفرات، الحمام خلف السوق وبالقرب من تلة الدير، يتجه الموكب بخمس عربات ستطوف الدير، مع عربة الزفاف لإعلان قران ناصح بإبنة فرحان عبد الغني الشاهر، في دروب الدير، الشارع العام وشارع النهر، يمرون بتلة الدير المحاذية للنهر، ثم يعبرون الفرع الأول للنهر، على الجسر الحجري، الى الفرع الثاني فوق الجسر الخشبي، حتى يفصلهم عن الدير كامل النهر، ويصبحون عندها في الجزيرة، الدير في الشامية وهم.. فيما بين النهرين، في جزيرة الشام، الى ان يعودا الى جبيلة الدير، الحي الذي يقطن فيه ناصح خلف الحويش.

وفطنوا الى سبب تأخر ناصح وركبه، فطنوا وهم يقفون في الرواق قبالة مجلس صمدة العروس، عندما توهجت أضواء القناديل وراح بريقها يطرد ظلمة الدار. غابت الشمس وما جاء؟! والتفت جميع من في الفناء الى العجوز التي أضناها الانتظار، لماذا تنتظرون، اذهبوا وراءهم، لو كان امرهم طبيعياً لجاؤوا منذ حين، الشمس غابت، هو بي بعد الغياب عرس؟ أكيد يا عالم ناصح وربعه تعرضتهم الجندرمة، الجندرمة ما تترك أحد ولو كان ناصح الحويش. وهاجت الفكرة في نفوسهم، اضطرب الدار لبعض الوقت، ان ناصح متورط مع جنود افرنسا، وتضخمت المخاوف عندما تذكروا الأحداث الجارية في الجزيرة... فعند خروجهم من الجبيلة او عندما مروا بها، بعد الانتهاء من الحمام في طريقهم الى بيت فرحان، ربما اراد ان يوقفهم السرجان او الكابتن، فلم يقفوا، يحسبون ان لموكب العرس اسثناء، لم يأبهوا بأوامر العسكر، أكيد أكيد هم بالقشلة.. هسع تشوفون، روحوا وراءهم. اين الرجال يروحون يتطمنون عن ناصح.. يبحثون عنه.. هي الدير آها قدها، خَبَرهم .. وشكون بهم يجي هسع، الآن. وسمعوا صوت أحدهم يقول: وكلوا الله.. هو لو بي شيء يخوف، لا سمح الله، كان وصلنا، بس الوِلِد تتسلى بالحمام، ما بي شيء يخوف، الشباب يدللون ناصح، ما تخافون هسع يجون.

ورقصت هدلة، عندما سمعت أبواق العربات تقترب، خرجت الزغاريد من الحناجر فرحة، انهم قادمون وما حدث لهم شيء، سوى انهم تأخروا في الاستحمام، يمكن انهم حمموه سبع مرات فتأخروا لهذا السبب. وسمع جاسر الصخب وهو في غرفة هدلة المقفلة، يلفه ظلام دامس، أرخى الستارتين فلم يشاهدوه، كان يتخيل كيف يندف جسد مريم، في انتظار ناصح، تجلس على

كرسي الصمدة المرتفع، مرحى لها، وقد أركت مرفقيها، طوال الانتظار، على مسند الكرسي، قربت ساقيها ان يُري ثوب الزفاف مزيداً من الانحسار اذا ما عبث به الصبية يبحثون عن المجيديات والسكاكر المطشوشة على العروسين، بين طيات الثوب الطويل وقد رفع أحدهم أذياله يفتش بين قدميها المضمومتين بقوة، عن التدحرج المحتمل للمجيديات تحت الساقين وخلفهما ، حتى تفتح مريم ما بين قدميها نتناول تلك القطعة، لقد وقعت في حذائها منغرسة فيها وانها تميل الى ناصح، بعد مجيئه، تحترس من قوة قذف الطشاش الموجه نحوهما، ثم تنحني لتبعد الاولاد الذين رأوا اللعبة في ان يندسوا تحت ثوبها. ناصح قد وصل ولكي يهدأ قليلاً استدار الى مريم، تملى وجهها الحنطي وعينيها الخضراوين– لا، ليس الخضراوين بل السوداوين- ان القناديل حولت لون عينيك يا مريم، وتضايق بربطة عنقه، فعاد الى انتصابته السابقة وابتسامته المصطنعة، بقي في خياله كيف تحرجت منه مريم، لم تبادله النظرات، أطرقت بشحوب الى الارض البعيدة عنها، نفضت براحتها طرف ثوبها الابيض وتبددت محاولة التنصت لما سيقوله ناصح في الصخب المتواصل والزغاريد المستمرة.

ينتهي العالم، بعد ضيق خانق، تهدأ الاصوات، وتتلاشى صورة ما كان، ولا يظل الا المخلفات الساكنة. وان كان قد اغلق منافذ غرفة هدلة واسدل ستائرها، فإن عطر العرس تغلغل ونفذ داخل الغرفة، وحين كان المحتشدون يقتربون ناحية النافذتين، ويلتصقون بجدار الغرفة المغلقة، يخفق قلب جاسر ان يلتفتوا اليه، يتطاول طيفهم ويغمر مشاعره فيظن انهم سيلتفتون، لماذا جاسر وحده في الغرفة، مقفلاً بابها ولا يريد ان يرى شيئاً من العرس والفرح؟ ويقول الحشد: عيب .. كان عليه الخروج، عيب يبقى وحده يسمع نسوتنا وهن يطوحنا ويرقصن .. والرجل أثناء ذلك يخرج ويبتعد عنا معشر النساء، لا نريد رؤية الرجال، نتصرف بحريتنا ونقول الذي نقوله. فيفكر في سره: كم النسوة ...وهن يلتصقن بنافذتي، تتمنى كل واحدة الدخول الى الغرفة المغلقة، ويعفن العريسين منفردين على كرسي الصمدة، ويتبادلن الأدوار للدخول الى جاسر في غرفته الصامتة، ثم تخرج كل واحدة بدورها وهي تردد: عيب يظل بدار العرس رجل، يكشف ما تفعله النسوة والأناثي مجتمعات، عيب، كان عليكن تنبيهنا والاشارة الى ذلك ـ جاسر الرحبي في غرفته، .. في الدار رجل. رجل وانتن بالطبيعة رجال، الواحدة منكن كانت رجل ثم أصبحت امرأة، ولا تعود الى هيئة رجل الا حينما تفقد نفسها كامرأة. الآن شاها رجل وأمي رجل، ولهذا رقصت في العرس، تريد رؤية الصبايا يرقصن معها، وكانت تشتهي مريم، هدلة اشتهت مريم، لذلك قالت هي كبيرة عليك.. حتى جاء ناصح وأخذها من معصم يدها، يجرها لأمه. لو تعلمين يا

هدلة ان الأبناء يجرون زوجاتهم الى الامهات، لقبلتي مريم، لكنك، لا تريدي ان ينازعك رجل غيرك على مريم، امام عيونك، في ذات غرفتك.

وفتح باب الغرفة، كانت الأضواء قد تلاشت، وبقي قنديل أركنه فرحان على سور البركة، وأعطى ظهره الى جاسر، وجلس بسكون، لا يأبه للذين يمرون بقربه يعيدون الأماكن الى طبيعتها. ورجعت الأشياء الى سابق عهدها، وظل فرحان يتأنى بنظراته الى شجرة التوت، الى الدرج الذي فتت الزمن صعوده ونزوله، فألغى سهرات السطح وتحولت مضافة الصيف الى مضافة الشتاء في غرفة الديوان، وظل فرحان الذي منعه الكبر من الاستمرار في حياته التي اعتادها، جالساً امام بركة المياه، ومانحاً ظهره الى جاسر. تغير كل شيء برحيل مريم، وبان على فرحان حبه المضمر لابنته، جلس صامتاً امام بركة طالما ارتوت بخيالها كل يوم .. في بركة المياه وجه الابنة المبتعدة ، وعلى احصنة تجرها عربة حملت العروسين، وهكذا رفع جاسر جلبابه وسمح للهواء بالتغلغل الى ساقيه المتعرقتين، بقي واقفاً عند باب الغرفة يحاول المرور من جديد بنهاية الاحتفال، انفتحت شهيته للمشاركة بالاحتفال الذي مضى، كل الفرح، الفرح المرسوم على الملامح، شاها المطر ووالدة ناصح وبناتها ونساء الحويش ورقص هدلة حين ابتدأ الزفاف.. راح يشم نسائم الحوش المعطرة.. وظلت رائحة مريم في مخيلته، تذكرها ثم تذكر هند العلي وهي تلوح له أيام الرحيل عن العلوة وما زالت العربة تهبط سفح العلوة، تسير نحو طريق القوافل العام، الى الدير، قال الحوذي مخففا عن هدلة: ان الدير ذات هواء منعش، اسموها الدير لارتياد الشعراء ارضها وشجرها ونهرها المنساب كالفرات.. يجري يحيطها بكل الجوانب، الدير قبل ان يرى مريم الفرحان.

في هذه الليلة رأيت هدلة ترقص، في ظلمة الليل، في الغرفة التي نمنا فيها، يرن في روحنا جسدها وأخذ أشكاله الأخرى، المنكفئة طيلة الأيام الباقية، كم هو جميل جسد الرقص يا هدلة، في الليل وقد خيم الخيال وراح يرسم ما يحلو له، حسبنا عندها ان الصبا قد عاد الى هدلة. لونت الحمرة وجنتيها وصفت عيناها وأخذت تتسع وتطرف بقوة، ثم مررنا بعنقها الناصع المرتفع، المرو، الأخضر، ثم أدار عبد الله ظهره لها، وراح في نوم ثقيل، وبقيت تتنفس هواء السهاد والاشمئزاز من النوم الى جانب شيخ ترهل في سنه هذا في ليله هذا.. دون الرجوع الى أمنيات الشيوخ الذين يحضرون عرس مريم وناصح، تطوف فيهم خيالات الرجولة والفحولة، حتى قامت هدلة من طول المعاناة وأوقدت القنديل بعود ثقاب وزفرت بحرقة، تحولت بوجهها الى ناحية جاسر. جاسر مالك قاعد هون؟ فانقبض صدرها، ان جاسر ما زال مستيقظاً، ورأى

خمول الشيخوخة تجري في عروقنا، الى ان استدار أبوه عني الى جهة بعيدة من الفراش.

وخابت ظنوننا في تمثل المرة الأولى، فكرت هدلة انها المرة الأخيرة التي سينام ابنها في هذه الغرفة، عليها ان تجد له غرفة ثانية، سينام غداً مع سرحان او عبد الغني، يتركهم في رذالة الكبر، يتصرفون ما يشاؤون. وأنار القنديل وجه أمه، وبدا التعب والارهاق على ملامحه فسأل جاسر: لعلك بخير، وعساك صحيحة، ردت: هدني العرس والصمدة، كأني كبرت بهالليلة عشر سنين عشرين سنة، تراني شيبت يا جاسر. تمسد وجهها وتمر بيدها على شعرها سلس الشيخوخة، وعيناها غائرتان في محجريهما ووجنتاها بارزتان في وجه تقلص داخل الفك، وظهرت لنا في الليل هيئة اخرى لهدلة، هذه الرائحة من ناحية النافذة وهذا اللحم المتفسخ من ناحية الباب، هدلة النتونة والكبر غسلها ماء الظلام.

وقبل ذلك بزمن، عندما استجره عبد السليمان، رفيق الطفولة. جاءه من العلوة في عصر احد الايام، في بداية الصيف. قال له: سرحان والتجارة والسوق شغلة فاضية، وما لها ثمرة. كانت مريم في ارض الدار كشجرة، والسهرات فوق السطح تطول في آماسي الصيف. ولم يكن ناصح قد خطى خطوته نحو مريم، كان يتردد الى بيت فرحان ويرسم ما يريده بدقة وحذق. يظل مع سرحان، ويستميل شاها المطر اذا لمحها في فناء الحوش، يقبل اليها الى عمتي شاها وشاها يا عمتي تقول لك أمي أم ناصح انه تسلم عليك وعلى مريم واللي طلبتيه منها صار.. وهذه منها، فيقدم لفافة طواها تحت ابطه. وأصبحت شاها تنتظر خروجه من الديوان مع سرحان او نزوله من فوق السطح حتى تدور في ارض الدار، حول بركة المياه، تدور حول جذع الشجرة. وقبل ذلك، طلب جاسر من أمه ان تكلم شاها في مريم له، قالت هدلة: كبيرة عليك، مريم يا جاسر كبيرة، دوّر على واحدة اصغر. ثم عرف ان هدلة أشاعت سره لشاها، والتالية حكت لابنتها، فأقبلت مريم نحو جاسر بينما كان يغسل وجهه في مياه البركة، وقد استند بيديه على سورها، يرى اضمحلال صورة السماء في سطحها ويراقب قطرات الماء المنسكبة من صفحة وجهه، وكل شيء والدوائر تكبر وتتلاشى، حتى شعر بظلها فوقه، فالتفت اليها، مبتسمة يأخذها الشحوب ونصاعة البشرة الى جيل لاحق، فعرفنا انها هي وما تمر السنوات / هي / في الدروب الزحمة تعبر ممراً ضيقاً. وروت له ما سمعته في طلب يدها وما ردت عليه هدلة .. ردت هدلة، هي يا بني كبيرة عليك، ابحث عن واحدة أصغر منها وتناسبك. رمت ضحكة جريئة وقالت: تريدني يا جاسر، تريدني وأنا أختك .. ها ها ها الملعون جاسر ها ها ها الملعون جاسر الرحبي يريد مريم، انت يابا صغير على هالشغلات وما كبرت لسع .. شكون تكبر حالك؟

فوقف كالمبهوت، رفع رأسه اليها، غير مصدق، تروي له ما سمع أم سمع ما لم يرو؟ مهما يكن فإن مريم، لا .. لا يمكن ان تكون كذلك، حتى اذا عرفت فهي لا تفاتحه بهذه الطريقة. ربما اذا كان ما كان فإنها ستكتفي بالنظرات فقط دون الكلام، وان كانت هند حاضرة فإنها هي التي ستتكلم بهذه السخرية لا مريم، واغلب الظن ان هند لم تعلم بما جرى، فهي لم تشر الى ذلك، سواء بالكلام او بغيره. لو انها هند التي كلمته لما اكترث كما الآن، لجعل الأمر يمر

دون ذكرى، اما مريم الى جانبه عند البركة تقول له ما قاله، وحسبه سر بينه وبين امه، لا تبيحه لأحد، رفع صوته المكبوت: يا هدلة ول عليك. وهكذا.. حتى جاءه رفيق الطفولة عبد السليمان وقال له: تعال يا جاسر نقيد معاً بالهجانة، التسجيل في خان الوسط، وصار لهم يومين يسجلون العربان وأهل الدير.

طويل بالقياس الى جاسر، تغلب عليه النحافة، ووصفته هدلة عندما رأته تقارنه أيام كان صغيراً: كعود الحور ما زال يطلع للسما، ووجهه ما تغير وظل سمح، والشامة عند حنكه كبرت قليلاً فصارت أجمل، وعيونه يرتاح الواحد لما يراهما، تنقل عنه الهم والزعل، وملامحه تدل على حالة عشق وهوى. وسألت شاها: بس شكون .. ليش ترك العلوة وجاء الدير؟ ردت هدلة: العلوة ما خلت له هوى بها، هجرها مثل ما هجرها غيره. ورد جاسر: جاء يقيد بالهجانة الفرنسي .. بخان الوسط التقييد منذ يومين.. يقولون القومندار يقوم بفحصهم والذي ينجح بالفحص ينقبل بالهجانة. واستفسرت مريم: ايش له بالهجانة؟ يشتغل أي شغلة ثانية أحسن. قالت هدلة: يمكن .. حظهم.. كلما يقيمون شغلة بالتالي تخرب وتخسر ، مالهم حظ بالعمل .. أخيّر يقيد بالهجانة ، ويترك اللي ماله منه نصيب ، بالتالي لهم معاش ورزقهم مضمون ، يعدون الايام ويستلمون المصاري .. هذا أخير وأحسن .

لم يكن العرس بالنسبة له أمراً ممكناً. زفاف مريم .. لا يستطيع تصوره ، سيأتي يوم تزف فيه مريم؟! فطارت أمامه ، حلقت في الفضاء مسربلة مثل شهاب حتى امتنع عنه امساكها ، وفي لحظة تحولت الى رماد هواء . ان مريم في ناحية من الخيال يصعب على ناصح ايجادها ، ومخبأة فيه لا تخرج الى حفلات الزفاف ولا تقاد من معصم يدها الى عربة تجرها خيول اربعة ، ثم لا تنثني على ناصح ، وكل العرس كان وهم ، مريم لم تغادر الدار اصلا ! وجد جاسر مبرراً للبحث عنها في نواحي الحوش . في الليل راح ينقب عنها زاوية زاوية ، في منطقة المضخة والبئر ، حول مصطبة الدرج ، في غرفة صوان شاها المطر ، في الغرفة الصغيرة التي يمر منها الى الديوان الثاني ، غرف مجلس النساء والأسرة والصغار ، ثم صعد الدرج الى ان وصل السطح ، وبرقت في ذهنه لعلها تحت الدرج في المكان الذي كانت فيه هند ، هناك مختبئة عن سكان الدار الذين ودعوها عند عتبة الباب مساء يوم الزفاف ، ولمح وهو ينزل من الدرج هند تخرج من نومها باتجاه المرافق ، في منامتها الخفيفة ، تفرك براحتها وجهها وعينيها ، ويصعب عليه أن يرى هند بهذا الجمال والانوثة، ومنذ متى كان ذلك ؟ الى ان حسبها مريم ، ومن بعيد وفي هذه الظلمة فإن هند تشبه اختها مريم ومريم بعيدة عنه . ثم وجدها تخرج من

المرافق، تبعثر ساقيها تحت ثوب منامتها ، متجهة الى صنبور المياه وغسلت يديها ثم كشفت ثوبها وراحت تلمس الماء البارد ، وتمهد براحتها قسماً من الانحسار البادي وقد طوت جسدها تغالب نومها حتى نظفت ونهضت وسارت في نومها الى غرفتها ، الغرفة الصغيرة ، غرفة مجلس النسوة والعائلة . ودارت في فكره أمر البنت الأصغر ، قال في نفسه : لعلها هند هي الأصغر . وصمم مصارحة هدلة في نيته الجديدة .

في الليل وهو يضع رأسه على الوسادة ، بدت له فكرة استمالة الفتاة أجدى وأنفع ، لا تفلح غير هذه الطريقة في هذه المواضع ، ولولا موافقة مريم ، لكان من المحتمل رفض ناصح ، ناصح في البداية طلب موافقة الابنة والأم ثم اتجه بعد ذلك الى الرسميات عند الرجال ، طلب من أبيه القيام بإجراءات الخطبة ولأن الموافقة جاءت قبل ذلك ، فقد وافق فرحان وكانت الخطوات التالية سريعة وسهلة التنفيذ . وعليه الآن أخذ موافقة جزئية من هند نفسها ، واذا وافقت فإن الأم ستوافق ، وسترضخ تحت رغبة ابنتها ، فشاها لا تطلب سوى سعادة ابنائها ، وشاها ألمحت الى هدلة بأن مريم كبيرة عليه، ان يشير جاسر الى فتاة تناسب سنه، وعنت بذلك هند، ان هند تناسبه تماماً ، أصغر منه ، وكان رأي هدلة مشابهاً أيضاً، وأضمرتا دون اعتراف بيّن ان هند لجاسر اذا طلبها ، الأم موافقة ويبقى أخيراً هند ، حيث موافقة الأم من موافقة الأب ، ومن المؤكد انها قد طرحت حيثيات ملائمة جاسر لهند على فرحان نفسه ، واذا كان فرحان تردد عندها في الموافقة فإن شاها لا يمكن لها ان تلمح لهدلة بأن عليه البحث عن واحدة أصغر ، والأصغر بطبيعة الأمر موجودة ، ولا يمكن ان تكون سوى هند . وزفر في جوف الليل. كان عليه منذ البداية الاهتمام بهند ، يترك مريم لشأنها ويهتم بهند، ومنذ صباح غد عليه إصلاح ما تبدد بينهما ، المحاولات متعاقبة ، غير يائسة للفت نظر هند اليه . وأخذ يتصور كم هي كاملة وناضجة وتحسر على أيام فائتة أهملها فيها ، طوى نفسه في الفراش، ثم تذكر بأن هذا الاسم يحبه ويقدره، يذكره بهند العلي ، تكاد عينيها تتشابه مع عينيها وعينيها الملتفتتين ايام الوداع . وكم أحب مناداة هند ، سينادي بالحب ذاته هند والحب هند ولكي يفسر ما اختلج في صدره أعاد مشاهدة هند وهي تمسح براحتها ، وبعد ان حسرت ثوبها وطوت جسمها ، تمسح باطن ساقها بليونة وخفة حتى سرى في كيانه مرح العشق والهوى ، نزل بقدمه درجة أخرى وظن أنه من الإنزلاق وتراكب الميل ، ميل الدرجات على بعضها ، وفطن هنا في الفراش انها، هند، أرعشت كيانه فهبط الى قرارة نفسه دونما وعي ، أحس أثناءها بمدى الفراغ الواقع بين الاثنين . وراح يواسي نفسه : هند ستعوضني عن مريم ، هند أجمل منها وأرشق ، وهي تبات قريبة منا ، اما الأخرى فهي ، وأصبحت البعد ذاته ، غير موجودة مهما بحثنا

عنها في حوش فرحان ، ولم يبق منها سوى الذكرى ، كان في الدار ابنة اسمها مريم الفرحان ، وهجرتنا في أمسية ما، أو لم يكن .. وكانت خيالاً في أرواحنا.

استيقظ عند الفجر، وعاتبته هدلة: كيف تستيقظ يا جاسر قبلنا ؟ فرد عليها : السهاد أخذني عن النوم واليقظة ، ما كنت نايم ولا قاعد ، كنت أجول بطرف ثاني يا هدلة . وأخبرته أمه تقول: تدري يا جاسر، خالك عايد قتل الحربة ، حربة النجم يا جاسر ، يمكن نعود للعلوة .. شنو تقول نرجع ؟! وسألها : حربة النجم؟! أين ؟ فأجابت بضفة سعلو ، وحرقها بالنهر . رمى عنه اللحاف وفتح باب الغرفة ورمق الحوش المستيقظ حديثاً .

هند العلي* لم تستيقظ بعد، نائمة في المكان الذي كانت مريم تنام فيه ، في فراشها الذي أصبح فراشها منذ رحيلها عنا. فراشها . وقال لهدلة انه لن يذهب اليوم الى متجر سرحان ، ثم ملك شجاعة ليقول ان هذا العمل لا يناسبه ، وفي المدة الأخيرة حسب انه يختنق في الدكان ، يبقيه سرحان وحيداً . الجفاف، المحل الذي أصاب الأراضي خلف الكساد في السوق فقل البيع والشراء، وعندها راح سرحان يغيب أكثر من ذي قبل، يظل مع شمسه التي أخذت هي الأخرى لا تترك الدير ، كل يوم تقطع المسافة من قريتها الى الدير ، لتلتقي بسرحان ، ويتركه الأخير زاعماً ان شمسه في انتظاره في ناحية البلد ، عليه الإسراع والا تأخر عنها ، وينتهي النهار فلا يرى سرحان ولا شمسه ، الى ان يصيبه الملل فيغلق المتجر ويمضي . قال لأمه : اذا كان البيع هكذا ، لا كان البيع ولا ساعته ، ننتظر الموسم وننتظر المطر، هذا خالي مهيدي يريد يترك الدير ويترك البيع والسمن والمواسم .. وما ظل شيء ينفع ، مثل ما يقول مهيدي ان الفرنسيين أوقعوه في الورطة وانتهى أمره . ردت أمه : لولا السمسم لما كانت هناك ورطة ، السمسم هو اللي أوقع خالك .. حجز كل سمسم الزور عام كامل ، وأبقى أكياسه في المخزن بين الرطوبة والدود حتى ما ظل منها شيء ، الفرنسيين ما عملوا شيء لخالك يا جاسر ، طمعه اللي أوقعه بالورطة ، لو كان يقنع ، ما أصابه اللي أصابه اليوم. ثم أردفت: قم يا بني الى شغلك، افتح المتجر وتوكل على الله، يمكن السنة سنة خير . رد عليها جاسر : سنتين ونحن نقول السنة سنة خير .. وكل ما تمر الأيام يزداد الجفاف ويكثر العجاج .. ما ظل ماء ولا سماء ولا .. ولا .. ولا حتى نهر ، جفت الدنيا يا هدلة ، لو ما جفت ما قتل خالي حربة النجم. ثم أردف : أكيد قتلها لأن النهر نضب وكفت مياهه .. وكاد ما بقي ماء واختنقت الحربة بحالها ، لو كان بي ماء ما كان عايد ولا غيره يقدر على قتل الحربة يا هدلة .. شوفي الهواشة

الآن شوفيها ، اذهبي الى العلوة وتأكدي انه ما ظل جواها مي ، الآن الهواشة قطعة حجر ، لا تأخذ ولا تجيب طوب وحجر وسخام .

تتضاحى في نومها ، كانت تتواكل في أعمال البيت على مريم ، فيتأخر استيقاظها ، تبقى نائمة الى أذان الظهر ، وفطورها بعد حلول الظهر ، لذلك لا تأكل مع الأسرة اثناء الغداء . وربما كانت مستيقظة عندما رآها جاسر ليلة أمس ، فلا تنام قبل منتصف الليل ، وحين ينام الجميع تضع ابريق الشاي بجانبها ويبقى نور ضئيل يتسرب من الفانوس ، تشرب الشاي على مهل ، مقرفصة مرة ومضطجعة مرة ، الى ان تخمد أفكارها ويغلبها النوم .

واذا فردنا شعر هند فإنه سيغطي سطح البركة، هذه المرأة ، هند العلي، أقصد هند، تطوف تحت شعرها في الماء ، ومن خلال المنثور نرى عينيها الحمراوين ، وجهها الناصع والبشرة الملساء. اقترب منها جاسر ، تمرح جدائلها في مياه البركة وقد ارتدت ثوبها الأحمر وبانت تحته البطانة التي لبستها بعد تنبيه شاها لها، قالت أمها : كل جسمك واضح ، هند إلبسي شيء يخفي جسمك ، البسيه تحت ثوب منامتك ، اذا سلطت الشمس نورها عليك تخايل جسمك لكل الناس ، البسي بطانة يا هند . والبطانة حتى ركبتيها ، وظهر لجاسر ساقاها الرفيعتان . ومرت أشهر، حين صمم على استمالة البنية اليه ، مرت شهور الى ان جاء الصيف ، وراح الناس يتمرحون في الأفنية ، يتركون الأروقة الخانقة ويصعدون الأسطحة الواسعة يتنسمون هواء النهر القريب . وانتظرها ، انتظر الفرصة حتى واتته، فدنا منها وهي تستحم في المياه ، وحدها، الآخرون قد تركوا فناء الدار وصعدوا الدرج نحو السطح ، كانت فرصة سانحة ليتكلم معها ، ويسبر مشاعرها نحوه . اعترف امام أمه انه سيترك سرحان ويبحث عن عمل آخر ، ولا يريد ان يرافق أباه ويذهب الى خان الابل ، يسوم الدواب ويسمسر على المطايا ، ويؤمن طلب المشترين .

لقد اشترى أبوه إسطبلاً للماشيه والمطايا، ولا يكاد يمر يوم حتى يبيع ويشتري من جديد ، هو تاجر الغنم الآن ورفض إلحاح هدلة بالعودة الى العلوة ، عمله هنا يسير على احسن حال ، والعودة تعني تراجعه وخسارته ، صرخ بغضب في وجهها: هدلة طِعناك وجينا معك الى الدير، وهسع تعال ارجع الى العلوة .. شنو نحن مسخرة .. روح وتعال روح وتعال .. يا ناس بعد ما صار عملي زين ومشي حالي، بعد هذا العذاب ارجع يا أبو محمد الى العلوة .. هجر الله العلوة بلا عودة بلا عودة . ثم نفخ أوداجه وحدجها بقوة : يا هدلة تروحين الى ديار أهلك روحي وحدك.. إني ما أروح للعلوة، وأهلي باتوا في الدير ، ما أترك يا هدلة الدير خلص . واحمر وجهها ، دمدمت بحشرجة: تريد يا أبو

محمد تسكن الدير، هاي مهيدي رجع .. رجع يا عبد الله، وما لنا قعدة بالدير .. شنو نسوي بعيدين عن ديرة أهلنا . وانتظرت تدخل فرحان أو عبد الرحيم ، ساد جو من الصمت عذب روحها ، وثقل في كيانها ان يستمر، فاستدارت ناحية العلوة ، وأشارت بيدها قائلة : هناك ديرتي ، وآني رايح اليها ، بدونك ومعك .. بدون أي كان والذي يرافقني يا هلا ، والطريق مه بعيد رمية فشكة .

وأمالت جذعها نحو البركة ، غمرت رأسها في مياهها ، وبقيت دقائق حسب فيها انها ستغرق نفسها عمداً ، فهب لرفعها من سطح الماء، ويهب لرفعها ، تتحرك حوافزه ، لكنها تنهض ، تشهق بقوة ، ويرتفع صدرها ، يتعانق جسدها في جسدها الماء وصورته الرقراقة ، والقطرات تتساقط من أذيال ثوبها الى يابس الحوش ، وازداد شبق جاسر، تحركت ظلاله اليها ، فتغير الماء ، حدث شيء ما في سطح البركة ، تلونت السماء وتبدل وجه هند ، فاستفسرت بهذه النظرات الغريبة وزمّت حاجبيها نحوه : القادم كالهوينى والطرب المدفون منذ سنين . ورمت جديلة من شعرها المبلل الى خلف ظهرها وترقرق صوتها مع صوت الماء فسألت : شكون ..؟ جاسر خوفتني! وندت عنه ضحكة وفرّ بها الحرج الذي أصابه ، ودون ان يستطيع ملاقاة نظراتها المتعالية ، قال في نفسه : هذه ما هي مريم يا جاسر .. ولا يهمها شيء ، تبهدل الواحد بأدنى حركة . وقرأت هند معاناة جاسر ، وتذكرت محاولته تحت الدرج .. ابتسمت وانفرجت أساريرها فأعادت بلهجة ودية: شكون يا جاسر .. شكون تريد مني ؟ لا يا مر .. لا يا هند بس أريد أقول انت اليوم اليوم .. ظنيت غرقتي . وسألت هند وهي تشعر انه لم يسر لها بما أراد : إي طيب إي بس شكون كنت تريد تقول؟ فوجد صعوبة في المتابعة . كنت أريد .. انت يا هند اليوم انت. صمت لبرهة ابتدرت الحديث فيها ، وأكملت مازحة ، تقلده: أنت يا هند اليوم – شكون!- وقفت ورفعت حاجبيها ومالت اليه ثم تابعت : شكون يا جاسر ، أكمل الباقي . وضحكت حتى ترنحت واختل توازنها ، أمسكها من ساعدها وهو يقول : كدت تقعين في البركة. فردت عليه وهي تتحرر منه : كان تركتني أقع أينما أقع، البركة تبرد الجسم . وتابع : وكان انكسرت يا هند شكون ؟ فنظرت اليه مرتابة متسائلة ودمدمت : أول مرة أسمع منك يا جاسر كلمة شكون .. شكون ؟ لا .. لا قلت كان وقعت ولا سمح الله كان انكسرت يا هند هذا هو ، الحمد لله . هدأت وتراجعت الى سور البركة وجلست هناك ، انتشى ثوبها ببقايا الماء ورشح الى ساقيها وحوضها ، واستطاع جاسر ان يميز جسمها المبتل في ماء الرشاش الذي نهلته من ماء البركة . جلست على سور القاعدة ثم باعدت ساقيها وقد لمحت جاسر يتمعن في الانطباع الذي كونه البلل، رفعت رأسها نحوه وقالت : تعال اقعد وقل لي شكون تريد .. اصدقني يا جاسر ، واستطردت مؤكدة : حط يدك على شاربك انك تصارحني يا جاسر

وما تقول غير الصدق . رفع جاسر أصابعه الى طرف شاربه وفتل نهايته وقال : الصحيح وما أقول غيره . فهزت رأسها : طيب شكون ؟

خفق قلبه . هذه الدنيا الواسعة لا تتسع لقلبه ، وأصبحت أضواء القناديل تقشعر في ذبالاتها، هز رأسه فهزت رأسها ، وشعر في لحظة انها أخذت دور مريم ، مريم هنا ، لا حاجة لمريم ، مريم في ارض الحوش، وأمامي على سور البركة ، حتى هند نفسها ، هند في مكان مريم ، بعد رحيل مريم ، تحولت هند الى مريم ، ورأى وجهها فكان غير ما عهده ، بأنفه الحاد الطويل ، بل بهذا الوجه الحنطي ورائحة الزيزفون، هذا الوقت نتخضب بالزيزفون ، ونعبق بالدنيا، بوجه هند ، فهزت رأسها واستطاع ان يتنشق رائحتها ، شعرها وجسدها والماء ، خطر في باله ان يعيد لها ما قاله لمريم ، ان يعيد سنوات من الكلام والنظرات ، ان يقول لها ما حدث معهم في الحويجة مع حمزة المجدل ، ينتظر لحظة القمر الساقط وبسطة الدرج ، ينتظر اقتراب هدلة والضحكات التي ضحكها، وان يطوف الدار ويلقي بنفسه الى جسدها فيتهيأ له الاسفنج والسيقان المبتلة بالفيضان ، كل شيء وان يشم ثوبها، يلبسه ويتحضر للمهرجان ثم يمسكها من يدها ويسيران نحو بيت مهيدي المنعزل. ويسمعا بنشوة صوت المئذنة المائلة : افرنسا تريد تعلمكم ان هند وجاسر اصبحا خليلين منذ اليوم ، يجلسان جانب بعض على سور البركة ويستمعان الى شؤون ما جرى بأسف وحزن...

خامره شك في ان يكون الزفاف هو زفاف هند لا مريم ، ان هند تقف امامي لا كما هند بل كما كانت تقف مريم .. تحول لون عينيها بفعل النور والمصابيح الى لونهما السابق، انها مريم وليست هند ، هنا الى جانبي مريم بعينيها الخضراوين . وحشية. ووجس من هذه المراهنة إعاقة هدلة المألوفة، كيف سيطلب منها ان تكلم شاها في طلب يد ابنتها؟ ستقول هدلة على الفور انها كبيرة عليك يا جاسر.. دور على واحدة أصغر ، ويمكن هند أصغر من هند ، لكن هند كبيرة عليك ولا تناسبك، هناك كثير من الصغيرات يمكننا الحديث بشأنهن ، وأي منهن يريد جاسر ، هناك الكثيرات اللواتي يصغرن هند ببضع سنين ، هند لا تناسب سنه ، وستأخذها السنين ، حتى تبدو بعد أجل قصير بضعف عمر جاسر، وسيرى العجز واليباس فيها . بعد سنتين او ثلاث سترى هند وكأنها أمك، وقالت هدلة : لا تصغر مريم سوى بسنة واحدة لا أكثر ، ثم هي بطبيعتها وبياضها بالمقارنة مع سمرة مريم ستكون في المستقبل القريب، بعد ولادة واحدة أكبر من مريم ، جسدها سيرتخي وتكثر تجاعيده ، فيرى انها هي الأخت الأكبر لمريم وليس العكس ! أتريد ياجاسر امرأة بعمر أمك ، بعد

أجل قصير ! هند كبيرة يا جاسر وابحث عن فتاة مناسبة وتابعت هدلة : أبوك يريد ان تستقر الاوضاع ثم ينظر في أمر زواجك .

وهما يجلسان على سور البركة ، داعبت هند قدميها فأصابت قدم جاسر. قالت له وهي مطرقة : غياب مريم بالزواج خلاني أكره الزواج ، لو ما هو سنة الله ورسوله ، كان كرهته . وتابعت بعد صمت شابه فراغ وحزن : بس هسع هي مبسوطة وفرحانة عند ناصح .. ولو كان تحن الى بيت أبيها وتتذكر أيامها عندنا وما تنسى.. أكيد . ورد جاسر: البنت ايش تريد غير بيت زوجها ؟ بيت زوجها .. مكانها التالي والأخير . والتفتت ثانية اليه وسألته ، تحاول رسم مرح على وجهها : انت قل لي باكر تتزوج من العلوة أو من الدير ؟ وتابعت : قول الدير يمكن ما يعطوك .. من اللي يعطي ابنته للعلوة ؟ فاستنكر جاسر : شنو بها العلوة .. هي أحسن من الديـر . فردت هند بحسم : لو أحسن يا خي ما جيتو للدير .. شكون اللي بعدكم عن العلوة .. جمالها وطيب أهلها ؟

هل أوحى لهدلة بما قالت أم لا ؟ وقف أمامها وهو يعلم ما ستقوله الأم: هي كبيرة عليك ، لا تنظر الى جسدها الناعم ، بيضاء وستصبح أكبر من مريم بعد ولادة واحدة ، المرأة البيضاء تكبر بسرعة يا جاسر . فغير موضع رأسه مستنكراً : لكنها يا أمي سمراء ، تمعني بها جيداً ، بشرتها أدكن من بشرة مريم ، من يملك أنفاً كأنفها لا يمكنه ان يكون ناعماً ، ابحثي في الدير كلها .. أترين واحدة بيضاء ؟ لا يا هدلة .. هند سمراء وجسدها يلفح حرارة وسخونة، وكيف تكون ناصعة كالثلج ؟ هند أصغر من اختها مريم ، لهذا وافقت امها شاها المطر ، ووافق أبوها وأخوها سرحان ، لم لا توافقين يا هدلة ؟ هند تذكرني ، الآن أصبحت تذكرني بهند العلي . فنفخت هدلة بعصبية: أوف عليك وعلى أبيك شنو تريد يا جاسر ، ابحث عن فتاة أخرى ، ابحث ، فهند لا يرضى بها عبد الله ولا أهلك.. لا أحد يرضى بها زوجة ، تذكر حادثة الدرج ، اذا ما تتذكر ياجاسر تراني اذكرك زين .. شنو نسيت ؟

هاتان الشفتان تملكهما هدلة ، وقد انتفخت مساماتها وزادت عن ذي قبل ، وعندما دنت من ابنها جاسر ، ورأى فيهما بثور الغضب .. وزيق فستانها المفتوح ، قد ظهر منه مطاوي ثدييها ، وعنقها بتجاعيده الحديثة ، ثم هالتي عينيها ، وكثافة حاجبيها ، أعاد النظر الى نقرة العنق، ازدادت سمرتها وانكمشت كمربط قربة ، وامتثلت أمامه بالعروق النافرة، فرفع عبد الله صوته من ورائها قال : لا تطقين يا امرأة.. لا ينقطع لك عرق ، هوني عليك .. الأمر ما ينـراد له كل هذا الغضب ، إهدأي وتعوذي من الشيطان . صرخت الأم : جننتوني ، صرفتم عني العقل .. انت وابنك .. يا حيف عليكم .. تريدون تظلون

بالدير وكل واحد يتحجج بحجة .. وخففت نبرتها متابعة : يا عبد الله اذهب الى العلوة واشتغل هناك وهذا مهيدي راح وراحت معه زهية . ثم التفتت الى جاسر وأكملت : يا جاسر شنو اللي يخليك بالدير .. أية واحدة تظل من شانها .. وما تستاهل .. كلهن نفس الشيء يا جاسر .. لا هذيك ولا هذيك ، ما بي واحدة تستاهل منك الظلة . وردد عبد الله وهو يضرب راحتيه : شنو شايفة بالعلوة .. خلص هجرناها يا هدلة .. لزوم تفهمين هالشيء .. ما ظل لنا بالعلوة شيء ، وليش ترجعين لها ؟ وتابع : ما جئنا من شان نرجع ، شنو تقول يا جاسر .. الرجعة مه مضبوطة .. وليش جئنا للدير يا حرمة من أصله .. كان نبقى بالعلوة .. ما نتحرك منها لو جرى علينا ما جرى وأكثر . ودارت هدلة حول نفسها ولمحت فرحان يجلس أمام البركة ذاهلاً صامتاً : لماذا ترحل البنات عن الآباء ؟ وفي سطح المياه .. فتمنت ان يحلف عليهم ألا يتركوا الدير، دعت من ربها ان يقوم فرحان ويصوت بقوة: يا رجال عيب ترحلون، بالطلاق ما تغادرون ولو شبر ، بالحرام الا تظلون بالدير . وتفاءلت ان يدخل اليهم ، ويقسم عليهم بالبقاء طيلة العمر . دارت حول نفسها ، قبضت بسبابتها وابهامها صدغها وشعرت ان فرحان سيمنعهم بالقوة وسيمتثلون لارادته ، وينفذون ما ترغب نفوسهم ، ستجعلهم يقولون : أرغمنا فرحان ، لن نذهب الى العلوة يا هدلة .

تذكر جاسر الهذر الذي عانته أمه قبل ان تعود الى العلوة، وتخيل كيف بقي فرحان جالسا أمام سطح المياه يحدق في صورة ابنته ، وكلما تستدير هدلة الى بركة الماء ، ترى فرحان في جلسته هذه ، لا يتحرك ، ظهره محني ورقبته مائلة الى كتفه ، يتأمل مريم.

وهذه الأراضي الشاسعة في مدى نظره ، يعتلي (البرم كلاس) جاسر الرحبي ذلوله في القافلة المسيّرة لاحتلال الجزيرة ، واذا أطبق عليه الصمت ، وطال الطريق ، تعود فجأة السنون الخوالي ، كأنها اليوم ، فيتحسس ناقته ولباسه ، يجول بعينه الى رفاقه المتقدمين معه في هذه البوادي غير المنتهية ، فيعرف عندها ان ما كان هو خيال أعوام انصرمت. وفي لحظات تبدو امامه الاراضي ممتدة كالمياه ، لا يعرف لها حداً ، تلتقي مع السماء في فاصل سراب . واذا انتصف النهار وقويت الشمس كان جاسر ينود فوق ذلوله فتهتز المشاهد ، يترقرق السراب، وتظهر في محياه آثار الاعياء والذبول. وحتى اذا ماعادت ذكرياته، مجزأة مفتتة ، يتداخل فيها ما يجري الآن وما جرى من قبل، تتسرب في خياله كالذكرى الماضية ، ويتساءل ان كانت الايام والسنوات السابقة هي خيال وحلم .. ويسمع عند هذا الحد صوت الاجدان شيف، في المقدمة : التزود بالطعام ، قفو للتزود بطعام الغداء ، نصف ساعة لذلك .

وبعد الغداء يعاودون السير ، يدب فيهم النشاط والحيوية ، ويظهر الأفق كأنه رمية حجر ، قريب وملموس ، وعند ذاك يبدأ الحنين ، يلتفت الى الوراء ليرى المسافة التي قطعها مع القافلة ، مسافة اليومين . فمنذ يومين غادروا المعسكر في طريقهم الى الجزيرة ، الى خان "قدور بيك" ، وعبروا الجسر الخشبي ودخلوا ما بين النهرين. لاحت لهم الدير وهم يبتعدون عنها ، بعد ان قطعوا النهر ، مسورة بالأشجار والبساتين ، وتمعن لدقائق بالحويجة ورأى حرش من شوك العاقول، ظل يحيط سفح الحويـجة ، ولم يظهر له من هذا المكان البعيد ، طرقة للصعود منها ، ولكن أشجار البسـاتين ، في الضفة الثانية ، غمرتها فلم

يبن منها شيئاً. كانت الحويجة خلف بساتين الضفة ، ولم يظهر من هذا المكان شوك العاقول ولا أشجار الحويجة ، غابت لناظرها من الضفة التالية وظهرت حويجة أخرى ، ويبدو انها محاطة بشوك العاقول ولا دليل على مكان للصعود منه. ولقد مضى وقت طويل على نزهة الحويجة، وهناك أخرى غير التي تنزهوا فيها، تلك ظاهرة لعيان من يقطع النهر باتجاه الجزيرة. صار لهم يومان، ولم تغب عنهم الحويجة، وكلما تطلع احدهم الى الوراء تظهر حوائج وتغيب خلف الهضاب المترامية، وفي المسيرة تارة يظهر النهر وتارة يختفي، الا ان جاسر وهو ينود فوق ذلوله ، بقيت صورة هدلة وهي تضع يدها على صدغها تراوده ، يرتد في جلسته الى الخلف ، يضغط على أسنانه : كيف صارت أمه الى ذلك؟ طلبت منهم العودة الى العلوة فلم يستجيبوا، هزوا رؤوسهم بالنفي : اذا تريدين الذهاب ، اذهبي وحدك يا هدلة ، نحن لن نذهب . ضرب عبد الله كفاً بكف وقال : اللي يشوفك يا هدلة يقول انت الزلمة وانا الحرمة .. هذا ما يجوز .. خليك عند حدك، اللي يطلب الرجوع هو انا مه انت، وشغلنا هنا زين، ما نعود الا بسبب مقنع .. وما بارت تجارتنا لسع يا امرأة ، يكفي الآن ، ما نتحرك من الدير وما تتحركين ، الا شنو ؟ ورفع اصبعه مهدداً : تراني يا هدلة اذا رجع طاري هالموضوع ثاني مرة أفعل الشيء الفلاني .. وما تقبلينه لا انت ولا أحد وتندمين ، خليك حرمة مثل بقية الحريم . لكن هدلة الذي فاجأها هذا الكلام ، وفتحت فاها مستفسرة ماذا أصاب زوجها يكلمها بهذه الطريقة ، اقتربت من جاسر ، فرجع جاسر وهو فوق ذلوله قليلاً الى الخلف ، انتقل بتحفز وشد على أسنانه ، انه كان عليه ان يقف الى جانب هدلة ، لا يتركها وحدها ، ولا يدع فرصة لفرحان ، وهو يتأمل بركة الماء ، كي يعير انتباهه فيشد عمود ظهره ويحاول الاستدارة الى ما يجري خلفه ، كان عليه ان يقف معها ويقول لأبيه : معها سأذهب، الى العلوة ، تبقى انت ابقى ، نحن سنروح يا أبي . ورأى جاسر رجفان أمه ، شفتيها المطويتين ، وقد احتقن وجهها وجحظت عيناها ، كلمت عبد الله قائلة : يا رجل تروح أو ما تروح .. جاسر وياي يروح ، باكر نترك الدير ، ياللا يا جاسر . ورفض جاسر الرجوع مع هدلة ، رفض فقرص اصبعه وهو فوق ذلوله: كيف صارت ، تحولت نحو فرحان تهذر بالدير والعلوة والعودة ، ورفعت صوتها بعد حين : خليهم يظلون بالدير ، يا فرحان احلف عليهم بالبقاء ، ولا يطلع واحد من بيتك ، خليهم يبقون .. يتمتعون كل يوم بوجه البدويات وهن يقطعن الجسر للوصول الى شارع الدير العام .. يظل جاسر بالمتجر وعبد الله يجوب الشوارع يتفرج الى بنية بنيتين زينات ، وخلص عاف هدلة وهدلة ما عاد ترضيه بعد اليوم ، وجاسر نوبة يريد مريم ونوبة يريد هند .. ونحمله من جواها تحت الدرج .. شنو ما نريد فضايح يا جاسر .. ونحمد الله بأن البنية ما زالت عذرا قلت لها نتأكد يا هند ارفعي ثوبك وخلينا

نتأكد اذا جاسر خربك نطرده بالمرة من البيت .. ما يبات ابداً بالدار ، خلص يدور على بيت ثاني يعيش فيه ، هذا دار فرحان شرف وسمعه شنو ؟ وكان عبدالله قد اندفع مثل ثور هائج : انخبلتي يكفي ؟ وشد وثاقها ، كمم فمها بقوة ثم أناخها الأرض، وحملها مع ابنه الى غرفتها . وقالت وهي محمولة لابنها : لا تحسب انها تحبك وميتة في هواك ، البنية يا جاسر تريد واحد غيرك ، هي ما تناسبك، دور على غيرها ، كل بنات العلوة.. واللي تعجبك .. امشي مع أمك . وحملها الاثنان ، عبد الله من تحت ابطيها وجاسر ضبط قدميها ولفهما براحتيه الكبيرتين ، وكانت يداها تترنحان ، ومقلتاها تتناوبان ، مرة ترفعهما ببله الى زوجها فترى وجهه المزموم ومرة تنزلهما الى ابنها جاسر ، فترى جسدها الممتد وقد حد ابنها نهايته وضم ضلعيه وسوّر ساقيه بأصابعه المتشابكة .

في الطريق ، عندما انتهت اشهر التدريب ، وراح يرجع في أوقات الفراغ الى نفسه ، أدرك ان رفيقه عبد السليمان كان السبب في انتسابه الى فرقة الهجانة ، لولاه لما فطن لذلك . عبد السليمان الذي عاد مرة ثانية ، بعد اخفاقه في الفحص الأول ، وقد قال انه نال فيه مرتبة النجاح ولكن المكان الذي عينه له الفرنسيون لم يرغبه ، فهرب في اليوم التالي ، خرج من المعسكر في قيلولة فتحت له الباب على مصراعيه وأخذ سمت الجبل وظل يسير بين خوف الملاحقة وبين اعجابه بنفسه في الهروب من مجموعة (المليس). قال لجاسر: اذا ما صرنا بالهجانة ما نرضى ، نتحيز اقرب فرصة للهروب . وسأله جاسر متعجباً : ثاني مرة تهرب ؟ أجابه : نطلب المرة من الكابتن ونقول له ما نريد غير الهجانة اذا ما بي تعيين الا بالمليس ما ننفحص ، ونرجع . لولا عبد هذا ما قيّد عند الفرنسيين ، نصحه عبد ان التجارة والسوق غير مضمونة ، حسب سنين الخير ، اذا في خير في بيع وشراء ، واذا ما في تكسد الدنيا ويتوقف كل شيء ، ولا تنظر الى حال فرحان ، فرحان حاله زينه مه من السوق بس ، عنده مزارع واسعة في الجزيرة ، على طول النهر وكل شبر من ارضه فيها غراف غرافين، انت ما تعرف يا جاسر ، فرحان لا يعتمد على السوق والبيع بس، هناك مورد ثاني له. وأقرب مثال هذا خالك مهيدي قتله السوق وخربت التجارة بيته ، السنة الماضية كان ما في أغنى منه، وهذه السنة ياللا يلم حاله . لكن جاسر لم يستمع لكل ما قاله عبد السليمان، ولم يكن يهتم بالمال الذي وجه رفيقه عبد الى الهجانة .

كانت هدلة قد ذهبت الى بيتها في العلوة ، تركت ابنها في الدير يحاول اقناع أبيه ومساعدته اذا طلب المساعدة ، وأوضح عبد الله لهدلة قبل ذهابها بليلة : بس أصفي حسابي بالسوق ألحقك ، نجي انا وجاسر. ولأنها لمست صدق الكلام ووعدها جاسر انه سيلحق بها مع أبيه بعد أيام، وافقت على

الذهاب، وواست نفسها انها ستقوم قبل أن يأتيا بترتيب البيت المهجور منذ أعوام ، يحتاج الى اسبوع من العمل والترميم على الأقل . وقبل ذهابها سألت جاسر ان يصدقها في العودة ، فرد الأخير: هذا قسمي .. ما بي أشرف منه .. بكتاب الله اني عايد ، بهذا الكتاب ، وما أكذب . ورفع يده عن المصحف الذي أنزلته هدلة من علاقته في جدار الغرفة . ثم ذهبت بعد ان أخذت أغراضها الخاصة بها .

بنهاية فترة التدريب ، في الثكنة الغربية ، جاءتهم الأوامر بالتحرك نحو الجزيرة ، وكان المخطط ان يستمر تدريبهم لشهر آخر لولا أحداث الجزيرة. ولبس جاسر لباس جندي (برم كلاس) في الفرقة المتحركة السريعة . وخرج مع رفيقه عبد السليمان في بلوطين واحد. وتذكر وهو في شوارع الدير ، مريم الفرحان ، ستكون الآن في دار ابيها تتجهز لزفافها ، زفافها سيكون في هذا الشهر، وتساءل اذا كانت هدلة قد رحلت عن حق ، مثلما سمع منذ أشهر ، عندما نقل له السرجان حمزة الأحمر ، ان أمه وأباه قد غادرا الدير معا ، وسمع ذلك من سرحان في متجره بالسوق ، وقال سرحان للسرجان حمزة : راحت زعلانة على ابنها .. وظلت مزعوجة من عبد الله ، قالت له كان المفروض تمنع جاسر عن التقييد عند فرنسا ، ما يجي منها خير ولو كان ما كان. وقال في نفسه وهو على ذهوله : ما حمتني غير الكبانية ، فيها خلصت منهم .. من البلايا اللي صارت ببيت فرحان..لو ما حوتني الكبانية .. الله عليم اين كنت الآن ، طيب ميت شنو الله عليم .

وترددت في داخله مشاعر الخوف .. الكره .. الحب .. وهو يخرج من بوابة (الكبانية) لكن وللحظات عاد وتذكر جسامة المهمة الذاهب اليها مع الجنود الآخرين . خرج من باب المعسكر يتصور ان عالما جديدا سوف يماحنه ، لم يبق هناك مكانا للعالم الذي ألفه في بيت فرحان او في العلوة نفسها ، عالم غير مألوف على مقربة منه ، وسوف يصل اليه عما قريب .

وأرض الجزيرة تختلف عن أرض الزور، ندية وطرية ، حتى سماءها تحمل ذات الصفات ، فيها يبدو الانشراح ، وتبعث الى التأمل. كانت الأراضي المستوية لا يحدها نظر ، وتحسب في بعض المرات ان حدها الآخر ملتصق بالسماء ، التصاق طيني جاء عن مطر انهمر دون انقطاع . ووضح له عبد السليمان يقول: نظل نسير .. ومرة نتقرب من نهر الخابور ومرة نبتعد .. نظل هيك حتى نلمح الجبل ، بس يظهر لنا الجبل نقول قرب وصولنا . وتابع عبد : الجبل يظهر للنظر من بعيد ، تظل تمشي ساعات وما تصل اليه ، يحتاج نصف نهار ، ووقت تخفف الإبل من سيرها تستغرق يوما كاملاً . وبعد صمت

حاذى كل منهما الآخر، تابع عبد : الجزيرة صدر الشام .. تظن وقت تمشي على ارضها انك تخف على صدر بنية كاعب.. ارضها خوش ارض ، كأنها بحر .

على ما سمع بالحوادث التي جرت بين عشائر الجزيرة والجيش الفرنسي في تل "بيان دور" و"نقرة الدم" و"الطراميش" ، بالقرب من "قرة تشوك" ، وامتدت تلك الحوادث حتى أراضي الرد ، حسب ان القتال سيبدأ مع عشائر الجزيرة حالما يقطعون مناطق "الصور" و"مرقدة"، ومن المؤكد انهم يتربصونهم في "تل العيد" وفي نواحي متقدمة مثل "الشدادي". واذا كانت القوافل التي تقدمتهم قد اجتازت هذه المناطق ودخلتها دون مقاومة تذكر ، فمن المحتمل ان تأتي المباغتة من الخلف ، ولكن من اين لهم ان يعرفوا اننا الخلف وبين القافلة والأخرى مسافات شاسعة ؟ من المحتمل ، ونحن لا نعلم على وجه التحديد، ان كان وراءنا قوافل أخرى لدعم نقاط الجزيرة المنتشرة في جميع المناحي... رد عليه عبد: نحن آخر الناس واذا ما صار شيء في المقدمة ما يصير شيء في المؤخرة ، نحن آخر الناس وما بي أحد وراءنا . رنا جاسر الى خلفه ، كالمرآه ، وبدون ان يستدير الى خلفه ، رأى الخلاء دون علائم أو أثر ، كيف يمكن ان يتجمع الأعراب في هذه البقعة المكشوفة ، يتربصون بالصفوف والارتال المستعدة للنزال الشرس؟ في هذا المكان لا يمكنهم إخفاء اسلحتهم الثقيلة ، اذا وجدت أصلاً ، ثم الجيش الجرار وما يحمل من معدات سيجعل الساعات الأولى ساعات حاسمة ولصالحه ، فرشاشات الهوتشكيز والمدافع عيار (75) ستمنعهم من الاقتراب والالتحام بالجيش الفرنسي ، وبالاضافة الى كل ذلك فإن القوات الأمامية على اتصال مباشر بالقيادة الجوية في مطار الدير ، عند أدنى خطر ستقلع الطائرات وستصل الى أي مكان من الجزيرة في أرباع الساعة وستحسم المعركة بالتأكيد . اذاً هذه القوافل استعراض للقوة فقط ، ولن يحدث قتال ، سيرى الناس العدة والعدد فيتراجعون او يفرون بأسلحتهم وفرسانهم الى تركيا ، لن يحدث قتال ، لو كان هناك نية في ذلك لما قطعت الجيوش كل هذه المسافة من دون إطلاق رصاصة واحدة، وفي النهاية اذا استمر التقدم كما حصل حتى الآن فإن الجزيرة ستستسلم كلها دون مقاومة ، وعلى ما يبدو ان ما يجري جليّ بيّن ، لقد قدرت العشائر القوة المتقدمة باتجاههم ففضلت التراجع والاستسلام ، لا سبيل للتصدي ، واذا قاوموا فيما سبق فلأن القوة كانت حينها ضئيلة ، عدد من النقاط والمخافر البعيدة والموزعة بلا ارتباط سريع ، وكان من السهل تفوق العشائر عليها ، فقاموا قومة رجل واحد، دحروا فيها القوة الفرنسية ، واستولوا على مخزن الذخيرة في خان "قدور بيك" وعلى بقية النقاط في الأطراف . أما الآن وأمام جيش حقيقي فلا مجال للقتال ضده او حتى محاولة المقاومة ، لقد عادت جميع

المراكز التي سيطر عليها الأعراب ، واستسلمت القرى التي خرجت منها الشرارة الأولى ، وتم القبض على رؤساء المقاومة . وكان الطريق مفتوحاً الى نهايته.

في احدى الأمسيات بينما كان يستلقي على سريره في الكبانية في الدير، سمع جاسر أصواتاً قادمة من الشرق ، حدد جهتها بوساطة النوافذ المفتوحة ، لعلها آتية من هناك. يحمل هواء الصيف الأصوات الشرقية ، ثم لا تلبث ان تغيب وتتلاشى. أصاخ السمع وهو يلتفت الى زميله عبد، فاستجاب الأخير الى اهتمامه ، وساعده في التعرف على طبيعة الأصوات والترانيم البعيدة . وان ما يجري في الدير لا شأن لنا به، بعد الحصاد والمواسم تكثر تلك الأصوات ، لا شأن لنا بها ، ومهما يكن .. مرة نسمع أصواتاً متشابهة ومرة مغايرة ، وعندما تهدأ الكبانية ، يصلنا صوت أخير ، عما يحدث في الدروب والساحات، وفي الصيف تتصاعد صيحات الضفاف ، نكاد نرى كيف يبل الرجال والشباب أجسادهم في مياه النهر ، كيف يعبرون فرعه الأول ، ومن يصل الى الحويجة ينادي أهل الضفة : تعالوا اعبروا ، لا خوف من مياه الصيف . وتعتريه نشوة الخروج ، ان يترك الكبانية والتدريب المرهق ، التدريب الذي يبدأ في الصباح الباكر ولا ينتهي الا بحلول المساء ، عندما يأمرهم السرجان حمزة الأحمر بمغادرة الصف الى الراحة في مهاجعهم ، والى موعد العشاء ، هناك ساعة راحة يعودون فيها الى أنفسهم ، يتأمل بعضهم بصمت مستلقياً على سريره ، ويبث الآخر نجواه الى زميل يجاوره في السرير ، ومن يأخذه الوجد يرفع صوته بالغناء والعتابا ، ثم لا يمضي وقت حتى يشترك الجميع ، يرددون ويدبكون فيما تبقى لديهم من وقت الى ان يحين اجتماع الطعام. وجاءت الأهازيج من جانب تلة الدير ، بل من طرف السوق ، وكانت اصوات الرجال تتحرك كأنها قافلة، تمر عبر الحارات والأحياء ، تقترب مرة وتبتعد أخرى، وينسمع من ذاك المكان صدى التصفيق والهوسات ، يحدق جاسر متسائلاً في عيني عبد الذي قاده من يده ، وأخرجه من بيت فرحان الى الكبانية الغربية .

لقد عبرت النسائم من هذه النافذة ، وكانت الستائر مسدلة ، ولقد شممت رائحتها ، فعرفت أنها خلف هذا الجدار ، تنتظر موعد وصوله . وعند المساء رفعت عجوز صوتها، قالت بأحرف مبتورة: لا يكون الجندرمة هي السبب .. أكيد هي السبب والا كان الآن انتهى كل شيء ، كان أخذها من يدها وانتهى كل شيء . وأسند ظهره على قضبان السرير ، يرهف السمع، يتطلع نحو النافذة المطلة على ساحة التدريب ، ثم يجتازها بلمح البصر الى سور الاسلاك الشائكة .

بعد ان تنتهي مدة التدريب سيحق لنا الخروج ، ونرى ما يجري في الدير . وهذه الزغاريد ليست غريبة عني ، انها قريبة .. خلف هذا الجدار ، ولولا هذه الستائر المسدلة لرأيت مدى النسوة اللواتي حضرن حفل الزفاف ، يطلقن الهلاهل من افواههن ذات الاسنان الناصعة ، يحدقن برغبة مشبوهة الى ناصح وهو يتقدم نحوها ، وعندما اقترب من كفلها ترنح بقوة ، فأعاده الحشد الى توازنه ، ثم استمر يجر ساقيه الى كرسي الصمدة ، يحاول ان يرتفع ثلاث درجات ليجلس الى جانبها . وكم هو بعيد هذا المشهد ، من خلال أسلاك المعسكر الشائكة. لولا التدريب لكنا رأينا ما رأيناه قبل قليل، ان التدريب حرمنا من لذة الرؤية ، فوقفنا بعيدين ، خلف الجدار ذي النوافذ المسدلة . زفر بأسى ثم قال : لو كنت أعرف ان هناك تدريباً بهذا الشكل ما جئت معك . فرد عليه عبد : تحكي هذا وانت احسن مني ومن كثيرين .. لو كان التدريب صعباً عليك ، ما اختارك السرجان للرمي . فقال جاسر : انت يا عبد ما فهمتني ، اقول ان التدريب ما هو صعب مثل ما تظن ، بس هو صعب بشكل ثاني . وسأله عبد كيف يعني ؟ فأجابه : بس لو نطلع ونشوف الخلق اللي بالشارع .. نشوف واحدة تلبس عباية ونسمع منها كلمة شكون . رفع عبد راحة يده متسائلاً : شنو قصتك ياجاسر ؟ الذي يدور بذهنك أعرفه .. أكيد ما هي شكون ولا عباية .. صحيح في شيء من هذا، لكن ما هو السبب النهائي ، انت ما تريد تنسى وهذا هو الصحيح يا جاسر .

امتداد الأراضي أمامه ، في القافلة التي تطأ بادية الجزيرة ، ولم يصلوا الى محاذاة نهر الخابور ، ولا نواحي الرد المليئة بالنبات وأنواع الأشجار والحرش ، جعله ينسى لبعض الوقت مهمة القتال لإعادة الجزيرة الى ايدي الفرنسيين . في هذه الأثناء ظل ينوس فوق ذلوله مطمئناً الى ان احداً لن يهاجمهم ، وانهم لم يقتربوا حتى من مناطق الهجوم المحتمل . قال عبد السليمان: نظل نمشي واذا اقتربنا من نهر الخابور نقطعه ثم يبان علينا الجبل، جبل الحد ، وهناك حول الجبل وعلى سفحه لازم نحارب ونقطع دابرهم ، وتابع بعد فترة صمت : هذا أهم شيء .. ذبحوا وقتلوا الكثيرين اما الآن أكيد راح ينهزمون . ورد جاسر وهو سهم في الأفق وفي رؤوس رجال القافلة : أكيد والا شلون؟ ثم التفت الى عبد وسأله ماذا ؟ فأجابه : هذول المدافع في المقدمة ما راح تخلي شيء للقتال . فقاطعه جاسر : والذي ما تقتله المدافع تقتله الرشاشات ، ونحن كأننا نتفرج يا عبد ، أكيد ما راح يصل الينا القتال، ينتهي عندما نصل . وتابع جاسر : وهذه البواريد اللي نحملها ما راح تشتعل ، والفشك ببطنها ما يتحرك . ورد عبد : طبعاً .. مثل ما سمعت لقول الكولونيل ناوشوهم من بعيد ولا تتقربوا منهم . نصيد بها عصافير ؟ سأل جاسر متهكماً، فضحك عبد وقال : لأ ، نسور وعقبان . وسمع صدى ضحكته ترن

في مخيلته ، مخيلته المظلمة تناسب ابعاد المساء ، حدودها صدى يعود كلما ذهب . نصيد بها عصافير .. لأ نسور وعقبان ترن على مصطبة البركة ، فكاد يرفع رأسه الذي تحلل وتراوح في انحاء الماء . ووجدها فوقه ، فوقه تماماً ، لم يستدر ، بل بقي كما كان ، ساهماً في الرؤوس الكثيرة التي دخلت عليه في مدى النظر ، قال في نفسه : كبيرة عليك .. هي كبيرة عليك يا جاسر، دور على واحدة أصغر ، وكلهن كبيرات ، دور على واحدة لم تكبر بعد .. هي صغيرة عليك لأنها لم تولد . وما زالت تجس مكامني في انحاء المسامات الكثيرة ، أراها وتراني من فوق المد الكبير والى الالسنة المتعددة / ألسنة التنين الثمانية ، فجذبتني من صدري ، وشعرها بين جذعي ومقدمة النواصي الحرة ، وقلنا معاً ونحن ننظر من فوق: هذا السد الماء يطلع من ثمانية ألسنة ، خلفها ألسنة ودخان تجف تجف / حتى نظرت الى وجهها الكبير : رقعة تغطي سطح البادية ، وصدرها كان أرضاً وأرضاً وأرض . كانت قطيع ، ابل وجمال ، تمضي عابرة ، ونحن عليها ولم نقترب من تلة "العزيزية" النقطة التي يمر بها الخابور.

وتذكر جاسر يوم خرج من بيت فرحان - وكان أمامه حرش كبير يحاذي الخابور الملتف ، وكانت انهار الرد جافة ضحلة ، تتجمع المياه في قاع النهر راكدة صافية ، تعيش فيها الديدان والاسماك الضئيلة ، وتنعكس فيها الحياة معاً، الحياة في نهاية العالم المظلم ، ورغم ان السماء كانت مشعة وواضحة في الاسفل المتحرك ، فإن المستنقع واقف راكد ، لا نفس فيه ولا علة – تذكر حادثة الدرج بينه وبين هند ، وكان من المحتمل أن يتجه الى بيت المجدّل ، لكنه وقف في زاوية الشارع الفرعي وقد أطل على الشارع العام ، وأصبحت المئذنة المائلة الى يمينه حتى حسب ان ظلها سيقع عليه . ولن يذهب الى بيت المجدل ، لأنه لو ذهب اليه، لوجده عبد الله او هدلة حالما يستقر فيه لليلة واحدة ، ثم لا يريد ان يرى بعد الآن مياسة المجدل ، مياسة المجدل ترهلت وسمن جسدها ، وأصبحت في ليلة واحدة ، منفوخة كقربة طوف . عندما تبع سرحان يوما ، وأقفل المتجر واقتفى أثره وأثر شمسه ، الى شرقي الدير أسفل الجبل ، وجدهما يدخلان بيت المجدل . واقترب من باب الحوش ثم أخذ يسترق السمع من خلال فتحة الباب . وحين أراد الرجوع رأى مياسة تدخل اليهما ومعها جفنة مليئة حملتها بساعدين قويتين ، ودفعت الباب بقدمها ، دخلت ثم أغلقت خلفها الباب وغابت ساعات ، وانتظر الى ان خرجت شمسة ومياسة . وزمجر جاسر بعنف ، حتى ظن ان احدا ما قد سمعه ، جمجم بقوة : مياسة المجدل تفو تفو . وان دارت في نفسه ، بعض الليالي ، شهوة الذهاب الى بيت المجدل لرؤية مياسة ، يحاور نفسه كيف ستبدو أمامه فتاة المجدل وهي تحمل جفنة الطعام وتغلق الباب خلفها، كيف ستبدأ معه ، ومن أي حال ؟

وأخذ يفهم تحركات سرحان في أمسيات الليالي ، يراقبه وهو يخرج مسرعاً من الدار غير آبه الى طلب فرحان بالعودة مبكراً . ولما فطن فرحان الى وضع ابنه، منعه عن التردد الى بيت المجدل ، قال له على مسامع أهل بيته : هذول يا ول يحرفون بني آدم ، يظل طول حياته نادم .. هذول .. هذا ما يجوز؟؟ انت يا سرحان ما تطلع أبداً ، ومن المتجر الى البيت وبس ، ونشوف لك صرفة! والتفت الى شاها وقال لها بغضب : نزوج الاولاد يا شاها أخير من هالأفعال الشينة .. من الغد تبحثين عن عروس لبكرك . وتابع بعد ان دارت عيناه في محجريهما : يرضى ما يرضى ماهو بكيفه ، يتزوج يعني يتزوج . وظل ينود فوق ذلوله والصورة أمامه لا تفارقه ، يقف في زاوية الشارع الفرعي مع عبد السليمان يتأملان الطريق الى خان الوسط للتقييد في الهجان الفرنسي.

هذا العبد الآن ، لا يشبه عبداً عرفته فيما مضى . عبد السليمان. وكثير من العبدات يمرون أمامي ، لكن واحداً يظل فيّ فلا يريد الرحيل. وانظر اليه ، طالما تتحرك القافلة الى الجزيرة .. فلا أراه كما كان. ويتساءل جاسر : أهذا هو ؟ لم يكن كذلك في المرات السابقة ، بل ليس هو . عبد وفواز رداد الزغير كانا يقفزان فوق ظهري برشاقة ، واذا لم يعثر احد من اللاعبين ، ويقدّر عبد علائم الاخفاق والملل في وجهي ، يصطنع عندها العثرة ، كي تقع الصميمة على أمه ، وعندها يلومه فواز قائلاً : كان وصلنا الى نهاية اللعبة يا عبد ليش عثرت. ثم يكرر بضيق : ليش عثرت يا أخي ؟ وعندما يكون ظهره مرتفعاً كجمل ، تصيبني قشعريرة ، أتراجع الى مكان الانطلاق لأحاول ثانية ، أجري بطاقتي القصوى .. من مكان بعيد .. هذه الظهور المتراصة على بعضها ، كيف ستكون جسراً ممتداً الى الأمام ، تغمر الأراضي الفسيحة ، فأطير فوقها جميعاً ، محلقاً على أرض راكعة ، ولعلي أحلم أثناء النوم بالطيران فوق مياه الظهور- فوق أرض الجزيرة- كي أصل الى مرتفع يحميني ممن يشدني الى الأسفل. أما عبد السليمان الآن فهو ليس هو. كان ينيخ لي قامته المحنية قليلاً ، وبذكاء تتجاوب قفزاتي مع قرفصاته المذهلة ، فكأنني أقفز فوق سطح مستو ، وكأنه وقد ابتلعته الأرض لبرهة كافية أنتقل فيها الى الجانب الآخر . فيسمع اللاعبون اعتراض فواز : انك تزغل يا عبد ، لا تنيخ لجاسر .. ترانا ما نلعب معك ثاني مرة . يرد عبد عليه وهو راكع بصوت مخنوق : تراك يا فواز عيونك ما هم تمام .. يتراوى لك . ويدمدم بحنق : إيش بك يا الله .. شد حالك شوية!؟

أما الآن فقد تغير ، لقد كبر وشب بعيداً عني ، ولم أعرفه حينما جاءني أول مرة ، يقنعني بالتقييد في الهجانة . قال: مصاري وعز، من الجهتين . اما تجارة سرحان ـ ومط بوزه احتمال الفشل ، فهي يمكن مصاري .. اما شغلتنا يا جاسر فهي مصاري من جهة وعز ومكانة من جهة ثانية ، ثم انت لازم تجاكرهم كلهم وتروح تقيد بالهجانة .. هذول ما يحسبولك حساب الا وقت تروح معي . ومد يده ، مدها في المكان الذي سينصبون فيه عموداً لحمل

أسلاك الكهرباء والهاتف ، في المكان الذي ستترنح فوقه "المدام" ، وتنقلب على أرض الشارع جثة زرقاء، جسدها العاري ملقى في وسط الشارع وعليه بردة حصير . فشبك يد صاحبه دون ان يتطلع الى الخلف، وأضحى بيت فرحان وراءه ، وصارت المئذنة المائلة عند يمينه، ولم يحسب انه سيمضي كل هذا المضي. كانت يتخيل في خطواته الأولى حادثة تحت الدرج، فيظن انهم يتبعونه ، يسألون عنه كل رجل وامرأة ، وان سرحان اقتفى أثره يحمل بندقية فرحان ، يصوب عليه النار عند كل زاوية يقطعها ، ومن كل نافذة أطلت عليه. وتطلّع الى الاسطحة المجاورة يبحث عن سرحان ، هناك يختبئ فوق سطح بعيد ، لا يراه ، ويسدد فوهة البندقية نحو رأسه. وسكّن عنه عبد فقال : ما راح يقدر يعمل شيء .. يخاف تحسبه فرنسا مخرب ، تقتله فوراً ، ثم لا أحد يحمل سلاحا في هذه الأيام .. لا تهتم يا جاسر ، وكل الدير خايفة ، ما أحد يحيص شبر هيك ولا هيك .

كان طريقه الوحيد للنجاة . وحدث نفسه : لولا افرنسا لكنا الآن في عداد الأموات .. افرنسا أحيتنا ، أحيت جاسر يا جاسر ، الآن من يقدر ان يقتل عنصر بالهجانة الفرنسي .. من يجرؤ .. لا أحد ، ولو كان عايد الخضر بذاته .

في زاوية الشارع بالقرب من العمود الذي سيقام بعد سنين ، جاءته الحوادث الثلاث ، حادثة صوان شاها ، وحادثة الدرج ، وما جرى بينه وبين مريم في بيت مهيدي . وكانت وراءه كالشبح ، ردد في نفسه : كيف يكون الماضي مرتبطاً بهذا الشكل مع الحاضر؟ لقد ذهب حاله ، ذهب حتى حسبنا انه لم يكن الا صدى في الخيال! لكن مع كل ما جرى، فإن هدلة وعبد الله سيقفان كمنبوذين ، يحملان أشياءهما ويعودان الى العلوة ، وان العلوة التي ستسمع بفعلة ابنهما ، ستحمل عليهما ، تردهما على أعقابهما أن : بيوتنا أغلقناها في وجوهكم .. لا تدخلوا . بيوت العلوة مرصدة أمام عبد الله وهدلة ، تبات مطمئنة وادعة ، لا يكدر هدوءها انسان ، تكاد حين تهبط الشمس خلف الرحبة ، تتداخل البيوت معا ،تصعد الجوبة وبيوت الساير الى مستوى مرتفع، او تنزل العلوة ، تقرفص بذاتها ، حتى مستوى الجوبة ، ونرى في الليل ، بيتاً واحداً ومصباحاً واحداً ، جسداً غافياً بقرار في فراش لا حد له . ان النوافذ ، اذا صعدنا قلعة الرحبة ، نجدها ضيقة ، منارة بذبالة تشرف على نهايتها ، ومن هنا نحزر انه طرف البستان : انه بستان الساير ، وما زال قائماً في حد الضفة . مع ان ما جرى للنهر بعد رحيل عائلة الرحبي جعل البستان يمتد الى بستان عبد الله، وأصبحت شجرة زايد في بستان الساير ، وأقام صالح الساير غرافات عديدة عند شاطئ النهر ، راحت تسقي البساتين والحقول القريبة . اما في الليل ، فيبدو كل شيء واحداً . واذا أرادا الدخول الى العلوة ،

في مثل هذا الوقت ، يحملان أغراضهما في عربة ضاقت بالطريق والثقل ، يلتفع عبد الله بشماغ لا يظهر من وجهه الا عينيه ، وتتخفى هدلة خلفه ، راجية من الله ومن الماء ان لا يراهما أحد، وأشاحت وجهها عن الرحبة عندما بزغت أمامهما ، وهما في طريق القوافل ، وحيدين فوق العربة التي أخذها عبد الله من خان الوسط ، وقال لهدلة قبل ذلك : جهزي أغراضنا سنرحل قبل ان يعلم فرحان والشباب بما جرى .

الحياة حمى يا هدلة . لأن الثلاثة ما زالوا خلفنا ، لأن بلدتنا لم تتسع لنا . قالت شاها المطر : هي كبيرة عليه يدور على واحدة أصغر وتناسبه. ولم يكن حبنا عابرا ، كان كالقمر ، كبيراً يملأ العالم . قالت لي : وأنا أمك يا جاسر ، يعني حبك ليّ بهذه الطريقة لزوم تنساه ، وتحول حبك اليها ، لأن حبك لها يجعل منك رجلا يعيش في دنيانا ، افترض ، لكي تنسى ، ان كل ما جرى معك سراب ، وما كان اللي كان . كان وما كان جاسر عبد الله الرحبي ، خرج من دار فرحان عبد الغني الشاهر ، التقط شماغه ، ورمى على جسده أطراف كلابيته ، وانطلق على وجهه دون سمت او منحى ، ورددنا معاً: "دارة قرميدا رحلنا نزلنا بدار جديدة عمي شويخ لويخ اللي يطعم ابنته شحمة لحمة يا منقاش الله تكون بهذه النقطة" . ا ه .

وهو ينود على ذلوله في طريق محاذية للشاطئ الكبريتي. وظهر أمامنا بخار الكبريت صاعداً الى الأعلى ، ورأينا مناجاته وعناقه ، يكلم النهر السماء. ورنا عبد الى الجبل ، قال لجاسر : يمكن هذاك هو الجبل يا جاسر . رد عليه : انت ثرثار .. يكفي تحكي بهالارض البادية . وكانت الحرش تغطي البقاع ، وتتكاثف عند بسطة الرد ، ويأتي الفجر واضحاً منعشاً ، فنخمن ان سفح الجبل المغطى بنبت "القاميش" يخترقه طريق لا يوطأ ولا يداس . وسأل جاسر : هذاك نهر جغجغ ؟ فهز عبد رأسه وقال : جغجغ ينزل من نصيبين يمشي حتى الرد ، ثم يصب معه في الخابور . كلما كنت أرى عبد السليمان أتخيل ان قامته فوق يابسة منعزلة ، يلعب الهواء بأطراف ثوبه ، بينما ترتسم على محياه علائم الدهشة اذا مرت به طائفة لا تلوي على شيء ، يتبعها بناظريه مستديم التحديق والتمني . عبد السليمان ، كان هو وأصبح اليوم ، وهو فوق ذلوله ، الى جانبي ، ليس هو . قلت له : تنسى نفسك ما دام تتعجب كل مرة . رد قائلاً : اذا ما نسى الانسان نفسه ما تحلو له الدنيا .. الدنيا نسيان يا جاسر . فكأنه عرف ما دار في رأسي ، وتابع : اذا انت نسيت تراك تتبدل ، وأول مرة تنسى فيها لما حطيت يدك بيدي وذهبنا الى خان الوسط . وعلت نبرته : شوف يا جاسر حالك الآن وحالك قبل ، أول كل شيء هدلة .. هدلة الخضر يا جاسر هي السبب .

ترقص هدلة أمامي ـ عظام هند تطقطق تحت جثتها الغاشية : اذا ما كان هذا السبب انا أقطع يدي من النصف ، هو السبب. منذ هبطت من العلوة ، تحمل في قرارها شعوراً بالخراب . هدلة اتركيه ، فعوى كحمل جريح ، ثم زجره أبوه قال : ابعد .. وتبكي مثل البنية . حتى تبدل .. وأشار الى انه هش هنا هش ، واذا ما يندعم تراه ينخرق . وجرت المدحلة فوق سطح مهيدي ، تدب كالسائر في نومه ، وتوقفت بين بين ، نصف تحتها فراغ والنصف الآخر سطح ، وكادت تقع لو انه ما ألصق ساقيه ودبك بقدميه ، كادت تقع ، فتأمل جاسر ، وهو على ذلوله ، لو انها وقعت فعلاً ، تركت السطح وهوت في الفراغ ، بكل ثقلها ، على رأس من كان تحت ، نزلت في الحفرة ثم غابت وعندما هممنا بإخراجها ، فتحنا حفرة في الحفرة ، ووجدنا ان غيابها طال ، لقد تغلغلت بعيداً ، ضاقت بنا السبل ونحن نخترق الأرض نبحث عنها كل مكان، وأين ذهبت في بطن الأرض، خلف حوش فرحان؟ صحنا بصوت واحد : أصبح النهار والليل ليلاً في هذا المكان ، أخرجونا من أعماق حفرة المدحلة ، نخال اننا نختنق كلما مر زمن على بقائنا هنا ، اخرجونا من حدود الأرض هذه ! ربما لو تابعنا الحفر لوصلنا الى منطقة الماء المتسربة من النهر، عندها لن يكون لدينا حاجة لرفع أصواتنا هكذا ، سوف نمر في منطقة المياه نحو النهر ، ونخرج منه دونما حاجة لربطنا بحبال نجدة المغمورين بالطمي والتراب ، أخرجونا من هنا، الى فوق، اليابسة، في ثوبه المرفرف بهبة ريح مقابلة، وهكذا خرج ، عندما لاح له يرف ، وكان عبد في زاوية الشارع ينتظره ، ثم شبكا يديهما وراحا الى خان الوسط .

ان هدلة وعبد الله جمعا اغراضهما في عتمة الليل ، وكلصين محترفين ، خافا ان يطلع الضوء ، اذا بقيا ساعة أخرى. لملمت هدلة فساتينها وأشياءها في بقجة ، بينما خرج عبد الله مسرعاً ، يبحث عن عربة مهلهلة ألفاها يوماً ما في خان الوسط. قال لهدلة: كي لا تحدث العربة قضيضاً وضجة في صدى الليل ، أقف في وسط الشارع ، انتظرك هناك وتأتين .

لم تتحمل هدلة كل ما حدث ، ووجدت أخيراً ان الرحيل ، بمعنى الهروب ، أفصح وجه للخلاص. لقد ظنت ان جاسر ، قصد في اختفاءه الطويل ، الابتعاد عن مريم ، لم يقدر ان يرى صورتها مع ناصح. وناصح في واقع الأمر ، لم ينزل بعد من سطح الديوان ، وظلت شاها المطر تدور حول شجرة التوت، لم ينزل من السطح ، فحدثت شاها هدلة في شأنه وقالت : نادي جاسر يا هدلة ، يمكن ناصح ينزل معه ، ناديه حتى نرى ما سنفعله بشأن مريم. وفرحت هدلة، انتابها فرح غريب، أن ابنها سيجر خلفه ناصح الحويش ، وستومئ هدلة له :

اذهب الى هذه الناحية ، وستجدون مريم في الزاوية تنتظركما، وأسندت فمها الى اذن جاسر وقالت : حتى نخلص من هالقضية ، خلي ناصح يمر يا جاسر . فوجدته ساخناً مريراً ، ناحية العنق ، ثم لمست بحنان جسده المرتعش، رنت الى السطح ، رأت عبد الله يسأل : يا أم محمد كيف صار جاسر ؟ فردت : انزل يا عبد الله وشوف ابنك ، تراه مريض ، انزل . ولم تحل هنوف النجم مرضه ، ظلت هدلة ترقيه وتسقيه مما أعطته الشيخة هنوف ، حتى كلّت ونفرت ثم أكدت شاها لها بعد أيام: لزوم يمضي وقت على وصفة الشيخة حتى تفعل بجسم جاسر ، يلزم وقت يا هدلة . لكن جاسر بعد أيام ، كان يقف مع عبد السليمان عند زاوية الشارع ، وتخيل جاسر وهو يرى صديق الطفولة ، تخيل عبد فوق أرض يابسة ، في كلابيته التي يأخذها الريح حيث يريد ، كانت استدارته تقتفي أثر المارة وهم يمضون الى خان الوسط . وأحنى قامته وصاح بقوة : اعجل يا جاسر ، لزوم نركض الى خان الوسط.

لن أفهم هذه الهيولى! وهي واقفة أمامه ترى صورتها في المرآة، وتجعله يستند على جسدها ، خانعاً ينتظر فرصة للانسحاب. وتحول شيء ما في كيانها، كاد ينبثق من صدرها ، لكنه توارى واختفى. ولم تدرك طبيعته، لكنها حزنت بعمق ، كيف تدعه يخرج ؟ وقد انتبهت اليه وهو يقوم بتنفيذ الفكرة التي دارت في رأسه . على الأقل كان عليها ان تقول للدار انه يخرج ، تلفت الانتباه اليه: انظروا انه يخرج ، فلا تدعه. تقف عند الباب ، وتتسمر هناك حتى تمنع عنه الفكرة التي لوح بها عبد. قال له : انا في زاوية الشارع لا تتأخر . هكذا كان جسدها واضحاً في المرآة ، ممشوقاً ، مرة تجذب جدائلها فتغطي كامل صدرها ، ومرة تلقي شعرها خلف ظهرها ، وتزفر بمرارة. ورأى في المرآة مراحل الضباب التي مرت بها. صدر المرآة يعكس العراق المحترق. لقد لمس هذا الجسد ، وكانت يده تذوب في اشتعال عينيها ، فتحولتا الى لون أخضر . وكيف لك ان تحولي جماداً مكموداً ، جواه لا ينطفئ ولا يحترق ؟ وحزرت انه قالها، لمسها بعد انتظار مكابر، قال لها كالمس: انت هي . رجاء الخضر- هي- تلوّت فوق الشراشف المخرمة بضوء القمر ، الطيف المرسل تبدد على صدرها وترنح بخفة حول وسطها ، ثم وجد دربه الى انحية الجسد الصافي - انه المرمر انني اكتشف المرمر .. مر مر . يرتجف بجانبها وقد اصطكت أسنانه وتشظت داخله ذاكرة الأسماء .

وقلنا هذه هيولي ؟ فأجاب : انه صدى. انحرفت الأشياء بهذا الصدى ، فتغير لون المعرفة . بذلك ، فإن العودة غير مضمونة . توقع اذا رجع مرة أخرى الى دار فرحان فلن يجد هناك ما يريده، يسأل عن فرحان الشاهر فلا يجيبه أحد، ومن يفرض على نفسه الذكرى سيقول: كان يوما، وفي مكان ما ، وليس

في هذا المكان بالتحديد ، شخص يدعى فرحان . يبحث عن الشارع العام فيجده ، ثم يتذكر ميلان احدى المآذن ، ومن هناك ينحرف نحو اليمين : ان الدار التي ألفها لم تعد موجودة ، في مكانها بناء آخر ، وتغيرت المعالم وتبدلت المواقع. لكنه لن يعود ولن يترك القافلة في أراضي الجزيرة ، يبقى معها حتى يصل الى الطراميش والى نقرة الدم ، الى الزاوية القصوى من البلاد . عندما يصلون الى رأس الزاوية ، سيقف مع رفيقه عبد السليمان ، ويبحثان معا عن جبل "الجودي" ، يصعدان أعلى المرتفعات وسيرى كل منهما "الدجلة" كيف يمر منحرفا سريعا في الوادي السحيق ، ثم خلفه تصعد حدود هائلة لهضبتين كبيرتين ، احداهما يحتمل ان تكون الجودي . أشار بيده الى أعلى القمة ووقف عبد بجانبه يحدق ويتخيل كيف استطاعت سفينة النبي الاستقرار هناك ، وتمتم: هذا الجبل المنزلق ، حاد لا مقر عليه ، كيف اذن ؟ ونظرا في وقت واحد الى ايماءة السرجان وهو يرفع آلة التصوير، قال لهما: ابتسما واسكنا برهة . ولمعت في ذهن عبد وهو يلف جاسر بذراعه ان يصيح بأعلى صوته ، ففتح فمه يبدأ بإطلاق صيحة فرح، انتبه اليه السرجان حمزة وقال : الصورة لا تحمل الصوت ، أسكت ، يلزم يسكن البني آدم حتى تظهر الصورة جيدا ، واحد اثنان ، ثم توقف ونبه : أعد الى الثلاثة ثم اضغط على مفتاح التصوير .

هذه الصورة ستكون تذكارا رائعا ، عبد السليمان يحيط بذراعه وسط جاسر الرحبي ، وخلفهما عدد من الجنود والعناصر ينظرون الى آلة التصوير. ولقد خلّف الانبهار في وجهيهما سعادة ومرحا . كتب على ظهر الصورة بخط مضطرب : صورة الاخوة جاسر وعبد السليمان في فوج الكابتن موغييه بالقرب من نقرة الدم ، ونسي جاسر الذي كتب هذه الكلمات بقلم الكوبية تدوين التاريخ . بعد ان تمت عملية التصوير لاحظ جاسر ان جبل الجودي ونهر دجلة وهذا الجرف الهار لم يظهرا في الصورة: كان يجب ان نقف مكان السرجان حمزة ويقف هو في مكاننا ليظهر الجبل والنهر ، الآن لا يظهر وراءنا سوى هذا الطريق ورابية البستان ، كان يلزم صورة ثانية ليظهر جبل الجودي. وقال السرجان، الصورة تظل معك ، بكرا تشوفها لأولادك وأولاد أولادك ، تقول لهم وصلنا الى هذه الأرض واستلمناها من دون مقاومة ، احتفظ بها .

الأولاد وأولاد الأولاد جعلت جاسر يفكر في هدلة وعبد الله . هل ذهبا عن حق الى العلوة ، وظلا هنـاك . عبد الله سيكتفي بالخروج من دار فرحان ، ولا تهمه كثيرا العودة ، واذا ارادت هدلة ذلك فهي حرة ، أما هو فسيبقى في الدير، بعمله في خان الوسط ، وعلى الأغلب ترك هدلة تذهب وحيدة ، وهي الآن في بيتها ، تنتظر عودة جاسر . الأب الذي بقي في الدير استعاض عن

أمه هـدلة ، وان مغامراته الساذجة عرّفته على احداهن ، فصارت له خليلة ، وأسكنها الدير . رفض الذهاب مع هدلة الى العلوة ، وكيف يترك بيته الثاني ويترك خان الوسط؟ هذا هو السبب الذي جعل عبد الله يتمسك بالدير . لكن لماذا هذه المواربة ؟ لو كان متزوجا من ثانية مثل أكثر الرجال ، لعلمنا بأمره، ولا حاجة لإخفاء مثل هذا الأمر ، المسألة اذا ليست زواج انما .. ولعل سرحان أحاط بهذا السر ، عندما كان يبقيه في المتجر ويذهب مع أبيه .

عبد السليمان في زاوية شارع فرحان ، ينتظر احتمال ملاقاة جاسر الرحبي، واحتمال انه لم يعكس مساره بعد ، كي يعيش مرة أخرى في عوالم متعددة . عبد لم يعد عبدا الذي عرفته ، انه ليس هو ، لذا وقف عند الزاوية يقلق لما تأخر جاسر كل هذا الوقت ، ولم يأت ؟

ولاح شماغه الأحمر ، يرف عند طرف الباب ، ثم انبثق دفعة واحدة. كان طريقه نحو الشارع العام والمئذنة والنهر ، حتى لاقى رفيقه ينتظره ويلومه : لم تأخرت حتى هذه الساعة ؟ انتظرناك أكثر مما يجب ، يجب الاسراع والا لحقنا سرحان ومعه بندقية أبيه ، والا فاتنا التسجيل في الهجان ببلوطين الكابتن موغبيه ، والا فقدنا كل احتمال لحياة عزيزة. علينا الاعجال للوصول مبكرا الى خان الوسط . وراعه وهو يقطع الأمتار المتبقية الخرف الذي ستقع فيه هدلة اذا رفض عبد الله العودة معها الى العلوة . من المؤكد ، واذا غادرا بيت فرحان من ليلتها ، وفي الظلمة نفسها ، فإنه سيتركها في العربة عند منتصف الطريق، ويرجع الى الدير. ان أباه لن يترك الـدير ، سيجد مكانا ما يبقى فيه ، وسيجيب بعد ذلك على من يسأله : راحت هدلة وحدها وهذاك انهزم، ظن انه خربت الدنيا تحت الدرج ، وما صار شيء يدعو الى الهرب ، بس هو اصلا مختل ، اصلا من تبع أمه وأخذ بأذيالها ضاع وما عاد منه فائدة .

ظل عبد الله في الدير ، بينما عادت هدلة وحيدة الى العلوة ، تنتظر مجيء زوجها وابنها. تتمنى ان لا تمر ساعة أخرى في هذه الدنيا حتى يترك جاسر الهجانة ويأتي . لكنها كانت تذكر مرارا ما قاله عبد الله بعد مغادرة جاسر لدار فرحان ، قال لها وهو يشيح وجهه عنها : انت يا هدلة السبب ، اذا كنت انا السبب فأنت ايضا السبب ، والسبب منك أقوى، فكانت تعض شفتيها عندما تتذكر ذلك ، يطوف في أشجانها انها كانت ايضا وراء زواج عبد الله من شمسة .

ظنت انه كان ليل. عندما غادرت الدير وحيدة، في عربة تتقوض في مسيرها. قال لها عبد الله: انتظرك مع العربة في رأس الشارع، وحتى لا ينسمع الضجيج والصدى، أقف هناك وتأتين . تسللت من دار فرحان ، تنتظر عند رأس الزاوية ، تستدير مرة ناحية الشرق وأخرى ناحية الغرب ، لعلها تسمع قضيض العربة القادم . كانت الأضواء الخافتة تسبب لها حرجا ان يراها المارة والخفر الذين يتجولون في مثل هذه الأوقات ، فيرتابون من كل رجل او امرأة متخفية في حجابها ترقب قادما من بعيد . رفعت دعاءها في ظلمة الليل ان تأتي العربة قبل أي أحد .. قبل مرور رجال الجندرمة والسهار ، قبل خروج رواد "التياترو" .. قبل كل شيء . حسبت نفسها لبرهة ما ، برهة جالت في أركانها فارتعدت لها فرائصها، تصورت انها احدى فتيات التياترو ، بل كبيرتهن ، وعلى قارعة الطريق ، يمر بها الرجال ، يتنحنحون ويحدقون الى الجسد الذي اتفق للحظة ما ان يكون جسد مومس انتظر وانتظر ، انتظر صوت عربة قادم أثناء الليل . ورددت بخوف : هدلة انت في ساعة تساوي حياتك كلها .. بعد قليل سيلعب معك الهواء فيرفع عن هذا الجسد العفة . وهذا القادم من هناك ، كأنه مستطيل أو حافة تسير مترنحة ، مملوء بالخيبة ، ويحمل عكازا ، تترنح معه في طريق الشارع العام . ظهر انه يقترب .. وكانت نظراته المتشككة تحسها انها معنية في اقترابه ، وسمعت صوته وتجشؤه في عمق الليل ، وبدا لها انه عظيم الجثة ، لا تكاد تطاله اذا مطت قامتها ورفعت يديها ، انه جثة آتية .. منحدرة من فوق جبل ، تسوق أمامها

الأخيلة والمراودات . وضحك اذا اقترب منها ، قهقه ثم توقف قليلاً وملأ عينيه الصغيرتين بزاوية الشارع ، بهذا الجسد الفاتن ، امامه وعلى بعد خطوة واحدة .. ذراع ، قال : ها ذراع بيني وبينك ذراع واحد .. يا خاله ما تفعلينه في هذا الليل .. تحسبين اننا يا خاله بالشانزليزيه .. شكون يا خاله نحن بشارع الشارع العام شارع التكية وهي وكاد عن يمينك شوفي شوفي هسع تقع فوقنا .. روحي يا مدام .

وطقطقت العربة من بعيد ، ففرحت لأنها ستغادر الدير الى العلوة ، بهذه العربة ذات الدواليب الأربعة. تفقدت بقجتها الملقاة الى جانبها وشدت بيدها على عبايتها ، ثم رفعت قدمها للصعود الى عربة أخذها عبد الله من خان الوسط بعد ان أسرج لها حصانا عجوزا أيقظه في العتمة .

ومن بين دواب الخان التي أقامت فيه ، ولم تجد من يشتريها أو يكتريها ، وأوكل أصحابها الى عبد الله ببيعها عند أي فرصة ، وبأي ثمن، كان هذا الحصان ، جاء به صاحبه وأودعه في اسطبل عبد الله بعد ان أتعبه كثرة التردد الى الخان لعرضه للبيع . أيقظ عبد الله حارس الاسطبل وأوعز له بسرج الحصان وتجهيز العربة لقيادتها ، وقال له في الطريق الى الشارع العام: تأخذ معك هدلة وتوصلها الى العلوة ثم ترجع بسرعة ، ثم وأنت راجع تمر بسعلو ، يمكن أهل شمسة يريدون شيء . وهكذا قعدت هدلة في العربة ومعها بقجتها الوحيدة ، والتفت اليها حارس الاسطبل ، بينما شد بيده على السوط ، قال : بقجة بس ؟ كان حصان يكفي لهذه الرحلة .. ما في داعي لهالعربة طق وطق طق وطق طول ما نحن نمشي ، يكفي كان حصان .. تصيرين وراء ظهري ونعدو الى العلوة .. ساعة بس ونصل .. طق وطق ونحن ماشيين طول الطريق! طريق القوافل العامة وفجأة بدأ الجبل وأشعة الشمس البازغة يظهران في الأفق وأخذت الدنيا تنكشف .

وقفت عند الباب تعانق شاها المطر ، وترددت عندما التقت نظراتها مع نظرات هند ، كانت هند وراء امها ، خرج الجميع الى الشارع يودعون عبد الله وهدلة ، ولقد وقفت العربة غير بعيدة ، انها بجانب بيت عبد الرحيم أبي عفراء ، وبكلتا اليدين اشار لها فرحان ان تعود ، في وسط الشارع أعلى صوته لحارس الاسطبل : عود يا حمزة بالعربة الى الوراء قليلاً .. شكون تقف على باب غيرنا ! وأزوى عينيه الى وجه شاها المطر وهو يقول : كأنك نسيت دار فرحان الشاهر يا حمزة المجدّل شكون بك ؟ وتلكأ الحصان العجوز في رجعة الخطوات الفاصلة بين البابين ، عليه ألا يقف بالباب المغلق والمفضي الى الدرج والبئر ، كانت المسافة الفاصلة كافية كي تحرف العربة

نحو الحائط وكادت ان تتهشم! رفع فرحان صوته وهو يتقدم ببطء الى العربة، وهو يتلمس خشبها ، قال : طريق العودة غير مضمون بهالعربة يا أبو محمد.. كان أخذت العربة اللي اخذها مهيدي وقت رحل ؟

وعانقتها ، فسمعنا نشيجها ، هند الصغيرة تندس في نحر هدلة الخضر ، وهدلة بعد ان تملت الجسد المنطوي في صدرها ، تشد قامتها بحنان ، وترى امتلاءها ، تطوقها ، ولو ان الحياة بهذا اللون ؟ اضطربت أعماقها ، ظنت أنها شجرة ، أحست بزفراتها تصعد الى عنقها ، وبنبرات صوتها المرتجف وقد اختنق الغصن وثخنت الآهات ، وكأنها تبكي من حلقها . أمي هدلة الخضر ، شعرت برائحة الطفلة ، فناء الشجرة يطوقها ويغمرها، نكهة لحاء ومسامات متفتحة لجسد لم يدخل عهد البلوغ بعد .

وتحركت العربة ، حسبت ان للنهار جدراناً ومحيطاً ، فلم تر شيئاً ، سوى انها تذكرت رائحة لحاء الشجر . ركنت رأسها الى راحتيها وأخذت تصمت وتصمت . وهي في العربة ، بين الفينة والفينة يستدير اليها حمزة المجدل يحاول اخراجها مما هي فيه ، لكنه في كل مرة ، وتعتريه وعورة الطريق وضرورة التدخل لحرف مسار العربة ، يعود الى السوط والى رسن الدابة يشده يمنة ويمنة فيكاد يصل في ذلك الانحراف مقداراً يجعله يوازي سفح الجبل، ثم يعود شمالاً ، يشده نحو الشمال فينزل مع السفح حتى يرى مساواة النهر وسريره ، ولقد ضاق الطريق وتبدل ....وعند ذلك بدت أمامه طبيعة طريق لم يألفه ، مرة يصعد حتى سفح الجبل وأخرى يهبط الى النهر. فتح عينيه ، وفركهما بذهول ، لعل النوم هو الذي جعل طريق القوافل وعرة وضيقة، يحدها الجبل ببعد ذراع والنهر كذلك.. وتسأل بصوت عال: ما هذا يا هدلة ؟ لم أر من قبل هذا الطريق ولا هذه الأراضي، كأننا ضعنا يا هدلة، هذه الرواية ضيعتنا .. اذا لم نصل عند المساء فإننا لن نصل أبداً ! رفعت رأسها اليه وأجابت ببرود: الطريق معروف يا حمزة.. إيش بك؟ ودمدمت: مهبول يا ربي يقودني الى العلوة! وسألها بجفاء: عندك زاد لأجل الطريق يا عمتي هدلة؟ ورد بعد قليل على إيماءة رأسها : نقف بعد شوية ونتزود بالطعام ونتزود بالطعام بعد شوية ونتزود بالطعام .. نقف ونتزود بالطعام . وجعلت تصم براحتيها أذنيها وتمنح للعربة فسحة لتهزها في هذا الطريق الارجوحة .

لم نصل ابداً يا هدلة ، وفكرت معه بحرف العربة عن طريق القوافل. لو أننا نستطيع ان نصعد الجبل ونغيب وراءه ؟! وأكد حمزة المجدل : ان الطريق هناك مستوية ولا حاجة بنا الى هذه المرمرة ، نبحث عن فجوة في بطن الجبل، وندخل منها اليه ، والطريق هناك مرتفع عنا ، ولا يوجد فيه هضاب

ولا وديان ، يستوي بنفسه ويسير كالماء . وأشار بيده ، مد يده وزمّ عينيه ، قال مهلهلاً : المفتاح يا هدلة.. مفتاح الجبل ، انظري هناك ، منه نصعد الى الطريق الممهد الذي نريده ، نبتعد عن طريق القوافل يا هدلة وعندها بإذن الله نصل الى العلوة .

ثم انها العلوة ، بدت لي قبل ان أصل ، كانت شامخة ، أطلت قبل ان أقطع المسافة التي ظننتها ، قبل ان أرى الرحبة ، انـها شامخة وعلي اجتياز المسافات مع حمزة ، لأعتلي مرتفعها مرتفعاً مرتفعاً ، وحتى أصل فأفتح الباب الذي أغلقناه نحن الثلاثة منذ سنوات وسنوات. افتحه وحدي تفتحينه وحدك افتحه وحدي تفتحينه وحدك حتى ينفتح. وتمجهرت العلوة ترى كيف عادت هدلة وحدها ، اشرأب اهلها يمطون وجوههم دون ملاحة. ورمت هدلة عنها العباية ، لفتها تحت إبطها ورأت اليهم صامتة: ماذا ؟ ان صالح الساير هدم الهواشة لأنه سيأتي يوم تنضب فيه المياه ، ويغلب على الحياة الجفاف ، ثم يأخذ النهار بالدوران حول الليل يردد ما سمعه ، وتنقلب الآية ، تنقلب الآية فردد الجمع الذي تحلق حوله هدلة : وقتها تروح زلم اللي ترفس "الدرواسة" وتبقى زلم "المطمزة" والعازة.. في صوت واحد حتى ظننت ان السماء وقعت عند قدميها.

ولم يتغير شيء، كانت الدار في مكانها ، أعلى العلوة. الذي تغير هناك تغير هنا . في الحق . في الحق لم تحاول هدلة رفض العودة ، رغم انها في العربة على الطريق المنحرفة ، دار في مخيلتها بأي وجه ستقابل العلوة ، كيف ستواجه بيتها الذي تركته منذ أمد ، وستدفع الباب وحدها ؟ قالوا لها ، وقبل ذلك همهموا بخبث، ثم وجد أحدهم الشجاعة لأن يقول: انت اللي ذهبت مع زوجك وابنك نراك عدت وحدك ، أين عبد الله وجاسر يا هدلة ؟ أصلاً هجرت العلوة تريدين النجاة لك ولأسرتك .. ونراك ذهبت معهم ورجعت من دونهم ، أين عبد الله وجاسر ؟ الذي تغير هناك تغير هنا ، ولم يتغير شيء ، كأننا يا ربي لم نرحل ، والذي جرى هناك كان سيجري هنا . لكنها ما ملكت وهي في العربة ان تتراجع ، ان ترفع صوتها المنكسر وتأمر حمزة المجدّل ان يعود بالعربة الى الدير . وأي دير ؟ اذا قالت لحمزة : ارجع يا حمزة ، خلص ما عاد نكمل الطريق. سيقلب شفته السفلى ويهز رأسه قائلاً : شكون نحن لعبة بيد هدلة الخضر ؟ خلص .. عبد الله قال روح مع هدلة الى العلوة ، أروح مع هدلة ، وما في رجعة يا أم محمد ، أظل معك الى ان نصل ، وبعد ذلك أرجع وحدي في هذه العربة ، انت تظلين هناك ، وهذا الحكي ما فيه جدل . لا تريد ان تأمره بذلك، هذا لن يقبله ، وعليها ان تصمت وتصمت، تضع رأسها بين راحتيها ، ولا ترد على أسئلته المتتالية. ونظرت الى شمالها حيث الجبل، او

أنه، وبعد ان اخترقوا الجبل من ثغرة أوصلتهم الى مكانهم، فوق الطريق الممهدة ، أصبح الجبل الى شمالها، وبدت الأراضي مستوية حيث لا دليل على انه هناك مرتفع ما أو هضبة. عن شمالها كان الأفق قصيراً ، قالت في نفسها : خلف الأفق اذا لم يكن جبل فإنه وادي. في الوادي، من ذلك المكان الذي يبدو منه الجبل عن يميننا ونحن نتجه الى العلوة ، بالتأكيد ليس جبلاً ، الذي بدا عن يميننا ونحن نخرج من الدير او عن يسارنا ونحن ندخل الدير ، بالتأكيد ليس جبلاً ، انه أرض مستوية وبادية ارتفعت عنا ، واذا ظهر من الوادي انه جبل ، فهو ليس كذلك ، كنا نسير في أرض منخفضة ، تلك البقعة منخفضة ، كل ذلك وادي ، وان الأرض المستوية هي خلف الرحبة ، وان الرحبة ذاتها قائمة فوق أرض مستوية، وليست فوق أرض جبل. واكتشفنا بواسطة هدلة ان الجبل أرض ، وكنا دوما نعيش في الوادي، دوماً ، ولم نصعد يوماً الى جبل .

لذلك لا يحد العلوة ولا الدير أي جبل ، فهما في نزلة ، ونزلة حفرها الماء فامتدت مبتعدة نحو أراضي الجزيرة . النهر حفر الأرض في الجزيرة، فأصبحت أرض يحيطها نهران ترسو فيهما السفن وتتهافت اليهما السيول والأمطار . وصاحا بصوت واحد، انه صوت أحدهم قد أصبح صوتين ، صاحا معا : ذلك هو اذاً جبل الجودي ، كان يريد ان يلتحم مع جبل الطور ، لكنه انفصل فاستقرت عنده سفينة النبي.. خذ لي صورة أيضاً في هذا الوضع واجعل الجودي من خلفي . فرد السرجان حمزة : لا يمكن ان نأخذ لكما صورتين ، صورة واحدة لكما ، ويحتفظ بها جاسر .

نثبت معا ونحن نتعانق في (الفوتوغراف) ، ومن الممكن عن طريق هذه الصورة ان ندخل تاريخ فرنسا . تاريخ تلك البلاد تاريخ مصور ، يأتي عن طريق الرسم والمقوى ، واذا ظفرنا بصورة مع الكابتن موغييه نكون قد خطونا أول خطوة . ضحك جاسر ثم قال: إيش تريد؟ اذا تريد الصورة خذها ، كلها صورة تاكلها النار ويمحيها المي .. وما تدوم يا عبد . ورد عبد قائلاً : شنو ما تدوم .. انت تدور على اللي يدوم ؟ ما يدوم غير وجه ربك .. حتى هذه الأرض والسموات السبع تنمحي عن وجه الأرض .. كل شيء أبداً ! الأم وهي أم ، ما تعرف وقتها ابنها.. تنساه .. شيء فظيع ، وقتها .. كل شيء أبداً . واعترض جاسر : الأم وقتها ما تعرف ابنها تكون الصيحة ما هي صيحة فناء يا عبد ! تابع عبد : المهم انه ما أحد يدوم ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. قال جاسر: نعرف هذا..نعرفه يا عبد.. اذا تريد الصورة خذها فهي لك. وهنا شعرت ان عبد قد تغير، ليس هو الذي عرفته، نعم انه شخص آخر، لم يكن من قبل كذلك . إما ان يكون الهجان قد غيره واما أن تكون العلوة ، بعد ان شب فيها ، قد أحالته الى هذا الحال . كنت سأشعر بهذا التغير حينما

وضعت يدي في يده عند رأس زاوية الشارع ، لولا الخوف الذي انتابني وقتها لشعرت بطبيعة عبد الجديدة . عبد يحاور ويماور لأخذ الصورة ، ولا يريد ان يقول ذلك ، فهو في الظاهر يترفع عنها ، ونفسه تحاول أخذها والاحتفاظ بها! هذه العبدات من ورائي وأمامي ويبقى فيّ واحد مضى ولا يمكن نسيانه . وحاور نفسه : ما أهمية الصورة ؟ هذا اللف والدوران لأخذ الصورة ، ما يستأهل كل هالشيء ، بس يقول اعطني يا جاسر الصور فأقول له هاك الصورة ، ايش معنى : لازم نتصور صورة ثانية يا جاسر وهكذا تطلع صورتين واحدة لك وواحدة لي ، لكل شخص صورة ونتساوى يا جاسر موهيك هو الحق ؟

وأكد عبد انه لم يقل ذلك ، ولم يخف رغبة ان كانت لديه رغبة . قال جاسر : نتصور صورة أخرى ليظهر الجودي خلفنا . وضمناً عنى ان الصورة الأولى من نصيب عبد اما الثانية فسيحتفظ بها جاسر . عبد لم يتغير ، بقي كما هو ، حتى انه اندهش حين رأى جاسر كذلك . قال لنفسه : كيف يمكن ان يصبح جاسر هكذا ؟ من الواضح ان جو الدير ثقل عليه ، ثقل الى حد جعله يتبدد كل التبدد . اعتقد انه لو استمر في الدير لأمسى مثله كمثل باكيّذة مجنون العلوة الذي ما زال يطوف في أطرافها ، بأسماله وشعث شعره ، يسأل من يصادفه بانبهار : ياللا عدّ باكيذة تا أشوف .. يا ترى كم باكيذة ، كم واحد ، هو واحد قدامك ! بس هو بالحقيقة كم واحد ؟ ويجيب على نفسه ، يوضح قائلاً : في باكيذة لهند وباكيذة لك انت اللي واقف قدامي ، هو هسع انت شايفه ، وواحد كان ماشي معي قبل شوية .. وباكيذة آخر بعد ما ترحل عني ، وباكيذة تكرهه هند وباكيذة تحبه هند ، لأنه هي اللي قالت لي أول مرة أول مرة أنا أحبك يا باقي بعدين قالت لي أنا أكرهك يا باكيذة ، اكرهك يا باكيذة ، في كم باكيذة يا فلان ؟ ومرة لمريم ومرة لأختها هند الشاهر ، وحسبها يوما ما مريما ، ثم لأخت شمسة الصغرى ، ان كانت لها أخت . وقال في مساء أحد الأيام بينما استلقى في سريره : لها أخت .. شمسة هذه لها أخت وطلبت من سرحان ان تجيء مع اختها الى الدير لكن سرحان كان يرفض وما يقبل بهذا الطلب.

وهكذا وجد عبد الوقت المناسب لأن يقول له، ان يقف أمامه في زاوية البلاد بالقرب من نقرة الدم ، وبعد ان مروا ببلدة "ديريك" وظلوا ينحون هذا النحو الى ان وصلوا قرب وادي دجلة، وقف عبد في بذلة الهجانة وبعد ان ألبس قدميه بوطا ثقيلا جعل أرضه صلدة لا تتزحزح ، ثبت عينيه في وجه جاسر الذي أمال العقال ونشر شماغ الهجان الأحمر على جانب من كتفه ، ورأى الى شاربيه المعكوفين على طريقة عايد الخضر ، قال له عبد : هذول الشاربان لعايد يا جاسر اذا تظل ما تقوله نفسك وكثرت ظنونك وتخايلت لك الحياة ، يا جاسر انت تخسر .. من يريد منك الصورة ومن يريد منك حياتك ؟ ركضت

مثل المجنون تهرب من مكان الى مكان خايف لا يطخك سرحان ، وهذاك سرحان قال للسرجان حمزة ما قاله ، ويعني ان ما تخايلت سوى الوهم . سرحان ما يريد منك شيء وأنت أصلاً ما فعلت شيء يا جاسر.. مثلك مثل كل الناس . فهز جاسر رأسه ، أجابه : أدري يا عبد أنا أدري لكن ما يطلع باليد شيء ، أحس ان كل ما اتخايله صحيح ، وأصلاً صحيح ، أنا رأيت سرحان وبيده البارودة . لم ينظر اليه عبد على انه باكيذة آخر ، بل ومن تعابيره ونبرته أحس بصدقه ، ولم تحمل تلك النبرة تكلف الصدق ولا الحاجة لجعل الآخر يحس بهذا الصدق . وتابع جاسر : شوف يا عبد انت لو تشوف كل الحياة كان فهمتني .. بس ما تشوف سوى الجبل وسوى الكابتن موغبيه وسوى السرجان حمزة ، اذا تشوف الحياة من جميع أطرافها تفهم وتفهم انه أمسك بالبارود وطاردني مثل المجنون ، قال لي اطلع لا أطخك بالفشك اطلع لا أطخك بالفشك ، ولهذا طلعت وما كان أمامي الا انت يا عبد انت يا عبد ، وانت كنت حاضر وشاهد على ذلك ، أسألك يا عبد ، كنت تنتظرني أم لا ؟ اذا كان جوابك لا فأنا أتخيل واتوهم وما في شيء بحياتي صحيح . ورد عبد : الحياة لها اصول ، خلينا نشوفها كلها ولا تخفيها عنا .. وقاطعه جاسر : لها اصول أم لا فأنا أعرف كيف هذه الأصول وكيف تعني بالنسبة لي .

وراودته أحاسيس ذلك اليوم عندما قالت له أمه ان خالك قتل حربة النجم . صحيح ان المياه كانت ناضبة ، ولم يكن في النهر دوامات ولا سنسنة لكن قتلها . فشد قبضته على بارودته نوع "كينـز" وتفقد مخزنها وسدد وهو يلاحظ الغبار المتصاعد من بعيد . وأمرهم السرجان حمزة الأحمر في نقرة الدم مؤتمرا بأمر الكابتن ، قال : عندما أشير بيدي نار اطلقوا الفشك ، ولا تطلقوا قبل ذلك . وكان على السرجان حمزة ان يفهم أولاً اشارة الكابتن، وهو يحدق من خندقه نحو الشراذم القادمة باتجاهه . وتذكر تكاثر الغبار ، في لحظة فقط ، لحظة كافية لأن يسأل نفسه اين أنا ، تذكر غبار خان الوسط ، فارتسمت أمامه صورة مدخل الخان الترب وقد تصاعدت من أنحائه أنفاس الممتحنين ومخلفات حركتهم القصيرة المضطربة ، لقد نشط الغبار من محاولة اخراج الدواب واخلائه للمتقدمين للتقييد . تذكر الغبار الذي هجم عليهم من الجهة ذاتها ، كان قادماً فارتفع أمامه هواء صعب مقطوع لا نفس فيه .

وعند المدخل داهمهم الغبار ، فأفلت يده من يده ، قال عبد : خليك ورائي ، ندخل خان الوسط وراء بعض يا جاسر . واستغرب جاسر عندما رأى الازدحام فقال: كأننا في الحشر .. كلهم يريدون يقيدون يا عبد ؟ رد عليه بكلمات مقتضبة: مه كلهم ينجحون بالتقييد، أسكت . وسمع صوتاً ينادي لتنظيم الصفوف : البقارة هون ، ومن هالطرف العقيدات ، من هذاك الطرف أهل

الدير وما بقي بين الصفين ، تقدموا ثلاثة ثلاثة الى عند الكابتن . وسأل جاسر: مه الكومندار هو اللي يفحص ؟ فأجابه: ما أدري.. الكابتن يمكن هو اللي يفحص .. الكابتن أحسن . ووجد من يقول لهما : انتما مناسبان لبلوطين التحرك السريع ، بعد اجراء الفحص الطبي في عصر اليوم ، تتدربون بالمعسكر الغربي ، وهناك تستلمون اسرتكم وبذاتكم ، ومنذ البداية تدفعون عشرين نيرة ذهبية تخصم من رواتبكم لشراء ذلول للتنقل في أراضي الجزيرة. وطلب الكابتن ان يقطع عشرة أمتار ذهاباً واياباً ، بخطوات منتظمة وعلى طريق مستقيمة. عصب عينيه وأمر ان يسير دون ترنح، قال: اذا استطعت ان تصل الى نهاية الطريق وتعود منها دون انحراف فأنت مقبول في الهجان الفرنسي . رفع صوته يسمع الآخرين: من جاز هذا الامتحان يعد من عناصر الجيش الفرنسي، وكي تدخلوا في الثكنة الغربية عليكم أولاً اجتياز الطريق. ووجد جاسر انه يستطيع ان يمضي في الامتحان اذا كظم انفاسه حتى النهاية. يلعب به الغبار والريح الساكنة، وذلك الضجيج يبدد الخطى، يمزج في خياله الأقدام المضطربة بالهمهمات الجزعة، وظن انهم ينظرون اليه بقلق وانه أمال هذا الطريق وأحرف ذلك المدى، فتصاعدت الهمسات تبحث عن الطريق وعن الهاوية: أالى اليمين أم إلى الشمال؟ عند ذلك استقم واستقم كي تصل ونصل معك الى الثكنة الغربية .

كانت الثكنة الغربية في الدير في نهاية الشارع العام . نقطع خطوات ممتدة ، ونخلف وراءنا المنازل وتلك البيتة ، بيتة المبائت حتى نرى الثكنة الغربية . مسورة بأسلاك شائكة ، وتتوزع في أنحائها مباني محدودبة بالطوب الأحمر ، وتقف في زواياها مآذن خشبية للحراسة ، قد تركها الحراس فلم يظهر فوق مناصبها مسددون ولا مراقبون ، اما النهر فكان خلف الثكنة وغير بعيد عنها . وكانت الثكنة ستمس شاطئ النهر ، لو انها اقتربت منه قليلاً ومال النهر الى يمينه بقليل ، لكنها بعيدة كفاية ليتجول المرء بين الشاطئ وبين أسلاك المعسكر . كان الباب الى يمين الجماعة الجديدة التي دخلت الثكنة ، متوجاً بقوس يمتد الى ناحيتيه المدعمتين بأعمدة حجرية مستطيلة ، وأنشئ من جهتيه جدار بني جانب الطريق ، لم يسور غير تلك المنطقة المحدودة ، واستعاضوا عنه بعد ذلك بأسلاك شائكة سورت جوانب المعسكر الأخرى . وغرف القيادة الى يسار الداخل اليها ، بينما تراجعت المهاجع الثلاثة عن ساحة المدخل ، امتدت نحو اليمين وحتى أطرافها ، وكانت أمامها الساحة الكبيرة التي قضوا فيها أشهر التدريب . وفي ثالث مهجع كان سريرا جاسر وعبد ، امام النافذة المطلة على الساحة حيث ظهر في زاويتها اسطبل الجياد ومرآب سيارات نقل حربي .

كان أول طعام لهما هو طعام العشاء ، مد على طاولات صغيرة متلاصقة ـ في قاعة المطعم ، كانوا آخر الوافدين اليه بعد أن أنهى قسم كبير من الجنود عشاءهم وظل العسكر الأغرار الذين نجحوا في الفحص الطبي لذلك اليوم . دخلوا الى قاعة عائثة بالصمون وببقايا الأكل ، وطلب منهم تنظيف صالة الإطعام ثم مد عشاءهم فوق تلك الطاولات والانتظار لفترة من الوقت حتى يأمرهم العريف ببدء تناول الطعـام . في مساء أول يوم ، عندما وضع جاسر رأسه على الوسادة ، واستلقى على سرير المعسكر ، عرف ان اليوم الذي مضى كان يوماً شاقاً وطويلاً، أول يوم ، حيث وجد نفسه بحكم الفار والمطارد. لولا عبد لكان اليوم يوماً آخر ، ربما يوماً شرقياً لا غربياً ، حيث سيجد نفسه في أطراف الدير يحدق بإمعان الى المنزل المائل في بنيان الجبل ،

ويعرف عندها ان طبيعة الجبل لم تتغير في داخل الحوش المسور بالطوب وكتل الطين ، انها مائلة أيضاً ، وما زالت آثار السيول محفورة في أنحائه تشير الى المجرى الذي لم يتغير بإقامة دار المجدل . لم ير في ذلك اليوم مياسة المجدّل ولم ير حمزة . كانت الريح تأخذ بأطراف الثوب فيجعله يظهر جسد عبد السليمان . كان من المحتمل ان يثار الغبار في نفس اليوم في خان الوسط ، لكن أسوار الخان العالية منعت الرياح أن تفعل ذلك ، وظلت حركة الأقدام القصيرة المضطربة تثير الأتربة ومخلفات حيوانات الخان . وتذكر جاسر ذلك المقدار الضئيل من الغبار الذي صعد في سماء الخان ، وكانت الأنفاس تشيع فيه الخوف .. تثير في نفسه ما حسبه هجوماً يرتفع نحوه ، وهنا توقع جاسر ان يسمع كلمة السرجان حمزة اطلاق نار .. بأقصى ما يستطيع ان يسمع ، قال السرجان حمزة : السبابة على الزناد ثم اطلاق نار عندما تسمعون معي إشارة الكابتن موغييه.

وفي نقرة الدم لم تحصل مواجهة وعراك كما توقع الكابتن . قال جاسر : ان شعوراً غريباً ألمّ بي وحدساً انه لن تحصل معركة في نقرة الدم، بعد ان قطعنا المسافة الطويلة ، واخترقنا خطوطاً ربما ستكون الأولى لو أنهم أرادوا المعركة ! أبعد ذلك كله تحصل معركة؟ لا، لن تحصل معركة. العربان لن يهاجمونا بعد ان دخلنا البلاد . الكابتن موغييه يشير بيده والسرجان حمزة يطلب منا تنفيذ أوامره : ياللا احفروا خندقاً طويلاً ، ياللا كي نحتمي من الهجوم المعاكس . كان الكابتن يرسل أوامره وكان السرجان يصيغها كما يفهمها وننفذها بدورنا كما يمكن ان تنفذ . وعندما وضعنا يدنا على الزناد علمنا انهم ليسوا سوى طش تائه ، فتريثنا وانتظرنا كي يتبدد من أمامنا سديم السنابك . وحيث انتهى التحرز ، قلنا للكابتن : ان هذي البلاد متاهة ، تضيع كل حي ، وليس كل ما يرى في انحائها مخطط له ومرسوم ، الفوضى فيها عامة ، ولا تحكمها ما يحكم الأقضية والمدن . ولم نحارب في الجزيرة ، اننا لم نحارب قط . عندما مررنا بتلة العزيزية المحاذية لنهر الخابور ، قالت امرأة المختار : لا خوف من العربان .. هذه القوة ستجعلهم يتراجعون بل يستسلمون ، ذلك اذا لم يتوفر لهم الهرب الى تركيا ، وهم على كل حال قد استنزفوا قوامهم منذ أول يوم مزعوم ، لا توجد هنا قوة تصمد أمامكم . وشكرها الكابتن شخصياً ، وسلمها كتاب شكر يحمل ختماً وتوقيعاً اعتمدته القيادة في بيروت . ولوح لها بيده ، وقف في سيارته التي نزلت التلة بسرعة ونشاط ، واستدار اليها ثم رفع صوته وثقب آذاننا بقوله: ميرسي مدام. وردت عليه، ممتلئة بالفرح والحنين : لا شيء أكثر يزيدني عن هذه السعادة سعادة ، يوفقكم الرب أيها الأخوة. واعتقد الكابتن ان هذه العصبة القادمة باتجاههم ، لم توفق في الانسحاب ولا الفرار ، فاضطرت للهجوم المعاكس ، فعلت ذلك

عندما رأت تفرق البلوطينات وبقاء الكابتن في نقرة الدم ، معبر الفارين الى تركيا .
وعندما تبينوا البلوطين الذي تمركز في خط دفاعه ، توقفوا فجأة ، فرملوا كعربة ، وذلك قبل ان يُسمع كلمة واحدة تدل على بدء اطلاق النار . كان الخوف مخيماً او ان جواً من الترصد والاستفهام أوقف الشرارة التي كادت تنطلق . ولبعض وقت حجبت الغمامة التي تقدمتهم تلك البقعة التي أحجموا فيها بعنف ، لم يتبين عددهم ولا زيهم ، هل هم أكراد أم بدو ؟ حتى انقشعت الغمامة وزالت ، ورفع أحدهم منديلاً أبيض ، ومن بين الغبار والصهيل قال : العربان وقبيلة طي ، في الطراميش وقرة تشوك لا تريد الحرب ، انها تستسلم لكم . أحسسنا ان هذه الغمامة غمامة من خان الوسط ، وانتهينا لتونا من طعام العشاء فعدنا الى المهجع الثالث . بينما بدأ ضجيج محرك الكهرباء يخرق السكون الذي خيم فترة المساء .

وكان أول ليل بعيدا عن هدلة .. اضطر ان ينام دونها ، من غير ندم وحسرة ، بل في بعض المرات يتفاجأ انه ملاحق ولم يبق له سوى هذا السرير، هنا، الى جانب عبد السليمان . حسب ان الأمكنة المحتملة لتواجده فيها ، أضحت مراقبة وممرورة مرات من قبل سرحان . كانت الكبانية الغربية بالنسبة له طوق نجاة وحبل للخروج من قعر متاهة . لذلك أجهد نفسه كي ينجح ويكون بين المقبولين ، وأنبت في داخله طاقة هائلة للتحمل والأناة ، أن دون ذلك ظنه الموت والانسحاق تحت أقدام فرحان عبد الغني الشاهر . لقد فكر ان بيوت الدير المغلقة ، المغلقة كصندوق صوان ، أوحت له ما تخايله في بيت فرحان .

كان يحب ان يفكر في هذا الأثناء ان انتسابه الى الهجانة كان بسبب الفقر المدقع الذي عانته الأسرة . لقد هاجرت الى الدير حينما فشلت في إقامة رزق دائم لها. ثم تفرق شملها، عادت هدلة الى العلوة محزونة مكدومة ، بينما انطلق عبد الله الرحبي الى مكان آخر، ارتحل بعيداً نحو مناطق الشمال، موطن التجارة والعمل . أما هو فقد فتح طريقه عبد السليمان حين ذهب معه للإنتساب إلى الجيش الفرنسي. كان يفكر في امتداد الأراضي التي رآها فجعلته يقارن بين الدير والعلوة ، شعر بنفسه أنه دخل الدير دون استئذان ، وان كان الآخر قد احتمله فهناك فرق كبير بينهم وبينه. وهنا التقى مع عبد فجذبه الأخير الى خان الوسط .

هذه المواجع دائماً أقلبها ، أنكأها ، فتظهر في شوارع الدير ، كنهر انساب لتوه من الأرارات وراح ينحرف ويدلع في أمواهه ، أنا الفرات الرحب خلفها .. خلف شعرها الفراشة على ظهرها، وعيناها تظهران لي المدى ..تصعد مياهه

بنا ، وطالما حلمت ، وروحها الموسيقى تغني في صدري فتجعل جاسر ينبض كلما تذكرها وتخيلها . من هي ؟ أبحث عنها في الجهات : من هي ؟ واذا أومأت احداهن لي ، أسأل كل النسوة، أين هي ؟ حتى أحسب انها الأم . في يوم ما جاءت هدلة وحكت، فظننا انها فكرة هدلية، تعشقنا ونعشقها. وقالت في عصر ما، في يوم لم يأت بعد ، قالت هدلة ما قالته، فاهتدينا.. وعرفنا أنها هي، ربة الجسر ، أسميناها بذلك . الجسر.. لكونه يرف بموسيقى شجية وتقاسيم بوح كلما اعتلت فوقه. ومثل نسمة طاردتها فراشة ، يبدأ بالرنين والحنين حتى يتكور عليها ، يجذب أربطته وعلائقه عن الضفتين ويطوقها بصدره ، يرمي عليها سياجه وتاجه.

لقد نسيت ذلك العمر، عمر الحب والحياة ، فبدأت بالصدى الكاذب. واستيقظ صباحاً في أول يوم تدريب ، استيقظ في صباح ليس من صباحات الدير . يستقل الصباح في الكبانية عن صباحات الدير وعن أسواقها وخاناتها . ان الدير لا تملك صباحاً كما تملكه الكبانية وفرنسا ! سمعنا قبل الفجر وقبل الهمس ، قبل ساعات السحر ودمدمات النخيل زعيقاً ينذر بالاستيقاظ وترك الاستلقاء على الأسرة ، سمعنا صوتاً يفرض التأهب والتحضير لخوض نهار دام لا يخلي دقائق الزمن ولا ثوانيه تذهب مهب الريح : افرنسا تبث الحياة في كامل جسد النهار، تستغل كل لحظة يخلقها الله ، وأوحى لنا الكابتن ، شبه البابا ، من يمت الزمن فإنه يمت الله ـ سير المرش النظامي ، تقديم تحية المرؤوس الى الرئيس ، فك وتركيب الأسلحة ، ثم الرمي بالأسلحة الخفيفة نوع كينز . ومنذ الصباح انبجس في خاصرته سيخ نار ، ظل يتقد حتى رفع يده يطلب التريث والراحة ، وتعلل ان قطعا من حجر ورمل وحصى قد ثقبت أمعاءه. وصاح بلكنة ونفس متقطع : لا استطيع الاستمرار . مثله كمثل رفاقه الذين انهاروا في بداية الطريق . صاح بهم العريف : لا تلتفتوا الى الوراء. وتابع منهك القوى، ظل يجري متوحداً معها حتى انحجبت الدنيا من أمامه، فراح يقر بضرورة المتابعة ، ومهما يكن فإن سرحان خلفه يحمل جفته ذات العينين والفتيل : تلك البندق ستصيب منك مقتلاً إن توقفت قدماك ، تلك البندق ستطحن أمعاءك وتذر دماغك إن تخلفت!

أحس في أيام التدريب ان كوناً جديداً راح ينشأ في جسده .. حياة صارخ برزت في نواحيه .. وبالتالي استفاق الاحياء الذين ناموا في كهف الجسد .. وتعبأ حيوية وحركة ، أخذت أيامه تصرخ وتتحرك ، وظن للوهلة الأولى ان هذا الرقص والوليد المتحرك سيخلقان له حياة أخرى ، حياة خضراء ، يفهم بها كيف جرت أيامه السابقة. ان تصرفه الساذج في بيت فرحان لم يرق له ، وكان يتعذب كلما ذكر الحوادث التي حدثت معه هناك . كان يعزي نفسه : انها

الجهالة والصبيانية يا جاسر . أما الآن فإن اختلافاً لا يستطيع تبينه أقام في رأسه ، ومنه راح الى رؤية جديدة . وتمتم في إحدى المرات يحمد الله لأنه طرد الوسواس وشيطان الكسل من قلبه : الحمد لله. وهو لا يريد ان يتذكر الأيام الهزيلة الماضية .

الأيام التالية جعلته دون خيال ولا تهويمات ، كان يندفع بشهوانية ناحية الطعام، يلتهم أطباقه بلا هوادة . ويعود الى مهجعه ممتلئاً ، يشعر ان رأسه يشارك معدته في طحن غذائه . ورأى الحياة عن طريق غريزة الهضم ، يضحك من قلبه بنشاط وقوة ، حتى اذا انتهت ضحكته عاد يشمل بنظره الساحة ويرى من النافذة ما يجري في المعسكر أثناء الليل ، من خلال مراقبة المرآب واسطبل الخيل والجياد . كان يستدير برأسه ناحية النافذة ، يقطع حديثه او انتباهه كي يفسر نوع الحركة، ذاهبة ام آتية . وعرف بعد ذلك ان تياترو جديداً أقيم في الدير ، وآخر في العلوة . وهناك عصابة من النسوة الغريبات أصبحت تختار وقت الهجوع وإطفاء الأنوار كي تقترب من المعسكر بعربات لا شكل لها . كل يوم يسمع مع رفاقه ضحكة نسائية متمرسة، تطلقها احداهن من خارج أسوار المعسكر ، في ظل شجرات النخيل الهادئ .. وكان جاسر يلكز رفيق عمره : أتسمع يا ول .. تسمع يا عبد ..

أما تدريب السلاح ومسير المارشيه ، جسده المسمر تحت رامات العرق والغبار والشمس ...فكان يتأهب الى الالمام بكل ما يعرضه الرقيب حمزة والعريف نظام الدين . ان المسير العسكري يبدأ بالخطوة الأولى ـ يد قدم يد قدم ، يسار يمين .. لكي يتوازن النظام الجمهوري لفرنسا يد وقدم ثم تهتز الأرض تحت أقدام (البرم كلاس) جاسر الرحبي ، ويده في وضعية تحية للرئيس ، هيئة مسمرة ومبادرة لتنفيذ أوامر الكابتن موغييه .وأوحى له انه اذا نفذت المهام كما يجب ، فإنه سيرقى الى عريف. عليهم الانتباه كثيراً والحرص كثيراً والاقدام كثيراً في نقرة الدم . البرم كلاس تحت يد العريف نظام الدين والعريف تحت يد السرجان حمزة ، والكابتن موغييه سيقرر الهجوم في حينه .
وأمسكه عبد من تلابيبه . في الليل امتدت اليه الأيدي كي تمنعه. كان يلهث كثور، بينما كان بين الخطوة والأخرى يلتفت الى الخلف يرى أن : ما أذل الزمن الذي مر عليه في بيت فرحان ، فهناك غير هنا . هناك كانت عقدة الذنب والدونية تلاحقانه ، أما هنا فالعكس تماماً ، كان يشعر انه محق في كل أمر ، وانه لمشرف له وداع الى اعتزازه وفخره ان يقوم بذلك . فلو ان الكابتن نفسه تحت شجرة النخيل فانه ذاهب ومتسلل كبقية الضباط وصف الضباط .
وقال له السرجان في اليوم التالي : لأنك حزت على تقدير الرؤساء في حقل

الرمي لم تعاقب على فعلة أمس .. انها فعلة شائنة أيها البرم كلاس .. وكما ترى معي نحن في حالة استنفار وحرص ، ان النساء الغريبات يحملن في فروجهن الخيانة والهزيمة، لذلك من الآن وصاعداً نهتم معاً : كيف نهزم الأعراب والأكراد في الجزيرة .. كما تعلم سيرقيك الكابتن الى عريف وأنا الى مساعد ، يعني "أجدان" ، وتعلل جاسر بأنه : حلم ، الليلة الفائتة مضت كحلم.. لا يمكن توجيهه وإدارته كما يريد ، لو لم تكن وحيدة دون شريك لما تسلل اليها . في الحقيقة لم يلتفت البرم كلاس الى وضعية الضباط وحالة النزو التي عاشها صف الضباط ، اتجه من فوره نحو جدائلها وتلك الغديرة الصفراء ، ترتمي في صدرها كشلال مضفور ، وكان عليه ان يتحقق أنه على ضفة النهر فوق الحصى القمرية ، يطأ نوراً وحالة مشتهاة . وقبل ان يعود سمع السرجان يأمره : إنهِ أيها النذل، لقد قضت ساعة النسوة ، وعليهن الرجوع . فلملم ثيابه وجر أذياله وعبر السياج المحطم ، معبر نزوات الليل ، وكتم أنفاسه وهو يدخل المهجع ويتلمس بأطرافه الطريق الى سريره.

لكن الكابتن موغيبه بعد ان استوعب الموقف أمر ببناء بيت راحة واستجمام في الدير عوضاً عن عري في ضفة النهر تحت شجر النخيل في ضوء القمر الساطع .

كان البيت في الجبيلة ، ومنع جاسر ومرتبته من التردد الى هناك بسبب التدريب . وانخلق جو جديد ، خيّم عليه . وبتكرار الأيام راح يشعر ان الطريق الوحيد هو ان يعود الى أيامه الأولى . ولقد سمع بعد أسابيع أصواتاً قادمة من الشرق ، من تلة الدير بل من طرف السوق ، وعرف انها هلاهل زفاف.

كيف تكون ؟ وأنها ما تكون .. ذلك ما سيرويه بعد زمن ، حينما يهش ويبش ويقابل خرافته ذات الحاجبين الأبيضين والرأس الصلعاء والفم المرول ، عايد الخضر . واستطاع من خلال سماعه أصوات الزفاف القادمة من دروب الدير، ان يكوّن في أعماقه بذرة أولى لحب لا يروى. فتش عن الأسماء ، إسماً إسماً ، وعن السيما والأشكال ، عن الوجوه والأجساد الشامخة ، التي تسير في شوارع الدير وإنها في زمن ما ومكان ما، من عالم أخذ يرقص مع نبضه وحدسه ، انها.. وجدها حين لم يجدها أحد من المسنين الذين يعكزون على أرصفة شارع (ستة الا ربع) ملتهثين الى قنص مرور واحد لها ، عبر ازدحام السنين والدهور .

خرج جاسر كمن يخرج إلى نزهة ، لم يأبه الى طبيعة الحقول بل أخذ يعب من طزاجة الغدائر والعيون ، ونسي كم من الأزقة اجتاز ، كم من الضفاف والأشجار والسواقي ، كم من ازدحام الشرف والوجائب المندلقة عن أرصفة المحلات وجماهير السوق . كان صدره يصعد ويهبط ، خلال الحشر العظيم ، يحاول ان يعيد على نفسه ما ظن انه حدث .

ويا ربي تشهد علي يدي ولساني ، يا ربي لا أملك سمعي ولا بصري، وتشهد عليّ يدي ولساني، أروي ما أفطن اليه : كنت في نقرة الدم .

الكابتن موغييه في هيئة وثن ، رافعاً يده شارة لإطلاق النار نحو الشرمذة التي تقدمت نحونا . رأينا علامات الاستعداد والتهيؤ لغمز القادمين برصاص البنادق والرشاش . وكانت السبابة ترتجف عند أصبع الزناد ، تنتظر من يبدأ اولاً . هذه اليد تشهد عليّ . وعيّنا أسفل ومنتصف الهدف ثم كان منا الرمي برشاش نوع كينز : طاخ طاخ .. الى آخر صوت لآخر رصاصة .

وبعد . تذكر عندما مر بقربه رجل ترف ثيابه ، تطبع جسده وأعضاءه الذائبة في حميا الخيال ، ومن المحتمل ان رائحته الطاغية حملته على فك رباط النسيان ، فتسللت الذكريات الى خباياه ، عندما مر به كان يريد جذبه من يده ، غمرته رائحة أعادت عينيه الى محجريهما وفمه الى مبسمه ، فتذكر رائحة عبد ثم تذكر عبد ثم أوحت اليه جملة الأفكار جميعاً صورة جاسر الرحبي في الكبانية وفي نقرة الدم ، وصور أخرى مرت سريعة ، كخاطرة برقت في سماء مجهولة . وتساءل : ان هذه الرائحة لم أذكرها قط ! وذكرتني الى حد العودة . بينه وبين العودة أميال قطعها بالرائحة تسقطه في حبائل شارع ستة الا ربع .

جاسر! سمع صوتاً ألفه منذ القدم ، فأزاغ روحه جهة الصوت ، وعندما أقتربت منه ، رفع جهارة صوته ، وبالمودة نفسها قال : كيف يا مريم أصبحت دلفينة سمينة في شارع ستة الا ربع ؟ لقد شطرتك الدانات والقنابل ، فصرت رماداً وسكوناً في الدير ، خيمت طبقة سميكة ذات حراشف هادئة في السماء، فكنت أبحث عنك في السماء ، لا أخفض عيني الى تحت ، بينما الجميع ينظرون الى الأرض، مسرعين لا تأخذهم أنباء السماء.

تلك شطيرة من شطائر الألسنة القادمة ، من فوق السد ذي الألسنة .. امتدت اليها يدي ، يدي هي يد حفيد أتاني في غفلة وغرة..ألحت في صوتها المخنوق: انها ليلة البدر الممنوع ، فلا تخل ...أنا خصب ونشوى .. يمتد فيها .. ويعانق في لياليه رغبة جارفة للقائها فوق . وتذكر يوم الرمي عندما قال لهم السرجان حمزة الأحمر اجمعوا حقائبكم واحملوا بنادقكم ، ستخرجون من الكبانية الى حقل الرمي . مشوا في رتل خارج المعسكر نحو أراضي الدير الغربية ، وقال له عبد : ان كانت تجري في عروقك دماء عايد الخضر ، فسيفيدك ذلك في التسديد والإصابة . كانت البلوطينات الثلاثة قد خرجت وراء بعضها بعضا من بوابة المعسكر ، وخلقت ألبسة الميدان والبنادق المترنحة حول لوح الكتف مسير جلجلة في اتجاه النياشين المغروسة في سفح الهضبة ، كانت الخوذ المعلقة حول الرقاب ترتطم برؤوس البنادق ، وأحذية البوط الثقيلة ذات النعل المصفح تكسر الحصى وتطرق الحجارة . وحسب من راقبهم عن بعد ، ان احتلالاً سيجثم فوق الأراضي . تحرك الاحتلال من الكبانية وتغرب جهة فسيح البوادي الصامتة . قال البعض : نطقت تلك الأراضي كما لم تنطق من قبل ، تحت أقدام الجيش الراعد بدأ أزيز ، ثقب الأسماع ، يتصاعد مع دخان البارود والأتربة المثارة . ودام الأمر ساعات حتى انتصف النهار ، ورفع آخر رامي يده علامة انتهاء الرمي. ومع كل إصابة حققها جاسر في قلب الدريئة والنيشان كان يصيح فرحاً متهيجاً : أنا أخوك يا هدلة . سدد أسفل منتصف الهدف، وتلمس البارودة التي شدها الى صدره ، كان قد اعتنى بفكها وتنظيف قطعها قبل موعد الرمي مرات ومرات. وتنبأ عبد ان دماء النشان الأول عايد الخضر ، تجري في عروق ابن اخته. وتلمس المخزن بسعة الأربع عشرة طلقة ، ثم حول حدقتيه الى بعد مئتي متر، وهناك سدد الى وسط دائرة سوداء، ولم يغامر بالطلقات الأولى ، كما غامر من كان الى جانبه وبدد طلقاته منذ أول لمسة لروح الزناد، وخلفت سديماً من الغبار حجب الدرايا ومنع التعيين، وفكر انه لا بد من انقشاع السديم كي يبدأ الرمي .

وهو يطلق رصاصاته ، طلقة اثر طلقة ، بعد ان صمتت البنادق الأخرى ، ذهب خياله في كيف يتنصت أهل الدير الى صدى بندقيته ، وهي تصاحب رتم قلبه العاشق . والحق كان حدسه صائباً ، فمريم التي سمعت صوتاً بعيداً تصعّد من عمق مياه النهر ، جفلت بكامل جسدها ، ثم أخذت تتعرف على ترداد الصدى والرجع الخافت . كان القيظ قد قرّبها من البركة ، فداعبت المياه براحة يدها ، وانتبهت وهي تدس يدها في صحن البركة الى منبض المياه ، كانت المسامع والأحاسيس تؤكد لها ان هذا الخفقان الهادئ له صلة ما مع

سنوات عمرها السابقة ، فحاولت ان تنقب في نوع الحوادث التي تتماثل مع ترداد الصوت المبتعد .

أيامها كانت تتحضر لحفل الزفاف ، وقد أخذتها موضة الثياب والأرواب المرسلة من انطاكية وبيروت ، مقاسات الصدر والخصر ، وتموج فستان العرس ، وكثيراً ما كانت تتسلل في أحد فساتينها الى الغرفة التي تركتها هدلة او الى بيت مهيدي الفارغ ، بعد ان تلجه بخفة وتبقى في فنائه برهة تحلم بحبيب يقودها ثم يحملها بساعديه ويدخلها الى غرفة نومه . وهناك تبقى دقائق وحيدة مع أحلامها . كانت الذكريات قد خبت في داخلها وأصبح جسدها يخفق بآمال الأيام القادمة. نظرات ناصح ، عند زياراته المسائية ، تخترقها بشهوة وإعجاب ، وتلاحقها خطوة خطوة ، اذا قامت من جانبه تجهز العشاء والشاي، وتعلم انه يعريها بعينيه المتألقتين ، فكانت تنفرد مع نفسها أمام المرآة ، تبحث وسط الظلام المخيم على جسدها عن مواطن الفتنة التي ترعش قلب خطيبها ، وفضفاض الثوب المضمخ برائحة الحبيب المعجب ، يرقص مع تمايلها نحو الجانبين.
كانت تضغط براحتها على معصم يدها عندما سمعت نبض الفضاء وصدى المياه ، فخرجت متجهة الى حافة البركة .

وانتقلت فجأة وهي تجس المياه النابضة براحتها ، الى خبء ذاكرة انحجب في الأروقة الخلفية . وأجهدت عقلها كي تظفر بما مر بها واقشعر فيها ، ففتحت دون وعي حجرات أغلقتها منذ أمد. كانت الصورة كلما ذهبت ونأت أعادتها تلك المنابض التي اخذت تنتشر في الفضاء . غلغلت ساعدها ومرفقها في المياه المتراقصة حتى ابتلت اكمامها وظهر عاج زندها الاسيوي . وتجسدت الصورة امامها واضحة، الصورة المنطفئة منذ زمن ، زمن كان قد بدأ برحيل هدلة الخضر : وجه القمر أعلى السماء ، يطل على عاشقين وهميين ، كل منهما يهوى ما يهواه الآخر دونما مفاصحة وكشف ، تضحك وتشهق : كذلك اذن ، تعبث بجديلتها ، مرة تطرف حياء وأخرى تتملاه سعيدة. في ضوء القمر اقتربت منهما هدلة بعد ان وقفا عند بسطة الدرج ، يتبادلان بذور عشق مكتوم ويتكلفون الاستماع الى ما يجري في غرفة الديوان الصامت ، مرفقيهما الى الحائط ، يتحافان بالملامس والقلوب الخافقة .
حتى رفعت يدها عن مياه البركة ، فسقطت قطرات متلاحقة من أصابعها، تواقتت مع ذكرياتها المتتابعة ، فمرت بالهطول الفيضاني الذي عانته الدير ، بالترميم وبساحات الاعدام التي أقيمت إبان ذلك .. ثم ونقطة نقطة .. راحت تتذكر ما حدث في غرفة صوان شاها وغرفة مهيدي عندما أعلنت المئذنة المائلة دخول الكلونيل تربيه أراضي الزور .

وفجأة تغيرت من ناحية خطيبها ناصح. فحينما ودعته عند الباب ، أقسمت صامتة انها لن تتجمل بعد الآن أمامه. لقد وضح لها بالدليل القاطع ان خطيبها لا صلة له بالرجولة . وما تردد من شائعات حوله ، في بداية الخطبة أصبح يحمل مقداراً من الصحة لا لبس فيه ، ليس هناك دخان من دون نار ، ولأنه يعتبر زوجها عرفاً ودينا ، لا يسعها التراجع الآن ، لقد كتب عليها ولم يبق سوى دخلة الزفاف .

لماذا لم ينتبه إليه فرحان؟ لم يكشفه أخوها سرحان ؟ هذا ما لم تفهمه. انهما يعاملانه كأنه خلف الحويش ، يظنان أنه شبه أبيه ، سيزرع أراضي البور أينما وجدت ، يحتفر أباراً مهما كان عمقها ، وسيحرر المياه في سواقيها . كان خلف الحويش لا يختلف عن هيئة فلاح أسمر ، يشمر عن ثوبه ويخوض في سواقي الشمس ، يفتح المجاري المغلقة ويردم الاندياح ، ومن دوانم قليلة بدأ ، استطاع ان يضم اليها أراضي الضفة الممتدة حتى عين أبي جمعة ، وأصبح في سنوات يشاطر فرحان أراضيه الواقعة في الجزيرة الى يسار النهر . وإن كان ناصح يقلد أحياناً أباه ، حركاته ، انفعالاته ، فإن أباه إذ يشترك في حديث يمس جانب عمله ، وتعلق الأمر بالبذار والمواسم ، وتخلف الفلاحين ، وبعض الإهمال، ينتفض ويصعّد نبرات صوته .. ورويداً ورويداً حتى يذهل الآخرين، فيجعلهم في مصيدة الذنب والتقصير . لكن ناصح ذا الطبيعة الباردة ، واذا تقنع بالارتجال ، بالصوت الضاج والنبرة المفتعلة ، فإنه لا يصل الى هدفه ومرامه .

في إحدى الأمسيات تحملت مريم زيارته. جاء إليهم وقد خضب شعره حتى قالت شاها تعلق : صرت كأنك افرنجي ، شكون تتخفى من رجال الجندرمة ؟ وهز رأسه مندهشاً من استنتاج شاها المطر ، وردد بإبهام : والله يعني ! لكن الليلة الفائتة أحست مريم بغير ذلك. جلست جانبه على مقعد خشبي ذي مسند ، وكان ينحني بظهره متقدماً الى الأمام ، وان تضطر تكلمه تنحني كذلك كي ترى وجهه ، وكان اذا تحرك يميل ببطء وثقل كأنه فوق دسر ومجامر . وتساءلت بعد وقت : لم لا يعود بجذعه وترتاح قعدتنا ؟ وكادت تسأله ، لكن هيئته وتجهم وجهه ، منعاها عن السؤال ، بقيت تترصد جوابها في الحروف والدمدمات التي ما كانت لتسمع منها شيئاً . وروى لها قصة الكهرباء التي أنارت منازل وأحياء الشام ، التلفونات الحديثة تنقل كلام اثنين بعيدين ، تعمل على مبدأ أسلاك البرق ، مع تعديل طفيف عليها ، وان الأجهزة والآلات يجب ان تدخل مدينة الدير، ليتمتع أهلنا وبقية الناس ونصبح عصريين . كان يروي متحمساً جاداً ، لم تتبع روايته وأمله في تقدم الدير ، وظلت تراقب نافورة

المياه كيف تسقط رشاشها ويتنافر نداها قريباً منها . وقامت في احدى قوماتها وكان يميل ناحيتها يشرح لها عن الهاتف: الكلام يصل كأن الآخر يقف حيث أذننا تماماً . كان يميل ميلته وقد ارتدّت ياقة القميص الواسعة الى الخلف ، فأمكنها ان ترى زرقة مطبوعة بإحكام في أعلى الكتف ، ورصدت ، طالما ظل يروي، تلك الزرقة ، فتبينت أنها مغرس أسنان أطبقت على قذال خطيبها.

لا تريد ان تصدق ما رأت ، وكذبت الإشاعة التي نقلها أخوها عبد الغني في بداية الخطبة : يريدون لطخ سمعة الشاب لأنه غني وجميل ، لا يوجد مثله في الدير . وأكدت شاها جور ما نقل من كلام في حق ناصح ، انه من عمل السحر الأسود ، كل البيوت تريده ولا ترضى ضياع هكذا نصيب .

بين ان تصدق وبين ان تدافع عن حبها، وقعت حائرة. ورافقته عند المغادرة الى عتبة الباب، وتلمست ظهره، في مكان قريب من مغرس الزرقة الأولى، على ندب آخر، فانتفض من الوجع، وتأوه ووجه نظرات عميقة إليها بحيث جعلها تغفر، له ولنفسها، ما نقلته عيناها وما دار في عقليهما. وسألت شاها ابنتها: شكون .. ظهر ناصح وجعان؟ فردت مريم : آني الوجعانة ، ظهره ما به شيء .

اذا ارادت ان تتذكر هذه الواقعة ، فإنها ستمزج معها صوتاً قديماً جاءها من زاوية الحوش ، ميزت فيه نبرة أخيها عبد الغني ، يجلس جانب الدرج ويراقب أخته مريم . وحين عادت ، بعد ان ودعته عند الباب ، كانت شاها خلفها تستفسر ابنتها عن الوجع الذي في ظهر ناصح، نفخ أخوها وأطلق من رئتيه مقتاً وكراهية وقال : من أين جاءنا ناصح ، هذا ابن .. ؟ لكن فرحان وهو يرفع أذيال عباءته تقدم منهما وقال بحشرجة : هذا ما يجوز يا بنت . ودارتها شاها تقول: ولد لقطة ، مهذب ومؤدب .. تربيته مثل تربية أهل البلاد ، أخذ أخلاق أمه الشامية . وأفهمها سرحان وهو يدفع سبابتها في وجهها : شوفي من هسّع اذا لا فقولي لا ، بس ينكتب الكتاب ما في رجعة ، الشغلة ماهي لعبة ! يوم أريده ويوم ما أريده شكون صار عليك ؟ وضغط فرحان بقوة على كلابيته: خلص أنا أعطيتهم البنت وما في تراجع في ذلك ، الكلام كلام زلم . وهمست أمها في أذنها : شكون تحمدين الله وتشكرينه أنه خطبك ، زاد هو لو سمع كلام الناس وحكيهم كان لا عتّب دارك ولا رادك .

غطت وجهها براحتي يديها ، ثم قرفصت في ناحية الدار، قريبة من عبد الغني، وأخذت تبكي ، وحذرها فرحان قائلاً : أنت بحساب زوجة ناصح ، لو تبكين سنة ما يفرقكم غير الموت ، واذا صدر منك تخلف لا تلومين غير

نفسك. وعقبت شاها : أنت الآن مسؤولة راح يكون عندك بيت وأولاد ، تشوفين حالك وحال زوجك أخيّر لك ولنا، وما نريد نسمع حكي .. يكفي . وربت عبد الغني على كتفها وقال بعذاب : يكفي .. مريومة .. تصبرين ومن عنده الفرج . كانت مخضلة ، ساح الدمع على رموشها فرطب وجهها ، حل على وجنتيها ومر بزاويتي فمها ، وانحدرت خصل من شعرها بين أصابع يديها ، سوداء ندية .

وعزلت نفسها ، لم تجد رباطاً واحداً يعيدها الى الأيام السابقة، ظلت تدور في فراغ تائه ، الظلام قعرها الى أعماقه، فصغرت في دروب التيه. وخطر في بالها ، بعد صمتها ، أن تنير جوف الظلام . رسمت خطة دقيقة لذلك ، في الظهيرة عندما يأوي أهلها الى قيلولتهم تدخل المطبخ وتدلق على جسمها تنكة كاز تلهب كيانها دفعة واحدة .

وكانت مريم كمنارة في مطبخ، الحر قاتل، حر صيف الدير. نثرت شعرها ، حلّت غدائرها ، عيناها جامدتين ، وجهها رطب ، وروحها خراب ، يبقى قلبها ينبض بثقل وبغض . وتراخت في عجزانها، جلست في حجرة ضيقة محاطة بجدران غير مرتفعة . كان الباب خلفها وعلى مقربة منها ، تواجهها ، صنابير الغدق . قرفصت وضمت جسدها هيئة جنين : "ابتعد الجسد عن وسط الحجرة خطوتين ، أما الركبتان فقد مسّتا منبت الأثداء عند الضلع الخامس من صدرها. فقرات الرقبة انحنت بقوة على غير انحناءة عمود الظهر ، تدل على ازدياد التكور في قمة الرأس . سلاميات اليد اليسرى على سلاميات القدم اليسرى ، سلاميات اليد الأخرى على القدم الأخرى . من الواضح انها طويلة لبعد الفقرات عن بعضها ، الأطباق البيفقارية ، وفقرات العنق ، طول عظم الزند والفخذ . يحتمل انها امرأة لشكل الحوض وميزات الزوايا ونسبة عظم الساق الى عظم الفخذ . مقاس الجمجمة وأبعادها يوحيا انها امرأة حالمة ذات صدر أمومي محب، هناك ندبة في جبهة الجمجمة جاء عن حذف بقطعة حادة، وهناك ايضاً امتداد للندبة في العظم الجداري من الرأس . من جملة الملاحظات الأخرى التي تتعلق بالقدم ، هناك تضخم وبروز وحشي في عظم البوع. أخيراً يوجد حطام وتهشم بالغ ، ربما بسبب انفجار مدوي ، حدث في جملة الهيكل العظمي."

بعد ان أحرقتها الدانات ، أصبحت ذرورا وطيف كربون متبلورا في شوارع الدير . انحرفت الدانات عن المنازل وجاءت كلها انفجار.

أغلقت المصرف بسدادة معدنية فارتفع بصنابير خزان السطح مستوى المياه الى مستوى كعب القدم. وكاد الماء يعلو أكثر لولا فتحة أسفل الباب . لم

تستخدم مغطس المياه الساخنة ولا الدش ، كانت تعبث بالصنبور المثبت في جدار الحمام وتلتذ بسقوط الماء على سلامياتها .
ولم يبق لها الا ان تنضو عنها ثوبها وداخليتها ، كي تسترخي في غيضة لا تخترقها شمس . ردت الى صدرها جدائلها المرنة ، وراقبت كيف تستلقي بخدر ، ثم أودعت قذالها لأرض الحمام واستسلمت لشعور غريب بدأ يولد . لفتها المياه برطوبة ، وداعبت جدران جسدها بحنو ، نصفها فوق والآخر في المياه ، يطفو على أرض الحجرة بوضع أبدي ، يدخل إهاب الجسد في حالة تأمل ، بينما تغمض عينيها ووجهها مسدل في بقعة ظلماء.

جسدها ملقى في الحمام ، ناعم طاهر كالحرير ، بارد بينما كانت الطرقات والأزقة تسخن وتغلي. مدت يدها الى بزال الصنبور ، وفتحته عن ماء مرشاش ، بهر قلبها ونزع عنه ثقلاً كامداً ، ملكت استفاقتها ، وأسرعت الى تجفيف جسدها بالمنشفة. وخمنت وهي تنشف المياه ان نفيض صدرها الصافي أصبح مسموعاً . فوقفت تحت رواق غرفة الديوان في ثوبها الكشميري تستمع الى صدى طلقات آتية من بعيد.

تسمع أو لا تسمع فإنها ستسمع هذه النبضات المصاحبة الهادئة كنسيم، والفضاء يطل ناصعاً ما عدا غيوم معلقة في السماء . دم .. دم .. دم وجعلت تنتظر الى ان يتبدد الغبار وتنقشع السدائم . وأجفل جسدها اذ تذكرت ماض بعيداً ، رسم أمامها الحوش تأكيداً للذكرى ، على انه لم يتبدل بعد ولم يسف بعد ويغير المعالم . فاقتربت من البركة وهي تتذكر نزهة الحويجة ، وخوفان حمزة المجدل ، وتيهان فرحان وصحبه ، وتلك اليد المنبسطة عند الدرج وهي تترافق وتتزاحف نحو قلبها ومطل حبها .

أوحى لنا الكابتن، ولفت نظرنا كم سترته الذهبي ، بإطلاق النار على من تقدم ناحيتنا ، فوق أحصنة تخب مسرعة لا تحيد عن الهدف . وعندما رمينا أول رصاصة سمعنا من طرفهم تكبيراً واستنخاء ، كانوا يتقدمون مع الغبار كالملاحم والسير ، وطارت كوفيات الرأس ويشامغ وأعقلة ، ومع ان بعض العثرات أصابتهم عند إطلاق النار إلا انهم ظلوا يتقدمون دونما خوف والى ان علت أصوات تستنخي المقاتلين، ومن خلال الردم وتصاعد الأبخرة والحرارة، الضجيج الذي ملأ السهب ، سمعنا ثلاثة مقاتلين يصرخون ببحة الخوف والإقدام : يا ولوا دم حميد الأعرج .. يا عربان .. ترا حميد الأعرج .. شهيد . فمالت الأعناق جهة الرجل المترجل عن حصانه ، أهملوا القتال ورموا أسلحة البنادق وأوقفوا الفزع ، أبعدوه عن قلوبهم ، كانوا جامدين ، يتحركون وثنا رمى عنه غبار السنين ، لا يأبه لما يجري في الجانب الآخر ، ولا الى رصاص الكينز الذي راح يحصدهم واحداً فواحداً ، انصعقت وجوههم السمراء ، وراحوا يتخيلون : ما هو الزمن الذي عاش ومات منذ برهة ، في جسد شيخهم ؟ ترجلوا عن الخيل ، وكي تسكت البنادق رفع أحدهم منديلا كان قد طار عن رأس حميد الأعرج ، رفعه : ننهي القتال ، العربان والقبائل في الطراميش وكل ما جاورها تستسلم دونما شرط وقيد ، اطلاقاً .

فصعدت دماء الارتياح تخضب وجنتي الكابتن : نقرة الدم استسلمت ومعها الجزيرة ، جزيرة الفرات والزور السوري. ثم هدأ تلون عينيه دموع بكاء فرح: أوه لقد نجحت يا مدام . وعانق السرجان حمزة ، غمره بحنين ونشوة معاودة اللعب: وحين كنا أطفالاً لعبنا الآضا. فخط على أرض المعركة ثماني مربعات ، ثلاثة مربعات وفوقها مربعان جانبيان ، والمربع السادس يفصلهما عن المربعين الأخيرين ، السابع والثامن . أوكزا . ألقى بندقيته ورفع أذيال كلابيته ، كفتها بالسروال وشمر ثوبه وراح يتلمس طريقه معصوب العينين حذراً ان يطأ خط الفصل بين مربعين من المربعات الثمانية . وأخفى الرجل ضحكة ما ، واربها بين اسنانه الذي لطخها تبغ الحراش ، دك التبغ في فوهة

السبيل وقدح زناد النار ثم أجمر النبات مدخناً رائحة تبعث على التأمل في كيف يعود الزمن الى الخلف (قضية الفلاش باك) والعودة الى عهد الطفولة والصبا . رفع ساقه يدخلها في حقل المربع الأول ، وسمع هسيساً بين الجنود وتضاحكاً . هس أحدهم : سرواله يخايل عن اليتيه البيضاوتين ، إلية بيضاء مثل وجوه جنرالات الجمهورية عندما يعتريهم غضب مفاجئ.

في الوقت ذاته . من المحتمل أنه في الوقت ذاته . واختلف المكان وتخلف الزمان ، فأصبح ذا طبيعة أخرى . ومن المحتمل ان مريم وهي تدخل غرفة نومها ، رأت ناصح يقاوم النعاس ، أطفأ النور وأسرّ لها بما انتوته الحكومة في اشادة جسر معلق يعبر الفرع الثاني من النهر وذلك بدل الجسر الخشبي ، كانت في حلم يقظة : مداعبة جاءتها عن طريق ذكريات الشباب ، وإن مضى زمن على ذلك فكأنه الآن ، ذكرى وحنين قدسي . شهقت الى حد سمعه: كذلك إذاً. يستلقي فوق سريرها ملطخاً بدماء أتته من أدمة تراب ووغى، وأومأ يهز بدنه إن شيخ طي مات ، سالت دماؤه على كلابيته. وانتصب الى مسند السرير وهو يتنفس بعمق وقوة ، فانتفخ صدره ومد يده نحو مريم التي جلست على حافة السرير تنقل عيني عقلها فيما يجري . وفي ذات الوقت مسد براحتيه فخذي زوجه وانطلق يحيي فيها أملها الذي قارب اليأس . كان شفاف القمر يدخل شرع نافذة الصيف . وهمهمت في إذنه اليسرى ، تستبق شهوة لن تأتي : يرانا القمر. رد عليها بعد جهاد وضنى: أصبعك .. حكي اصبعك. ولمّته بفخذيها ، لامسته كأفعى ، ثم ساحت تحته حتى اختلقت علوماً جديدة، وضعته في حضنها ثم رفعته على مجدل شعرها، وعندما امتعض وهو يمتص خجله ، قلبت شفتها السفلى وانسلت بوهن من تحته ثم ارتمت بصدرها على الطرف الآخر من السرير . بحرقة زفرت تضرب رفاص السرير بيدها مدمدمة : شكون يا الله ؟ فأجابها: مريم انك تقدرين وضعي .. تعرفين أزمتي . وأطلقت نهدات صدرها المحترق وعضت ثنايا حرام السرير ، مستذكرة عودتها الخائبة عن قرار يوم أدخلت نفسها في منارة المطبخ وغيضة الحمام .

أوشكت أن تقول له ، كل ذلك حدث اليوم ، قبل الظهر استسلمت العربان في نقرة الدم ، واستشهد الشيخ حميدالأعرج من تسديدة جاسر الرحبي . ان تقول له كذلك ، فإنه سيدع لنفسه حرية لاختيار صورة مناسبة يكونها في خياله لجاسر. ورغم رؤيته له لأكثر من مرة ، في دار فرحان ، وفي إحدى نزه الحويجة ، الا انه لن يتذكر الوجه الحقيقي جاسر. قد يملأه وجه الرجل ، فينفخ صدره حتى يبدو أكثر بروزاً ونشاطاً ، ويفتش إبانها عن صورة للمسدد في سرانية أفكار زوجه . ولكي لا يرى طبيعة المخبأ الذي أخذ يتسع ويملأ محياها، سيلعب بيده وينوح صائحاً : لقد بلغ السيل الزبى ، ها هو في ثنايا أضلاعك. وفي الوقت ذاته كانت تريد ان تقول له ، وهي تدس يدها في فجوة

فراش السرير ، بعد ان خرقته بحنقها الغاضب ، كيف عاش جاسر معهم ، وتركهم ، ثم كيف عاد ثانية. كانت البركة في جهة ما من الحوش مغمورة بالمياه ، وقد وقفت مريم في الرواق يشدها حنين جاءها على حين غرة ، يطرق من جديد أياماً كانت قد قضت . وأحست ان النفيض الخافت الذي أخذ يتشكل في أنحاء الفضاء ، في سريان الأرض ، له جذور مع قلبها، وشيئاً فشيئاً كان يبرز : ان الأيام التي جمعتها مع جاسر، أخفت عنها ما شعرته بقوة يوم سمعت صدى طلقات ظلت معلقة في الهواء.

اعترتها الرجفة ، وجذبتها الى ماض بعيد. هزها مس سحر ، ذلك ما افترضته حين راودتها مخاوف مجنونة هبطت عليها ، عندما تذكرت بغتة هنوف النجم ، لعلها رصدت حركات قلبها بطلب من هدلة ذاتها! الشيخة هنوف في علوة الدير ، تخلط كيان المرء وتمزج فيه أبخرة تدير العقل والخاطر، لكنها، وتذكرت ان الشيخة ماتت منذ زمن ، فنفت ان تكون هدلة قد فكرت بامتلاكها يوم ذهبت الى هنوف النجم، كانت المسألة هي مرض ابنها وليس فشل حبه، فهدأت ثم حدست ان سبباً بعيداً عن السحر وهنوف ، ما جعلها تختلج من أعماقها متذكرة جاسر. وحين رفعت يدها من قاع المياه ، استندت براحتها على حافة البركة ، وانتظرت لبعض الوقت حتى تعيد توازنها. كان جاسر ماثلاً أمامها كطيف ، لم يكن كذلك عندما كان بينهم ، شيء خفي قربها منه ، لعلها وجدت في بعده سرها فيه .
ثم مشت ، ألقت عباءتها ، وغطت وجهها بخمار حرير ، وجعلت تعبر الشوارع الخلفية ، وتتجه غرباً الى ساحة الرمي . ولقد فغر فرحان فاه ، أدار جلسته عن صحن بركة الماء ، ونظر مشدوهاً ، من فوق كتفه ، الى ناحيتها وهي تغادر الباب ، مسح زبد الشيخوخة عن شفتيه المرتجفتين ، وظل صامتاً وهو يتأسف انه لم يبق أباء توجه الأبناء ، تراها أمامه تجتاز أماكن وأحياء لم يسبق ان مرت بها ، ولا يقوى على إعتراض أو سؤال : أين تذهبين ؟ ابنته تسير وحيدة في فلاة الدير ، لأن الشمس كانت قوية ، رمت عنها العباية ، ورفعت الخمار وأشار بسبابة يده المرتعشة وقد أبلى مقعده القريب من سور الرخام الذي أحاط البركة ، كانت يده كغصن شجرة تين مبلل : أحب أن تعودي . وهز شفتيه بأحرف بداية النطق : مريم . وردت عليه شاها وهي تمر بالقرب منه ، وسمعته يدمدم باسم لم تفهمه : ما لك يا أخرق ؟ وقالت لنفسها: هذا خرفان ، خرف فرخان خرف آبائه وأجداده الذين وسموا أبناءهم بهتر الكبر. وكرر ببطء : عودي يا مريم ، لن تسمعي ما قالته شاها .. إرجعي ، هذه الطائفة من الأمهات تضيع الأولاد والبنات . قال بيأس يسمع نفسه : لن تعود .. أعرف انها لن تعود ، في مثل هذا العمر اذا نوت الصبية على شيء فلن تتراجع ، وأردف : اتبعها يا فرحان ، قم . فمسد يده على نسيج البروكار

الذي لف خصره بأناقة ، ثم دعم قومته بساعدين أرتكزتا على بقايا هرم وعظام. وأطلق طحيراً وهو ينهض عن كرسيه ، لو كان فرحان شاباً لقادها الى البيت ، لكنه عجوز لا يقود نفسه ، صمم أن يتبعها بساقيه الرخوتين. على انه يستطيع ان يقنع الآخرين انه كان مع ابنته ، وسيقول لهم : لم تكن مريم وحيدة ، يرمش عينيه ويبتسم ثم يسترسل موضحاً : لقد كنت معها ، لأنه لا يجوز ان تخرج مريم وحدها الى ذلك المكان، تلقي عبايتها وترسل خمارها في دروب ضيقة لم تطأها من قبل ، سارت خلفي في كل خطوة خطتها ، إلى أن وصلنا الى ساحة مستوية كرقعة شطرنج ، وظهر فيها مسددون ودرايا شامخة على بعد مئتي متر ، وانبطح معظمهم ما عدا اثنين او ثلاثة ظلوا واقفين ولقد لفت انتباههم وصولنا وحدقوا الينا باستغراب ثم رفع أحدهم يشمغه وصاح : ابتعدوا عن الرصاص ، لا يصيبكم ، بعد قليل سيتم اطلاق النار . لكن مريم لم تبتعد ، تقدمت بهدوء، وفي حقل الرمي كان الرصاص مدوياً ، ومع انني كنت قريباً منها لكنني لم أستطع رؤيتها، الغبار الذي اثاره ارتطام الطلقات الخائبة منع عني الرؤية. وسمعت بين أزيز النار صوتاً كنت أعرف صاحبه من قبل ، قال الصوت : ابعدي يا حرمة تا نضرب .. ابعدي من هون لا نذبحك . ومريم اذا كانت معي فهي لا تخشى أحداً ، ردت عليه بجفاء : أضرب تا أشوف .. اذا كنت بطلاً أضرب وهاي أنا واقفة! ضربت بقدمها الأرض ، وزاد بذلك الغبار ، وانمنعت الرؤية من جديد ، رد الصوت : ترا أضرب ها .. شنو ؟ وحذره الكابتن : أطلق ، كل الرماة أطلقوا وفرغت المخازن ما عداك ، اطلق والا اعتبرناك منسحباً من الرمي . أجابه بحزم : ما أنسحب ، طالما هذه الفتاة في ساحة الرمي، ما أطلق وما انسحب حتى تطلع برا . وزمجر الكابتن في وجهه بعصبية قائلاً : لماذا اذن أطلق زملاؤك ؟ كان عليك ان تنتهي معهم . عليك ان تطلق ياللا ، واحد اثنان ثلاثة .

هذا هو الهتر بعينه يا فرحان : قالت شاها وهي تمر من جانبه ، ولم يزل بعد على مقعد انخسف بأمد الجلوس . أجابها بحنق وعدم رضى : ليس هتراً ليس هتراً اسألي مريم عما جرى في ساحة الرمي . جاسر كان بين الرماة ، لو كان يعلم ان مريم حضرت وهي التي وقفت في الساحة لغادر فصيل الرماة فوراً ، لم يكن في مقدوره ان يتعرفها ، كان الجو مضطرباً ومشوباً ، سهمت ابنتي بنظرات حالمة : لم أر في حياتي مريم كذلك مستندهة من قبل . قالت شاها : انت مجنون يا فرحان ، لقد تعرفها وعلم بوجودكما منذ أول خطوة خطوتموها في ساحة الرمي، الذي صار انه تناسانا عندما انخرط في صف المسددين وعندما شم رائحة البارود. وحتى اذا رآكما فإنه لن يتذكركما . وعيل صبر فرحان، طوح بيده قائلاً : كنت معها وكان الغبار كثيفاً في ذلك الموضع ، لا يقدر أحد على معرفة الآخر، الرؤية كانت مستحيلة . واذا توقف الرمي

وانقشع الغبار استمر جاسر يرمي ما بقي من طلقات ، وخرجت بالتتالي ، الى نيشان واحد ، خرقت دائرة سوداء في منتصف الدريئة ، ورفع السرجان يده علامة إيقاف الرمي فامتنع جاسر عن الرمي ، قام عن الأرض ، ألقى سلاحه ، ورجع خطوتين الى الخلف وهو يقول : ولولاها لأحلنا منتصف النيشان الى دائرة من فضاء . وسمعنا السرجان حمزة يقول : كفى! انتهى الرمي ، قومو لإحصاء إصاباتكم .

هذا هو الرمي يا ناصح ، كان منبطحاً يتمرس الأرض ، بعد ان خرق الأفق فأحاله الى فضاء ، البرم كلاس جاسر الرحبي في طريقه الآن الى الكبانية ، بل الى القشلة الغربية، حيث أنهى مهمة وضع اليد على أراضي الجزيرة .

بموت حميد الأعرج عادت القوات الى الدير ، وبقيت هناك وحدات جندرمة ومليس ثابتة .

جاسر يا أمي : تنظر الى جيزان السقف المدهون بلون أزرق. وردت عليها عفراء ، على وجهها علامة استغراب : ما أدري شكون اللي حولك اليه ، كان في بيتكم مثله مثل غيره ويمكن أقل ! فأجابتها: بعد قضاء سنوات يجوز أن يتحول المرء ، ينفتح أمام روحه عالم ثاني . وافقت عفراء برأسها وقالت : يجوز .. فأغمضت مريم عينيها وهي تتلمس براحتي يديها فراش السرير ، وكان جسدها الملقى عليه محروقاً وجافاً. قالت عفراء : يلزمه ضمادات وألواح لجبر العظام ، وأشارت الى جسدها : من هون الى هون ، مسافة طويلة .. مو هيك ؟ وهزت رأسها مكررة : جسمك مسافته طويلة ، يريد من هون الى هون ضمادات وألواح موهيك ؟ هذا الموضع أكله الحرق حتى صار كالرماد.

توهن النار العظام ، تطحنها وتذرها فوق جبال شرقية لتأخذها الريح، معها، في رحلة نسيم . كانت عفراء طويلة ، شعرها الخرنوبي مسترسل ، يمس جانب السرير ، وكانت مريم مستلقية في فراشها تنظر بصمت الى سقف الغرفة ، تداعب خصل الشعر وتلفه بين أصابعها ، ثم تذهب الى شده بحزق . ولقد اطمأنت لوحدتها فاسترخت في سريرها بعد ان ارتجت باب الغرفة وأسدلت الستائر الأربع . عافت ناصح وأباه خلف الحويش وكذلك حماتها والأسرة التي اشتركت في مراسيم زفافها، تركت ناصح بين النوم واليقظة مضطجعاً في الغرفة التي جمعت عيالها ، الى حوار نميمة وتهكم امتد الى بيت فرحان نفسه وذلك الخرف الذي راح يتفاقم . سمعت من مكانها صوت ام ناصح يقول : صورتها ظلت في البركة وبعض الأوقات إنها معه ما تتركه ، واذا طلعت برا الحوش يلحقها فرحان وتصير خطاه على خطاها، واحدة بواحدة .. ثم غيرت نبرة صوتها قائلة : يا ربي خايف على أولاد ابني لا يطعن هالخرف على واحد منهم . ردت مريم ، صامتة مع نفسها ، قالت : اذا يصير له أولاد فالخرف تالي العمر بسيطة . ومرت بيدها على شعر عفراء، خللت اصابعها فيه ثم أنزلت يدها الى نهاياته المتقصفة ، استدارت عفراء وعلقت بتساؤل : تراه كل يوم يخف ، المشط يجر معه جزز جزز. ورطنت : خضبيه بالحنة . فردت عفراء : جربت وما تغير شيء . وقالت : قصريه مقدار فتر أو

فترين ، اذا تقصر يتقوى ويصير أحسن . قالت أم ناصح : كل مرة ينظر الى جهة الباب ، اذا رآها طالعة يترك كرسيه ، ثم يقوم واقفاً على خيوط سيقانه ، ويحجل خلفها حتى يصل الى طرف البلد . فاعتدلت عفراء بجلستها ، وقبضت بحنان على اليد التي داعبت خصل الشعر ثم هيأت نفسها لتضميد كتل من اللحم المهروس ولتجبير عظام مهشمة .

كل شيء كان أمامها ، بصورته وجسده. استطاعت ان ترى في اصبعها آثار الحزق الذي سببه شعر عفراء ، فعلمت حينها ان عفراء جلست الى جانبها ، على حافة السرير ، تنهمك في إسعافها ، وضع رباطات ودفوف خشبية على جسدها المهترئ من هول دانات الصدمة. تذكرت أن موتها كان يجب أن يبدأ منذ سنين طويلة ، حينما دخلت حمأة الحمام وأرادت حرق روحها وجسمها دفعة واحدة . الا انها وهي تستلقي استلقاء عفوياً ، ومنحت لنفسها حرية تحرر من ثقل الكوامد الأرضية ، عرفت ان موتها الحق لم يبدأ ولن يبدأ طالما هناك ضفاف تمتد مع جانب النهر. كانت ترى وتتذكر، كل شيء. كشفت عفراء عن مدى الحب الذي حملته لها عندما كانت تلفها بضمادات القطن وكفن الشاش وتجبر عظامها بألواح خشب، تضع لها كمادات باردة لقطع نزيف الجمجمة الحاد . ووضعت سبابتها على جبهتها تمس مكان نزيف قادم ، كانت قطعة الطوب المتأرجحة قد طارت في الهواء ، ثم سقطت على رأسها ، وانهار ذلك الجدار الذي طارت منه قطعة الطوب ، على أجساد مرت بجواره ، تخيلت نوع الجدار ونوع المكان فعرفت انها ما زالت مسترخية على سريرها في غرفة نوم مغلقة ببابها وبستائرها الأربع .

كانت نقرات خفيفة تنقر الباب ، تحمل مشاعر حميمية الى داخل الغرفة. وتنبهت الى ناصح الذي وقف بالباب زمناً يحاول إعادة يقظتها. حل وقت النوم، ونام والدا ناصح ، وداعبت أخته بعد استغراق الجميع مشط قدمه قائلة : قوم يا ناصح الى مرتك ، ليش تركتها وحدها ؟ جلس مستنداً بيده وأجال عينيه في المكان وسأل : نام الجميع ؟ فردت أخته : نعم ، مريم تنتظرك منذ فترة في غرفتكم ، لما اضطجعت أول مرة أخذتك السهوة فنمت بعمق وهدوء. وكان أقصى الدار قريباً منه عندما وقف على قدميه وطلب من أخته فنجان قهوة تركية كي تعيد له حيويته. انتشى في عمق الليل بنسائم غامضة ، مبللة تحمل رطوبة، وتشي بقدوم جديد ، تمطى وهو يرتشف فنجانه ويتمشى في أرض الدار، اجتازته مشاعر وليدة في نور مصباح كهربائي غمر الحوش عندما تنصت ، باقترابه من الباب ، الى رؤى مريم الفرحان ، وانتظر لينتهز فرصة يخرج فيها شبح محب ، يرسل شعره الخرنوبي على ضلع ظهره الممشوق ، وينقر الباب بحنو ورأفة ، كيلا يفاجئها . قال بصوت ذي ميزة هندسية ،

كمستطيل مضغوط : لا تزالين محروقة ومشوهة بنار كانت قد هبطت من السماء، وعلى أنها دانات وقنابل حرقت الدير كلها، لكنه نار الحب ذاته. ورفع صوته بعنف قائلاً : لم تحرقك الدانات يا مريم لم تحرقك الدانات يا مريم! فهبت مذعورة ، انتفضت صائحة : جاسر يا أمي ؟ ثم لمحت وهي تبحث عن مصدر الصوت هيئة عفراء تجلس جنبها وترسل شعراً خرنوبياً متقصفاً . هزها ناصح من كتفها وهو يكرر : كان حلماً يا مريم كان حلماً .. وحسبت ان الوقت الذي مضى منذ حديثهما حول نقرة الدم ، والذي نسيه ناصح ، الى هذه الساعة يساوي سنين وسنين ، وكادت هي الأخرى ان تنسى الحديث ، لو لم يحدث أن تهتز بذلك الاهتزاز وأن تسمع إيقاعاً تغلغل في أعماقها. وهكذا فقد مضى وقت طويل على استلقائها العفوي في سرير غرفتها المغلقة . ولن تخرج من هذه الغرفة ، بل لن تغادر مطرحها . قررت ذلك عندما أيقظها ناصح يدلك ظهرها وبطنها ويقرأ آيات نصف قرآنية ، حشاها ببعض الأمثال والحكم المتداولة . ستبقى هنا ولن تتحرك ، في دائرة نصف قطرها ذراع، على سرير نوم لا تنهض منه أبداً .

ودخلت غرفتها ابنة حماتها زهرة، جاءت تتأكد إن كان ناصح مع مريم، سألت بشفاه مستحييه: أول الليل كان نايم ، مضطجع على وسادة بجانبي، ولما داعبت مشط قدمه نهض! فردت عليها مريم : ما دخل ، لسّه في الخارج ما دخل ، كان يتنصت فقط عند الباب ولم يدخل . وحركت زهرة رأسها فقالت : أين ذهب يا ترى ؟ لم يدخل الدار من أصله. طاولت ساقيها ثم قدميها ، وكادت تخرج عن نطاق دائرة الذراع ، حالمة أنها ستفقد دماً أثقل جسدها ونفسها . لم يخرج حتى اذا خرج ، قالت مريم ذلك ، فتقدمت منها زهرة في زخم نور فضي كشف جسدها الأبيض . ورنمت مريم بصوتها تقول:جسمك أبيض يا زهرة ، وشعرك ينهال نحو ردفيك ، ولم يبق سوى لون عينيك الزرقاوين ! فمدت زهرة زنديها وشعبت أصابع يديها نحو عنق أسمر. ودمدمت بأحرف ثقيلة ، لم يصل صوتها الى أذنيها: انك تخوفينني يا فاينة . فجست عنقها وراحت تتلمس ببطء الرغامى ومنبت البلعوم . قالت زهرة : إبلعي ريقك اذا تستطيعين ، شيء بالقسر ما يجي وما ينقبل موهيك؟! موضحة انه لن يأتي حتى إن شنقت نفسها . وزمجرت بغضب مفاجئ أعاد اليها صوتها وهول القوة: إن عيونك تخوفني ، تشع مثل عيون ضبع في حلكة ظلام .

وسمعت زهرة التي قبلت أن تداعب قدم أخيها ، من مكان نومهما ، ولم تنم بعد ، ولم يقم أخوها بعد ، آهة كابوس آتية من غرفة مريم ، فتركت جانب ناصح وقامت الى الغرفة المقابلة ، تعدو الى الغارقة في عرق ودموع سخية . فتحت شرعتي الباب ثم قفزت كمهرة في حالة رعب نحو السرير الذي

طقطقته بثقلها ، برفاصاته ومفاصله ، وهزتها من ذراعها ثم مسدت براحتيها وجنتيها ، وشوشت في أذنها : اسم الله اسم الله يا مريم . وأركنت رأسها في حضنها ، ثم تأملت وجهها وهو يعود الى نور القمر.. الربيع المسلط من فرجة الباب. كان حلماً يا مريم..

وقبلت أن يكون حلماً ، حلماً لها وحدها ، تغيّب عنه ناصح ووجه زهرة وعفراء وجسد مريم المحترق وإحدى صور جاسر ، قبلت أن يكون حلماً طويلاً له بداية بعيدة ، ربما منذ ليلة الزفاف .. مريم لم تزف ولم ترافق ناصح بموكب العرس ، كانت ما تزال جالسة أمام أبيها ، قبالة البركة ، وجهاً لوجه ، مرة تطفو على سطح المياه ومرة تغوص في غيضة وحل تصل الى القاع. كذلك لم يصب فرحان بالهتر ، وأكدت مريم لأمها أن أباها سليم العقل، كل ما رواه له صلة ما بوجه الحقيقة ، وقلبت الأم جفون عينيها الحمراويين وقالت : هذا أنا مجنونة اذن ، لم نزفك يا مريم ولم يقدك ناصح في عربة تجرها أربعة خيول! ننتظره حتى المساء والى آخر الليل ، وعلقنا المصابيح بأعمدة الرواق ننير ظلمة الحوش ، حتى يأتي ناصح وموكب العرس ونزف مريم، لن يتأخر إنه في طريقه إلينا ، بعد أن أنهى اغتساله في حمام الفرات مع أصدقائه الذين حموه سبع مرات مكرورة كي ينجلي ويصير كحصوة مرو، لن يتأخر ، انتظروه قليلاً ليصل بموكبه ، ولم يبق له الا ان يعبر خط الجندرمة والذين سيستوقفونه طالبين استيضاحاً قصيراً ، وحين يخبرهم انه ناصح خلف الحويش في زافة عرسه سيتركونه يمضي إلينا ، وبعد ان يصل نسمع هوساتهم : ابن الشامية ما يأخذ غير الديرية ، فيتهافت الناس الى الحوش وتمتلئ شجرة التوت بالمتحلقين ، تميل أغصانها من ثقل الجالسين ، وكلهم يرنون اليه ، في كرسي صمدة الى جنبك متضايقاً بربطة عنقه ومتوهماً : لأنك محرجة منه لم تبادليه نظرات الحب ، وتلتهين فقط بنفض طرف ثوبك الأبيض ، يا مريم ، كل ذلك كان حلماً ؟! وترهلت شاها بفيض شحمها وساءلت نفسها وهي تتجه الى المطبخ : من المحتمل ان الهتر الذي ادعاه فرحان واقع قد جرى وحدث . وقالت لنفسها وهي تحرك يدها كالمخبولة : لم يكن هتراً يا شاها ، وكل شيء كان في الواقع أصبح في الحلم ، لم يكن هتراً يا شاها ، الحلم والواقع صارا معاً وجها واحدا.

بعد ذلك لم ترد شاها ان تفصل صورتين مكثتا في مخيلتها، صورة مريم وهي تغادر الدار بثوب الزفاف ، مقادة بيد زوجها ، وصورة مريم الواقفة ، تعود ، بالباب وكأنها لم تتحرك قيد أنملة ، وذهبت شاها الى ان مريم كانت ستقول : تركت ناصح وموكب زفافه يمضي ، وأنا بالباب واقفة انتظر حتى تتوارى ظلالهم وأخيلتهم التي ترجرجت بفعل الفوانيس والكهربيات

المتراقصة ، ومع هبوب رياح مطرية كانت ستبدد الاحتفال والمحتفلين ، وتجعلهم يتراكضون مذعورين نحو بوابة النجاة ، وستنكسر أغصان شجرة التوت من محاولات القفز من فوقها ، يتخذونها كنوابض تقذفهم رأساً الى الشارع ، فلا يحتاجون الى حشر أنفسهم أمام بوابة النجاة ، ليبحثوا فيها عن الخلاص السريع . وعندما خمدت الجلبة وابتعدت الأصوات ، قرعت مريم باب الدار ، رفعت أذيال ثوب الزفاف بكلتا يديها ، وراحت ترفس الباب بحذائها الأبيض، تصوت بحنق : أني مريم ، افتحوا الباب .

وكالمطرودة من بيت زوجها، جمعت ثيابها في بقجة حملتها على رأسها ، ونفضت جذعها نبل كرامة ، وخرجت مدركة انها لن تعود ثانية ، ستبقى الجبيلة بالنسبة لها خراباً مهجوراً لن تطأه بعد اليوم . وقالت لنفسها قبل زمن : هذا الجسد حرام يضوي ، الأفخاذ الصقيلة ، وعليان الصدر ، وناشطات الجذع المرنة ، حرام أمام تعس لا يفيق حتى ينام ، ولا يقعد حتى يضطجع كشايب في الثمانين . ولمّت أذيال ثوبها وبدأت تضرب الباب بعصبية وظنت حين دورت الفكرة في رأسها ان شاها ستفتح الباب ثم تعلق مندهشة : يا بنتي ما رحتي بعد ، حتى تعودين بسرعة بسرعة ، وكأنك لم تغادري مطرحك وأنت في ثوب الزفاف عند الباب تلوحين لناصح في موكب مبتعد عن دار فرحان عبد الغني الشاهر . وتضحك مريم من جرس قلبها وتقهقه شاها المطر بخنة الشيخوخة وتروي : لم يتغير شيء يا مريم أبداً أبداً ، ولم نتحرك من المكان الذي عهدتنا فيه منذ أن أمسكك من معصمك وأخذك منا ، نحن هنا صامتون ، وقد مضى زمن طويل طويل يا مريم ونحن ننتظر عودتك . جاءت أيام وراحت أيام ونحن واقفون في مكاننا نحزر أنك ستطرقين أرض الدار بعد لحظة وبعد لحظة ، ولم نيأس حتى جئت، لذلك لم يتحول الليل ولم يأت النهار، كان وقت الذهاب وقتاً للمجيء وللقرع ـ تقرع الباب بعنف وقد انتفخ ودجها وبرزت عروق جسدها في أنحائه ، في رجليها النحيفتين المعروقتين ، وتحت إبطيها : افتحوا الباب إني مريم . وتستند بحنكها على الباب ثم ترفع وجهها الى السماء نحو بريق أمل انهم ما زالوا في دارهم لابثين وسيفتحون الباب قائلين : على الرحب والسعة يا مريم ، لم نلحق نعود من موكب العرس ونغلق الباب جامدين ، حتى فتحناه لك ثانية فولجنا من جديد في حركة دوران حول اسمك وعمرك وروعة حبك .

ابتسم فرحان، شهق ببطء ودفع رزات صدره، استنشق هواء نظيفاً وذرات رطوبة مغسولة أرسلتها ضفاف النهر، ووعد بينما وقف وسط الفناء ، رفع سبابته قائلاً : ياللا وعد مني انه نهدم ونعمر .. دارة.. قرميداً .. جديداً .. ولزوم نبني تحت الديوان قبو (سرداب) نحتمي فيه من البرد والعجاج والحر .

المهم أولاً نعمر الدرج ونعود الى مضافة السطح . واقترح ابنه سرحان وهو ينظر الى السماء العميقة : مضافة السطح ما هي واردة .. بالليل والنهار الطيران ما يتركنا .. خلنا بالسرداب، هو مضافة وهو حماية. ورد فرحان مبتهجاً: معليش المهم نبني الدرج ويعود السطح إلنا. فدارت مريم في الحوش، نفضت غبار السنين التي قضتها بعيدة عنه، تفقدت معالم ما زالت قائمة في ذاكرتها : إن الزمن الذي كور الدرج وقعر الفناء ، إن الزمن الذي أخمد بهجة الحركة وفنون إيحاء اللحظ والحب .. لم تقم له قائمة مرة أخرى. سنبني الدرج لبنة لبنة وتدفق المياه الرقراقة شلالاً في البركة، ونشغل طرلمبة بريستون ترفع المياه من بطن البئر الى حاووز خزان فوق المرافق ، ثم نجعل زجاج النوافذ يعكس بريق الإنارة في دلهمات الليالي ، يدرك الليل النهار ، ونصبح بعودة مريم من دار الجبيلة في نهار دائم . ففتح فرحان الباب وهو يسعل من ضيق النفس ومعاناة الهجر ، وقال لها وهو يمشي أمامها في الممر : كلنا نحبك يا مريم ، كان عليك أن ترجعي منذ زمن، لم كل هذا التأخر ؟ ولامتها شاها : لكي تدفعي عنا الشبهة وسوء السمعة .. كان عليك أن تعودي بانتفاء الشبهة وذلك حينما زففنا هند لحمزة .. مريم لماذا تأخرت عنا ؟ ثم ذكرت شاها لها : لم يتزوج أحد من إخوتك سوى هند، بعد زفافك كان علينا ان نزف هند أيضاً ، وبإلحاح حمزة المجدل قسرنا على القبول ورضينا بقسمتنا ، على أنه خير من غيره ، يحفظ ابنتنا ويحترمها ، هذا جدير بالقبول يا مريم . فهزت رأسها.

تحاول أن تعود الى ما قبل الزفاف، وقبل رحيل هدلة وعبد الله، بل الى الوقت الذي كانت تنساب فيه انسياب نسمة. كانت تكبر جاسر ، والآن جاسر يكبرها ببذة الهاغانة وبذلوله المرصع بنياشين نصر، وكانت تجد نفسها تحاذي سرحان ، أما الآن فقد سبقته في العمر ، أصبحت أكبر مما كانت ، وخط الشيب رأسها ، وانطفأت جمرة عينيها ، خمد قلبها ، إلا انها ، الآن ، ازدادت حدساً وحكمة ، صارت امرأة كاملة . دلفت خلف أبيها ، وهي تشم رائحة المدخل وبخور الفناء . قال لها فرحان: حينما تعود الزوجة من دار زوجها مطلقة أو حردانة فعلى الأب ان يعيدها من حيث أتت ، إلا أنك لم تأت على هذه ولا على تلك . فأجابت : انتظرت وكلما يعيل صبري أقول غداً يأخذونني من دار خلف الحويش، يقف ابي وإخوتي بباب الدار ، في عربة بستة خيول ، تنسمع طرقات حوافرها من بعيد، طق تطق طق تطق فأرفع عيني عن جيزان السقف المدهون بلون السماء ، أترك سرير غرفتي وأجري بكل طاقتي . وقاطعها فرحان قائلاً: تفتحين ذراعيك وتقولين : ابي وسرحان وعبد الغني وتنسين جاسر يا مريم . فأجابت : في بذة الهجانة أكاد أقول انه تغير، وبعد مرور سنين على تقييده ، وغيابه كل الغياب ، لم أحزر انه معكم في عربة

الخيول الستة يقودها ذلول مزين بركاب من عاج وسرج حرير وخطام ياقوت.
وقال فرحان : دخول جاسر بالكينز على حارة الجبيلة خوّف كل الناس وجعل خلف الحويش يعتقك من يد ناصح . وتبسمت مريم ، إنخلق في وجهها أمل جديد غير عارفة ان طريقها قد قطعته عفراء بشعرها الخرنوبي المنسدل على ردفيها الرشيقين .

قال الكابتن، بعد ساعات من سيطرتهم على الزاوية القصوى من البلاد : اليوم في نقرة الدم انتهى عهد القتال ، واذا كان هناك بعض الضحايا الأبرياء من العربان فهذا شيء لا يذكر أمام حملة جرارة كحملتنا . منذ اليوم سيخيم السلام والحب بيننا ، للمواطنين حكومة وطنية ولنا حكومة عسكرية وبينهما تفاهم واحترام متبادل . وعندما تفقد بنفسه وحدات التمركز ، وخطوط مراقبة الحدود ، ودعمها بالعتاد والرتباء ، أمر البلوطينات بالعودة الى الكبانية الأولى (كبانية الدير الغربية). وحاذى في مسيره وادي الرد ، خضرة ومياه وسفوح مراح ممتدة على طول الطريق.

تحركت القافلة مع مطلع الفجر. انحدرت من تمركزها في تل قره تشوك وعين ديوار، توازي وادي الرد والوديان المنبثقة من جبل الطور وجبل سنجار . اتجاهها روافد الخابور حيث يلتقون سفوح هضبة كوكب . في المقدمة الكابتن في سيارة الجيب ، بين الفينة والأخرى يقف يتأمل سهوب نبتة القاميش ، فتتوقف معه القافلة تتابع تأمله . وكان الكابتن المنتصر في نقرة الدم ينحني بتواضع عالم أمام نبتة مختلفة، يحمل مجهره ويفحص بعناية بداية السوق ومرونته، ومفصل الجذور ومدى تغلغلها في باطن الأرض ، يتابع بحثه ويراجع كتيباً في علم النبات ، فيخط في كل مرة ملاحظاته في طبيعة الأرض ولون التربة ومقدار اقترابها من الماء : أيام الجفاف ، عندما تكف الوديان عن الجريان تختفي هذه النبتة ، تصبح يباس حطب وعلف ماشية ، فتضحي الأرض هشيماً ، وتتقصم تحت أقدام المشاة كي تصدر صوتاً تعرفه خاصة الرعاة ، وتقدر منه حال السنة الآتية وما تحمله من خصوبة أو جدب . كان الكابتن يتحقق من صحة هذه الرواية ، فيدوس بتواطؤ على نبتة خضراء، ثم يصيخ السمع الى ما يحدثه حذاء بساق طويل ، وهو يقصف النبت.

من الصعب تماماً أن نعتبر أنفسنا انتصرنا في نقرة الدم . كنا كثيرين بالعدة والعتاد ، وكانوا فريسان على خيل لم تر في حياتها نار مدفعية رشاش ، المهم أننا حققنا خطوة لبداية الانتصار . وأعلى الكابتن صوته: فاء الفوز يبدأ الآن . يحمل بيده قدوماً ومرّوا ويرفع رأسه باتجاه هضبة كوكب قائلا: هذا جبل

عجيب . ينزل من سيارة الجيب يبحث عن طرقة تناسب سنه لصعود تلة كوكب . في قمتها يمكن ان نضع مخفر إستطلاع يشرف على المنطقة.

عصر اليوم الأول من رحيلنا من نقرة الدم ، أوقف الكابتن موغييه سيارته الجيب عند مربط التل ، وأمر بتحجير العجلات ثم استطلاع المجرى الأيسر للسيل ليستخدمه مصعداً للوصول الى قمة تلة "كوكب". كان وادي الرد ومجراه جافين مليئين بطحالب ميتة وأماكن رطبة تغور بالقدم حتى مستوى الساق. ان عبور هذا الوادي ، الذي يفصل الطريق عن تلة كوكب ، يتطلب مد جسر خشبي بعرض ثلاثة امتار يتسع لمرور شاحنات وبغال جر المدافع، لذا جذبت سلاسل حديد عوارض الجسر الخشبي من الأسفل وشدتها بإحكام من خلال أساور معدنية ، فجعلت الخشب جسماً واحداً ، حمل أثقال القافلة كلها . ونحن ننتقل الى الطرف الآخر ، وفي منتصف العبور ، لمحت خاطرة في ذهن الكولونيل ، فدمدم : كان علي أن أعبر مع الأحمال الخفيفة ، نبقي المدافع والآليات الثقيلة في مكانها دونما عبور، ذلك كي لا يطقطق الجسر تحت ثقل القافلة، كان يجب ان تظل الآليات الثقيلة والمدافع وبدنة الجر في الطرف الأول ، ماذا سنفعل بها هنا ، إننا لن نحارب جبل كوكب! في المساء قال لنا الكولونيل: وجدنا الطريق للصعود الى القمة ، قمة جبل كوكب لها طريق دوار يدور مع التلة وينحرف مواربة حتى يصل الى أعلى نقطة فيه ، ومنها يمكن ان نرى تلة العزيزية ، يمكن ان نرى المدام وهي تلوح قائلة : لك المجد على هذا النصر أيها الكابتن ، فأقول لها : أصبحت الآن كولونيلاً يا مدام . وانزرعت القافلة في شمال سفح التلة العظيمة ، وأخذت تمتد بعيداً ، وكنا كلما نرفع أنظارنا لنحد رقعة المخيم لا نرى أفقاً له ، وكانت سبطانات المدافع الجرارة موجهة نحو الشمس . قال موغييه : للتدريب سددوا نيرانكم نحو آلهة هذه الأرض . فوجهنا شعيرة التسديد نحو الشمس التي أخذت تغرب ووتوارى وراء هضاب مستوية عارية ليس لها أفق. لم يكن لها أفقاً تلك الهضاب يا عبد، كانت مستوية تكشف الشمس عند الغسق تتلالأ وتحتضر. وعادت أمامي صورة مريم، فقلت لها لقد اقتربنا يا مريم من الدير، عندما نحل في تلة العزيزية نكون قد اقتربنا . في بداية الدير ، عند مدخل بوابة المعبر ، أقاموا جسراً معلقاً بدلاً من الجسر الخشبي ، فوقفت مريم هناك مهللة ، يداها مفتوحتان ، صدرها رحب ، وشعرها يرف خلف ظهرها، يلتف حول قضبان ودعائم رفعت الجسر وعلقته. ومن بعيد برزت عيناها، عند المدخل، سوداوين، كبوابتي نصر يفصلهما إكليل غار، أصبحت (أسار) يا جاسر، من برم كلاس الى أسار وغداً ستكون سرجاناً ، تسديك الصحيح ضمن لكم ولنا النصر . عندما خرجوا عن مدى المدافع وأصبحوا يتقدمون كالجرذان بشراسة

وملعنة ، جمدت عقولنا ، ولولاك يا جاسر لما اسكتهم أحد ، استسلموا كلهم بمنديل حميد الأعرج الذي أنهيته من رمية واحدة!!

وقال عبد السليمان ، بعد ان استلقيا متلاصقين في فراش واحد ، وهو يحدق في نجوم صافية متلألئة : لدينا في هذه القافلة عاشقان ، الكولونيل يفكر في المدام وأنت رجعت تفكر بمريم ، فرد جاسر : لم أسه عنها برهة واحدة كانت طيفاً حاضراً يتجدد كماء نهر . وردد بعد صمت يراود خفقان النجوم : أكيد لها ملامح في السماء ، بين النجوم . وقاطعه عبد مستنكراً : ياللا ، هسع ناصح ينام فوقها وراح يتركها قرفان بعد دقائق ، شنو يا رجل ! ينام فوقها تنام فوقه على ضوء كاشف حتى تغيب الشمس خلف تلال احتضرت في شفق الجمال ، ونعلم عندها ان الضوء سيكشفها ويكشفنا، لذلك سنغلق الستائر ونطفئ كل نور ثم نشم عبير اقتراب واحد لها في شارع ستة الا ربع .

وهم يرممون شارع ستة الا ربع ، يكون قد مضى على موت مريم ثلاثين عاماً ، تحولت خلال هذه الأعوام الى ديمة سحب تطايرت وما زالت تتطاير في ذلك الشارع لتعم الدروب كلها ، تشع طيفاً بلورياً يراه العجائز الذين يعكزون في أعصر الأيام، بحثاً عنها في الجهات الأربع، ونسمع سعالهم الذي يسعفهم عن الحرج وهم يستديرون خلف امرأة تمر بالقرب، تتجاوز دون انتباه صبابتهم وشوقهم الجارف الى قوة النضال .

لم يكتف بالصعود الى رأس التلة لرصد العالم. ومن الارتفاع الشاهق ستشرق عليه الشمس قبلنا ، وتراه سيلمع فوق الجبل عندما يبزغ الفجر. فقزحت ذرات ندى غطت أعلى القمة ، وانسحب الظل المائل عن سفح كوكب وانحدر بعنف الى مربط الجبل، ثم شع قرن الشمس. كان الكولونيل في أعلى الجبل يبحث عن شيء مختفٍ، مرة يقرفص ويطيل ومرة يقوم ناظراً حواليه، ويدور الى جهة أخرى يقرفص فيها ، ولقد تبعه بعد حين عدد من معاونيه، أخذوا يؤدون حركاته ، تجمعوا حوله بأعلى القمة في دائرة ترقص وترقص: يحدقون في التراب ويرفعون رؤوسهم الى سنجار، كيف تصعد الشمس فوقه لتهبه شروقاً عراقياً، هناك يبدأ الشرق ، ليمنح العالم نهاراً آخر. وبارتفاع قرص الشمس أخذ السرجان حمزة آلة التصوير وتحرك في سفح التلة بحركات شابهت ما قام به الكولونيل . أراد أن يأخذ لقطة كبيرة لنبتة قصب القاميش ، وبإمعان تأملها، ربض بالقرب من غيضة نما فيها القصب ، وكان يضبط المصورة الى مسافة يظهر فيها ساق القصبة الكامل ، ولاح في أفق الصورة جزء من قصب تشوش ، فصار خضاراً يصعب تبينه، وسأله جاسر بعد ذلك حين أظهروا الصور، فأجاب السرجان شيف : لكي تظهر واضحة يجب ان تكون مسافة

ضبط الصورة تساوي أربعـة أمتار، لقد اخترتها على متر واحد فقط ، وهذا ما يشوش خلفية الصـورة يا جاسر ، وفي صورة أخرى اكثر قرباً ، كانت عقدة خضراء ناضرة ، تميل الى السواد في زواياها البعيدة ، قد ظهرت بلون باهت، وهز السرجان شيف رأسه وهو يقرب الصورة ويزويها على موضع تظهر فيه تلك الجزوز التي رآها وهو يلتقط الصورة ، قال السرجان حمزة : يجب تلوينها عند الرسام ليظهر الخضار والعروق الريانة، انها صورة ناجحة. أثناء التقاط الصور كان الكولونيل في أعلى التلة يشرف بنفسه على عمليات الحفر الدقيق الذي بدأه أربعة رجال بمرو صغير وقدوم يمس جانب الحفر مساً رقيقاً ، وقد تحولوا عن حفرتين فاحتفروا في مكانين آخرين حفرتين غابوا فيهما .

الكولونيل يبحث عن كنوز الذهب ، لكن الذهب لا يوجد في هذه الأماكن ، وصناديق الذهب لا تخفى في التلال ولا في هضاب المرتفعات ، يضيعون وقتهم سدى في الحفر ، وإن المخابئ في السفوح. لا تجد غافلاً يحفر في تلة ليخفي فيها ذهباً أو كنزاً، الكل يعين ست خطوات باتجاه الشرق من شجرة كذا، عشرة باتجاه القبلة من سور بيت مهجور، صالح الساير مثلاً أخرج أمواله بانتهاء سفر برلك من جفر حية السلطان ، كان يخفيها هناك دون علم أحد ، وعندما بحث عسكر العثماني عن أمواله في أرض داره ، ونقبوا بخبث في نواحي البستان لعلهم يجدون مخبأ صندوق نيرات الذهب، فشلوا ولم يجدوا شيئاً ، ورغم تهديد القائم مقام بسجنه في قشلة حلب ان لم يخرج أمواله، فإنه كان يحلف بأغلظ الأيمان بأنه خسر كل شيء ، ويكشف لهم عن المخابئ القديمة التي استخدمها ، وكلها كانت في البستان وبالقرب من سور البلدة ، وانها لم تكن في هضبة أبداً ، لكن الكولونيل موغبيه لم يستمع الى كل ذلك ، لولا شهوة تل العزيزية وقرب مغيب الشمس لما تحرك أبداً عن جبل كوكب .

دوّن في كتيبه عدداً من الملاحظات ، وعيّن على خارطة صغيرة موقع جبل كوكب ، ورسم فيها صوراً للقاميش الممتد من نصيبين ويجاور نهر جغجغ ووديان الرد . ثم أمر القافلة بالسير الى تلة العزيزية . وقبل ان تتحرك أوعز لموسيقى المارش ان تعزف بمحاذاة أقدام الجند وأخفاف الإبل وحوافر بغال جر المدافع .

هز المارش الأرض ، فكانت خافقة على طول ساعات المسير ، الكولونيل في سيارة الجيب يلوّح بيده لجانبي الطريق ، ويوزع ابتسامة انتصار ونشوة للأهلين الذين خرجوا من أوكارهم وخيمهم مذهولين على قرع الطبل وصنجات النحاس الحادة ، وكانت لهفتهم عارمة ، يشوبها وجل وخوف

منعهما عن الاقتراب ، لكن ومع بروز تل العزيزية في شمس ساطعة ، ونهر السفح الشرقي وهو يعكس فرحاً وألقاً عامرين ، جعل الأهلين يتقدمون من القافلة بشيء من الشجاعة ، يردون تلويحة متأخرة للكولونيل ، بعد أن يمضي موكبه ، ثم يستديرون الى بعضهم فتأخذهم نشوة ضحك وقهقهة عظيمة .

تلة العزيزية كالعلوة يا جاسر ، الا انها على ضفة نهر ساقية والعلوة على ضفة نهر بحر يطوف في أشهر ذوبان الثلوج . وقد أبقى الكولونيل في التلة مداماً رائعة ، تحمل جسداً افرنجياً ، الكل يقول انها جاءت من بيروت واستوطنت في تلة العزيزية ببيت المختار ، والمختار مأخوذ بها منذ حلت في أرضه، بنى لها داراً تحاذي داره ، في أعلى التلة ، يشرف على المنطقة، ترى منها مجرى الخابور ، ومعظم أراضي الجزيرة. وأشار جاسر الذي عاد ينوس فوق ذلوله ، يضع كفه ظلة لمدى عينيه ، نحو التلة وقد ظهر فيها ما حسبه مداماً قعدت تنتظر فصائل وبلوطينات الكولونيل موغييه ، قال جاسر : هذيك المدام يا عبد. فأزوى عينيه وقلص شفتيه ورد : هذيك هي المدام قاعدة فوق التلة، هسع الكولونيل بس يشوفها يدبك مثل بغل . ووقف الكولونيل من جديد في سيارته ، وأمر المارش كي يبدأ العزف ثانية .

ولم نحضر الاحتفال الذي أقامته المدام على شرف الكولونيل ، اكتفينا بمأدبة غذاء دسم في سفح التلة عند ضفة نهر الرد . وكنا نخمن معاني الوجد التي نسمعها تهبط علينا من بيت المختار، وعندما نزل الكولونيل من سيارته أنقضّ كنسر على شابة قادمة من بلاد الذهب والشمس ، كانت كالعاج الدفين في أعماقنا ، حسبنا انها فتاة أخرى غير تلك التي رأيناها في المرة السابقة ، حينما ذهبنا الى نقرة الدم وخرجت تودع الكابتن موغييه ، الآن بشرتها أنعم وذات طابع ارجواني، مشرب بعنفوان الحياة . اقتربت منا ورأينا جسداً أسيل ، ملامحها تجمع بين ملامح أم ومزايا عاشقة. ضمت الكولونيل في عناق طويل ارجحت فيه ذيل جسدها ، وامتلأ الكولونيل بضماخ حب فاهتز على صداح موسيقى تآلفت مع نغمة وإيحاء صامت بعث الحياة في الجسدين وفي المعسكر كله.

هذه المرة المدام أصغر وأحلى ، قال السرجان شيف حمزة وهو يقترب من ضفة نهر الرد ، يراقب غيضة أنبتت في أرضها أشكالاً غريبة من قصب القاميش . المدام السابقة ، وحسبناها امرأة المختار ، ذات طبع قروي ، تلبس ملابس نساء العزيزية ، أما هذه فتتميز عنهن جميعاً .. وعندما ضمها الكولونيل للعناق ، رفعها وحرر ساقيها عن الأرض رأى كل المعسكر بطن ساق كالمرآة . واشتعل الغضب في صدر جاسر فضرب براحته الأرض

وقال: لولاها لكنا الآن في الدير ، يكفي يومان في تلة العزيزية .. ماذا يريد الكولونيل أكثر؟! فأجابه السرجان حمزة وهو ينهض من مجلس ضمه اليهم : شوف يا جاسر ، هذيك سيارة الجيب ، ينظفها ويلمعها المعسكر ، اليوم العصر راح يتنزه فيها مع المدام ويغيب ليوم أو اكثر ، ونحن راح نبقى هون حتى يرجع . وكانت سيارة الجيب المطلية بلون بني تقف الى جانب شاحنة الصيانة والاصلاح، انهمك رجال الميكانيك في حملة صيانة وتنظيف لها . ورفعوا غطاء المحرك وفكوا نواحيه السفلية ثم غيروا زيته وماءه وأعادوا عمل جهاز الفرملة بعد ان تعطل في جبل كوكب ، وأبدلوا عجلة كسرتها حجارة الطريق. على السفح الشرقي وقفت السيارة قريبة من مجرى نهر الرد، وجلس رئيس ورشة الميكانيك بعد انتهاء الإصلاح خلف مقود السيارة ، وحاول الانطلاق بها نحو تلة العزيزية ، فأصعد السيارة بقوة خمسين حصاناً أعلى التلة ثم استدار الى الطريق الهابطة من ناحية الغرب ، كان يريد ان ينزل بقوة وسرعة من رأس التلة كي يختبر هدروليك المكابح ، وليؤكد للكولونيل سلامتها من الاعطال. خرجت المدام مع الكولونيل ، يداً بيد من بيت المختار ، على صوت المنبه الكهربائي الذي أطلقه السائق والذي وقف في بداية المنحدر مستديراً اليهما ، يومئ ان المكابح عادت تعمل ، وأشار الكولونيل له ان ينزل التلة بسرعة ، فأفلت منبهها، ثم زأرت السيارة الخامدة ، بينما اخذت تتأرجح هابطة متقلقلة فوق طريق غير منتظم .

من المفترض ان تفرمل في منتصف المنحدر، لكي يرى الكولونيل قوة المكابح ويتأكد من سلامتها. وبعد ذلك وعند العصر وحين يتم التأكد من صلاحيتها ، ينظفونها ثم يصعد اليها الكولونيل ومعه المدام ، يجوب أراضي الخابور، ويتعرف بشيوخ القبائل العربية وغير العربية ، وان كان سيدخل مضافة كل شيخ ورئيس فذلك يقتضي أياماً وليال ، لا يتركوه قبل انصراف ثلاثة ايام بلياليها ، سيقيمون حفل دبكة واستقبالاً ينحرون فيه رؤوس الابل والشياه . ولن يسمحوا له بالمرور على عجل مع المدام، يوقفونه ويلتفون حواليه دائرة عبي وعُقل : لن ندعك أيها الضيف ترحل من غير تناول الزاد والطعام ، انتظر حتى ترتفع القدور عن أثافيها .

لا يعود الكولونيل قبل أسبوع ! فحدقوا الى السيارة التي زادت من سرعتها بلا توقف ولا محاولة فرملة . وأطلق الكولونيل تأوهاً شد به ذراع المدام : إذا بقي يسوق هكذا بسرعة نازلة مجنونة فإنه سيذهب الى الشيطان ، توقف! وصاح الكولونيل: توقف، بحق السماء أوقفوه أيها العساكر، لا تدعوه يبقى ينزل هكذا .. لن تتوقف .. اذا بقيت بهذه الصورة فإنها ستنقلب وتتدهور . لم تعد المكابح سليمة ، تعطلت عند أول ضغط عليها ، داس بقدمه على ضاغط المكابح فحدّ السيارة قليلاً ، لكنها وبقوة الانحدار عادت تجري بسرعة أكبر ،

جعلت السائق ينقذف نحو اليمين والشمال بمحاولة يائسة للتحكم بمقودها. وصاح الجمع : لقد طاشت ، ستنقلب بعد هنيهة . انجذبت المدام الى الكولونيل، التصقت به وهي تتمتم : رب السماء .. يستطيع ان يوقفها، يضع يديه على زواياها الأربع فتفعل فعل المكابح حتى تثبت في الأرض .

انقلبت السيارة وانخلقت غمامة غبار انبعثت من الأرض كبركان ، وصوت دوي عظيم غمر مسامعنا ، فدست المدام وجهها في صدر الكولونيل بينما ظل يحدق مشدوهاً مرتعباً لمدى لحظات. وتخيــل جاسر أنه على ذلول هيلوان أو على الهيلوان ذاته . فهب من أرضه ، يقفز فوق حصان خرافي ، مردداً في سره ما ردده عايد الخضر قبل سنوات ، وتصور ان السائق بين فكي ضبع ، وفي برهة احتضار أخيرة ، ركض نحو السائق والسيارة الجاثمة بخبل في أرضها ولم يبق سوى لحظات من زمن سائل في قبضة يده. تقدم جاسر يركض في ردام ورجام لم ينقطع، وظللت المكان سديمة ضباب أبيض. وعادت المدام عندما نظرت الى الأسفل تغمر رأسها من جديد في صدر الكولونيل متضرعة وقد أخذها خوف مما سيحدث. لو استمر الرذاذ يتكاثف في بقعة كامدة ثقيلة فإن كتلة من نار هائلة ستدوّي في تل العزيزية وستأخذ معها السائق، لكن جاسر كان قد خرق ذرات زيت وبقع كازولين متبخر ، وعض على أسنانه وهو يخرج السائق من بين حطام حديد ونهر رجراج منزلق متهيء للصعود كخيمة نحو السماء .

يحق لي في هذه الساعة أن اتأمل ، اذ لا يحق للأموات وللمواليد حديثي الولادة ، ولا للمرضى الذين يمنعهم عنه فظاعة الألم ، ولا للناس أجمعين وهم في هذائية الحياة ، يحق لي ـ وهو ينوس فوق ذلوله مخلفاً مداماً ترجو لقائده لقاء وعودة ، ومنتظراً طامحاً تعلق جسر الدير الى فضاء ينتظر وصول أثر قافلة. يحق لي ان أنظر الى نفسـي في مرآة مجلوة، في ركن غرفة هادئة ، في زاويتها أقرفص حاملاً مرآة يد ، أنعم بالهدوء وأنتعش باستحمام يزيل البقايا ، أتفحص برضى ديمومـة الأمان المخيمة على وجهي ، ثم أخمد لهابة رأسي وأستمع الى ما يقوله وجه ولد في رحم مرآة ناصعة ، لا يشوبها بقع زيت ولا تلف أو اهتراء.

الخطوة الأول في تنظيم حالة تأمل وسهوب يقظ ، هي ربط الذلول بقضبان النافذة، ثم الدخول الى البيت للإستلقاء والراحة. جلبت صاحبة البيت جفنة حملت فيها طعام الغداء، قالت تروي له : البارحة نمت يا جاسر نوم الأموات، مساء البارحة طبيت عليك الباب بلا فائدة، كنت كلما دقيت عليك أكثر تنام وتنام وتنام ، حتى قلت لنفسي في حدة الغيظ : نومة أهل الكهف ، تنام وما تفيق الا بعد ألف سنة! قعدت عند بسطة الباب انتظر شروق الشمس ، وعندما ارتفعت الشمس وما فقت أرتجف قلبي .

كذلك اذا ، شهق جاسر في مرح ومزاج ترف ، يحاول ان يتذكر الحادثة التي ستعيده الى أحلامه . استطردت صاحبة البيت قائلة : كنت كلما ترجع الى الشخير أقول : هسع يفيق . بس أنه أصابني ملل وقرفت من حالتي وأنا قاعدة عند الباب وحسبت بعد حين أنه ما يفيد بهذه الحالة شيء غير أنثى تسح فوقك، تدس يدها في ثنايا صدرك وتدغدغ جوانبك : يلا قم يا جاسر ، يكفي نوم .. وأنا أقعد عند الباب أسمع هسهساتها ودلهها ، وأنت يا جاسر ما تفيق ، تنقلب الى الجهة الأخرى وتطمر رأسك في الوسادة تتدلل وتقول قولة نايم : ما أفيق ما أفيق . فدارت الفكرة في رأس جاسر. ولقد تناوبته أفكار من هذا القبيل عندما دخل أول مرة بيت نورا المزعل كي يكتري غرفة تطل بنافذتين على

طريق رصف بالبازلت. كانت رائحة المدخل ، إبانها ، تحثه على الشعور بالهدوء وبضرورة الانتماء الى أسرة . فخمن أن هناك شيئاً ناقصاً ، ولقد ملأته أجواء المدخل فأحس أن ذلك الشيء دار بالقرب منه ، بل حواليه، لكن السرعة التي جاء بها جاسر الى دار نورا المزعل مع رفيقه عبد السليمان منعته عن متابعة ما جرى في أعماقه ، كانت حاجة الحياة الجديدة والضرورة تقتضيان عدم التوقف كثيراً مع الجيشان الأحمق ، لقد عانى منه الكثير في السنين الخوالي ، فلولا عبد السليمان والتقييد في الهجانة ، لولا نقرة الدم ومشهد الدماء الناضحة من عرب طي ، لعاد مرة أخرى الى ذكرى وحلم مصطبة الدرج ، ومضخة البئر ، الى هلوسة صوان شاها ، ومجريات صامتة مع هند وأختها مريم. لم يتبع مشاعره لكنه أحب أن يسمع ما تقوله نورا المزعل .

نورا المزعل التي فتحت باباً خشبياً مدعماً بالدسر وبالصفيح، نقلت خطاها بتؤدة من مجلسها في صدر الحوش، من مصطبة تطل على الشمس ، تضع يدها ظلة أمام عينيها ثم ترفع وجهها نحو من وقف عند الباب ينتظر أذنها لرؤية غرفة بنافذتين على شارع بازلتي . ردت على طرقات الباب : من عند الباب ؟ وهي تقفز من فوق المصطبة وتضع قدميها في الحذاء ثم تبطئ في الانتقال نحو الباب ، كي تلم أفكارها وتواجه بغتة محتملة : لو كان من كان فأنا لن أفاجأ ، وكررت : من عند الباب ؟ رد الطارق : أنا عبد السليمان. وتتحرى في وجه جاسر الرحبي الذي وقف الى جانبه ، يشم رائحة المدخل التي نفدت من فتحة الباب . قالت نورا المزعل ذات الوجه المستدير ، تتلعثم بأحرف وكلمات مضطربة : هذا لسه أول شيء ، بس تدخل أكثر ستتشم يا جاسر الرحبي كل بخور ورائحة رطبة تصدر عن منـاطق الحوش وزوايا الجدران ، يوجد لدينا تنور نخبز فيه أرغفة ليوم كامل ، وقبالة غرفتي تقوم شجرة نخيل سنة تحمل وسنة تبور ، واذا ما جاءها لقاح فإنها ما تحمل ولا ثمرة، إي، لا بالصيف ولا بالشتاء. هذه كانت تحمل مرتين في السنة وكنا نقوم بنشر عناقيد النخيل الكبيرة بإسناد سلالم عالية على جذعها المطل على كل الدير ، كان جذعها يميز البيت من تلة الجبيلة ، اذا وقفت هناك وسمّت باتجاهنا فإنك سترى البيت وهذه الغرفة ، وهي تشير بيد وأصابع مرتجفة نحو باب غرفة مطلة على شارع بازلتي .

كان الحوش رطباً ومؤنساً ، واقتربت من قلبه ، فقطفها ووضعها في صدره كي يشمها وردة صباح ما زالت تشع رحيقاً لا ينتهي . وتخيل أنها مريم ، يطاردها فتدور حول جذع الشجرة .. من الشمال.. ويدور جاسر من اليمين في حلقات تلف .. يبقى يدور وتبقى تدور أن يدرك أحدهما الآخر ، حتى يفاجئها

من الخلف ، بالعودة الى ذكريات وأيام انقضت . لكنه أخفى مشاعره أمام وجه بزغ فجأة وحيداً في حوش له باب خشبي مدعم بالدسر وبالصفيح . ولكزه عبد وهو يتطلع الى جدران الغرفة ويتحسس براحة يده ملاطها وقوة عزلها للحرارة، لكزه وقال له : إعجل يا جاسر الاجدان شيف ينتظرنا . وقال لخالته نورا المزعل : ترى إجازتنا قصيرة .. ساعة بس ، ونحن راجعين باكر . فوضعت نورا قدميها في حذاء مهترئ ، ونهضت بصعوبة عن المصطبة على طرقات الباب ، وراحت تنقل ساقيها وهي تتصور ان زوجها يدق الباب بيده الخشنة كما تعود أن يدقه منذ سنين. وحتى اذا كان زوجها يقف الآن بالباب فإنها لن تفاجأ أبداً ذلك أن نورا لم تتعود بعد على موت مصلح العرّاف ، قال لها قبل أن يرحل انتظريني وسأعود ، وانتظرته سنين طويلة ، وخشيت بعد ذلك إذ تعد السنين على أصابع يديها أن تتحول لكثرتها الى أصابع أخرى ثم تبحث عن أصابع بخور ورياحين مثبتة في أنحاء الحوش . تجاوزت غرفتها وصحن الدار ودخلت في ممر واسع بين الغرفة الأخرى والمرافق المقابلة لها حتى وصلت الى الباب ففتحته وهي تظلل عينيها براحة يدها وتراقب بإمعان ملامح جاسر الرحبي .

قال لها عبد : هذا جاسر ابن هدلة الخضر يا خالتي . فرحبت قائلة : جدتك كانت مثل أمي وقت سكنا العلوة ، أهلاً يا جاسر . وتقدمتهما ببطء وقالت: شكون تريدون تشوفون ؟ هذه غرفة زينة يا جاسر وأنت مثل ابني . وجلس الثلاثة على المصطبة يشربون الشاي بعد أن حلفت عليهم نورا قائلة : شكون.. ما تطلعون والله قبل ما تشربون الشاي ، وظلت تردد وهي تتجه نحو المطبخ المقابل للغرفة التي سيسكنها جاسر : شاي العبد نكهته زينة ، مع هيك قعدة ما يتضيع . ثم روت لهما عن الوحدة وماذا فعلت بها، رغم مجيء جاراتها وأقاربها ، تبقى وحيدة دون مؤنس ، واذا سكن عندها جاسر فإنها ستهتم بمأكله ومشربه، تغسل ثيابه : كل شيء يا جاسر مو هيك ! ليس لأنه مستأجر بل لأن جدته كانت كأم لها أيام سكنوا العلوة ، هذا من جانب ومن جانب آخر ستفرح به ، يبدد همها .. ستنتظر مجيئه من الكبانية كما تنتظر إبناً لها . ونسيت نورا المزعل كم من السنوات انقضت برحيل زوجها مصلح العرّاف ، وراحت تقارن عمري جاسر وعبد أيام هجر زوجها الدير ، كان جاسر وعبد وليدين يلعبان الصميمة حينما غادرها مصلح . في ذلك المساء رمى خرجه على ظهره ورحل بأمل العودة ظافراً بالمال، وقال لها من جملة ما قال : لن أتزوج يا نورا ، أنت الأولى والأخيرة .. اذا جاءت إلي أجمل بنت في تركيا فلن أتزوج ، ورحل . وأحست نورا ان تأكيد زوجها على عدم الزواج من ثانية يعني بطريقة أخرى أنها لن تتزوج أيضاً في حال عدم رجوعه أو موته ، رغم دماثتها وجمالها . تمر أيام عليها فلا يزورها أحد ، وكان قد اعتبرها جيرانها حالة غريبة، عجوز خرف لا تريد قريباً. أما الأعوام الأولى لرحيل زوجها

فكانت على صلة مع جيرانها ، الا أن تراكم سنوات وليالي الوحدة من دون أي خبر عن زوجها ، وما تناقلته الألسن بعد ذلك عن موت مصلح العرّاف ، جعل بذرة التغير في داخلها تكبر وتتشعب . وكذّبت في البداية ما سمعته عن موت زوجها ثم حاولت إبعاد الإشاعة عن أفواه معارفها ، وتأييدها لخبر وردها من أطراف مجاورة تعمل في التجارة يشك في صدقها ، أنه ما زال حياً ، وقد رأوه على أبواب مدينــة بعيدة ، سبعة أيام سفر ، نسوا اسمها ، ومن المحتمل انها تسمى بلغة أهلها مدينة كش ، تحكم إقليماً نهرياً واسعاً يشتهر بالزراعة ، كان يقيم هناك ينتظر مناسبة كي يحضر الى الدير وينتزع زوجته من براثن الفقر والعوز، قال لهم يكفي ترحال ، عندما تحول السنة القادمة فإني أحزم الأمتعة نحو الدير، لأن الدير المقصد الأخير . لذلك ظنت أنه جاء وراح يطرق الباب بتلك اليد الخشنة التي تعودت ان تسمعها تطرق . قامت من على المصطبة وهي ترسم في ذهنها صورة لمصلح العرّاف وقد غيرته السنون ، ابيض شعره وانحنى ظهره ، لكنه ما زال يملك همة وقوة الشباب .
طرق الباب بقوة فخرجت من غفلتها ، تنهض وتحفز في فناء الدار نحو الباب المرتج بمزلاج . وتساءلت كيف سيراها مصلح ؟ أما زالت في عهد الشباب والجمال ؟ عندما تفتح الباب سيأخذها الزمن الى الوراء عشرين ثلاثين عاماً ..
ثم تعود على ظهر براق يخطف السنين والأعوام ليحلها في هذا المكان وهذا الزمان ، تطلق صيحة فرح فتهلهل اذا تلمح شعراً أبيض وظهراً محنياً يقف بالباب: انه مصلح العرّاف يا نورا. يرتجف قلبها من عنف العودة المنتظرة، مصلح يا نورا كم كان طويلاً وجثة، كم كان قوياً، جذاباً!؟ كان يلهث فوقي في الليالي الباردة ، وأدله الى مناطق باردة في جسدي ، أقود لهاثه الى نواحي الرقبة، ثم أصرخ من الألم والحب والشوق والذكرى حين يرذ رذاذه الساخن: أيوه هون كل البرودة يا مصلح ، انفخ بقوة انفخ بقوة . فيتطاير نثاره كالزبد النهري يانورا . لكن هبط قلبها الى فراغ ، فتريثت في مشيتها وفي أحلامها ورددت : ليست المرة الأولى يا نورا .. لن يقف بالباب مصلح العرّاف فهناك غيره يانورا .. ليست المرة الأولى التي وقف غيره ليدعي أنه مصلح العرّاف.. مصلح ليس بالباب بل عبد وجاسر . رفعت رأسها تبحث في وجهيهما عن ملامح زوج ضاع واختفى في مساء غابر .
أراد جاسر أن يسألها وهي تحدق في وجهه : عمّ تبحثين يا جدة . لكن عبد لمزه ، فتذكر جاسر ان الجدة يأخذها حال من ذهول وشرود غريب ، لها طبيعة خاصة ، وللتعامل معها بسلامة يجب تركها وشأنها. ابتسم لها ، فلمح في وجهها حناناً وحباً كبيراً ، رفعت سبابتها الى وجهه وقالت : أنت على ما أظن جاسر. ثم استدارت تمشي في فناء الدار، تروي له عن أيام سكنوا العلوة، وعن جدته وزنة الخضر. قالت: كان يجب ان تزورنا يا جاسر ، عبد ما انفك كل مرة يزورنا ، أما أنت فلا تمر الا عندما تريدت أن تسكن . وأشارت بيدها

نحو الغرفة : هذه غرفة لك يا جاسر ، اعتبرها لك .. الدار كلها لك ولعبد ، تسكنون معاً أحسن يا جماعة. رد عبد قائلاً: غرفة لي وله ما تسع، باكر جاسر يتزوج فيها يا خاله، أما آني فغرفتي في مكان ثاني. فضحك جاسر معقباً : غرفتك ما نطالها، لولا الأجدان شيف وامرأة الليوطنان شيفرا يا عبد ماحصلت على هيك غرفة! وهز عبد رأسه قائلاً : تأكد يا جاسر هون أحسن وأخير من دور الجبيلة .. الواحد هون يأخذ راحته وحريته .. الواحد يا خي مثلاً يقدر يشمر ثوبه ويمشي حافي ، ما أحد يقول له أين الطريق .. أما هناك ببيوت الفرنسيين .. اللويطنان ، الأجدان شيف .. ما يصير تمشي على كيفك.

اذا اعتبر جاسر أن غرفتهم في دار فرحان الشاهر تشابه هذه الغرفة ، فمن يشابه فرحان الشاهر في بيت نورا المزعل !؟ وشاها المطر ومريم وسرحان وهند وذاك الفتى ذو الأنف الحاد الذي يقول له : لا تقوى على رمي نفسك في نهر مياهه باردة ، فتركض نحو هذيك الشجرة لتختبئ من المطر الذي سيسقط على جسدك؟ هنا كلهم نورا المزعل عندما تمشي مترهلة عاجزة عن اتيان قدرة الشباب، فلا تقوى على رمي نفسها في أي نهر يمر منها. نورا ستجفل ، وستتكمش مسامات جلدها ان ألقت نفسها في المياه ، تصيح صيحة موت واحدة، ثم تشهق : هكذا يا جاسر تلقيني يا جاسر فجأة في الحياة ، تدبني بلحمي ودمي من غير علم ولا حلم ، رأساً ، وتجعلني أنام هكذا يا جاسر .. أنام وحدي . وأخذت تردد وتقول : هكذا يا جاسر . فرد عليها : من الآن فصاعداً لن أدعك وحدك ، سأخرج من الكبانية كل بعد ظهر كي أنام في بيت نورا المزعل .. لن أدعك وحدك .

وخرجا من دار نورا المزعل ، عبد السليمان يقول : أحسن يا جاسر ننام برا المعسكر ونتزوج ونشوف أولادنا ونعيش مثل الناس . رد عليه : نحن مثل الناس وأفضل يا عبد ، كلهم يخافون منا ، ولا أحد يجرؤ على الحكي معنا أدنى كلام .. شكون انت شايف ؟ المهم انشاء الله ترتاح عند خالتك نورا وتشوف لك ابنة حلال زينة . أرى ابنة حلال فيرى ابنة حلال معلقة على مدخل الجسر، يداها مفتوحتان ، وشعرها المتقصف يطير خلف ظهرها ، يلتف حول قضبان ودعائم رفعت الجسر وعلقته . فجاءت اليه ، تتغطى بعباءة ، تطرق الباب ببوز حذائها ثم تلم زمام العبايا حول عنقها ، لا يبدو منها سوى وجه حنطي ذي تراسيم كبيرة ، جمجمة ضخمة وفم كبير .. وعينان واسعتان وأنف كالقلعة. ضربت الباب بجمع يدها تنادي : افتحوا .. افتحوا ، أريد جاسر ذا الشاربين المعكوفين والعينين اللامعتين اللتين لن أنساهما بعد اليوم . ففتحت العجوز لها ، نظرت اليها وكانت تريد أن تتأمل وجهها أكثر ، لكنها لم تسطع أن تبحث في وجهها عن ملامح زوجها الذي رحل . سألتها :

أين جاسر ، ولم تنتظر إجابة ، دفعتها جانبا ودخلت بصوتها الذي ألفه منذ سنين .
كانت عفراء قد فكرت كثيراً في إقدامها هذا، وعندما فشلت المحاولات التي قام بها فرحان لطلاق مريم من ناصح ، قررت عفراء أن تلجأ الى جاسر الذي سيتجه الى حي الجبيلة برشاش الكينز يرغم خلف الحويش على تحرير إبنة فرحان . وما جعلها تعزم بقوة على هذا الحل ما سمعته في الخفاء من كلام في مريم ، ولم يسمع فرحان ولا شاها ولا أحد من إخوتها شيئا منه ، كان ناصح يأخذ امرأته مع ثلة أصدقاء للسهر في ليالي مشبوهة ، وما دار حول ناصح أخذ يتردد حول مريم ايضاً . لذلك تحركت عفراء بسرية في عصر احد الأيام الى دار نورا المزعل لمواجهة جاسر وإعلامه بما أشاعه البعض عن مريم . ولم يصدق جاسر ما نقلته عفراء، رغم أنه ضرب كفاً بكف عندما سمع الخبر وقال مصدوماً : الدير .. الدير كل هذه الدعارة في الدير .. يأخذون نسوانهم ويسهرون عليهن !! لكن عفراء أكملت قائلة : ومريم ترافق ناصح أيضاً . فارتعد في مكانه وسألها : أي مريم يا فاينة ؟ فأجابت وهي تخفض نظراتها وروحها في منحدر صدرها الدلع : مريم يا جاسر !

هذا تياترو اذن ، الدير أصبحت تياترو ونسوان الدير كلهن مثل حسيبة ! اذا كان في العلوة حسيبة .. حسيبة واحدة ، ففي الدير ألف واحدة اذن .. وحتى مريم !! تفو .... وهو يبصق مخلفاً تفافات على ذقنه وعلى صدر كلابيته ، واحمرت عيناه في وجه عفراء . أغلق الباب ، فرمى عنها عبايتها وفتح ازرار ياقة ثوبها ، قائلاً : هذا الذي جئت به إلي يا عفراء !؟ يريد أن يتقدم نحوها ، يمسك عنقها بأصابع من نسر ثم يغرز أظافر جارحة في لحمها حتى يطفر دماً وتتلوّن أظافر أصابعه بلون الماناكير الدامي ، يريد أن يمز بشفتيه دمها الحار حتى يقال أنه أكل لحم آدمية جاءته بخبر يطعن مريم، خبر يطعن بنات الدير وهن يمشين بخيلاء على أريج واهتزازات شوارع ستة الا ربع ، شوارع عذاب تتدفق بالسمار والحنان الأمومي الأول .

فخلقت في قلبي غصة ، طارت فوق البلاد كالقصة، خرافة مجنحة عشقت السماء ثم نزلت: ما أنا بقارئ لسه، حتى تزول هشاشة البلاد والخسة، في هذا الزمن ما ينسمع للواحد منا حسه. فتقدم نحوها والسماء مقفلة، والأرض موصدة برتاجات ودعامات دسر لا تنقلع من ثباتها. ولأنها بطوله تماماً وبجسمه تماماً ، لأنها في خشونته وشهوانيته ، وقفت أمامه وجهاً لوجه، وقالت تسائل روحها : ما لك يا جاسر متعب ومقهر .. ومشلول في ارادتك ودمك ! جمد في مكانه، أنزل شهوة لسانه خارج فمه ، مثل كلب يقاتل الظمأ ،

ورأت عفراء فعل الحب فيه . ضمته الى صدرها وأراحت وجنتيه في دفء مهجة تحميه من الانكسار والتشظي الألفي القادم .

فأصبحت في المرايا بعد ان عدنا من نقرة الدم ، ونمت كل ذلك النوم ، أيقظتني نورا المزعل فـي الضحى وقالت : استحم يا جاسر ، عقب هذا النوم الثقيل استحم . دخلت الحمام ثم خرجت عائداً الى غرفتي ، جلست في زاويتها أرقب الوجه الجديد وهو يتجول في مرآة يد يبحث برضى وأمان عن قرار صارم .

قرار صعب يا جاسر لكن لا مناص منه ، فرائحة عفراء وهي تغمر روحي الكسيرة أغرقتني وجعلتني أحول الرائحة الى نهر يجري بسجور الشيح وبخار الأرض ، لقد أنستني مريم في لحظات ، فشعرت حاجتي الى دفئها وحضنها الرمادي . ما المانع من أن نعيش سوية ؟ أنت تمتلكين زاوية ليلية في هذه الغرفة وأنا أمتلك الأخرى حتى يجن الليل . أذهلتني نظراتها الهادئة حتى نسيت مريم ثم تذكرتها تضمني بطاقة صدرها وبرف فؤادها، فقلت منذ ذلك الوقت : لم لا تكونين مريم؟

كالحلم . عندما وصلوا الى كبانية الدير ، اتجه من فوره الى دار نورا المزعل ، وأناخ ناقته ، عقلها بإحدى نافذتي الغرفة ، ثم قرع الباب ففتحت له الجدة نورا وظلت زمناً تتمعن في وجهه ، وعندما تعرفته قالت : أهلاً يا بني جاسر .. ظنيت انك شخص آخر ، تغيرت كثيراً بأراضي الجزيرة ، أدخل .

غرفته كما تركها، لم تتغير، فراش الصوف جانب النافذتين، والصندوق المربع الذي وضع فيه ثيابه العسكرية والكلابية والعقال وأوراق مرفقة لتقييده في الهجانة في الزاوية اليسرى من الغرفة ، وفي طاقة جانب الصندوق وُضِع سرجاً قديماً للناقة ، وخطاماً مع ركابين ، وفي الطاقة الأخرى بعض الأثاث وسجادة مستعملة اشتراها من سوق المزاد ، أما طباخ البريموس وأدوات المطبخ فقد أودعها عند نورا حين رحل الى الجزيرة، لتستعملها وقت الحاجة . أغلق غرفته ثم تهالك بلباس الميدان فوق فراش رطب لم يدخله أحد منذ أشهر.

كان نائماً في الفراش وقد أغلق باب الغرفة وأسدل الستائر ، لكنه كان ينوس فوق ذلوله على مدى أيام وأيام ، وكلما فتح عينيه على واقع أو حلم تراه فوق ناقته يقطع بادية الجزيرة. في بعض الأحيان تنفجر بجانبه سيارة جيب فيقفز فزعاً ، ومرة تجمح أمامه فرس حميد الأعرج أو تصاب بالإحباط والكمود فترقد في موقعة صاحبها تنظر الى دمائه المنداحة على صدر كلابيته ، أما صورة المنديل الأبيض الذي رفع للاستسلام فلم تكن تفارقه ، كانت صورة خلفية لما مر معه من حوادث ، حتى ان المدام عندما لوحت له من فوق تلة العزيزية ربطت المنديل الأبيض الى سارية فوق بيت المختار ، فرآه يلتف حول عمود السارية . وفي مرة أخرى يحس أنه يختنق بالغبار ، غبار خان الوسط وغبار الفرسان الذين تقدموا نحوهم في نقرة الدم ، ينقلب الى جهة أخرى يتفادى الاختناق والحشرجة ، ويجلس مستنداً على كوع يده فيشهق بقوة ثم يعود الى استلقائه ، في كل ذلك وهو يسمع بين الفينة والأخرى طلقات المدافع والبنادق الموجهة نحو الشمس لاحتلال جبل كوكب ، ذلك ان الكولونيل لم يكن يهدف الذهب ومخابئه في تلة كوكب ، كان يهدف احتلال

الجبل ، هذا ما جعله يصعد مع مرافقيه على جبل بازلتي ، ووقف صالح الساير يحلف أيماناً معظمة أنه لم يخف الذهب لا في البستان ولا في جفر حية السلطان ، لم يكن لديه ذهب أو نقود ، كان قد افتقر فأصبح معدماً ، وأخذ عسكر السلطان كل ما عنده . مرّ في الحلم بخليل الساير وأخته كدرية ، بشجرة النخيل .. جاءت اليه حوادث قديمة حسبها تنتهي الى جيل آخر من أجياله الأخرى ، جاسر الرحبي قال أثناء الحلم انه مهما يكن فإن هذه الحوادث تعود الى يوم بناء وكسر السدة . حدث في يوم بعيد أن بنى أخوه محمد سدة تحمي البستان من فيضان النهر ، وحدث في ذلك اليوم أن فاض النهر فغمر السدة التي بناها، وكان هذا بسبب بناء سدة أخرى هي سدة الساير التي اكتمل بناؤها في نفس اليوم ايضاً، رفع محمد سيف الكردة ينحدر من العلوة باتجاه الجوبة ليكسر السدة التي أعلت من منسوب المياه وجعلتها تداهم بستان وحوش يطل على نهر وعلى شجرة وظلمات داكنة .

رجعت أيام العلوة ولعبة الصميمة ، تذكر هند العلي ثم تحولت ذكراها الى ذكرى مريم في حوش فرحان الشاهر . وهاهي تطير كفراشة وقد ربطت الجسر المعلق بشعرها الداكن ترفعه عن المياه ، كان الناس فوقه يعبرون الى شعرها. رفع جاسر صوته محذراً : مريم خذي بالك ، لا تسقطين في النهر ! فترنح الجسر ، ثم تقطعت جدائل شعرها الفولاذية ثم سمع صوت ارتطام لجسد كبير سوف يغمر الدير ، سوف يعلن في أمد قادم أنه آت كأسطورة منتظرة . سمع عقب ذلك صوت قرع ورنين لامرأة وقفت بالباب تزم عباءتها وتخفي شعراً يتقصف وينجّز كلما حاول العابرون امساكه . سألها ماذا تريدين يا فاينة ؟ وطرقت الباب برأسها ، فقفز جاسر من نومه ، رمى اللحاف عن جسد غطى نصفه الأسفل سروال قصير ، ثم قرفص فوق فراشه منتظراً كي تنقض عليه كوحش كاسر . كان يرتجف وقد الصق أعضاءه ببعضها ، وكانت عيناه بارعتين في التملص من اسئلتها الملحة . قالت بصوت عالي كالبوق : أنت هون قاعد مثل الذليل ونحن نبحث عنك، شكون؟! قم يعني تقوم يا دنيء . وقف جاسر أمامها مرتعباً ، محتاراً بين أن يتبع أوامرها وبين أن يستر بيديه بطنه وفخذيه ، فانحنى وهو يسمت نحو قدميها. وانتشرت في الحال حرارة ودفء جعلت من عفراء تتقدم نحوه، وكان منها ان لامست بطنه وفخذيه ، أن رنت الى الباب المقفل والى الستائر المسدلة والى الظلام . وحدث ان وقفا معا ينتظران صعود شمس الضحى الى كبد السماء .

انتهى عهد القتال يا جدتي نورا ، قال جاسر الذي استيقظ عند الظهيرة. وردت تتجاهل قوله : سخنت لك ماء للإستحمام يا جاسر ، أطفأت قبل قليل البريموس ، تراه بخر كل ماء القدر . وحمل جاسر بدلاً نظيفاً ودخل الحمام

عن طريق المطبخ . إنارة صغيرة تأتي من فوهة صغيرة في القبة ، حجبها زجاج محجر كثيف . سأل جاسر وهو يصطدم في مدخل الحمام : لو تشترون كهرباء وتصير الدار كلها نوراً ، ضوء في الحمام وآخر في المطبخ وفي الحوش وفي الغرفتين . فردت الجدة وهي تستند على باب المطبخ : الكهرباء غالية ما نقدر عليها.. لمبة كاز تكفي . فقال جاسر : نشتري باكر انشاء الله كهرباء وثمنها مني يا نورا . وأغلق باباً بألواح متزعزعة يتغلغل منه النور كطيف رماد. هناك قدران ، أحدهما حار والآخر بارد ، عندك اللقن مركون بزاوية الحمام يا جاسر ، الليفــة والمحكاكة والصابونة عندك جانب اللقن. وأردفت نورا المزعل بعد قليل عندما اعياها صمت جاسر تقول: يمكن تريد منشفة .. مو هيك .. ناقصك منشفة مو هيك ؟ فلم يرد عليها ، كان يتفقد المكان الذي يدخله ، أرضاً طينية ضيقة ذات سقف مخروطي، في أعلاه بصيص نور نفذ بصعوبة من عنق السقف ، وجدران تقشرت عن مداميك لبن وطوب ، رطوبة ورامات وحل في الزويا .. أما في الوسط فحفرة جاءت عن ترسب المياه ثم نزحها . كيف تستحم نورا هنا ؟ هذا قن دجاج ، حظيرة ، خم يدفع البرد عن خـروف أو عنز . وتابعت نورا : استحم باللقن يا جاسر .. هو على شمالك .. يابا إذا تريدني أفرك لك ظهرك تراني مثل أمك لا تستح !

كان رأسه ثقيلاً ، وهزه هزة قلقل فيها مفاصل الرقبة ، اتكأ على مدخل المطبخ ، أعطته نورا المنشفة فرماها على كتفه، ركا رأسه على جدار الحمام كالمخمور ثم تقدم بخطى متأرجحة نحو لقن الاستحمام ، تعرى وجلس متربعاً فيه بينما جذبت نورا باب الحمام تغلقه عليه قائلة : انتبه ، على يمينك قدر حار وقدر بارد وطاسة الحمام والصابونة هناك . أشارت بيدها الى الزاوية فالتفت جاسر الى هناك وتناول المحكاكة والصابونة ثم راح بمياه ساخنة يزيل عن رأسه خمرة نقرة الدم .

كيف وصل الى هنا .. عن اي طريق وعن أية فكرة ؟ جاسر وهو يزيل من مخيلته حوادث الجزيرة نسي لبعض الوقت المعسكر الغربي ، نسي بذته والذلول الرابض في شارع بازلتي ، مربوطاً الى قضبان نافذة ، والنوسان الذي سيطر عليهم طوال المسير .. نسي عدد المرات التي رحل فيها مع بلوطينات الكولونيل موغبيه الى نقرة الدم . ذلك لأن نقرة الدم وقره تشوك ومناطق شرقية موغلة لم تستسلم من الغزوة الأولى ، لقد عانت جيوش الكولونيل أكثر من مرة عار إدبار وخسارة لحقت بالأرواح والعتاد ، حملها عليهم عرب طي وقبائل الأكراد ، نسي المرة الأخيرة التي استسلمت فيها البلاد الشرقية . وكان الحمام مظلماً لولا السقوط البطيء لضوء اجتاز قارورة زجاجية أغلقت بإحكام فوهة السقف المخروطي ، لولا صدى رمادي لنور

جاء عن طريق المطبخ وتخلل ألواح الباب ، وسمع نورا المزعل تقول : هذه الإنارة بدل الكهرباء يا جاسر ، ينزل الضوء من فوق ثم يقبل من ناحية الباب نوراً يربك مداميك العتمة . وأردفت نورا: اذا كان الطقس بارداً فإنني سأدق البريموس يا جاسر، أشعله في لحظة فيصبح كالمدفأة ، يسخن الماء ويرفع حرارة الحمام . أجابها : لأ يا جدتي لا أحس بالبرودة ، بخار قدر الماء الساخن ملأ الجو ورفع حرارته ، الآن لا يمكنني أن أرى سوى ضباب دخاني يتطاير في أعماقي، مـن جسدي المتربع ، ينفذ الضوء من قارورة السقف ثم يصطدم بتلاع البخار فيتبدد ويتلاشى في جزيئاته الصاعدة نحو الاعلى . أصبح الضوء نازلاً صاعداً دون ان يصل الى القاع، لا يمكن يا نورا رؤية شيء ! بدل من تدقي البريموس أشعلي الكهرباء في الدار . سنضع مصباحاً في الحوش ومصباحاً في غرفتك وآخر في غرفتي وفي المطبخ والحمام ، في كل مكان يا نورا حتى نضيء عتمة الليل ، فلا نعود نسهر علىقنديل ولمبة كاز . ورفعت صوتها قائلة: اذن سأحضر لك طعام الغداء يا جاسر .

اذا أردنا ان نتخيل وجه نورا المزعل ، فإنه بيضوي بجبهة ضيقة ، عينين ملونتين وفم ملموم كفم سمكة ، يصح القول إنها كانت مثيرة في شبابها، لا نميز في وجهها دماء دير أو نهر أسمر ، كان شعرها ذا طبيعة ذهبية يعود الى تربة فارسية. لثتها قانية رغم تقدمها في السن ، عندما تصمت وتحدق رافعة وجها بفم مفتوح يظهر لنا جمال الأسنان وانتظامها ، يأخذنا جمالها القديم ، فلا نفطن الى بلاهتها المزعومة .

وضعت بينها وبينه صحن ثريد ، من اللحم والبرغل واللبن ، قالت نورا المزعل : الأكل بعد الحمام أنشط وأهم للجسم . هز جاسر رأسه وتناثرت حبات برغل ولبن ، كانت قد علقت بشاربيه ، على فرجه . رد جاسر بعد أن زرد اللقمة الأولى : هذا صحيح يا جدة .. وكان الأكل طيباً ولذيذاً يكون تمام . واستمر يرغف براحة يده من الصحن وهو ينحني أكثر كي لا تسقط نتف الطعام على كلابيته . وسألته الجدة عن نومه ليلة أمس ، عندما دخل الدار متعباً وألقى عليها تحية مقتضبة ثم أغلق غرفته واندلس في فراشه ، بحذاء البوط وكامل هيئته العسكرية . واعتذر جاسر قائلاً انه عندما رأى الفراش لم يستطع أن يفك نفسه قيد أنملة ، جثم عليه النوم وسرى في جسده خدر قوي ، ونام حالما رمى فوقه اللحاف ، وطيلة ساعات النوم كانت تأتيه أحلام ورؤى تظهر له أنه فوق ذلوله في طريق الجزيرة ، ما يزال في عواصف نقرة الدم وانفجار سيارة الجيب .. ويسمع أكثر من مرة صوت مدفعية وجهت قنابلها نحو جبل كوكب ، ولم تغب عنه المدام وهي تلوح بيدها بينما انحدر مسرعاً من التلة ومستديراً بنشاط اليها، يرد ببهجة النياشين والانتصار : وداعاً ايتها

المدام ، والى حين العودة . لكن العجوز ربتت بيدها على كتفه وروت له عما يحدث للمرء من استقرار وطيب نفس ان اختار زوجة تسعد أيامه ولياليه ، تبعده عما يقلق باله ويكدر صفاءه. رفع مرآة يد ، ذات إطـار مزركش وراح يتأمل فيها وجهه ، تراوده للحظات قافلة الكولونيل وغبار خان الوسط ، وذهب في تلك اللحظات الى أنه لم يحدث معه شيء ، فهو ما زال في دار فرحان ، لم يذهب الى مكان وما في دمائه وعروقه يصدق ظنه . وردت عليه العجوز قائلة : هذا لأنك لم تتزوج يا جاسر فالـزواج نصف الدين والدنيا .. تزوج حتى ترتاح من ذكرى الأيام الماضية . وكانت تبحث عن باب تدخل عفراء منه ، فهي مناسبة لجاسر وتوافقه وقد أحست بذلك حين جاءت اليه أول مرة، فتلفت جاسر برأسه ناحيتها ، وقال : إذا جاءت أول مرة فلن تأتي في المرة الثانية! رفعت العجوز مشط يدها المرتعش نحو جاسر مرددة: سوف تأتي وتضرب البـاب ببوز حذائها.

ضربت الباب ببوز حذائها، احس جاسر انه امتداد لحلم مضطرب ما زال في ذاكرته ، لكن تكرار الضرب والصوت أكدا بأنه ليس حلماً. وضع جاسر أصبعيه في أذنيه فخف الصوت وتلاشى الضجيج. إن الأمر واقع وحقيقة ، لقد أصبح الواقع امتداداً لحلمه المشوش فنهض بتردد : ان ينهض فيحقق الواقع وان لا فإنه سيؤكد الحلم . على انها استمرت تضرب وصواتها لا ينقطع: افتحوا .. افتحوا!

لعلها هاربة من القتل والسبي ، خلفها سيجري رجال مختارون انتشروا في كل مكان لانتقاء أجسادا صالحة لمرسح التياترو ، ولم تجد سوى هذا الباب فطرقته على عجل. وتخيل جاسر ان عفراء هي الوحيدة التي يمكن ان تضرب الباب بهذه الطريقة.

وقد بنوا تياترو في العلوة تقوده حسيبة ولم يبنوا آخر في الدير لأنهم بحثوا عن معلمات من صبايا المنطقة فلم يفلحوا في التقاط واحدة، كانت الدير مغلقة أمامهم فركضوا خلف عفراء في دروب بازلتية تنسمع ترجيع طرقاتها من مـرمى بعيد ، وارتفع صوات جماهير راكضة تهتف : امسكوها امسكوها .. هذه واحدة .. هذه واحدة ، متخفية في عباية حبر. ودخلت الدار بصعوبة ، وعند الباب دفعت عفراء دون وعي نورا المزعل بعد ان حاولت البحث في وجهها الحنطي وملامحها الكبيرة عن زوجها العرّاف ، وخطت خطى مذعورة الى غرفة جاسر فدخلتها كطير مجروح .
كان جسدها كبيراً أمام عيني جاسر ، أغلقت الباب ثم استندت الى الحائط تلتقط أنفاسها وقد رمت العباءة علـى كتفيها وبدا رأسها كبيراً وشعرها شلالا ،

وسمع جاسر صوت قلبها يدم بين ضلوعها، فطافت في خياله صور وحكايا بلغته حديثاً عما يجري في تياترو العلوة .

لم تعد العلوة كما كانت ، تغيرت كثيراً ، حتى ان بعض الأسر هاجرت الى قرى ومناطق نائية ، لم يبق الا إقامة دور لعرض أفلام مستوردة كي تقارن كبلدة متمدنة. تغير الناس وتبدلت سحناتهم ، ولقد انقسمت العلوة على نفسها ، وحدث في داخلها شرخ عظيم ، لا يعرف الناس كيف تجري أمورهم، في جفر حية السلطان حدثت أشياء لا تصدق ، أصبح مأوى لشذوذ غريب لم يكن ليخطر في بال أحد . بعد ظهر كل يوم يفتتح مهرجان صامت ، يعرض فيه تعويض حب وغرام لما يحدث في خان صالح السابر .

أسند رأسه على زاوية الحائط ، وقفز فوق فراشه بذهول وخوف يسألها ماذا يحدث يا عفراء ؟ تذكر انها جاءته مرة مثل غزوة ، بلا انذار وجعلته ينتفض حماسة لأن يحمل سلاح الكينز من دون أن يعرج الى بيت فرحان ليشير بيده اليسرى : اتبعوني الى حارة الجبيلة ، قال لها أثناءها : أنظري الى الكينز في الصندوق المربع سأحملها على ذلولي حتى أصل بلباس الميدان ، هذا البوط الثقيل ، وثبت عقاله بيدين خشنتين ، وربط يشمغه حول عنقه وعبأ المخازن ولفها بحزم حول جسده ، ثم اعتلى ذلوله الى حارة الجبيلة .
لكن هذه المرة غير تلك ، لقد سمع بأذنيه نداء مطاردة ، وأعاد رسم صورتها عندما لمح فتقاً طويلاً في فستانها ، كانت تريد أن تجر خطوتها أكبر ما يمكن . وبآله جبارة تحركت ، أبعدت خطوها الفزع عندما لمحوها من بعيد ، هزها الصوات ، ورأتهم كلمحة خاطر قادمين نحوها، يقبضون عليها ويمرغون جسدها وسط درب ضيقة ، ثم يرفعون أصواتهم : أنت هي .. أنت أيتها الزانية.. خذوها الى هناك رأساً . فانتفضت كالرعيد ووثبت كشبل ، ركبتاها ترتطمان بسرة فستان ذي أذيال طائرة ، انفتق جانب الثوب وأصبحت ساقاها طويلتين تصل بهما الى شارع البازلت ، تطرق بهما باب جاسر الرحبي . فخرج عليهم في لباس مستعار ، سروال قصير ستر نصفه الأسفل، وشعر كث غطى نصفه الأعلى ، شاربان معكوفان ويد متسائلة بأصابع من نسر . استدار برأسه الى ناحية الباب ورفع بصوت قديم هديراً يقول : أعطيني الكينز يا امرأة هذول اولاد حرام .

توفيق وبدري إبنا زهية الفرحان عادا من العلوة الى بيت جدهم فرحان الشاهر ومعهما أمهم اليائسة من استرجاع زوجها الماجن في أحضان اللعبة الجديدة، اللعبة التي راحت تقض مضاجع نسوة العلوة قلقاً على رجالهن . عادت برفقة عمهم عايد الخضر أبي دنيا حينما فشلت وسائله مع أخيه مهيدي في العدول عن هوسه الملح .

كانت طويلة ونحيفة ، في وجهها ملامح التعبد الصامت ، وذكرى العذابات الزوجية غير المحتملة ، تعلن عن مدى الصبر الذي يمكن ان تصبره النسوة كي يرجع اليهن رجالهن . كانت شفتاها الملطومتان بالبثور ، تبين نوع الليالي التي مرت عليها ، ومقدار الكبت الذي عانته. لولا بنوها وتسرية عايد الخضر لها ، لما بقيت الى هذه الساعة . كانت ستضع الزرنيخ في طعامها وتستريح من إهانات زوجها في ساعات الصباح الباكر ، حين يدلف اليها مخموراً وبيده باكورته ، يلكزها بمؤخرتها قائلاً : اقعدي يا وليّ .. ايش بك نايمة مثل البقر . حتى تنهض دون وعي ، فترجوه ان يكف عن جلفه وينام الساعات المتبقية من الليل . لكنه كان يصر لأن تلعب أمامه كراقصة محترفة ، وتعصب وسطها بمنديله ، يتجشّأ : هيء .. هيء . ثم يقول : ياللا افعلي مثلها.. هيء نايمة مثل البقر .. هيء ياللا تا اشوف يا بنت فرحان . فتتوسله دون الفضيحة : أبوس يدك ، الدنيا ليل والاولاد نيام.. ويرفع صوته مشهراً في وسط الغرفة : ياللا .. هيء .. هيء تا اشوف ، فتربط المنديل حول وسطها ، تحاول ان تصنع كما يريد . تشير له مرتجفة : هيك .. هيك . فيصرخ عليها : لع .. لأ .. طقي طيزك زين يا ولي . ثم يرفع عصاه حين يراها تتمايل من النعاس ويعوي: مثل حسيبة .. افشخ مخك .. أنثري شعرك ياللا أنثري شعرك ياللا سوي مثلها! وهنا يستيقظ ابنها الصغير بدري ، ويزوي نفسه في زاوية الغرفة، غاصاً بعبراته ، يتذكر قسوة أبيه على أخيه توفيق ، حين أراد أن يدفع لكمات أبيه عن أمه منذ أشهر . أثناءها ترك الأب زوجته طريحة الأرض ، ثم اتجه الى توفيق الذي انحشر بين الباب والحائط ، فأخرجه ممسكاً به من قذاله، ورنّحه الأرض التي دارت قبل ان يقع عليها . روى توفيق بعد شفائه لأخيه

بدري : دارت الأرض ثم انقلبت على رأسها ، وأحس ان أقدام أبيه وهي تدبك في بطنه ، خفيفة كظل بل باردة كصقيع . ولقد أخذه عمه عايد الى دار جدته وزنة ، ليسكن عنده بعيداً عن ظلم أبيه . ثم حاول عايد الخضر ان يتوعد مهيدي فقال الأخير : شوف يا أخي .. ما لك حاجة عندي ، واذا تشوف غير هالشيء ترا الأولويات راحن وهسع انت شايب ، احفظ كرامتك أحسن! إلا ان عايد لم يتوان عندما أيقظهم بدري في فجر ذاك اليوم . كان حافياً مدمى ، قال لعمه وهو ينهت: يا عمي إلحق أمي .. ترا مهيدي راح يكشمها . فهب من نومه الى بيت مهيدي ، حمل معه البندقية متأهباً ان يطلق النار اذا لم يتراجع عنها ، قال عايد له : ابعد عنها ..هذه أشرف منك ومن اصحابك ، ابعد عنها يا بهدلة. ولما رأى مهيدي ان عايد الخضر أمامه، بلحيته البيضاء ، وهالتي الوثوب حول عينيه ، أيقن أنه سيطلق النار اذا تحرك قيد أنملة ، فوثن في مكانه شازراً، جمجم عايد : شوف يا ولد ، عايد الخضر يظل عايد الخضر حتى يموت، والذي ما يصدق يجرب . ثم التفت الى الطريحة فقال : اجمعي البقجة وتعالي معي .. ما لك قعاد بعد اليوم عند هالكلب .

الذي حوّل رجال العلوة عن أسرهم ، ودفعهم الى قضاء الليالي خارج بيوتهم كان التياترو . أقامته مجموعة من الغرباء قدمت من بيروت ، بالقرب من جامع الوسط ، أمام المدخل الرئيسي للسوق المقبي ، أشادته في الخان الجديد الذي بناه صالح الساير بعد التوسع العمراني والنشاط التجاري . وجعل المسرح في عمق الخان ، بنوا فوقه طابقاً بست غرف للبنات وللفرقة الموسيقية . وكانت الغرف الست تطل بنوافذ زجاجية على بيوت الشارع المفضي الى جبل قلعة الرحبة . كان يلاحظ من الأسطحة المقابلة لغرف الراقصات كيف تتم عمليات التحضير والمكياج والبروفات ، وكيف تختار إحداهن ملابسها الشفافة دون حيرة أو تردد. فتظهر قبل المساء أجساداً متعرية من النوافذ ، تعرض برشاقة المرونة البرونزية المدهشة . وفي بدايات العروض لم تجرؤ إلاّ مجموعة من الشبان على دخول التياترو ، عندما افتتحه كابتن الحامية في أول عرض له .كان شيء لا يصدق، رأوا لأول مرة جوقة موسيقية تعزف زخماً من ألحان بإيقاع سريع ، جالسة على كراسي خيزران بلباسها الرسمي . وحركت الموسيقى رغبتهم الملحّة في أن يهبوا عن مقاعدهم، يتركوها فيرقصون ويدبكون بقوة ، يغنون الموليّة وأغاني أخرى متوافقة مع اللحن، وكاد بعضهم من شدة الطرب أن ينهض ليعانق عازفيّ الكمان والأوكورديون، ثم عازف العود الذي خلق فيهم نوعاً من الألفة والحب، عندما تسكن الآلات الأخرى ، يبقى يشدو على نقرات صنوج الطبلة .

أما حين ظهرت الراقصة من خلف الكواليس ، تعدو كحجل على خشبة المسرح ، أنبهت الجمهور ، لم يملك شجاعة هتاف ولا تصفيق، ظلوا ، الى حين ، يجسون حقيقة المشهد الذي انبرى أمامهم ، فتحوا أعينهم الى أقصاها ، وشهقوا ما طاقت صدورهم ، ومع كل حركة كانت تضفيها الراقصة ، يزداد انبهارهم وتقوى شهيتهم لأن يعتقوا نفوسهم . هكذا الى أن بدت أمامهم صورة بشرية تتضوع منها رائحة ترج النفس ، وتتلامح فيها رغبة تثير البدن .

وكان حين يسكن الليل ويترامى الى مسامع أهل العلوة ، في بيوتهم ، شوباش الرجال المخمورين في التياترو، وصراخ وآهات وحشية ، يتساءلون ، وهم في فراشهم ، وعيونهم محدقة في نجوم السماء : أمن العذاب أم من الشوق واللهفة ؟ كانت الآهات المتصاعدة في ساحة التياترو متسعة ، مليئة بالتأسف لحالات لا يمكن الوصول اليها ، طويلة كطريق بل مدمنة كبيداء ، حدّها الأول عند زوجاتهم اللواتي لم يعرفن بعد سوى الحنان ثم الحبل والولادة ، وحدّها الثاني أمام منصة التياترو ، موت الحبيب في مخادع حبهن ، الإنجاز الشافي للغليل : تتلون كفراشة في ضوء قزحي ، وكلما همّ أحدهم بقبض أذيالها الخمرية، خرجت أصابعه عن بقع رماد، فيمسح شفتيه بريقه ، ويتلمظ للفرصة القادمة والتي تومئ بيد من عاج : ان العناق مميت . يعتصر آخر القوة حتى الحثالة ، وللحظات تحس أنك عال كسماء . واذا أرادت الراقصة أن تنهي دورتها في منصة المسرح ، وقفوا في وجهها ، صاحوا بأعلى صوت : أعيدي ، أنوب يا وردة ، أنوب يا الله! فيعلن مدير المسرح : اليوم خلص يا شباب ، غداً نمرة جديدة . لكنهم يريدون المزيد ، ويدفع أحدهم بصوته الشاحب : حتى الصبح ، التعليلة حتى الصبح والله ، وما نتحرك! يرد مدير المسرح : يا ناس يكفي، ذاك الربع مجيدي خلص ، اللي يريد دورة ثانية يدفع ربع مجيدي آخر .

وهكذا يستمرون ، يدفعون ربعاً آخر، كي تظهر من جديد ، في نمرة اليوم الثاني ، الى أن يذوب الغسق في شفق الفجر .
وازداد الجمهور ، كانت صالة التياترو ، بعد أيام من افتتاحها ، تمتلئ بالجمهور ، ذلك قبل أن تظهر الفرقة الموسيقية ، كي تضبط أوتار الآلات لتقديم موسيقى (سلام فرنسا) . وراحت المقاعد تتميز في أسعارها ، الطاولات القريبة من منصة المسرح ، والمقدم عليها زجاجة خمر بنصف مجيدي ، أما المقاعد العادية والبعيدة فبربع مجيدي ، وكانت الفقرات العامة تنتهي في الساعة الثانية عشرة ليلاً ، لتبدأ بعد استراحة قصيرة الفقرة الخاصة بمجيدي آخر ، لأصحاب الطاولات . وحين تنزل بنات التياترو الى طاولات الزبائن ، بعد نهاية فقراتهن على المسرح ، يضاف أسعار عشاء ومشروبات .

وبمضي الوقت تميز الزبائن في حجز الطاولات والبنات ، وبان التحدي بينهم في اقتناء أكبر عدد من المغرمات حول الطاولة . وكانت القلة المحظية تصعد مع إحداهن الى الغرف العلوية للتمتع بالرقص الثنائي ، في جو من الوحدة والألفة الحميمة .

فوق غير تحت . تغلق الباب وراءها ، فأغلق الباب وراءه ، مزدرداً رماد ريقه ، في أضواء شموع وثريا لكهرباء خافتة . واحتبس روحه داخل جدران الغرفة ، ناسياً طرقات أقدامه في باحة الشرفة المطلة على التياترو ، وناسياً طلوعه على درجات السلالم ، وحين كان يجلس الى طاولة أنصاف الليالي ، وحوله ثلة المنتشين في رغوة أحلامهم ، ناسياً كيف تغذى وأفطر صباحه تحت ظلال جدران الطين ، وأمامه زوجاته ومعظم أولاده الغارقين في غميس القصعات، ناسياً بالتالي اسمه وذكريات أمكنة حياته : العلوة والجوبة ، الجبل على ظهره قلعة الرحبة وعين علي والشيخ أنس بن مالك ، ثم السدة المهشمة، ودوامات مياه النهر في زوايا الهواشة. داخل الغرفة التي تشط الخيال في زينة أثاثها وطلاء جدرانها وشموع أضوائها . انسل بسرعة نَفَسَه المتقطع ، وبالتالي روحه . وكان الجبل عالياً لا سلالم له ولا مداس ، يصعد ويصعد الى ان وصل أعلى الجبل ، وخال حين أراد أن ينظر الى تحت، أسفل أقدامه: فوق غير تحت ! إن العالم يتطلع إليه ، يندبه كما يندب ميت . فتذكر قبل أن يفتح الباب ، ثم فتحت أمامه الباب ، تذكر أنه : دفعته بعينيها الرصاصيتين وقالت : روح سوّي مثل الزلم تفو عجي . بكى بلا حرارة ودون دموع . وسمع صوته ينهت في أعماقه: هه هه هه. كان يريد أن يضع أصبعه على اليقين ، انها أخته وليس أمامه في طريق حياته القصيرة سوى أن يرضخ : انها أخته . لعله بعد أن يحطم سور الحرام في الغرفة العليا ، ستتجلى شاهقة ندية ، يدور معها في رقصة ودية ، امرأة تحتضن رجلاً لا تعرف أنه في وقت الدنيا كان أخاً لها . يرفع أنفه الى خدها ويسمعها : إسمعي يا حورية أنت أختي تحت ! فتتغنج من الدله قائلة : شو بدك من تحت ، أطلب الآن ما تشتهي ، هذاك العصفور فوق الشجر أأنزله لك ؟ لكن النهر جرى من جانبهما ، وكان السور خلفهما ، فلم يخشيا أحداً ، دسّ أنفه في صدرها الفرط ولم يفق من نومه الا على صوت قادم من أعماقه السحيقة : رجال السلطان قادمون أهرب .. يا ليل ليل ليل . فصعد الصوت الى صدره ثم تجاوز بغصة عنقه الطويلة كمئذنة . ونبهته : قم عن صدري انهم قادمون . ثم اختبأت خلف إحدى الشجرات المتراصفة على طول الضفة. تثبت مزلاج الباب كي لا يدخل إليها أحد، فثبت مزلاج الباب، وأحس أن عينيه ستخرجان من محجريهما ، طيلة تحديقه في فستانها . وفك برقة مشبك الصدر ذا الهضاب اللبنية . وهي تنتظر منه حركة ما ...من عضلة فخذه اليسرى التي جفت من الركض الطويل ، على طريق العودة

المذهلة . تقوم بحل حمالة الصدر ببطء ، حتى ترى كيف سيغمره الحريق ، تسأله: شو يمكن تشوف وراء هذا السوتيان يا ترى ؟ ثم تردد : عجبي منك يا دنيا ، شو بتخلئي عئول ! وضحك ملء شدقيه وعلق : هذه الضحكة ضحكة دنيوية يا حورية ، لا تأخذي بالك منها . ترقص بفخذين عاريين وبطن أملس وزيق لامع بأضواء الثريا ، وساعدين بضتين : هيك وهيك وهيكية ، هيك وهيك هيكية . فقال لها : تعالي ننظر من النافذة المطلة على شارع الرحبة لنرى الدنيا ماذا تقول : أخي تاه في ظلالة مومسات التياترو ، ارحمه حين كان خلف شجرة النخيل، ارحمه حين كان وحين يكون .

وسألاه : أمع حسيبة كنت ؟ فأجاب مهيدي : أي والله ، ليلة البارحة كنت مع حسيبة . وكانوا ينصتون الى غنائها في التياترو ، يصاحب علامات المنحنى الموسيقي وهو ينسرب من فوق حائط الخان الى أفق البلدة المعتم، كي يسمع شيوخها ونسائها ، حين يرفعون الأغطية عن وجوههم الحائرة ، يسمعون غناء :

خلصت الأعمار ما نلنا المرام   يا حمام ياحمام يا حمام الدوح

ثم وعدهما أن يدخلا معه الى غرفتها ، هذه الليلة في نهاية نمرتها ، ندخل غرفتها إبان خروج عامة الناس من التياترو. وأخبرهم كيف رقصت له البارحة ، كلما دارت دورة على كاحلها ، يكرع كأسه حتى الثمالة ، وقامت تنهي رقصتها قائلة : هذه آخر دورة ، لأننا خلصنا الليلة . قال لها : خلصنا رقص ، وهسع تعالي الى الفراش . واستلقى فوق السرير ينتظرها ، فردت عليه بدهشة : لك لك .. شو ، ياللا خلصنا . فأجابها بغضب : لكلكة ما في ، تعالي مثل الأوادم أحسنلك ، ياللا تاشوف ، هئ . وراح يشرح لهما نعومة جسدها وليونة خصرها . وحين انتهى كيف ارتمت على قدميه، وطلبت منه قبل أن يغادرها السماح ، قالت : أنا لك .. اللي تريده يصير ، شنو تريد ؟ فناولها صرة نيرات ذهبية وخرج .
وغمز البعض قائلاً : فلوس الربا اللي يأخذها من المساكين ، تأخذينها منه أضعاف كل ليلة يا حسيبة .

يتصور أنه ينزل سلالم شرفة التياترو ، يتخيل أنه سيلقاها في بيته مستلقية على فراش حرير ، لتعتذر له عما بدر منها في حقه . لكنه ماذا يمكن أن يصادف سوى زهية ، يفتح عينيه يتأكد إن كانت تلك المطمورة في لحاف قطني هي زوجته أم حسيبة ؟

برفقة عايد الخضر عادت زهية وولديها الى بيت أبيها فرحان الشاهر. ومسّد سرحان رأس أخته، ثم قبّل جبينها مشيراً الى ان عودتها الى زوجها مهيدي أصبحت مستحيلة ، ولو مشى إليهم بوجهاء العلوة والدير . لن تعود ثانية إليه وستبقى في الدير مع ولديها ، توفيق وبدري، في بيت أبيها ، كأم للمنزل كله ، بعد هرم أمها الشاها ، ولكي تقوم على تربية إبنيها ، على أحسن وجه ، نائية بهما عن التياترو ، وعن حوادث اللواطة المتزايدة في جفر حية السلطان .

كيف يستطيع جاسر أن يصدق ما جرى في العلوة ؟ خليل الساير وجد ميتاً في غرفة من غرف التياترو ، قالوا انه مات فجأة، ومهيدي الذي انحرف في تجارته، وأسلوب تعامله مع الزبائن ، أضاع كل ماله، وعاف زهية لأجل ليالي حسيبة . وفي جفر حية السلطان ، خلف أسوار البلدة ، أصبح اليافعون هدفاً مستديماً لأولئك الذين أصابهم طغيان حسيبة ، دون أن يتاح لهم الاقتراب من مسرحها . ثم الآن وهو يقرفص بذهول ، فوق فراشه ، في سروال قصير وصدر عار، مستنداً برأسه على زاوية الحائط ، ويعيد رجع صدى لأقدام الطريدة ، ولو لم ير بعينيه لما صدق ، أحس بأنه شاهد على ما جرى وما يجري في العلوة .

أراد أن ينظم رؤاه وهواجسه، ينشر سحب الأمان في خضم نفسه المضطربة ، أن يعرف ماذا يحدث ، بالتحديد ، ولم ؟

بعد أن أنهوا سيطرتهم على الجزيرة عادوا الى الثكنة الغربية . وهناك ظل عبد السليمان معه ، في مهجع واحد ، حتى جاء اليوم الذي خرجا فيه ، كل الى داره ، عبد السليمان الى الجبيلة بالقرب من دار اللويطنان شيفرا ، كرئيس حرس عازب ، أما جاسر الذي فكر في احتمال زواج في القريب العاجل ، رفض فكرة حراسة دور الضباط، وانتقى لنفسه غرفة عند نورا المزعل بعيداً عن مساكن الضباط .

كانت المعالم التي يمر بها أثناء ذهابه الى الثكنة الغربية ، وحين عودته الى داره ، لا تشير الى ما كان يجري في العلوة ، لم يأبه اذا كان في الدير بيت راحة واستجمام أقيم في مدخل الجبيلة القديم ام لا ، حيث لم يلفت نظره أي تغير في شارع أو ساحة ، وفي طبيعة الأحاديث المنقولة، كل شيء كما اعتاده... فرحان الشاهر، مضخة الماء .. ونزهات الحويجة .. المئذنة المائلة...والمرأة التي ما انفكت تنزل جفان اللبن عن رأسها ، وتنفض ثوبها

هامسة لعله لم يلتث بالجفان وبالدرب الطويل... ما زالت الدير كما اعتادها. وتذكر جاسر يوم كان مع مريم في غرفة مهيدي ، وسمعا معاً نداء جاء عن طريق مساجد المدينة ، تذكر مشاعر تلك الواقعة ، حيث انجذبا معاً كجسد واحد ، آنذاك عرّفته مريم على عالمها ، وكشف من خلالها أسراراً كثيرة ، وما زال يستعيض بأحاسيس تلك اللحظات الأولى الحب الضائع، وحيث باتت الآن عفراء أمامه كجسد في حالة هروب ، ولم يحرز معها ما رسمه في خياله الواسع، ولم يجد أسراره فيها ، كانت غائبة عنه ، تخرج في أحرج الأوقات ، فترفع عباءتها على رأسها ، وتغلق عليه باباً ثقيلاً .

بعد أن هدأت وذهب عنها الخوف ، سألها كمن يلقي عليها ملامة ما جرى : أين كنت يا عفراء ، لماذا طاردوك ؟ فخفضت رأسها ثم رفعته تدير كلامها بقوة وعنف : هذول اولاد بلدي .. اولاد بلدي يا جاسر ، يركضون وراء الحريم ولا تسترجئ الواحدة منا تطلع برا ، ولو الى جارتها ، يريدون يسجنون النسوان والصبايا .. شكون !؟ فرد عليها ببطء : بس أنا كلما أمشي وأطلع أشوف حريم ونسوان في الشوارع ، ما أحد يمسهم .. ليش أنت ؟!

لم تعد الدير كما كانت ، ذهب زمن فرحان الشاهر ، وتغيرت سمات الأحياء، فبدت تلة الدير منخفضة وساحة السوق لا وجود لها ، والشارع العام الذي يمر بالسوق والمتاجر .. بالمئذنة المائلة .. تغير وأصبح شارعاً من المرتبة الثانية، أنشأوا غيره ، في الطرف المواز لضفة الماء ، شارعاً طويلاً ينحدر الى موازاة الفرع الأول من النهر ويسير معه ، الى الجبيلة ثم الى علوة الدير التي انخفضت بمرور هذا الشارع من سفحها ، ثم يمر بجانب جسر الفرع الأول ، إمتداد ساحة السوق ، ثم يصل الى نهاية البلدة ، فينحرف ثانية نحو اليمين ليلتقي بالشارع المهمل ودرب القوافل . قالوا عنه أنه شارع الكورنيش الجديد، ممشى العشاق وعارضي الأزياء ، رصفوه بالإسفلت ورفعوا في جوانبه أعمدة للإنارة تبدد ظلمة أمواج النهر ، وتنير ملامح الشارع الطويل في المساء، موعد مغيب الشمس . وأقيمت بالتتالي على جانبه محلات بيع وتجارة وسمسرة ، وجعلت ضفة النهر حرة لا يحجبها أي مبنى .
ومن الطرف الآخر ، بالنسبة الى الشارع نفسه ، أخذ بأرض ترابية مدكوكة بحرص ، ويستمر حتى يعثر على نقطة تفرع النهرين ، حيث تتكاثف هناك أشجار النخيل في ظلال استراحة ومناغاة ، يجرب فيها العاشقون حظهم ، فيطوّفون قوارب خشبية صغيرة ، وقناني زجاج فيها توصيات غرام ورسائل هوى ، تكشف اللوعة التي يعيشها حبيبان لم ير أحدهما الآخر ، والحرمان الذي سيعانيه كلاهما ان لم يعثر على زجاجة غرامه . يقبع الأحبة يطوّفون طوال الليل زجاجات منارة بالشمع ، ويلاحقونها على جانب النهر ، يدلّون

عليها ، بينما تستمر الزجاجات في مدى تيارات غير مستقرة ، تبحث عن وجه محظوظ كي يلتقط مصادفة سريرة حبه . كانت تبدأ اختبارات العشاق في الوقت الذي ينار فيه الشارع ، وتستمر طيلة الليل، الى الوقت الذي تخبو فيه إنارة المصابيح . وهكذا أسموه شارع ستة الا ربع حيث تتجمع طوائف المحبين، تحمل في قوارب وقنان معاناة وعذابا غير مباح . وأقيم الى جانب ظلال النخيل ، كوخا صغيرا يتم فيه تعليم كتابة رسائل قصيرة ، فيها حب ورهافة حس .
وطلب من الرجال المحبين الذهاب الى نهاية البلدة ، لملاقاة زجاجات وقماقم ، تحبس في أعماقها رغبة دحرها أزواج غير جديرين ، وكبتتها مربيات لم يطلعن على مشاعر وأحلام بناتهن الجديدة . كانت تدير هذا الكوخ مدام شقراء يقال انها قدمت من تلة العزيزية . أما جاسر فلم يكن يسلك ذلك الطريق ، كان طريقه الشارع العام ، وان يراه كل يوم ولم يتغير سوى بناء أعمدة الكهرباء والهاتف ، فما دام في مكانه ، هو الطريق الذي يوصله الى الكبانية الغربية ، لذلك الدير بقيت كما هي ، لم يتغير فيها شيء ، كان كيانها عميقاً في كيانه ، لم ينتبه الى شارع ستة الا ربع ولا الى نسوة النخيل ، يهربن من أمام ثلل صعدت الى جباههم نارة ثأر وإعادة كرامة ، وغسل عار .

قالت نورا المزعل لجاسر بعد أن هدأ صراخه وخبا انفعاله: الدنيا يابا مقلوبة، وانت تراك ما تدري ، تطلع من الصبح الى الكبانية وما ترجع الا هلكان من التدريب والكون، وتطلب طعامك وبعدها تنام وتنام ، أنت يا جاسر تراك ما تدري شكون قام يصير! التفت ناحية عفراء ، فخفضت الأخيرة رأسها وأطرقت الى الأرض . قالت نورا : يا عفراء لو كان عندي رجل مثل جاسر .. ما أترك البيت ولا للحظة واحدة ، أبقى فيه أستناه . فردت عفراء تدافع : يظل بالكبانية لوراء العصر .. تطق روحي وتزهق نفسي .. أقول أتمشى شوية على النهر .

كان الظلام مخيماً ، حين أشعل جاسر ضوء الكهرباء في غرفته ، ثم أنار الحوش ، وضغط أخيراً على زر مصباح مثبتا أعلى الباب الخارجي . وخرجت على صوته الجدة نورا ، وهي لا تدري ماذا تفعل. سألها جاسر ، حينما عاد من الثكنة الغربية ، عن عفراء، فردت أنها ستعود بعد قليل ، يجب ان تكون الآن في طريق عودتها ، قالت انها لا تتأخر . تناول طعامه ولم ينتظرها ، اندس في فراشه على أن توقظه عفراء حالما تعود، فاستيقظ على صراخها الطريد ، قالت عفراء : كان يطاردني رجال بشعون ، حاولوا إمساكي ، فركضت دون أن أثني على شيء ، حاولوا جذب أذيال العباءة التي طيرها الهواء ، حاولوا تمزيق الخمار وان يضعوا أياديهم القاسية في عنق

الفستان ، يمزقونه الى نصفين . ولمّت بأصابعها شقي الفستان الذي كشف عن ساقها، وقالت : هذا مني ، بعد أن ركضت ومددت خطاي ، انقض الثوب من مكان خياطه . ورفعت رأسها الى الجدة نورا تسألها : عندك خيط أحمر كي أعيد الخياط من جديد ؟ وسألها جاسر : من أين بدأت تركضين ؟ فردت: من جسر ستة الا ربع . فعلقت الجدة : من عند الساحة الى هون .. كثير ...ركض ركض! فردت عفراء : كانوا تحت الجسر ، وكانت عيونهم تتلصص مثل الكلاب ، ما يشوفون بنية حتى يركضون وراءها . ورد جاسر : بسيطة .. بسيطة .. نعلم باكر الكولونيل بالموضوع ، وهو يتصرف ، هذول زعران ولازم يتأدبون .

غداً سيقول : يا سيدي الكولونيل الذي قتل حميد الأعرج ، يريد ان يستشيرك في موضوع هام ، يضع يدك على نقطة أغفلتها في غمرة انتصاراتك الكثيرة . اذا استمر المعسكر الغربي محاطاً بأسوار شائكة وبالتالي مغلقاً ، فإن الدير ستفلت ، وتعم فيها الفوضى . بوادر هذه الفوضى حدثت مساء البارحة ، حين أنهى المؤذن صلاته ، وعاد المصلون الى منازلهم ، وبالتالي فرغت الشوارع وأغلقت الدكاكين ، لم يظل أحد يمر أو يتمشى . وعند ذلك الوقت يثار اضطراب عام في المدينة ، وتحار النسوة والأناثي في كيف تقطع واحدتهن طريقها الى المنزل . مثيرو الاضطراب يختبئون كل يوم في مكان . البارحة كانوا تحت جسر ستة الا ربع ، الجسر المؤدي الى مقر إقامتكم . فيرفع الكولونيل سيكارا الى فمه ، يرفع ساقيه الى طاولة مكتب القيادة ، يرفع هاتفاً يهتف به : جاسر الرحبي أنت سرجان يستطيع أن يتكفل في حل هذه المشكل، بس هذول أولاد بلدك وأنت تعرفهم أكثر..
كيف يستطيع أن يدق باب الكولونيل؟ عند الصباح بعيد الانتهاء من مراسيم استعداد الهجانة ، واجه جاسر مشكلة الوقوف وجهاً لوجه أمام محرر نقرة الدم. مرت خاطرة في ذهنه ، دون أن يؤمن بتنفيذها ، انه لو جاء بعفراء الى هذا المكان ، وأرى الكولونيل ثوبها المقضوض وآثار الركض في جسمها .. وزرقة فخذيها ، وأقوالها كشاهد حي على خشونة الرجال الذين لاحقوها ، لكان أنجع وأثمر ، أما الآن فماذا يمكن أن يقول ؟

خلف الكولونيل خارطة رائعة ، ملونة نافرة مطرزة بالذهب ، خارطة تحفر سطحها زرقة وبنفسج، زرقتان ، حيث تتفرع الزرقة من الشمال ، من أعلى الخارطة ، وتهبط فرعين نحو الزاوية السفلى ، مكان التقاء آخر، فتتوحد الزرقتان وتصبحان واحداً لا نراه. هذا النهر أيها الكولونيل ، يتفرع قبل أن يصل الدير ، يتفرع الى فرعين ، ثم يلتقي ثانية بعد أن يجتازها ، يلتقي تحت

فيتشكل من جديد نهرا آخر .. نهرا واحدا . ورأى ساحة السوق والشارع الجديد المنار بالكهرباء ، ورأى جسر ستة الا ربع .
إذا وقفنا في ساحة السوق ونظرنا نحو النهر فإن جسر ستة الا ربع سيكون على بعد خطوات منا ، وامتداده سيحد بداية مباني دور الشرطة والحكومة ، ثم يلوح لنا جسرا آخر، سلماً مغروزاً في الأفق ، ويصعد نحو السماء .. انه الجسر المعلق .

كل الدير يا عفراء خلف طاولة الكولونيل موغييه ، بيتاً بيتاً وشارعاً شارعاً ! كان الكولونيل الذي أشار بعصا من زان على كوخ الغرام ، وعلى جسر ستة الا ربع ، وعلى بيت نورا المزعل وعلى ساحة السوق ومقدار المسافة التي قطعتها الطريدة ، وعلى مكان حطام زجاجات الرسائل ، عندما لا تجد من يلتقطها ، كان الكولونيل قد أخذ الأمر على محمل الجد ، وحدد بعصا الزان التي رفعها عن طاولته، حدد مكان حراسة لمجموعة استنفار ترصد جسر ستة الا ربع ، والجسر المعلق، ترصد النهر بقيادة السرجان جاسر الرحبي ، وقال الكولونيل قبل أن يخرج جاسر : تضع حواجز في الطرقات وتقيم نظام منع مرور ، ومنع تجوال في ساعات معينة ، وتتأهب في كل مرة مع رجالك لمواجهة عصابة المطاردة والشغب .

كل ذلك سيحدث يا عفراء ، حين أقود خطاي غداً الى الثكنة الغربية، وننهي استعداد تفقد وتحية الجيش الصباحية ، فأدق باب مكتب قيادة الكولونيل موغييه . يحتمل ألاّ يكون الكولونيل هناك لذلك سأقابل اللويطنان شيفرا ، أخبره عما حدث معك ، ولو أن زوجة اللويطنان أصابها ما أصابك يا عفراء ، لكانت المشكلة لا تحتاج الى عرض ، لأن اللويطنان شيفرا سيوعز بقطع الشوارع بمتاريس تمنع التنقل، وسيلقي القبض على المطاردين . لكن من يستطيع أن يركض خلف مدام شيفرا ؟ لا يجرؤ أحد أن يركض وراء ذلك الجمال وتلك الرقة .
ودار هاجس في صدره ، حينما أطفأ الكهرباء ، واستلقى في فراش النوم، أن يكون هؤلاء الرجال هم أصحاب ناصح الخلف، فندس زوجته وقال لها بوجس: أتراهم رفقة ناصح ؟ فردت عليه بنفس غالبت النعاس : يجوز! لكنها تذكرت أنه لو كانوا أصحاب ناصح الخلف لعرفوها. لكان ناصح قد تعرف بعفراء ...

ناصح الخلف الذي روى كيف جاء جاسر بغتة : طلب فرحان عدة مرات أن نعتق مريم.. وكانت آخر مرة حين ذهب فرحان بنفسه الى حي الجبيلة القديم ، وقابل خلف الحويش ، وأوضح له استحالة بقاء مريم في بيت الحويش : لو

بقيت يوماً آخر فإنها ستصاب بالهبل .. وحلف فرحان انه لن يدعها ، بل سيأخذها معه الى البيت وقد وعده خلف خيراً ، وطلب منه أياماً كي يقنع ابنه ناصح بذلك . فخرج فرحان يأمل بعودة ابنته في أيام قريبة .
ثم تابع ناصح الخلف، أمسياته وخلواته السرية مع أصحابه ، يقضي معظم الليل معهم خارج الدير ، وحين يعود ، ويتفرقون ، وينسل في الشوارع ، يجوب في عربته معظم شوارع الدير ، ثم يمضي وقتاً طويلاً كي يصل الى بيت خلف الحويش . ولم يكن ناصح يتذكر مريم الا حين يدخل الدير ، ويجتاز الدروب وحيداً ، بعد أن يترك رفاقه في ساحة السوق ، تأتيه مريم مستلقية باردة ، يقرأ في عينها سؤالاً ملحاً ، لا يستطيع الإجابة عنه ، يهرب بكيانه ، وترفع نظراتها عنه ، لترمق سقف الغرفة . كان يبدأ صمته بعد مفارقته لأصحابه ، يهبط في قراره سكون وخوف ، وكيف يدخل الغرفة اذا وجدها مستلقية ؟ سينام في غرفة العيال ، يضطجع لبعض الوقت حتى توقظه أخته زهرة ، تفرك قدمه وتقوده في حالة نوم الى غرفته. ويذهب في نوم ثقيل، يجانبها في السرير، دون أن يلتفت اليها الا حين يسمع آهات وصراخ كابوس، فيستدير نحوها كي يطمئنها قائلا : انه حلم يا مريم نامي ..

ولم يتصور ناصح في يوم من الأيام، ان يأتي جاسر ويقتحمهم. صحيح انهم لاحظوا أثر تعقب ومراقبة لهم ، في كيف يخرجون من الدير، وأين يسهرون ، ومتى يعودون .. لكنهم لم يخطر في بالهم أنهم سيتعرضون لمباغتة ومداهمة.
ولضرورة الحرص وعدم إقلاق ليل النائمين، احتاط ناصح لضجيج العربة ، فنزع نعل حوافر الحصان ، وفك أجراس الزينة ، وأبدل عجلات العربة بعجلات جديدة مغطاة بمطاط مسمط ، وراح ينتقل كالهواء ، ما عدا أصوات أصحابه وهم ينزلون في ساحة الدير ، ويلقون عليه تحية وداع ، وتذكيره بموعد الغد . كانوا يجتمعون في نفس المكان ويحملهم خارج الدير ، الى المزرعة في طرف المدينة. ويبقون على الطريق حتى يهبطون في واد البغيلية ، واد زرع بالسمسم وبأشجار النخيل والرمان ، وهناك يعرجون الى اليمين ، يقتربون من ضفة النهر ، الى دار صغيرة من غرفتين ومنافع .

خمسة رجال أو ستة، هكذا قيل، يخرجون من الدير مع مغيب الشمس في عربة ذات حصان واحد ، يمرون عن قصد أمام الباب الرئيسي للثكنة الغربية، فيتوقفون هناك لبعض الوقت ، ثم يتابعون سيرهم حتى تصل بهم العربة الى مزرعة خلف الحويش في البغيلية ، يحيدون الى دار المزرعة ، ويظلون فيها الى ساعة متأخرة من الليل .
يصعد الى العربة أربعة رجال همام ، ذوو سواعد مفتولة ، وسيقان قوية، يشمرون وهم يصعدون ، لا يستخدموا المداس الخلفي ، يقفزون مرة واحدة

الى داخل العربة ، ولقد رفعت لهم يد سمراء ، بضة ، الجادر الخلفي ، وظهر عمق العربة مظلماً ، لا يُرى فيه أحد ، كأنه لا يوجد في داخلها سوى حوذيها الذي يستمر دون توقف نحو طريق الثكنة الغربية. وتلك العربة تمر كـل يوم، وتعود من نفس الطريق في ظلمة الليل ، لا يراها أحد ، تعود كالنمس بخفة ورشاقة . فماذا يمكن أن تكون. فكر جاسر كذلك: ماذا يمكن أن تكون ؟

جمع عناصره ودلّهم على الطريق الذي سيسلكونها . في البداية يتوجهون في وضح النـهار نحـو المزرعة ، يداهمون الغرفتين مع منافعهما ، ويفتشون حوالي المنطقة ، لعلهم يعثرون على أثر يدلهم على حقيقة هؤلاء . ثم على ضوء النتائج يتصرفون ، الا أن اللوطنان أمرهم كذلك بتمشيط منطقة إقامة المشبوهين ، لعلهم يقفون على حقيقة ما يحدث .

وصعد الى سيارة الجيب كالماريشال ، أمر سائقها بالتحرك الى حي الجبيلة القديم . ولأول مرة يضع جاسر رشاش الكينز على حامله، ويدخل الجبيلة، مبتهجاً بأعين المارة المشدوهة . الرؤوس تستدير نحو السيارة ورجلها الملفع بيشمغ الهاغانة يدخل بالكينز حي الجبيلة ، حتى توقفت أمام باب خلف الحويش ، وبفعل المكابح القوية ، وبفعل الإشارة التي أوعزها جاسر بيده ، ترك يده كقائد مجموعة اقتحام ، تقص الهواء والفراغ الفاصل بينه وبين السائق ، ان بيت خلف الحويش هنا ، فيلزم فرملة العجلات وإطلاق زمور إنذار ومداهمة .

ولم يقرعوا الباب ، خرج خلف الحويش بأعين زائغة ، وجمد ناصح في طرف الحوش ، وجعل يراقب الرجل وهو يحمل رشاش الكينز، ويطرق الأرض ببوط ذي ساق طويلة، ويدخل البيت غرفة غرفة .

ثم أخذ خلف الحويش ينقل ساقيه بارتعاش ، ويمد ساعدين رخوتين نحو عناصر المداهمة ويقول : ما عندنا شيء ، اذا تريدونها خذوها .. ما عندنا شيء ، أنا قلت لفرحان أصلاً خذها ، وهذا ناصح شاهد .

والتقت نظرات جاسر مع نظرات مريم ، بينما كان فرحان يقودها عبر الباب نحو عربة ذات ستة خيول . ثم قالت عناصر المداهمة التي أحاطت السرجان جاسر : لا يوجد دليل على ما وصل الاجدان واللويطنان .. لقد كانت كلها وشاية كاذبة .

شارع ستة الا ربع، والممتد من كوخ الغرام الى نهاية العمران، أصبح في حراسة السرجان جاسر الرحبي ، وأضاف اليه الكولونيل جسر الفرع الأول من النهر ، والممتد نحو شارع الشرطة حتى الجسر المعلق .

أقام جاسر في زاوية الحراسة كشكاً كبيراً، من المكان الذي خرج منه المطاردون . وجرّ الى داخل الكشك خطوط كهرباء للإنارة ، ثبت على سطحه أضواء باهرة وجّهها الى أسفل الجسر ليكشف بها أخيلة أشجار متشابكة ، نبتت في حافة الضفة .

في المرحلة الأولى اكتفى بإنشاء هذا الكشك ، دون مد متاريس وحواجز في الطرقات. تمر كل يوم سيارة الكولونيل ، في الصباح تنطلق السيارة من بيت الكولونيل ، جانب دار الشرطة باتجاه الجسر الأول ، ويقف جاسر حين يلمح تحرك السيارة ، يخرج من الكشك مع عناصره في حالة استعداد ، يحيون الكولونيل ويشيرون بيدهم الى العربات والدواب بالتوقف حالاً ، إن الكولونيل قادم ، وتسكن الحركة في الشوارع، تقف لبرهة ، ولعل بعض المارة يقف بدوره كما وقف السرجان مع عناصره ، يرفعون راحة يدهم الى رأسهم ، في حالة بله وشرود ، فيعرج الكولونييل من زاوية الكشك ، وتسير سيارته على مهل في شارع ملأه ضباب الصباح. ويتأمل الكولونيل حوادث الليلة الماضية، يحرف رأسه الى ضفة النهر ، يبحث عن بقايا قنان غرام تعثّر حظها في متابعة الطواف . يطل الكولونيل برأسه من نافذة السيارة ويرد تحية السرجان بتلويحة يد مطمئنة ، وشعور بالترف والحزم يرسم محياه. عيناه ملونتان ببريق ، وشعره خفيف كالذهب ، وبدلته المنشاة تعكس في صداها وسام انتصار . تمرق السيارة ، تدور الى شارع ستة الا ربع، وتبعث العجلات الدائرة نشاطاً وحضوراً يجلب الأنظار ، تستدير اليها الرؤوس ، نحو عجلات تصهل فوق طريق كوخ الغرام ، ثم يحرف مسيره عن آخر الطريق عائداً الى الثكنة الغربية . وتبقى تلويحة الكولونيل في مخيلة جاسر ، حتى ترتفع الشمس ويرتفع معها لغيط الباعة والمارة ، على أنه لا يفهم من خليط الأصوات شيئاً ، يأخذه النعاس وتهبط مقاومته فجأة ، فيربت على كتف

السرجان عقاب المناور، أن ينوب عنه، حتى يذهب الى بيته. وتكون عفراء قد مدت فراشه في زاوية الغرفة، وألقت عليه غطاءً خفيفاً، وتركت له الغرفة ، خرجت على رؤوس اصابعها تحذر نورا المزعل وأطفال الشارع والجيران، تلصق سبابتها على شفتيها وتقول: دون حس .. اسكتوا السرجان نائم. وتهمد حركة ذلك كالنهار ، يصبح التنقل والإبلاغ بالهمس ، وتخف مشاحنات الجارات ، وينسمع بين الحين والآخر صوات امرأة مخنوق يقول : لو ما السرجان نايم لكنتُ رديتُ عليكِ! فترد الأخرى : شكون يا فاينة السرجان نايم أم قاعد ، أسكتي وخلف الله عليك وعلى السرجان. وتتحضر عفراء ، تغلق عليهما باب الغرفة وتقف أمام المرآة، تتزين منتظرة استيقاظ زوجها . مرة تنظر إلى المرآة وأخرى الى غطيط زوجها ، ثم تلمح الباب ، عندما يتغير الضوء النافذ من شقوقه، فتتأكد أن الجدة نورا خلفه تريد أن تتنصت الى ما يجري داخل الغرفة. تغلق الباب وتجعل محاولات نورا لفتحه تبوء بالفشل. كانت نورا المزعل تحاول أن تدفع الباب فجأة ، لترى عفراء وجاسر في فراشهما ، عاريين يجذبان الأغطية ليسترا جسديهما ، لكن الباب المغلق جعل الجدة تكتفي بالتنصت وبالنظر الى داخل الغرفة من خلال شقوق الباب . ولم تكن لترى شيئاً ، كانت الشقوق تظهر مقطعاً مصمتاً، لا يتحرك ، من الحائط ومن اللوحة المعلقة التي يبقى فيها نابليون المنتصر حاملاً منظاره ، ويشير بيده الى اندحار أعداء، وخراب لحق بهم. وتسأل الجدة نفسها: ان هذا (الكلنيل) على رأسه العمرة لم يتحرك منذ جاء به جاسر وعلقه على الحائط ، حذاءان جميلان بساق طويلة وجسد رشيق وقوي ، يشمخ في غمامة متصاعدة عن بقايا أشلاء المعركة ، ويظل يشير بيده !

الا أن عفراء ، يصيبها الملل بعد ذلك ، فتحل شعرها المخضب أمام المرآة. قالت لها نورا وكثيرات غيرها : خضبيه بالحنة يتقوى ويصير أحسن . فخضبته بالحنة ، جبلت له حنة شقراء ، فراح شعرها يتطاير مع نسمات الهواء ، يداعب عنقها وجيدها، هذه السمراء الشقراء ، تستدير عن المرآة الى زوجها الذي لن يستيقظ ، فتحاول كرة أخرى ، وترتدي فستانها الأحمر المقضوض ـ قال لها جاسر: لا تخيطي الثوب ، هكذا تطلعين أجمل وأحلى . فلبست الثوب يظهر فيه ساقها المكتنز ، وجلب فستانها الأحمر إثارة ، تأملت نفسها في المرآة ، وكيف يقفز جاسر من فراشه ، وعلى حين غرة يستيقظ، يثيره لون الفستان والجسد، فيهوى عليها بفرائصه.

بقي نائماً ، وظلت عفراء تنتظر يقظته ، مر وقت الغداء ولم يفق ، وكان الجو الذي خلقته عفراء في غرفتها ، يبعث على الملل ، مظلماً راكناً ، وزاد الأمر السكون الذي خيم على الدار والحوش. تململت وهي تخمن أن نورا ما

زالت خلف الباب ، تتلصص لأية نأمة، تحبس أنفاسها كي لا تحدث حركة تشي بوقفتها تلك . ورفعت عفراء صوتها بعد أن أنهت زينتها قالت : شكون تريدين يا جدة ؟ فتبدلت إضاءة الغرفة ، أصبح الجو أكثر ضياء ، وكأن غماً ثقيلاً انزاح عن كاهل عفراء ، تنفست الصعداء، نفخت بقسوة.

اذا ظل جاسر نائماً ! ففتحت الباب بحرص ونقلت خطىً خفيفة ، ساعدها الثوب المقضوض، أطالت خطوها ، وظهر جمال ساقها من شق الثوب الأحمر ، واستطاعت أن تخفيه برداء العباءة ، زمت العباءة حول جسدها ، وسارت حذرة فـي شوارع الدير ـ تسير العبايات السود نحو النهر ، في شارع ستة الا ربع ، ولم تكن الشمس غاربة ، كان قرصها الأحمر مشعاً ، ويخلق طيفاً قرمزياً في وجه النهر . تهبط الشمس خلف النهر وخلف الثكنة الغربية ، فتمشق جماهير الكوخ وهي تودع الشمس الراحلة .

في ذلك الشارع كانت تخفي وجهها بخمار العباءة كي لا يراها أحد . وقبل أن تصل بقليل ترفع عن رأسها العباءة ، وتلقيها على كتفيها ، ثم تتناول من حقيـبة يد شعراً برتقالياً ، وبعد أن عقفت جدائلها ، وكومت شعرها حول رأسها ، تضع قبعة الشعر على رأسها ، وتخلل الخصل المستعارة بيدها ، بينما ترفع العباءة باليد الأخرى . وتظل تمشي الى ناحية ستة الا ربع ، على ضفاف وردية ، وأحلام تتناوب ، في خفايا غسق يشتعل في صدرها لتصل الى ظلة شجرات النخيل .

اذا أفاق جاسر فإن الجدة نورا ستقول له : خرجت عفراء وستعود بعد قليـل . فاستيقظ جاسر ، فتح موق عينيه ، ورفع ظهره وأسنده على الحائط ، ثم سأل الجدة التي دخلت الغرفة على نحنحته: أين عفراء يا جدة ؟ فأشعلت النور في غرفته ، وأقبلت اليه وأحنت ظهرها تجيب : بعد قليل ، لبست وخرجت ، لقد انتظرتك كثيراً .. فلم تستيقظ ، فانحبس صدرها وضاق ، بعد قليل ستعود . وهز رأسه وطلب منها قائلاً: طيب هاتِ لقمة نأكلها يا جدة ، لن يصيبها مكروه ما دام عقاب المناور بالمرصاد لأولاد الحرام. وروت الجدة له، وهو يأكل عن عفراء ، قالت : لو أنك رأيت عفراء ، في ثوبها الأحمر .. بشعر أشقر منثور على صدرها ، ولا كأنها عفراء .. كأنها المدام بذاتها يا جاسر! فحملق جاسر وقد انتفخ ودجه ، سأل بغصة : شنو ؟ فهزت رأسها : إي نعم ، شعر أشقر وعيون.. ظلت العيون يا جاسر ، لو عيونها تشبه عيون المدام .. وهزت رأسها متابعة : حلوة وفاتنة . فتلمظ ينهي طعامه، وطلب إحضار الشاي والى ان تعود زوجته .

ولم يقتنع جاسر بما قالته الجدة نورا ، قال في نفسه انه حلم ، وما زال في ذهان الاستيقاظ ، نعم انه حلم ، لأن عفراء لا يمكن ان تخرج بشعر أشقر وفستان مفتوح عن فخذ يرج مع طرقات حذائها ، لا يمكن! إما أنه حلم ، أو ان الجدة بذاتها أصبحت في طريق الخرف. لكن مع كل ذلك اقشعرّ حينما ذكرت نورا له شبه عفراء بالمدام التي أورد عليها قصتها في تلة العزيزية ، ولكنه لم يصف لنورا هيئة المدام ولا جمالها ، لم يقل لها أن شعرها اشقر، ولها جسد ممشوق ، قال لها فقط أنها لوحت له بيدها ، بينما كان يهبط تلة العزيزية .

بعد أن شرب الشاي ، خطر في ذهنه أن يبحث عن ثوبها الأحمر ، لم لا ؟ إن كان في البيت فإن ذلك حلم .. أو ان الجدة نورا قد اصابها خرف ، وإن كان لا..! ففتح صندوقها ، وكان الى جانب صندوقه المربع، فوجده فوق الثياب ثوباً مهملاً ، مرمى دون خياط ، فرقص النور في عينيه وأراد أن يضحك ، غير أنه اكتفى بمساءلة نفسه ، لم روت له الجدة ذلك، ثم قالت انها ارتدت فستانها الأحمر ؟ بالتأكيد اصاب الجدة خرف . وردد في نفسه : مسكينة .. مسكينة الجدة بها بُطل . فأغلق الصندوق هادئ البال .

وانتظرها ساعة أخرى ، ولقد غابت الشمس ، وحان موعد استلامه قائداً للحرس في كشك المركز الأول ، فأخبر الجدة وهو يخرج قائلاً : اذا عادت عفراء قولي لها ان جاسر انتظرك أكثر من اللازم ، قولي لها ألاّ تتأخر هكذا في المرة القادمة .

أغلقت الباب خلفه ، وهي تفكر أنها ليست المرة الأولى ، كل مرة تقول لها لا تتأخري .. لكنها لا تسمع الكلام ، تتجمل وترتدي فستانها الأحمر ، ثم تترك البيت الى ما بعد العشاء . وسمعت نورا المزعل وهي في الحوش صوت صبي وقف بالباب يسأل : السرجان هون ؟ ردت عليه : شكون .. من أنت .. لا هو هون ولا زوجته ، من أنت؟

كان جاسر قد وصل كشك الحراسة ، وكانت عفراء قد عادت الى بيتها ، وحملت نورا لها توصية جاسر بعدم التأخر الى ما بعد العشاء ، أكدت نورا: هذه ليست أول مرة . فأجابتها عفراء وأنفاس عطرة تنبعث من ثنايا فستانها الأحمر: انتظرت وانتظرت وهذا الرجل يظل نايم ما يفيق .. شكون أعمل ؟

في تلك الليلة ظل جاسر يراقب الدير من زاوية الجسر، جلس خارج الكشك في كرسي نسج مقعده من القنب والقصب ، بجانبه مجمر ، طمر فيه دلة قهوة، وراح يرشف قهوة ساخنة بعثت في جسده حرارة تقيه رطوبة النهر. كان

يلتفت الى الخلف ، يبحث عن ظنونه تحت الجسر بين اغصان الجسر، ثم يرفع رأسه ويتابع أثر عفراء حين ركضت من هذا المكان: لقد كانت هناك ، نعم ، ثم حين استدارت فجأة رأت عيوناً تلمع في الظلام ، فارتعبت وزمت العباية ، تركض في طريق جانبي بين تلة الدير وساحة السوق ، تركض بكل قوتها ، وقطعت مسافة كافية قضّت فيها اذيال الثوب ، وكأنها أصبحت عارية، كانت العباية تستر جسدها ، وكان المارة مندهشين للمنظر ، فظنوا أنها مطاردة مأجورة ، تفعلها الحكومة عن قصد كي تقتل من يتدخل لمنعها، وكانوا يتمشون دون أن يمعنوا في متابعة المشهد ، يكتفون بلمحة، ثم يتابعون سيرهم كأنه لم يحدث شيء في الدير في شارع ستة الا ربع في ساحة السوق وهي لا تتجه الى الشارع العام الى المئذنة المائلة . كان طريقها الى دار أخرى، وقد بعثها الخوف الى هناك . وتذكر جاسر زيارة عفراء الأولى لدار نورا المزعل ، لم تكن زيارة بل كانت طلب حماية . كانت ترتجف وتقول : لم يبق لي في الدير سواكم ، سوى جاسر ، اذا رآني عبد الرحيم فإنه سيذبحني ، خذني يا جاسر الى الجزيرة ، الى تلة العزيزية .. الى مكان بعيد ، أركب معك كخادمة على الذلول وأتوارى في بلاد الجزيرة . وعطفت عليها الجدة نورا ، حضنتها وهي تبكي وقالت بحرقة: الله بعث لك هذه يا جاسر ، شابة بعمر الربيع فاحفظها واسترها. وقالت الجدة له : بنيّة معدّلة ، قدرها كان بين أولاد الحرام ، ما كان بيدها حيلة وبراءتها بين عينيها ، انظر الى عينيها : كزورقي نهر يعومان على صفحات القلب .. انها عفراء يا جاسر فأسند رأسه الى زاوية الجدار ، وجلس القرفصاء وراح يتملى وجهاً في مرآة يد ، أخذ قراراً صارم لا رجعة فيه .

/ ولأنك لم تأت وقفت أنتظر . أنتظر أجراس الشتاء الملعونة كي تقرع. من فوق السد.. نظرنا الى ألسنة المياه المتدفقة كرماد ، تنحدر معه الأسماك الجاحظة.. وكنت أرتجف من الرعب فجذبتني من ساعدي وقلت لي تعال ، هززت رأسك الرمادي تعال.

...صميمة الصميمة ...على النبي صلينا ..

وأنا أنتظر الأجراس والدانات الساقطة على دروب الدير لتذر رماداً كربونياً في شارع ستة الا ربع /

ينتفض جاسر ، على حين غرة ، كمن أخذته رجفة ، فيرجع ذلك الى هسيس النهر وحفيف غصون الشجر ، كانت باردة والرطوبة نفذت حادة الى خيشومه، فأخذه سعال هز كرسيه بقوائمه الأربع- ثابتة ومتمكنة في الأرض ، هزه وهو يعود الى الخلف ليرى كيف كشفت أضواء المحرس إظلام أسفل

الجسر . تناول دلة القهوة ، صبها في فنجانه، أماله عدة مرات ثم رشفه دفعة واحدة. مرر راحته على صدره ، وازدرد ريقه مع مذاق حب الهيل الحرف .

وان عادت صورة المطاردة الى ذهنه ، تهرب عفراء ووراءها كل الدير: التلة التي سيقوضها محافظ مدينة أبله، وساحة السوق التي تفضي الى الشارع العام. يمم وجهه الى التلة ، نحو بيت هنوف النجم، كي يرى نخلة باسقة تحف بجريدها الأسطحة . وهي ما زالت تركض أمام أربعة رجال ، لم تنحرف الى اليسار ، جهة بيت عبد الرحيم ، ظلت في طريق مستقيم ، وكلما مرّ الوقت كانت تقترب من دار نورا المزعل . ولو أنها سلكت طريقاً آخر لكان أقرب لها ، لم تنحرف نحو اليسار ، فغض جاسر بصره وشعر بشيء ساخن يكوي صدره. كان طريقه من نفس الطريق الذي جرت فيه عفراء، بين ساحة السوق والتلة ، هناك طريق فرعي يأخذه الى دار نورا ، في حي الحميدية . وطبيعة الطريق هناك مرتفعة، ويذهب عميقاً في قلب المدينة ، لا يكاد يحده نظر ، يغيب .. وهذا الطريق يسلكه جاسر كل يوم ، يعود من الثكنة، حتى اذا وازى حي الجبيلة دار جاسر اليها ، ثم تغلغل قاصداً الحميدية ، وقبل أن يصعد مع الطريق ليرى بوضوح عمقه ، قد تلوح له المئذنة المائلة ، قبل أن يصعد معه يستدير الى اليمين ناحية الجبيلة، ثم يتخذ مساراً آلياً يصله الى داره في حي الحميدية . وفي ظلام الليل أراد جاسر أن يتسلل في بنيان الطريق، يتابعه ، ثم يتأمل سكونه ويعيد ذكريات وشجون بدأت تطفح .

في مقلتيه حنين يدله على دربه ، والناس نيام ، لا أحد سيراه في ذلك المكان . في الليل كان مع صبوة ذكريات أخذت ترعش قلبه ، وصدره يدق كصدر محب يلقى هواه بعد غياب . أمحى جاسر الصور والمعالم ، يريد أن يعيد كل شيء الى ما كان، قبل أن يرحل عنهم منذ خمسة عشر عاماً، حين كان النهار يحرك السوق والطريق العامة ، درب القوافل ، فتنزل عن رأسها جفان اللبن وتنفض ثوبها ، تنحني الى ساقيها.. تسمع المارة والباعة رنين أساورها .
وكأن شيئاً لم يتغير ، صوت الديوان الشرقي ، بل المئذنة المائلة ، ثم الأصوات المختلطة بدخان تبغ يجتاز نوافذ الديوان المشرفة على الشارع، والنوافذ مغلقة ، الديوان مضاء بنور اللوكس المبهر ، وكانت بركة المياه تبتسم له ، للأيام والسنين ، وكانت مريم تمر من امامه مسرعة ، مطرقة.

ولم يتغير شيء ، غير أنهم أقاموا عمود تلغراف في زاوية الشارع ، وبنوا طابقين في الزاوية ، وظلت المئذنة في مكانها مائلة كأنها ستقع. وقف جاسر في الزاوية ، جانب عمود التلغراف على رصيف الطابقين ، وسارر نفسه: كأنني سأعود يا جاسر ، أرى هند ومريم ..! وتذكر عفراء فتساءل إن كانت

ماتزال في بيت أبيها عبد الرحيم قريبة من مريم وليست التي يراها كل يوم معه سوى وهم! ولمسته نسمة هواء باردة اقشعر لها جسده ـ كما دغدغت الورقة الصفراء الساقطة من شجرة التوت رقبته ، فارتجف منها ، هزهز رأسه وطقطق أسنانه .

الا أنه لم يملك شجاعة الإقتراب لخطوة أخرى ، تسمر في مكانه وراح منظر الشارع ، وصورة الديوان، تفقد معناها، أحس أنه يعود الى الخلف ، الى مركز كشك الحراسة . وكلما أراد العودة ، أن يستدير الى الخلف ، يبرز أمامه طيف فتى يخرج من دار فرحان الشاهر ، يقف على درج الباب يتطلع بحزن وملامة ، ثم يغيب في الدار ، ويسمع لصوت الباب الحديدي وهو يغلق قرعاً لم يعتده . انه باب حديد قائم علىثلاث درجات وقد زين بالشباك ، وثبت في أعلاه ضوه كاشف.

وحين وعى بأنه وصل الى الكشك ، كان في حالة إعياء . مرّ الكولونيل في الصباح ، فحياه تحية اعتيادية ، لا تحمل حرارة ، وغابت عن ذهنه تلويحة الكولونيل ، ربت على كتف معاونه ، وقال له : أروح الى البيت تراني تعبان يا عقاب . وتوقع أنه سيرمي جسده على الفراش حال وصوله البيت . كانت عفراء ما تزال نائمة . فتحت له الجدة الباب ، وتتبعته الى غرفته قائلة: بكرت اليوم يا جاسر عساك بخير ؟ فلم يرد، وأومأ الى نورا : بعدها نائمة ؟ فقالت نورا : بسابع نومة .. أردتها تفيق وما نفع .. ظلت نايمة . وتذكرت الجدة الصبي الذي جاءها ، فقالت لجاسر : البارحة جاءك ابن زهية الفرحان يا جاسر . فسرى في كيانه لهيب شوق بعث نشاطاً في جسده ، تحركت عفراء في فراشها .. رفعت الغطاء عن رأسها وقالت تسأل الجدة : من ؟

ابن زهية الفرحان ، توفيق الخضر ، نسمة سحاب فوق سماء العلوة، وعد عمته هدلة سراً ، أن يلتقي السرجان حال وصوله الدير ، قال لها : أين كان أروح اليه .. لو كان في الكبانية نفسها . كانت ملامحه تميل إلى البداوة، وجه أسمر أصيل ، بجبهة عريضة وعينين سوداوين واسعتين ، جسده الطويل النحيف ينم عن معارضته للبدانة ، وعدم قبوله لها ، حركته الرشيقة تعكس في أرجائها مروءة تمكنت من قلبه ، لا يعيبه المرء في شيء ، سوى سرعته في الكلام ، ولثغة في الراء لا يجد عنها مخلصاً . كان توفيق يرغب في رؤية السرجان ، ذلك لكثرة ما حكت عنه هدلة . كانت تقص له حكايا كثيرة ، تروي له عن جاسر وكيف كان صبياً في العلوة ، ثم لماذا ترك معها العلوة ورحل الى الدير ، وكيف عاش في بيت فرحان، لم ينسجم مع أولاد فرحان ولا مع غيرهم ، كان متعلقاً بعايد الخضر ، ألفه أكثر من أمه وأبيه.. وكان يريد واحدة من بنات فرحان . وحين لم يكتب له نصيب هجر الدير وقيد في العسكر الفرنسي .

وحسبت هدلة أنه سيعود ، فتقييده سببه فورة شباب غذاها عبد السليمان ، وستخمد حالما يصل الكبانية . قال عبد الله في الأيام الأولى: يا هدلة تراه باكر أو عقبه ينهزم ، هذا الولد ما يتحمل عسكرية افرنسا. أرادت أن تمنعه عن مرافقة عبد، لكن ما جرى له في الأيام الماضية منعها عن أية محاولة . وتذكرت هدلة الشيخة هنوف النجم وما قالته ، ان جاسر سيكون بخير .. ورجل .. أتركي ابنك لشأنه ما به شيء .. وطالما شرب من ترياق الشيخة هنوف فإنه لن يصاب بمكروه . وتعزت هدلة في الأيام الأولى لرحيله بأمل عودته ، فلم تتألم أو أنها لم تظهر ذلك ، ورأت انه من عمر عبد الغني الذي راح يتصرف بمعزل عن والديه ، وكانت نظرات سخرية مريرة من آل فرحان ، ترمق هدلة حين تبدي اهتماماً بجاسر ، كل ذلك جعلها تفسح له حرية إرادة واختيار ، جاءتا عن طريق لم تملكه هدلة . قالت في نفسها : اذا ما تركنا الولد يعمل اللي بعقله تراه يطق ويموت . تركته يرافق عبد السليمان في طريقه الى خان الوسط ..

وأدرك توفيق من نظرات هدلة ، وهي تقلب عينيها ثم تردهما ، ولا تتابع .. بل تخشى سؤالاً ملحاً : لماذا لم يأت جاسر بعد هذه المدة الى العلوة ؟ لماذا هجر أهله وهجر أقاربه ؟ ان في الأمر سرا لا يباح . وعندما ألحّت عليه بألاّ يعلن لأحد ذهابه الى جاسر ، تأكد من ظنونه . فهناك سر وعلى توفيق أن يكشفه ، عند مقابلته لجاسر ، بل سيحدد معالمه قبل ذلك ، من تعابير الوجوه حينما يسأل عن السرجان جاسر في بيت فرحان عبد الغني الشاهر .

الملاحظة الأولى التي دقق فيها توفيق ، هي حالة مريم كمطلقة أو طامح ، تركت زوجها ناصح الخلف لأسباب يجهلها. واذا قارن زواج مريم وفشله مع زواج هند واستمراره ، فإنه سيرى أن بعضاً من السر موجود في هذه المقارنة . سأل أمه زهية الفرحان : لم تطلقت خالتي مريم من زوجها؟ ولأنها أجابت إجابة سريعة ، اكتنفتها رموز وإشارات مبهمة ، لم يفهمها ، ولم تدع له مجالاً أن يعود مرة أخرى الى سؤاله ، حلل ذلك باحتمال واحد لا غير ، أن يكون جاسر على علاقة ود قديمة مع مريم ، وظل هذا الود يجمعهما خفية ، الى أن كشف الزوج المخدوع انجراف زوجته كعشيقة ، فطلقها دون رجعة ، وغضب فرحان على محاولات جاسر في تدنيس سمعة ابنته، وغضب لذلك أيضاً بقية الأهل والأقارب .

اذا كان هذا السبب فلماذا أخفوه عنه ، ولم يسمع به في العلوة ! غالباً ما يتناقل الصبية والشباب أخباراً لحوادث من هذا القبيل ، وخاصة بعد إنشاء تياترو حسيبة في العلوة، لا يخفى عليهم ما يجري فيها. الاّ أن الدير لا شأن لهم بها ، وجاسر بغيابه الطويل لم يعد أحد يذكره ، واذا كان قد سمع أحد من المقربين في العلوة بود مريم وجاسر ، فإن تقديراً ما كان سيأخذه ، فلا يفشيه لأحد ، وخاصة لأمثاله من الصبية والشباب . وهكذا ظل سراً مكتوماً . وعزز توفيق هذا التفسير من ملاحظته لمريم . وجدها تختلف عن أمه زهية ، وعن بقية النسوة ، ففي صدرها شجن وهمّ ، وفي ملامحها شحوب عاشقة . تطير وحدها معظم الأحيان ، تحلق كفراشة في سماء منعزلة غريبة .

قبل أن يذهب الى بيت نورا المزعل ، خطر في باله ان يساررها ، يسألها ان كانت ترغب في نقل رسالة ما الى جاسر. واقترب منها مرتبكاً، من أين يبدأ ؟ قال لها وهو يفرك أصابعه ، يحول كلماته الى ملاطفة: عمتي هدلة تهديك السلام يا خالة! فابتسمت مريم ، غمرته بعينين اتسعت أجفانهما ، وردت عليه وهي تعود بجذعها قليلاً الى الوراء: الله يسلمك ويسلمها .. تراها مرتاحة في العلوة ؟ فهز توفيق رأسه ، يراقب يديها المتشابكتين على ساقها ، قال: ما يرتاح الواحد يا خالتي لا بالعلوة ولا بغيرها .. .. تراها مهمومة . فتمايلت في

حالة طرب ، ثم سهمت في سماء الغرفة تردد بحزن : همها .. همها ما راح ينزاح . ثم تابعت متذكرة : وكان همها هون ..! فلم يقو توفيق على متابعة ما أراده، اكتشف من نظراتها تلك غاية تفوق ما تصوره عشقا، ووجد فيها المعاني نفسها التي حملتها هدلة حين كانت تحكي له عن العلوة ، وعن رحيلهم الى الدير ، فنفذ الى أعماقها ، أحس أنها فتحت مغاليق نفسها ، وأطل فجأة على زمن حب مكتوم . ظل لبعض من الوقت لا يستطيع إدراك ما رأى ، فعرف آنذاك أنه وقف على سر انكشف ثم اختفى ، لا يفصح عنه بكلمات .

تبدلت سحنته، أطرق الى الأرض وقال دون تردد : سأذهب يا خالة الى السرجان . ثم هبّ من مجلسه ، عبر الرواق ، ثم اجتاز باب الحديد الخارجي ، متجهاً الى الشارع العام .

كانت سيارة أحمد الحلوب ، السيارة العامة التي أقلتهم من العلوة الى الدير ، تمر بطيئة أمامه ، في حالة إقلاع في الشارع العام ، فرفع توفيق يده محيياً السائق وركابها وهو يدمدم : يا طرومبيل قولي لعمتي.. رأينا توفيق عند العصر في الشارع العام في طريقه الى السرجان ، يقود السر المخفي من معصمه، وهذه المرة سيرى فيها السرجان. يدق بابه وتخرج عليه الجدة نورا، فيسألها عن جاسر فترد أنه نائم ، ما زال نائماً. ثم تحدق في وجهه ، تصمت للحظات في ملامحه السمراء ، تقول أنت اللي جئت يوم أمس ، انتظر حتى أقول له ان ابن زهية واقف بالباب . ثم تجره بحنو الى داخل الدار وتشير الى غرفتها وتقول : تفضل نقعد سوا حتى يستيقظ جاسر وترى بعينيك هذول ، التي سيأكلها الدود ، كيف تبدل وتغير.

وذهب توفيق . دق الباب فأدخلته الجدة الى غرفتها ، وفيها انتظر السرجان الذي لن يستيقظ. وفكر انه اذا عاد الآن دون أن يراه، فماذا سيجيب مريم ويخترع حكايا اذا سألته، ماذا يمكن أن يقول لهدلة اذا طلبت منه أخبار ابنها ؟ في غرفة نورا المزعل نفد صبره وظل يتوقع سماع صوت الباب وهو يفتح ، نحنحة تدل على استيقاظ السرجان جاسر ، ضجيج يدل على حركة ما . الاّ ان ذلك لم يحدث ، ظل الصمت مخيماً، وقد انتهت النظرات المتبادلة مع الجدة ، والكلام الذي دار بينهما، فتحول الفراغ والمكان الى جدار نحاسي فصله عن مبتغاه . ولأن الصمت طال ، فقد تململت الجدة ثم نهضت قائلة : الى أن يستيقظ جاسر ، أكون ركّبت ابريق الشاي على البريموس . وغابت الجدة ، فأحس توفيق أنه في وحشة فراغ، حاول أن يشعل الكهرباء ليبدد ظلمة المساء، لكن المصباح لم يشعل، ظل مطفئاً، ثقلت العتمة على نفسه فزم عينيه وكتم أنفاسه.

ثم جاءت الجدة تشحط بحذائها ، دخلت وفي يدها صينية الشاي ، وبيدها أشعلت الكهرباء ، ثم جلست الى جانبه ، وضعت الإبريق بينهما، ودثرته بغطاء خاطته من فساتينها وثيابها المستعملة. قالت: يخدر الشاي بعد حين .. ثم تابعت : يمكن يفيق جاسر بعد شوية . وسأل توفيق الجدة : يا جدة نورا منذ متى سكن عندك جاسر ؟ فأجابته وهي تتحسس حرارة ابريق الشاي تحت الغطاء : من زمن بعيد ، سكن عندي جاسر من زمن بعيد . ثم أشارت بيدها الى ناحية غرفته وتابعت: ما أذكر هذه الغرفة الاّ وجاسر ساكن فيها .. من بعيد يا بني توفيق . ونظرت الجدة الى صينية الشاي فلم تجد فيها السكرية فقالت : تراني نسيت السكرية . ونهضت باتجاه الباب ، ولم تجتز خطوتين بعد ، حتى شعرت بشيء ما يخترق صدرها ، قالت في نفسها : لعله الكبر يا نورا . ورفعت صوتها بآهة نحيلة ، وعندما زاد الألم انحنت تتكئ بساعدها على ساقها ثم زفرت بقوة . لمحها توفيق وهي تنهار كعمود أكله السوس . فقفز نحوها دون وعي ، أراد أن يصل اليها بخطوة واحدة ، رفع قدمه اليمنى ما وسعه ، ووقف على الأخرى ، ثم شقل ثقله بقدمه اليسرى يقفز كنابض ، وفي لحظات وهو يحاول الطيران ، شعر ان الأرض مادت من تحته ، انه يتأرجح فوق شيء بارد، فتذكر للتو وهو معلق في الفضاء ، انه ارتطم بإبريق الشاي ، فرفعه القفز والمنع الى فوق ، ثم دار في الهواء وهبط ، لا حول له ولا قوة ، على لولب من مياه ساخنة ، مندلقة عن الابريق ، وصدم بركبته ابريق الشاي ، جثا بثقله على سخونة مندلقة ، ثم قام يحبو الى الجدة التي نامت على ظهرها.

أدارت رأسها اليه ، وهي تجاهد في ابتلاع ريقها ، قالت بوهن : أراك تصوبت يا بني ؟ فرد عليها وهو يحتضنها : لا .. لأ .. المهم حالك يا جدة ؟ . فجلست مستوية ، استندت على ساعديه ونهضت تقول : أنا تراني زينة ، دوخة بسيطة وراحت ، الحمد لله يا بني . وتابعت وهي تحدق في فرجه المبلل : ترا الشاي ساخن يا توفيق . فأجابها وعلامات الألم ترتسم على جبهته : لا .. يا جدة ما في شيء ، ياللا أنا خارج . ورطن وهو يخرج مستديراً اليها : اذا استيقظ جاسر قولي له ، ولم يتابع، تأوه خارجاً بسرعة .

بالكاد قطع توفيق مسافة خطوات . وأخذت دماء ساخنة تصعد من بين فخذيه الى رأسه ، فعض على شفتيه ، ورأى أن يتلمس مكان الألم إن كان مجرد صدمة عابرة . رفع كلابيته وانحنى ، ثم تحسس أعلى فخذيه براحة يده . كانت آدمة الفخذين تجري كجريان سائل ، ولصقت براحة يده رامة هشة ، تفتت بين أصابعه ، حالما رفع يده ليتطلع اليها ، ثم بدأ الألم بالتمكن من الفتى حين

استدار الى الشارع العام ، ولم يعرف متى وصل الى دار جده ، ومتى بدأت أمه ومريم تتناوبان على تمريضه .

الليلة الأولى لم ينم فيها توفيق ، كانت برودة هائلة تجتاز أنحاء جسده، وفي الأيام التالية يهذي مكرراً : أرموني بالنهر .. أرموني بالنهر لأنطفئ . وعندما جاء به رجلان ، اتضح انهما من رجال الشرطة ، في عربة ، قالا لسرحان الذي خرج اليهما : هذا المريض يريد بيت فرحان الشاهر ، كان مغمى عليه في الشارع العام . وحمله سرحان الى الدار ، وجلب له طبيباً وطنياً ، قدم له رباطات شاش ومضادات للإلتهابات الصديدية ، ومرهم مخلوط بمسحوق قواقع حلزونية .

وقال الطبيب : هذا موقد نار ، يمكن كان فوق فخذيه . وتساءل بدهشة كيف يحرق جسده هكذا دون ان يخرق كلابيته . ووعد بتحسنه عند انقضاء عشرة أيام على الأكثر ، لأن هذا الفصل مناسب لالتئام الجروح .

ولم تسأله مريم عن سبب حرقه ، حينما عاد الى وعيه ، اكتفت بدموع وبابتسامة خفيفة ، وهي تقرأ عينيه أن تسأله : كيف جاسر يا توفيق ؟ فاستدار بوجهه يبحث في الغرفة عما اذا كان فيها من يدرك سر السؤال.. كانت مريم تجلس على طرف السرير ، ولم يكن احد يشاركها السؤال ولا أحد غيرها يستمع الى الجواب . وكررت مريم تسأله : كان جاسر هناك يا توفيق ؟ فعض على شفتيه يروي : كان ابريق الشاي ملعوناً يا خالتي ، لا أعرف كيف صار تحت قدمي ، ولا كيف اندلق .. والجدة كانت تتمارض .

تلك الجدة الخلاسية؟! يدان تقبضان على كتفيه ، وملامح خوف تنطبع بين حاجبيها ، شعرها أسود وعيناها قاريتان ، تلك الجدة يا توفيق ؟ فهز رأسه : تلك الجدة يا مريم . فخشيت أن تقول له : يا توفيق حين تذهب الى جاسر ثانية، وتقابل عند عتبة الباب نورا المزعل، تصفن في وجهك ثم تدلك الى غرفتها ، تسير أمامك بمؤخرة عاجز ، غير قادرة على نقل جذعها الى يمين أو يسار، تبقى تتدحرج مثل كيس للبقايا ...في المرة الثانية لاتذهب وحدك يا توفيق. هذه الجدة سعلاة، لكن عندما تسير مع مريم فانك لن تصادف عند مدخل الدار الجدة .

وبعدما أطيب لن أذهب الى بيت نورا المزعل ، قال توفيق ثم تابع حين لم يلحظ أثر تغير على وجه مريم ، لن أذهب الى السرجان أيضاً ، الذي يريد الآخر يأتي اليه يا مريم .

فقادته من يده ، كوليد ، في دروب الدير ، وجعلته أمامها طوال الفترة التي استغرقها في الوصول الى نورا المزعل . كانت مريم تفكر أنها ستبادر نورا قائلة : يا جد جداً جدة نو نورا لم يتصوب توفيق يا جدجدة لم ينحرق ، الذي أحرقتيه بابريق الشاي هذا هو مثل السبع ، سليم معافى ، وشوفي توفيق ، شوفي فخذه زين حتى تستحين وتفوتين وحدك الى غرفتك .
فخذه فخذ رجل ، فانحنت مريم عن طول فارع ، ورفعت أذيال كلابيته وأرت الجدة ملامح الحرق ومكانه ، قالت مريم : شوفي يا جدة.. هذا ما يصير .. هذا ما يصير أبداً ، الولد كان خاس .. لولا شوية كان انصاب بمكان رجولته ، ثم زجرتها قائلة : شكون تريدين تسوين منه ، خنثى مثل خناثي كوخ الغرام ؟ هذا غير شكل يا نورا .. لو كان الحرق طاله الى أبعد من هذا المكان ، وسببه هو أنت ، نورا المزعل ، تمسكه من أذياله وتترهل أمامه بعجز الى غرفتها ثم تضيء الكهرباء فيها ، لكان فرحان بنفسه جاء اليك ، ولم يأبه بمتاريس جاسر ولا بدوريات التفتيش، كان حرقك بمكانك يا نورا. فردت عليها الجدة ، وقد شحب وجهها : تهددينني يا بنيّة ، تهددينني بفرحان..ويحرقني؟! ورفعت الجدة سبابتها الى فوق ، حتى وصلت وجه مريم ، ولكزتها بحدة قائلة : تلزمين انت وفرحان الحد.. لا أنت ولا هو .. ولا أحد غيره يقدر يعتب ناحية الدار ، ياللا ياللا . وأغلقت الجدة الباب ثم عادت تشحط بحذائها ، في وسط الحوش وهي تزفر وتجمجم : هذول الناس اللي لازمهم حرق مو أنا.

وقفت في وسط الحوش برهة ، يخطر في بالها أن تدفع الباب على جاسر وزوجته عفراء ، وتعيد عليهما ما سمعاه بأذنيهما ، ان مريم تهدد بيت السرجان قائلة : لو علم فرحان بما حدث لكان صار شيء فظيع، كان هدّم البيت فوق رؤوسنا . هذا فرحان ما يتركنا ، عجوز خرفان ، يريدنا له عبيدا وخداما.. هذا ما يجوز يا جاسر .
كيف عبيدا يا جدة ؟ لوى جاسر ساعده ومدّ راحة يده ، يتساءل : هيك حكت؟ فانسحبت الجدة عن موشور الضوء ، عن شرعة الباب ، أغلقته وهي تردد : هذه الطامح رزيلة ما تخجل ، مو هيك يا عفراء ؟ فالتزت عفراء بصدر جاسر، ضمته بحنان وقالت : أنت أمي وأبي ، وقت طلعت بالكينز على الشباب الزعران اللي طاردوني ، صرت قدامي مثال كبير ، عظيم ، ما ليّ غيرك ، وزوجتك ترفع رأسها بك . فمسد بيده شاربيه وتمتم : هذول ثاني مرة يلزمهم الكينز ... أكيد .

وأصر توفيق على رؤية السرجان ، أن يبحث عن الطريقة المناسبة التي يلقي فيها جاسر . ولن يذهب ثانية الى بيته ، دار الجدة المزعوم . عرف أن جاسر يداوم في كشك الحراسة ، زاوية جسر ستة الا ربع ، فعليه أن يوقت ساعة

يكون فيها بطريق ذهاب أو إياب ، الضحى أو في المساء ، وسيتعرف على جاسر من بدلة السرجانية ، التي وصفتها له مريم .

مهما صار فإن جاسر لا يمكن أن يشيح بوجهه عنك ، قالت مريم ذلك وهي تفرض أن جاسر الذي لم يتقلد أبداً ، وهو في الدير ، شريطة ذخيرة على صدره ، كما تعود رفاقه ، ما زال يحمل في رأسه ذكريات حنين وهواجس عودة الى عائلة فرحان الشاهر . وتخيلت اللحظة التي سيرمي فيها جاسر الكينز في شارع مجزرة ، ويعود أعزل لينضم الى رجال المطاردة . لكنها توقف عندما تذكرت حوادث الجزيرة ، وقتل حميد الأعرج ، وقالت في نفسها: لو كان صحيح ... لما قتل حميد الأعرج ، ان جاسر تغير ولم تعد ذكرياتها القديمة تساندها في رسم صورة حقيقية للرجل الجديد ، لو كان ذلك صحيحاً .. لما استلم كشك الحراسة ومد المتاريس ... من المؤكد أنه نسي الكثير واجتاز الكثير ففعل الكثير .

ومع ذلك احست أنه لن يشيح بوجهه عن توفيق ، طبيعة قسماته لا تسمح له بفعل كهذا ، أن يرى توفيق يقف في زاوية ما ، فإنه سيهش ، وستلون وجهه ابتسامة عريضة ، سوف يسطع جبينه وتلمع عيناه بنور قديم . قالت مريم لتوفيق : أنت بس عين خير ، جاسر اذا نسي فإنه ما ينسى كل شيء .

أكثر من مرة رأيته ، يقطع المسافة بين بيته والكشك دون أن يلتفت الى أحد، كأنه يمر في أنحاء خالية . حاولت أن أقف في زاوية ما، بين التلة وساحة السوق ، وابتسم وألمح الى حركات عايد الخضر ، أمثل أمامه ، بأنني أركب حصاناً جهماً ، يصهل وأصهل معه، يخب فأخب معه، وأحياناً كنت أتدلى من فوق حائط ثم أقفز على الطريق مردداً بصوت عال : أنا أخوك يا هدلة . أرتفع عن الأرض ، الى فوق الحصان وأنشد بصوت جهور : هيلوان الشكشكان .

كل ذلك لم ينتبه اليه ، حتى وأنا أحاول اعتراض مسيره ، أقف في وجهه أمسد شارب تقليد على هيئة شاربي عايد الخضر . كان يجتازني، يحرف طريقه عني ويمضي . وفيما بعد حينما لم يعد في مقدوره أن يسمعني أو يراني، تراجعت وعدت يائساً الى خالتي مريم . كانت مع أمي زهية التي بدأت بطنها تكبر ، تداري جدتي شاها المطر التي أقعدها المرض والخوف على سرحان ..

قالت شاها المطر وهي في فراشها تلهث : هذا سرحان ما يعيف أحد ، يحوي بالديوان وبالسرداب (القبو) الصالح والطالح . وعلق فرحان : خليه يشوف شبابه ، نزهة وروحة وجية .. وردت عليه زهية دون أن تأبه لكلام فرحان : ترى سرحان ما يعمل شيء ، مع ربعه بالسرداب يتسلون .. وعقبت مريم حين دخل توفيق : لا أحد يملك عندنا شيء ، يخبئ مجرم أو فار؟! كلهم أولاد الدير ومعروفين! وسأل توفيق : من المجرم ومن الفار ؟ فأجابته شاها ، وهي ترفع يدها بوهن ، تشير الى مريم : اسألها هي .. من يا مريم ؟ وسألت مريم أمها بعصبية : شفت أحد دق علينا الباب وسأل من عندكم ؟ فأجابت شاها: اذا جاء هذا اليوم يكون خراب البيوت يا مريم .. فرد توفيق بكلمات سريعة : ما في شيء ياجدة .. ما في شيء يا جدة ، كل الناس تفوت الى بيوت بعض . فعلقت زهية : أي نعم ، كل الناس تفوت الى بعض .. بس أنت يا توفيق أين كنت كل هذا الزمن ؟ أين كنت.. كنت في درب آخر أرقب مرور سيارة العلوة ، سيارة

أحمد الحلوب لأقول لها سلاماً .. الى العلوة .. هذه الأيام قلّ ركابك وصاروا كلهم من شوايا الزور ، عرب العقيدات ، كنت أنتظر راكباً الى العلوة لأحمله سلاماً .. قلّ ركابك ورحت تعودين فارغة ، ان أهل العلوة ثبتوا بأرضهم ، وما عادوا يتحركون .

وعبرت سيارة العلوة ، والسائق ينفخ زمور الهواء ، لينبه طريقاً صامتاً ، كالليل . فلوح توفيق بيده ، وترك السائق يده عن الزمور ، ثم رفعها يسأله عن الركاب : ما في أحد ؟ فأجابه توفيق بإشارة من يده : لا . لا يوجد أحد ، حتى في ديوان سرحان الشاهر ، ثم صرخ توفيق بأعلى صوته : يا عم أحمد .. هوب . أعلى صوته فوق هدير المحرك : هوب . وبعد قليل أوقف السائق المحرك ، ونـزل معاونه يحمل كيس شدف خشب للفرملة ، وراح يرميها أسفل العجلات حتى توقفت . وكان توفيق قد وصل الى مكان توقفها ، فبادره السائق بسؤال : كم راكب عند سرحان الشاهر ؟ فرد توفيق : ولا واحد ، ما في أحد ، كلهم راحوا . فامتعض قائلاً طيب ليش أوقفتنا ، الوقفة ما هي سهلة يابا يا توفيق! فرد توفيق : لا تهتم .. أعطيك مجيدي والذي تريده .. بس أنت تحود معي السرجان! أي سرجان؟ سأل السائق ، وتابع : تريد يعدموننا ، يأخذون منا الترومبيل ويحبسوننا بالقشلة ! ثم التفت الى معاونه غاضباً : أضرب المانويل وشغلها .. سرجان ومجيدي شنو هذا .. لعب ولد صغار؟

تحركت السيارة مبتعدة ، وعاد توفيق الى دار جده ، وهناك سألته أمه: أين كنت كل ذلك الزمن ؟ فغمز خالته مريم : ان السيارة توقفت، فركبت الى جانب أحمد الحلوب ، واستدار الأخير (بطرومبيله) في طريق فرعي ، ثم استدار بها ثانية الى شارع ستة الا ربع ، وقبل زاوية أو زاويتين توقفت . وكنا ننظر منها الى كشك السرجان ونتساءل : متى يأتي السرجان اليه أو متى يغادره ؟ وفي أحد المرات أسرع السائق في الطلب من معاونه ، أن يرفع شدف الفرملة عن العجلات ، ثم رحنا نتبع مصفحة (البلانديه) الصفراء ، وكان فيها السرجان جاسر . لم نعرف أين مقدمتها وأين مؤخرتها ، كنا وراءها وكان هديرها يقصف كالرعد، كان عالياً حتى أننا لم نعد نسمع بعضنا بعضا، ورفعت صوتي الى أذن أحمد الحلوب وقلت : من أين يمكن أن نراه أو نكلمه ، أغلق النوافذ وصمها بالفولاذ، وسيج البلانديه بأسلاك شائكة تمنع الإقتراب أو التعلق . ووجد السائق ان ذلك مستحيلاً خاصة وان سيارته لا تملك نظام فرملة ، من أين له أن يكبح جماحها ، حين تتوقف البلانديه فجأة ، عندها لا يقدر على إيقافها حتى كيس خشب يلقى دفعة واحدة أمام العجلات . لا تتوقف السيارة ، لا يمكن ايقافها ، وصرنا في شوارع الدير .

ردت مريم : هذا ممكن بس انت شوف طريق آخر ، أقرب واحد إلى جاسر هو عبد السليمان، شوف طريق يدلك على عبد في حي الجبيلة ، قل له إني توفيق وعمتي هدلة الخضر، يأخذك رأساً الى مركز الحراسة ، فتقابل هناك جاسر . الا ان مريم ، وبعد أن صمتت قليلاً تابعت القول : هذا الحال لا يرضيني يا توفيق ، لن تبحث عن جاسر أكثر من ذلك ، لن تذهب الى الجبيلة، والى هذا الحد يكفي .

بقي توفيق في دار فرحان ، عاش مع أمه وأخيه بدري في غرفة جديدة ، أقيمت على أنقاض الغرفة التي سكنت فيها أسرة عبد الله . كانت مريم تنام معهم بعض الليالي ، حين يمتد سمرهم الى وقت متأخر ، تنسى في تلك الليالي همومها ، تعيد فيها حياة ونشاط الشباب. ولقد كبرت مريم ووخط الشيب شعرها ، وكانت حين تحسر الملفع ، يظهر الشيب واضحاً في شعر مثلّم خفيف ، وتوفيق لا يرفع نظره عن رأسها، يقوم ويمسده بيده ، يتابع الخطوط البيض الى موضع الجدائــل ويقول : هذا الشعر يا خالتي أكبر منك بكثير. تبقى مريم صامتة ، تفتح له عينين جميلتين ، وجه حنطي ، وقلب واسع ، تأخذه الى صدرها في لحظة حنان .

أما حين يطول بهما السهر ، فكانت زهية تعلق : أترك يا توفيق خالتك تنام... باكر عليها قعدة من الفجر ، خلص نص الليل وما ظل للفجر شيء. تجيبها مريم: أنت نامي يا زهية ، معليش ترانا سهرانين . تندلس زهية في فراشها ، وتلقي عليها نظرة تبقى هكذا ، حتى يأخذها النوم.

وكثيراً ما كان سرحان يتفقدهم ، اذ يصعد درج القبو (السرداب) ويرى نافذة أخته زهية منارة ، يأخذه القلق ، فيطرق شبك النافذة بخفة، ثم يسأل توفيق بعد أن يفتح له الباب ، ان كان في أمرهم شيء .. فترد مريم : ترانا سهرانين معكم يا سرحان ، قلت اذا تريدون حاجة أعملها بنفسي . يبتسم سرحان ، ويـربت على كتف أخته ، ثم يعانقها بقوة ، يوشوش في أذنها: أنت يا مريم ! فتجيبه قائلة : زهية بس نامت، وتوفيق معي سهران ، وكل مرة تقول لي نفسي ، تعالي يا بنية وانزلي الى السرداب وتكونين وياهم ، وشكون فيها ؟ وتطلب مريم منه أن يدخل ليشرب معهم الشاي ، ان القهوة خلصت ، تقول مريم ثم تتابع : اذا تريد أنوب ، ترى نعمل لك قهوة ، بس الشاي جاهز ، أدخل نشرب وتخبرنا شكون قعد يصير .

ثلاثة يسهرون في غرفة كان قد بناها أحدهم على أنقاض غرفة سكنتها هدلة مع جاسر وزوجها عبد الله . واثنان في حالة نوم ، وبين فترة وأخرى يرتد توفيق الى الوراء ليعيد الغطاء على أمه زهية وأخيه بدري . عيناه زرقاوان

نصف مغمضتين، تنظران الى فوق ، كأنه يحدق في سقف مدهون بالأسود. ويعلق سرحان : شكون ، هذول ما يعرفون ينامون زين ، كيف تنام معهم يا توفيق ؟ يجيب وهو ينظر الى خالته مبتسما: بدري مع أمه، وأنا مع خالتي .. هيك ننام سوا ونقعد سوا ، ان مريم عندما تنام ، تهتم كثيراً بالغطاء ، تلفني معها في لحاف واحد ، وتبعد الوسادتين وتدمدم : نضع رأسينا على الفراش ، وتنام على يدي وأنام على يدي . تثني يدها اليسرى تحت رأسها وتمد يمناها تحت رأسي ، تلوي خصرها وترقص كفراشة .

الفراشة على ظهرها أغطيها ، فتستيقظ من نومها قائلة : أتخاف عليّ من البرد يا توفيق ؟ جسدها هزيل ، لوّنته بقعة صفراء فيها رطوبة ، جاءت كردة فعل لنجوة أخيرة ، كان مصدر هذه الرطوبة هو الحرق ، عندما فكرت أن تدخل الحمّام وتدلق على نفسٍ خربة (كالونات من زيت الكازولين). هذه الليلة برودتها قاتلة ، قال ذلك وهو يمسد شعرها ، ويتمعن في النجوم والسماء المشرفة على الأرض ، وهو كأنه يمسد شاربين معكوفين ويمج ، حالة تأمل ، من غليونه المصنوع من قصب السكر . غطته برقة واندلست جانبه ، عظامها دافئة ، وهذه الليلة ليست ككل ليلة، رغم البرد القاري، وأنفاسها ، تغطيه حتى هامة رأسه ، يستلقي الى جانب رأسها ، دافئة حملته الى حالة جنين ، يرقب الدنيا من رحمها. وسألها بغصة : لم طلقك ناصح يا خالة ؟ لو عرفك كما عرفتك الليلة لما فعل ذلك قط . وهمست في أذنه حين داهمها النعاس : قم أطفئ الكهرباء يا توفيق ، أمك وأخوك ناما منذ زمن طويل .فأحس وهو يقوم الى زر الكهرباء ، أنه رجل غير كل الرجال ، لولا لثغة الراء لكان رجلاً كاملاً ، رغم بعده عن مظاهر البلوغ ، لم ينبت الشعر على شفته العليا ، ولم تثخن حنجرته.

أما مريم وحين يصل اليها نداء والديها، تترك الفراش وتسرع الى غرفة شاها، تقوم على أنامل أصابعها ، وتتحرك بحذر وترمق توفيق وهو ينام في حالة احتضان ، يتبادر الى ذهنها أنه يحلم بصور دافئة ، وما انفكت مريم الى جانبه تعانقه بأطياف روحها ، وكانت ترى نفسها بأنها لم تكبر ولم تهرم بالشكل الذي رآه توفيق ، ما زالت تملك اندفاعات. وتبقى كذلك حتى حين تواجه هرم الشاها ، وخرف أبيها فرحان. يقوى فيها شعور الشباب ، عندما تجد أباها على سريره ، يهتر بحماقاته ، وفي كل مرة شكّت في كلامه ، تلتفت بتساؤل الى شاها ، التي نقلت سريرها الى جانب سرير فرحان ، تعلق الأم وأثار ذهول على وجهها ، انه انتهى دور فرحان يا مريم ، الآن كما ترين استلم الديوان ابننا الأكبر سرحان، رغم أنه ينقله أحياناً الى السرداب ، ولا

أعرف ماذا يفعل مع رجاله في السرداب ، هو عمّر الدار من جديد حتى يحفر لنا السرداب ، نحتمي فيه من الحر والعجاج .

بعد أن وسع سرحان بهو الدار، جعل الدرجات النازلة الى السرداب تمر تحت الغرفة المقابلة لغرفة الديوان . وفي هذه الأيام أخذ سرحان ينقل إليه أصدقاءه المقربين، يترك أخاه عبد الغني في الديوان ، مع من يسأل عن صحة فرحان ومع من يثرثر ويروي عن حوادث لم تقع . كان سرحان يصعد من السرداب ويجلس ساعات بعينها في الديوان ، يستمع الى ما يدور على ألسنة الضيوف والرواة: اليوم محافظ الدير غالب بك مرزة ، قال للديريين أن الحكومة الوطنية ستحل كل الإشكالات ، وتؤمن لهم ما يلزم ، لكنه حذرهم من تجاوز الحدود التي وضعها الكولونيل، المتاريس وساعات منع التجوال لا تضر أحداً في الوقت الحاضر ، وما دام السوق وخان الدواب فيهما الحركة المعتادة ، ولم يمسسهما العسكر الفرنسي بسوء، فإن بقيــة الأشياء الأخرى يجب الاّ تحيل الأمر الى صدام مباشر . قال بيك مرزة : نحن نطالب بإلغاء مراكز الحراسة ورفع المتاريس ، مع ضمان نقدمه للكولونيل بالقبض على عصابة التمرد .

مع كل ما أورده محافظ الدير ، في أحاديثه المتعددة لوجهاء الزور ، لم يأت على ضرورة إلغاء كوخ الغرام الذي أخذ يتسع. اذ لم يقتصر على ضفاف النهر، وعلى شارع ستة الا ربع، بل راح يتغلغل في عمق المدينة . وتم اختيار مساكنا لمحظيات الكوخ في مناطق وزوايا رئيسية ، ولقد أمر اللويطنان شيفرا بدعم مساكنهن بحراسة رمزية ، تزيد من هيبتهن وقدرهن ، وأن يصعدن من بيوتهن بسيارت فخمة ، ذات محرك رباعي الأشواط ، تنقلهن بوقار الى كوخ الغرام الذي توسع ، وأصبح بناء بعشر غرف كبيرة ، وبساحة مغلقة ، وفناء استراحة واسع ، مفتوح من جهة النهر ، زرع في أرضه أشجار صنوبر وزينة . يصلن الى هناك في ساعة حددها اللويطنان على أنها ستة الا ربع. وكان من بين الزوايا المقترحة لإقامة محظيات الكوخ ، زاوية الشارع جانب المئذنة المائلة ، وأن يكون بناء الطابقين هناك لراعية الكوخ . وسمع ذلك كل من في الديوان . نزل عبد الغني الى السرداب، ترك الديوان وهو مشدوه بما سمع ، ووقف على نهاية درجات سلم السرداب ، وقال يضرب كفاً بكف : ول انهم يريدون زاوية الشارع للمدام يا الله ! فالتفت اليه ثلاثة رجال، وصرخوا بصوت واحد : شنو ، شكون، شنو ؟

اهتزت في مكانها ، توقفت في الحوش لبرهة تعيد رجع الصدى . وعندما اتضح لها ، كيقين ، ان ذلك صحيحاً ، أمسكت عن التقدم لخطوة تالية. وظلت تسمع نداء شيخوخة : شكون.. ليش تبطئين ، تقصرين ؟ نحن ناديناك منذ

زمن. تنفث بحنق ، واهتز شعرها ، كان الملفع على كتفيها ، ورأينا بين عينيها مغامرة المرة الأولى .

ولم تنقطع شاها عن ندائها ، صاحت ثانية : يُما يا مريم تراك قاعدة .. تعالي . وطاف صوت حذر ، خفيف يقطع آفاق الحوش ويقول : إي .. إي تراني جيت. واستيقظ فرحان ، رفع عنه الغطاء ، وحدق في سقف الغرفة يسأل : من هذا اللي يصيح .. تراكم فيقتو الناس .. الدنيا نص ليل وأنتم تصيحون .. شكون ما تعرفون صياح الليل ما يجي الا على الميت .. ونحنا ما متنا يا ولي يا شاها! فزفرت شاها : أف منك ومن سوالفك .. أسكت يا خايب .. مريم يا مريم. ودخلت مريم غرفة والديها المعطوبين ، نقلت عينيها في الظلام على بصيص ضوء وناسة وسمعت أمها تقول : اشعلي الضوء يا مريم، وهات معك الدواء. واستطردت الأم: هاض عليّ الوجـع يا مريم ، وما عاد أحتمل أكثر . ردت مريم : أخذني النوم مع توفيق ، كان لزوم أنام معك ومع فرحان. وسأل فرحان : شكون ما صار توفيق زلمة ؟ فردت شاها .. زلمة ونص .. لو ما هو زلمة ما يجبر أمه زهية تترك العلوة وتترك زوجها مهيدي وتجي الى الدير . وجرعت شاها من زجاجة محلول سليلات الصودا ، ثم طلبت من مريم البقاء الى جانبها قائلة : ظلي يمة معي ، تراه الوجع يروح ويجي . فردت مريم : بالشفاء أنشاء الله . أغلقت زجاجة الدواء ثم أطفأت الضوء واندلست في السرير الى جانب أمها، واستغرقت تفكر ان كان سرحان قد سمع بخبر سكنة المدام في زاوية الشارع . رطن فرحان مقترباً من أذنيها : يما سمع أو ما سمع.. يعني شكون راح يسوي .. نحن ما عملنا شيء قبل هذا ، وكنا .. تدرين في زمننا رممنا المدينة ، سقفنا السوق المقبي ، وأثثنا الدكاكين والمتاجر ، ونصبنا من جديد الجسر الخشبي الذي عام في أنحاء النهر ، وكيف كانت الدعائم تركب وتنحشر في هيكل الجسر .. مكان الجسر المعلق الحالي .. وهذه شاها كانت مثل السعدان ، تطلع وتنزل في الحوش وعلى السطح ، وجاسر وهدلة يدحلون السطح بالمدحلة ، وهي تهورت في السطح ، ورأساً وقفت بين بين ، لو أنها وقعت على الأرض، كانت غارت الى تحت ، لكنها ظلت معلقة في الهواء ، وكتمنا أنفاسنا ، ورحنا فوق السطح نتلصص ونداري متانته حتى لا يهتز .. تهتز وترتمي من فوق ، كانت مثل قطة وكنا مثل كلاب السلوقي ، ننقل خطانا بحرص وحذر .. لم يسبق أن مشينا كذلك يا مريم ، فوق السطح.

في الضوء كان جسدها المنهك ، تضع رأسها على وسادة شاها المطر ، وتدع شعرها يتخلل بين الوسادة وحافة مسند السرير . مسند السرير قضبانه مفتوحة، وانتشر شعرها بين القضبان الى أسفل السرير ، أصبح تحت . ان السرداب خلف ذلك كله، أسفل الغرفة نفسها ، وهناك ثلاثة رجال سيقولون

بصوت واحد ، شكون شنو شنو ، حتى تستيقظ مريم ، وترى بأم عينيها ظلمة الغرفة التي ينام فيها فرحان وشاها. تستلقي مريم الى جانب شاها المطر ، تحت غطاء واحد . كانت النوافذ ترسل شغافاً لنهارٍ آت .

ورنّت الأرض بصراخ الرجال ، قالوا : كيف كيف !! فعاد عبد الغني يصعد درجات السرداب ، وبدا أمامه ان الدرج يسيل ، ويكاد في لحظات أن يتقوس، ان المادة تحولت أثناءها الى ذكرى وأحلام قادمة ، فداس بقدمه على الدرجة الأخيرة ، وأصدر في أنحاء الدار صوت حطام هائل ، مصاحب لكلمات الرجال : كيف كيف ، تسكن المدام في زاوية تكية المئذنة المائلة ، كأنها ستقع! وأمعن نظره في امرأة ما زالت ترمي عن رأسها جفان اللبن وتستدير مترنمة: لعله لم يلتث ، الثوب لم يلتث يا سرحان. قالت بلهجة بدوية شاوية ، كما النهر وظلال الأغصان في ربيع وخريف وفصول أربعة .

هزت السرير ، رفاصاته ، وأمعاء متخمة لشاها المطر ، عندما ضربت رأسها في حافة المسند ، اهتزت جدائلها وتألقت عيناها ، وأخرجت يدها فوق الغطاء. ستخرج من غرفة شاها وستدخل عنوة السرداب ، تهبط في قراره وتصرخ بقوة : الدانات.. ترى الدانات تسقط على الدير ، وكلها تنزوي عليّ وتحرقني. وتكونت في أرض الغرفة هيئة لتوفيق وهو يركض نحوها . هبّ من فراشه كالممسوس ، لا يعرف اين يذهب ، يتجه بحدسه ومشاعره الدافقة . فتح الباب وانطلق يحبو اليها وهو يردد : العتبة العتبة رمتني يا خالة . فاحتضنته ، وضمت وجهه الى صحن صدرها ، وشعرت بدموع ساخنة تسيل في فج ثدييها، وأحس توفيق وهو يتلعثم في الكلام بأنه يوماً ما سيفقدها ، يفقد روحاً تتحول الى رمـاد وطيف كربوني تغمر الديـر وشواطئ النهر ..

قالت : أسكت يا توفيق ، انك تعذبني. رد عليها وهو ينظر الى جيزان سقف الخشب والبيتون: جاسر يا مريم ، كان لازم نوقفه ، نضع المتاريس أمام البلانديه، ونجعلها تقف ونقول له ، انزل يا جاسر.. بالهوتشكيز والكينز نقول له ، ياللا انزل .. يكفي . فجست بأناملها عنقه وأجابته : ينزل.. ينزل يا توفيق، بس انّه طوّل روحك شوية وتشوف بعينك كيف كيف ينزل. وداعبت قذاله وقالت له: أكيد هسع بردان ، تغطى واندلس زين بجنبي ، وسترى كيف ينزل بدون هوتشكيز وكينز .

فكرة إقامة مركز في زاوية شارع فرحان، جعلت جاسر يضع تصوراً مؤتملاً للأيام القادمة ، خاصة وان مركز كشك الحراسة، بعد تطور الأحداث، أصبح مركزاً رئيسياً ، تتبعه المراكز الأخرى ومنها المركز الثالث وهو بناء الطابقين في زاوية الشارع والذي تمركزت عناصره في الطابق الأول أسفل طابق المدام التي احتلت فيه الطابق الثاني.

تقف المدام في شرفة الطابق الثاني ، في روب "ديشامبر" ، ترمق عن يمينها المئذنة المائلة والطريق الممتدة ، والى يسارها ساحة السوق التي لم تعهدها هكذا خالية ، كما في أول مجيئها الدير .

تركت المدام منذ زمن الجزيرة بطلب من الكولونيل، أسرعي ، أسرعي الى كوخ الغرام ، إنهِ أعمالك وتعالي ، قال لها الكولونيل . وكان على علم بما قامت به المدام هناك . كان محيط عملها بين تلة العزيزية وبلدة عامودا ، وقالت المدام في إحدى رسائلها الى الكولونيل : إن عملها يسير سيراً حسناً ، لا صعاب ولا عثرات تعترض خططها ، والمخطط لإثارت البلابل مرة أخرى في طريقه الى النجاح، أصبح المواطنـون ينظمون مسيرات، تعلن عن تقسيم الجزيرة الى ثلاث دول ، دولة الأكراد في شمال الرد ، وعرب طي في جنوبه ، ودولة الطوائف المتعددة المتعاقدة في عشيرة واحدة على حافة الخابور والى الغرب منه . وأبرق لها الكولونيل في ختام أعمالها أن تسير مع بعض المساعدين الى كوخ الغرام .

الدير هي مركز وبؤرة ، منها يمكن السيطرة على بلدان البادية. يبدو لي أن الدير هي موطن ما تخيلناه عن العرب الأصليين ، فهي قاعدة لهرم كبير رأسه في بيروت .. لا غرابة.. هنا أشير الى أفكار غاية في الصعوبة، قد تم شرحها والبرهان عليها في نظريات تبحث في الاستراتيجية ومجاهيل نفس وطبيعة المجتمع البشري . إن تعذر علي الشرح والبرهان فلأنني .. بحكم العمل جندي ومقاتل في بادية العرب . لدي أفكار .. ملاحظات ، ومعاينات آمنت بها

بالتجربة ، سأدونها ، بعد اطلاعي الكامل على علمي الاجتماع والنفس ، في كتاب أشرح فيه تغير طبائع البدوي الذي يستقر في الحواضر وغير ذلك ... باختصار، هذه المدينة مفتاح مدائن عديدة.

وأمر الكولونيل بتجهيز أثاث أنيق لها في الطابق الثاني ، أثاث على طراز الركوكو ، دعم مساند الكراسي الطويلة بالصدف البحري ، وتثبيت قواقع نهرية على أحرف الأسرة، وتصميم طاولات مستديرة للإجتماع والحوار.
والطابق الثاني بشرفتيه المطلتين على الشارع العام ، وعلى ناحية الشارع الفرعي الذي يسكنه فرحان ، يميزه المرء من ساحة السوق ، أخفى وراءه جزءاً من عمود المئذنة ، ومن هناك يستطيع المارة أن يروا المدام واقفة في الشرفة ، أو جالسة على كرسي هزاز في روب ديشامبر ، تدخن أو تحتسي فنجان قهوة الصباح . كانت تعطي ظهرها للمئذنة وتتأمل حركة السوق التي أخذت تتباطئ بسبب تسيير مظاهرات طلاب المدارس ، الذين راحوا يصرون بين فترة وأخرى ، على الخروج في مظاهرة لإغلاق المتاجر ودكاكين البيع . كان طلاب المظاهرة لا يتحركون من ناحية الدكاكين المفتوحة حتى تغلق ، يرفعون هتافاً يتكرر: سكّر .. سكّر .. يا طيب ، سكّر .. سكّر .
لم يكن في الشارع العام سوى حذر وارتياب من الأيام المقبلة ، كان الباعة يحدسون أن مظاهرة الطلاب التي تخرج من مدرسة تجهيز الفرات، لا تحمل في مضمونها عبارات الهتاف الساذج كما يبدو للوهلة الأولى، كان البعض يعتقد أن الكتلة الوطنية وراء هذه العبارات، تنظمها وتوزعها على مدار الأسبوع . وأوعز الكولونيل الى مراكز الحراسة بمصاحبة المظاهرة وهي تخرج من مدرسة التجهيز ذلك لمعرفة أقطاب المظاهرة وقوادها. وتم وضع خطة ، في مدى لاحق ، لتحويل المظاهرات الى نزهة مهرجان ، تكون نهايتها شرفة المدام بالقرب من المئذنة المائلة . وقال للمدام بلهجة ودية : كما نجحت في تلة العزيزية والجزيرة ، سوف تنجحين هنا أيتها المدام ، شعرك الأشقر يلمع تحت سنة الشمس . وبدأت المدام تحث خطاها ، تستيقظ في الصباح ، ترمي شالاً أحمر على جسدها ، وتستلقي في هزازها في الشرفة المطلة على الشارع. لم يكن يفصلها عن أعين المارة سوى قضبان الدرابزين، التي سرعان ما تتحول الى قضبان تنصهر في مخيلتهم ، لتحرق المسافة الفاصلة بين عيونهم وجسدها . وطفر توق جاسر في انتظار خروج مظاهرة أخرى من مدرسة التجهيز ، مدرسة الفرات ، كي يباشر مهمته في التغلغل مع المظاهرة ذلك كي يصل زاوية الشارع ويعرج ربما إلى بيت فرحان.

سيصل جاسر الرحبي بمصفحة "البلانديه" الى المئذنة التي ظلت سنوات طويلة تميل نحو الشارع العام ، وهي تميد فجأة ، عن قاعدتها وركن ثباتها.

وارتفع صوت من بين جمهور مشدوه الى ثلة بنات معلقة في شرفة المدام ، دون أن يدري أحد، لماذا صعد من الأعماق بهذه القوة، بطاقة النفس قال الصوت: أنظروا الى المئذنة مائلة تميد.
يجري في البلانديه خلف المتظاهرين الذين خرجوا من ساحة مدرسة التجهيز، في صبابة وشوق يهتفون: يا وطني . حتى نهاية الشارع العام ، مروراً بساحة السوق والمئذنة المائلة ، مرورا بالتي ما انفكت تنزل عن رأسها قصعات الجفان ، مروراً بنهاية الطريق المعبد .. العلوة ...الشريط الممتد لنهر صار ينبع من مصبه.

أودع جاسر مركز حراسته بيد السرجان عقاب المناور ، وكان قد عاد مساءً الى عفراء ، كي يقول لها : باكر نقعد من الفجر .. وسألت عفراء : كيف يعني من الفجر ؟ قبل ما تطلع الشمس ، أو بين الطلوع.. والغياب عندما تكون الشمس أسفل الأرض ، ولم تبزغ بعد ، نستيقظ يا عفراء ، تأتي المصفحة (البلانديه) تقف يمنّا ، وهي بصوتها .. بالهدير والمفرقعات التي تطلقها من العادم ، نستطيع أن نستيقظ ، حين تسمعين معي : بم .. بم .. ، نقعد سوية ونتجهز .

غداً في الصباح ، عند مطلع الضحى .. قبل الظهر ، كيف سيرى مريم ؟ وخطر في باله أنه سيحرف مسير المظاهرة الى شارع فرحان، وعندما يقف أهل الدار على درج الباب ، يحيون المظاهرة ويهتفون معها: يا وطني .. يمر عند ذلك بأولاد مهيدي وزهية .. ويلتفت عن قصد الى المدخل ، ولأنه في البلانديه ، فسيرى من فوق رؤوسهم فناء الدار وسور البركة ، ثم يتظاهر أنه لا يعرفهم ، رغم هلاهل النسوة وتمييزه بدقة زغردة مريم ، لا يعرفهم ، يمر مرورَ غريب لم يسبق له أن وقف ببابهم أو مر بشارعهم ، وعن قصد سيناديه أحد الجنود من الخلف، يناديه من رأس زاوية الشارع : سيدي السرجان جاسر.. سيدي السرجان .. ان المدام تناديك فتعال . فيلتفت الحشد الى تلويحة المدام من على الشرفة ، تشير له براحة يدها : هلأ يا جاسر تعا .. بديّاك .. الأمر ضروري. فيعود بالبلانديه الى الخلف ، ويدع المظاهرة تتفرق وتتلاشى، ثم يزوي عينيه الى الهمسات ونظرات النسوة الواقفات على درج الباب اللائي يرددن : تريد السرجان .. المدام فوق تريد السرجان ، هذا جاسر اللي كان ويانا أيام زمان.

بم .. بم . ولمح البلانديه وهي تقطع طريقها من مركز الحراسة الأول، مركز الكشك في شارع ستة الا ربع ، الى حي الحميدية ، ثم رآها تفرقع في زاوية شارعهم ، بعد وقوفها بباب الدار ، بم .. بم.

فاستيقظ مرتين ، مرة عندما رآها ، ومرة عندما سمعها . تحرك بواعز بدائي، انتفض في فراشه ومرر نظرة خاطفة الى عفراء الغارقة في نومها، كاشفة الثوب وعارية الفخذين بلا غطاء ولا سترة ، ودمدم متسائلاً : كم مرة قلت لها لا تنامين بلا سروال ! وصاح بغضب : عوذة منك .. اقعدي يا ولي .. البلانديه وصلت وأنت جيفة نوم . ونهرته بتمتمة : شكون تريد مني ، خليني نايمة . وغطاها بستر خفيف ثم جر أذيال الثوب المرتفع على بطنها. وبلغ أذنيه صوت جندي ينادي: سرجان.. سرجان جاسر . فرد عليه : اصبروا شوية .. تراني جيت ، ثواني ويكون السرجان عندك .

صعد الى البلانديه ومشهد جسد عفراء بدون ستر لا يفارقه، كان من المفروض أن لا نتصبّح بهذا المنظر ، قال لنفسه . وطغى هدير المحرك على محاولة خلق حديث مع السائق ، فتمتم : الله يصبحنا بالخير .. ثم أراد التخلص من انطباع الصورة المؤذية بين عينيه ، فراح يتخيل وجه المدام وهو يبتسم له بعينين بريئتين صافيتين ، تشير : البنات في شرفة الطابق الثاني اللاتي يحيين جماهيرا عافت الهتاف مشدوهة بقاماتهن وأزيائهن الخلابة راحن يصطفن لك، وأي فتاة تريدها. وسوف يصل بالمصفحة الى المركز الثالث، يراه جمع غفير وهو ينزل من المصفحة ويفرق بيديه صفوفاً مختلطة انزرعت أسفل الشرفة كي يصعد الى الطابق الثاني ، يصعد درجتين الى (الفرندة) بعد أن يمر مروراً بحراس المركز الثالث ، لا يأبه بهم ولا ينتبه الى ما يجري داخل الطابق الأول ، يتجه الى مصعد لولبي يفضي به الى الطابق الثاني ، فتفتح له المدام ، بصدرها المرتفع وقامتها الشمّاء وابتسامتها الراضية : أهلاً يا سرجان تفضل .. وينقل عينيه بين الفتيات ، يبحث عن واحدة قريبة منها ، بل من لونها، واذا لم يجد واحدة تشبهها ، يرد على نظرات المدام المستفسرة: هذول كلهن بلون واحد ، أريد سمرة أو مثل . ولا تدعه يكمل حديثه . تجذب بلطف كتف فتاة سمراء ، وقفت الى جانبها ، وتقول له : هي سمراء .. تناسبك تماماً يا سرجان .

عليه أن يدوْر في أحياء الدير ، حي العرضي والجبيلة القديمة والحميدية.. ويمر بالشارع العام وشارع ستة الا ربع. ووجد أنه يستطيع أن يقنع نفسه ويتجه بواجب العمل الى المكان الذي لم يجرؤ على الاقتراب منه منذ أعوام طويلة ، فأضحى يجيب على سؤال لم يسأله قط .. ما فيها شيء ، روح الى هناك .. لأن هذا واجب عمل . وكرر العبارة مرات حتى اقنع نفسه بالذهاب الى هناك .

والتفت السائق اليه وقال بصوت مرتفع : نروح الى مدرسة التجهيز : طيب ، قال جاسر ، وربت براحة يده على نافذة المصفحة ، بينما نسي صورة عفراء واستيقاظه الحالم. نعم يجب أن نسرع قبل أن تنطلق المظاهرة من ساحة التجهيز ونراقب عن كثب المعلمين الذين يقودونها ، نراقب ونسمع الشعراء الذين ينظمونها .

قبل ذهابه الى مدرسة التجهيز ، تأكد بنفسه من سلامة الحواجز والمتاريس ، وجعل يراجع في ذاكرته مخططاً للحواجز التي ملأت الدير : هناك ثلاثة حواجز في شارع ستة الا ربع، وحاجز في ساحة السوق .. ومتاريس بين حي الجبيلة والحميدية تحمي الجبيلة من عصابات أخذت تتكاثر باطراد ، وفي كشك مركز الحراسة متراس جانبي يمنع حالات العبور الشاذة ، ومتراس أمام دار الكولونيل .. ولم تقبل المدام فكرة وضع متراس أمام دارها ، كي لا يثير الاضطراب ويخلق الحنق في جماهير المظاهرة التي ستتجمع أسفل شرفة الطابق الثاني. لا.. لا يمكن قبول ذلك ، قالت المدام . كانت إقامة مركز حراسة في الطابق الأول ، خاطئاً من أصله ، يجب إبعاد الروح العسكرية وعتاد الدفاع عن المنطقة، قالت المدام للكولونيل تعترض . ودارت فكرة في بال السرجان جاسر ، عندما تذكر ما سمعه من فرحان وهو صغير ، عن قصة محاصرة العقيد رمضان الشلاش للدير، وتعاونه مع البدو وعشائر المنطقة. أيام الحكم الانكليزي ، دخل رمضان الدير من طرفها الشرقي من منافذ الجبل ، وانقض مع فرسان العشائر على المرافق الحيوية ومراكز الامداد ، أحرق خزانات الوقود ، ثم حاصر الثكنة الغربية لأيام ، أجلى بعدها الانكليز عن الدير ، وجعلهم يتراجعون حتى بلدة القائم . وخطر في ذهنه أن يقيم حواجز عند مدخل المدينة ويشيد متاريس تصمد أمام أي هجوم محتمل. وكان هدير البلانديه الذي في رأسه مع إصرار المدام بأنه اذا استمرت المظاهرات فإنها ستقودها بنفسها ، وستحملها في النهاية الى كوخ الغرام ، حيث ستعرض مسرحها على الهواء الطلق ، تضع مكبرات صوت تهز أشجان طلاب المدارس ومعلميهم، وتجعلهم أخيراً يشاركونها فيه ، ما جعل جاسر يفكر أن زمن الانكليز غير هذا الزمن ، نحن الآن ..مع المدام.... وبالمصفحات .. لن يحدث شيء جسيم .

وتابعت المصفحة طريقها الى ساحة مدرسة التجهيز، ووقف جاسر هناك ينتظر تجمع المظاهرة وانطلاقها باتجاه الشارع العام. ان خط سيرها سيدور عند نهاية الطريق ليعبر الى شارع ستة الا ربع ، ثم الى اتجاه الثكنة الغربية ، ثم يعود الى الشارع العام لينتهي أخيراً في ساحة المدرسة.

أصوات المتظاهرين تعلو قليلاً قليلاً ، وكان السرجان جاسر في مصفحة البلانديه مع طاقمه ، يراقب ساحة التجهيز ويراقب المعلمين الذين يوجهون الطلاب ، ويرفعون أصواتهم ينظمون فوضى التجمعات. كان يرى كل شيء من مكانه داخل المصفحة ، بعد أن أغلق منافذها بشباك معدني إضافي. وعلا صوت جانبي منـظم ينشد يا وطني يا وطني ، دون استغراق ، يا وطني يا وطني ، دون كلمات أخرى ، كلمة واحدة تعود وتتكرر . ثم أنشد الشاعر :

وللحرية الحمـراء بـاب   بكل يـد مضرجـة يدق

فارتفع التصفيق واشتد هتاف : يا وطني يا وطني . ثم تابع بقصيدة له :

طال يا عدل ليلنا ورزحنا   حقباً تحت نير الاستعبــاد
فكفانا معرة ربـــــع قـرن   بيـن ذل القيود والاصفــاد

فتحركت الحشود متتابعة تهز البلانديه منشدة : يا وطني يا وطني . واقتفت المصفحة أثر المظاهرة ، راحت تسوق عجلاتها ببطء ، مرة تقف ومرة تدور، تكاد تدرو، لا تدور .. بطيئة متزعزعة. جاسر يرى ذلك الحشد بأم عينه ، وهو يستند بمرفقيه على منضدة المصفحة، يضع رأسه بين راحتيه ، يحدق الى تلك الجماهير التي ستقودها المدام بعد قليل الى كوخ الغرام .

وتصور كيف ستقودها المدام ، في روب ديشامبر ، تستقبلهم عند ساحة السوق ، رافعة يدها الى السماء ، داعية أن يوفقها الرب أمام هذه الحشود الهائلة التي لم تعد حشود مدرسة التجهيز فقط ، كانت الأحياء وعلى مدى مسيرة المظاهرة تلقم رجالها وشبابها في الانضمام والهتاف. وتلكأت البلانديه، فقدت الإتجاه، اتضح للسائق وللسرجان ولرامـي ال (اف-ام) ، ان للمظاهرة وجهين ، مرة تستدير متراجعة نحوهم، ومرة تتقدم في سيرها الى الأمام ، وتساءلوا: اذا بقينا وراء هذه المظاهرة فمتى نصل الى شرفة المدام ؟ يظن ان مقدمة المظاهرة الآن تحت شرفة المدام ، رد السرجان جاسر : لا .. لا ، المقدمة من هين واضحة، تبدو لي لا تتحرك ، ثابتة في أرضها . هذا يعني .. قال السائق مفكراً ثم أردف : يعني أننا واقفون لا نتحرك ، البلانديه واقفة؟! فتسّ جاسـر ، أصدر صوتاً من سقف حلقه يشير : لا . نحن نتحرك خلف هذه المظاهرة منذ طلعنا وراءها من مدرسة التجهيز ، لو كنا واقفين لما تجـاوزنا ساحـة المدرسـة! وبقي هتاف: يا وطنـي .. يا وطني يعلو ويشتد كلما مضى زمن ، وهم جالسون في البلانديه تتوارد خواطرهم على ماذا يعني هتاف يا

وطني يا وطني . ماذا يعني يا وطني؟ انهم ينادون الوطن .. هز جاسر رأسه مجيباً ولمعة ضوء انشقت من بين عينيه : انهم ينادونه .

لكنه لم يسمع بعد، فشيء أصم أذنيه ، لم يتهيأ حتى ينتبه ، الانتباه واليقظة ، ولكزته عفراء بخشونة وهي تردد : أقعد يا فاين ترى البلانديه عند الباب ، تراها تزأر وتجعر منذ الفجر ، وأنت نايم شكون؟! فالتفت اليها وهو مشمئز وقال بقرف : انت يا امرأة البسي السروال وقت تنامين ، كل فايناتك كانت طالعة ، عيب هذا عيب وما يجوز لواحدة امرأة سرجان! فطأطأت رأسها ، تغلغلت بنظراتها وحملقت غير مصدقة ، ثم صاحت بخوف أبدي : شكون !؟ حتى ظن جاسر أن أوتار حلقها تمزقت. أجابها : ما في شيء ، أنه تستري وقت النوم ، يمكن الواحد ما يلحج الغطاء الى جسمه من الحر ، يعني يتستر بثوبه ولباسه ، أفضل موهيك ؟ واخترقت أذنيه هلاهل نسوة وقفن على أرصفة الأحياء والشوارع ، فارتعشت ملامحه فجأة ، وإذ كان وحيداً في شعوره وأحاسيسه ، ولم يستجب لها سواه ، سأل الذين حواليه ، سأل مستغرباً: شنو هذا ؟ فلم يجبه أحد، ظل الصمت ومشهد المظاهرة ثابتين، من خلال فرجة ضيقة في نافذة البلانديه ، لم ير شيئاً مما يحدث في شارع المظاهرة . قال في سره : لعلها لا تتحرك .. لذلك لم نسمع شيئاً . وتلاحقت الهلاهل والزغاريد. ميز زغردة امرأة كانت في ثوبها النيلي ، وسوالفها وغرتها تماثل سوالف وغرر جميلات الهند ، لم يكن في جبهتها مباركة زواج، كانت عذراء، تنتظر مروراً لرجال يقودون الجماهير بصدق ويرددون يا وطني ياوطني . وعاد يسأل : يا وطني يا وطني شكون يكررون هذه الكلمة حتى نكرهها ولا نريدها ! لكنه سمع ثانية صوتها وهو يلاحم هذه الكلمة ، ناعماً جريئاً ، - صوت نساء الدير ، حين يخرجن بعد الاستقلال الى الشارع العام والساحات، يرمقن الجسر ويرمقن كوخ الغرام وقد أكله النار. ترمق النساء الجسر المعلق وهو يهتز تحت طرَقات ربة تغمر الدروب.

تقلقت أوصاله ، طغى في أنحائه غثيان وحمى ، ذلك حين رأى المئذنة المائلة في وضح النهار . كأنها ستقع يا ربي ! اذا وقعت على أولئك الذين سيرافقون المدام متابعين المظاهرة خلفها فإنها ستكون كارثة لن ينجو منها أحد ، لذلك سيقف في زاوية شارع فرحان ، أو بالأحرى يغلقه بالبلانديه ، لا يدع واحداً من أولاد زهية أو فرحان ، ان عبد الغني بأنفه الشامخ وهو يقول : لا تقدر على قذف جسدك في النهر، سيتابع المظاهرة ، ولن تقف البلانديه عائقاً أمامه، سوف يقفز فوقها ويعدو الى الشارع العام ، كي يهتف ويقتل بيديه هاتين اللتين أمامي كل عناصر المركز الثالث .

قالت واحدة لجاراتها بصوت أعلى من صوت الهتاف ، وحق النبي نذر عليّ: أرقص عارية بنص الحوش اذا طالعوا الفرنساوي من الدير. قالت الأخرى وهي تطقطق بأضلاعها رافعة الغطاء عنها : أف منهم .. كلها فاضية وما إلها طعم . قالت ثالثة وهي تقف تحت بيوت الدير ، في جوف الأرض : جسمي كله عرق وندى وملح . وقالت غيرها تعالي شوفي يا هند راح يطالعونهم من الدير.. تعالي تشفّي بالفرنساوي . ردت هند التي وقفت عند عتبة الباب: كلهم شباب يما ، كلهم . قالت أمها : هلهلي يا هند هلهلي يا هند . فزغردت بصوت خشن ، يابس ، قالت لأمها بحرقة : مرة مرتين يعود صوتي اليّ بس اصبري .

وتحركت المظاهرة باتجاه المئذنة المائلة ، مرت بالحشود الهائلة في الشارع العام ، زم جاسر عينيه والتفت الى السائق قائلاً : هذه تحركت! هز السائق رأسه يقول : نعم وبعد قليل نصل الى شرفة المدام. وعلت الزغاريد تثقب أذنه، كانت تأتي من نافذة الرامي ، النافذة العلوية المفتوحة. استدار جاسر اليه، وعاد بجذعه الى الخلف ، يجذب بيده بنطال الرامي الذي أخرج رأسه من المصفحة ، خلف مدفع ال (اف-ام). قال الرامي وهو يغلق النافذة مقرفصاً داخل المصفحة: هذا طرش .. ننصاب بالطرش.. مو .. يا جاسر؟ أجاب جاسر: إي نعم، بس انتبه للرشاش. وأردف وهو ينقل عينيه فوق رؤوس المتظاهرين: أمة محمّد .. ما تتوقف، البلانديه هذه والتي وراءنا ما تعمل شيء، أغلق النافذة واقعد على كرسيك. وصاح بعد قليل: فوّت الرشاش .. خليه معنا بالداخل .

وأحس جاسر لبعض الوقت أن هدوءاً وأماناً خيما داخل المصفحة، بينما كانت الجماهير تغلي وتستعر في الخارج. ثم تصور في التو أن أية عودة للحشد الى الخلف، باتجاه المصفحة، سيعني الهلاك ، ستعوم المصفحة فوق كتلة الجماهير العارم ، ترتفع عن الأرض وتفقد توازنها، وتكون فوهة الرمي الى أسفل ، وعجلاتها الى أعلى ، ونحن تحت رحمة سنوات الغضب المكبوت ، والإتهام المؤجل . قبضاتهم التي ينادون بها : يا وطني يا وطني ، ستمزق من قتل حميد الأعرج . لكن صوت الكولونيل أنقذه من تماديه في تصور نتائج حادثة قتل حميد الأعرج . قال الصوت عن طريق الراديو المثبت داخل

المصفحة : اجعلوا فوهة البلانديه العلوية مفتوحة، وسددوا ال (اف ، ام) على مثيري الشغب. ثم أردف الصوت بعد توقف : اجعلوا (اف ، ام) يطلق عياراته في السماء لتهدئة الموار. تابع الصوت : كل بلانديه تطلق مئتين وخمسين طلقة ، شريط مخزن .

قال جاسر للرامي : انتبه الى فوق ، اذا ما تقدر فأنا أطلق ، أعطني أنا أطلق ؛ رصاصات هائمة في سماء الدير . ولعلعت البلانديه .. هذه كف .. حميد الأعرج .. سدد عن قصد في سمت المئذنة المائلة ، رفع المدفع الى زاويتها ، يعني ستقع فتمنع المظاهرة عن التقدم ، تسقط المئذنة الى ناحية الشارع ، كحاجز ومتراس لم تقبله المدام التي هربت من ساحة السوق ، وهبلها عظم الحشر المتقدم اليها ، فاختبأت في زاويتها تلوح له بيدها البضة من شرفة الطابق الثاني .

وانكشف شارع المئذنة المائلة أمام السرجان جاسر ، عندما أخرج رأسه ويديه من النافذة العلوية لإطلاق النار ، رأى كل الدير أمامه ، أمام المصفحة وهي تتقدم في محاولة للتأكيد : إنها في طريق سالك تشق بالنار وبالسمت المائل طريقها، كي تصل بنفسها أسفل شرفة المدام. وتعالى هتاف : يا وطني يا وطني . فتساءل جاسر بصوت عال، ذهب صوته أدراج الرياح : ما لهم يصيحون يا وطني يا وطني ؟ فردوا عليه بهتاف واحد ، من بعيد أسفل شرفة المدام ، ومن قريب عند مقدمة المصفحة : يا وطني يا وطني . رفع حاجبين ذاهلين ورأى المدام من بعيد فكرر سؤاله .. ماذا يريدون بالله! وسمع زغردة حادة ، عن يمينه أو يساره ، التفت الى جانبيه ، فلم ير باباً مفتوحاً ولا داراً أو حوش . كان الشارع مصمتاً ، فعرف عندها أنه في بلانديه المتاهة ، ولم يعثر بعد على طريق النجاة ، أخرج نصف جسده العلوي من المصفحة ، وطلب من الملقم اعطاءه رشاش ال (اف ، ام) ، لإعادة الجماهير الى حالة الهدوء: يعني ايش الذي حولهم ؟ لكنهم اذ يسمعون بآذانهم صوت الرصاص ، واحتمال ان تحصدهم الرشاشات ، عشرات الألوف في شارع واحد ، فستنفتح عندها الأزقة الجانبية ، لا يدري واحدهم أي زقاق يفر اليه عن صفيح مواز للأفق يعلو الهامة البشرية أو يدنو اليها يمس أعناقاً هتفت ياوطني.

سيدي السرجان بوساطة منبه المصفحة التي تسير خلفهم . فتحول جاسر بنظره الى الخلف، ورأى رامي ال (اف ، ام)، يشير له ان مراكز الحراسة أصبحت معزولة ، وهرب أغلب جنود الثكنة الغربية. تغلغلت في الدير ست سيارات تهريب ، تحمل جنود الثكنة الى مكان ناء غير معروف . فأوقف السرجان جاسر المصفحة ، وأمرها بالعودة الى الثكنة الغربية ، رفع نداء

بوساطة الراديو : نحن السرجان جاسر ، قائد مراكز الحراسة ، قادمون بالمصفحات الى الثكنة الغربية لمنع التمرد .

وقلبت المصفحة وجهتها ، استغرق دورانها في وسط الشارع وقتاً ، لو أنها ظلت به خلف المظاهرة البطيئة ، لوصلت الى أسفل شرفة المدام . لكنها تراجعت الى الثكنة الغربية، وأمرت المصفحة الأخرى أن تتبعها، قال جاسر: اثنتان تكفيان لتطويق الهاربين . وزأرت المصفحة حين تحركت في طريق حر فارغ الا من ترجيع صوات المظاهرة. انطلقت تمر بمحاذاة مدرسة التجهيز ، ورأى الساحة الفارغة .. وكيف تخلو الأماكن .. وتطل على زمنها الشامخ . فمد جاسر سبابته نحو الساحة يقول : قبل قليل كان فيها شيء لا يصدقه العقل . ثم قال : ارفعوا حاميات النوافذ ليبدو لنا الطريق واضحاً ، ولنميز الهاربين .

لا يعقل ! المسافة الباقية الى الثكنة الغربية لا تعني شيئاً. لقد خلا جاسر بالصمت ، مع أن هدير المصفحة لم ينقطع، بالصمت خارج جدران الأمكنة، فتحركت البلانديه تهدر صامتة ، كأن طريقاً ما قد امتد أمامها ، ولم تبد له بعد أسوار الثكنة الغربية ، ولا الجنود الفارين في سيارات ست باتجاه العلوة . نعم انهم يفرون الى العلوة ، لكنه لم يرهم ، كانوا كالظلال لا لون لهم ولا رائحة ، وارتد الى مسند الكرسي ، ضغط عمود ظهره بقوة ، وأعد نفسه ليسأل الكولونيل بالراديو : متأكد سيدي الكولونيل أنهم هربوا ؟ فرطن الكولونيل: التطويق لسيارات عبود ، والتطويق لكل من يهرب يا سرجان جاسر . هز رأسه وقال : نطوقهم ونطوق أبوهم! لدينا مصفحتان قادرتان على قطع الطريق أمام الهاربين. وسمع السائق يسأله: الى أين نذهب أيها السرجان، الطريق أمامنا بله مسافات !؟ حتى الآن لم تظهر الثكنة الغربية ، الكبانية ، سيدي السرجان ، أين الكبانية .. ومن أين جاءنا هذا الوادي .. هذا الطريق؟! وأحاط براحتيه سوار رأسه، وقال للسائق: كانت الضجة فظيعة في الشارع العام ، لا يستطيع المرء تحملها، أليس كذلك ؟ والزغاريد أيضاً نفذت بحدة الى أبعد مدى ، فلم نحتملها، كانت .. لو أننا بقينا هناك دقائق أخرى لكنا انفزرنا ! صحيح فالفضاء الآن انكشف أمامنا ..

الفضاء انكشف وأخذ الهدوء يعم ، مع أننا ما زلنا نسمع في بعض الأحيان هتافات واهية تنقلها الريح ، تهبط من أعلى سماء .. لكن هذا البعد يكفي لأن نتجاهلها ، ونتجاهل معها أيضاً كل نداء . أضحى مدى الراديو خارج دائرة الاشعاع ، ولم يسمعنا الكلونيل من هنا، نعم لأن الهاربين أبعدونا عن موطن المظاهرة .

الا ان السرجان الذي رافق المصفحة وعناصرها ، شعر بالعزلة في المكان الذي وصل اليه. اختفى صوات المظاهرة العارم ..، وفتش بنفسه عن الكبانية فلم يجد لها أثراً .. وبإلهام الصبر وحكمـة السنين الطويلة ، ربط جأشه وأعاد ترتيب الأحداث : لما انطلقت المصفحة في الشارع العام ، كانت قد تركت المظاهرة .. وكان من المفترض أن تظهر له بعد مسيرة دقائق لا غير ، سور الكبانية، أو على أدنى تقدير أن يرى علائم وجود لتلك الثكنة .. لكنه لم يجد أي أثر يدل عليها ، فظن أنها ما زالت بعيدة ، ولقد فطن بأنه لم يكن قد تجاوز بعد ساحة مدرسة التجهيز ، حين حدث التباس في جهة السير، لقد أشار بسبابته إليها ، وفرض أن تظل المصفحة في طريقها نفسه ، لا تنحرف من إشارة سبابته ، كان يريد أن يقول : ان أشياء هائلة حدثت في ساحة التجهيز قبل قليل، وأصبحت الآن صامتـة واجمة، كأن شيئاً لم يكن ، كان يريد أن يقول ذلك فأشار بسبابته الى تلك الساحة ، والسائق الذي طوشه هتاف الجماهير ، مال الى جهة السبابة وحرف المنحى ، كان السائق يظن ان السرجان يدله على طريق الهاربين ، فاستدار بالمصفحة ومضى في طريقه هذا حتى ابتعدا عن الكبانية وعن طريق الأسفلت ، فأضحوا في طريق ترابي، أثار زوبعة غيبت خلفهم كل العلائم .

لذلك أصبحنا خارج الدير ، وهو يفتل شاربيه المعكوفين ، ويمضغ عذق قيصوم رفعه من نبتة مست حذاء ساقه . قال جاسر عندما أوقف السائق المصفحة : إنزلوا تانشوف وين صرنا . لكن السائق قال بحذق : ما زلنا في الشارع العام ، يعني فرع من الشارع العام ، وهذيك المظاهرة. فاستدار جاسر الى الخلف . كان العجاج الذي أثاره الوقت وبدده زمن الوقوف ، قد اختفى ، وأخذت جموع المظاهرة تظهر ، وصواتها يعلو . وزمجر على السائق قائلاً : هذه بلانديه ، وليست سيارة تاكسي حتى تدور في شارع ضيق عليها كالشارع العام ، كيف يمكن أن تدور بها الى الخلف، وأمامك طوفان من الناس ووراءك ما لا تعلم به، كيف كيف ؟

قال السائق سيدي ما زلنا .. لا يهم .. ما زلنا في خضم المظاهرة ، أنظر هذيك مظاهرة أخرى . فجمجم جاسر وهو يحدق في المظاهرة التي بزغت أمامه : هذيك ..! لا بيوت حوالينا ولا دور .. بادية .. من أين جاءت ؟ وعاد صوت المظاهرة يرتفع بالهتاف : يا وطني يا وطني .

وأمرهم السرجان أن يعودوا الى المصفحة ، ويلحقوا بالمظاهرة المتجهة الى الدير، يتبعوها قبل أن تهبط في الوادي وتغيب في الدروب . تحركت المصفحة تهدر وراء قافلة المظاهرة التي بدأت تنحدر تباعاً ، في واد مده الجبل الى

جنوب المدينة . وتذكر جاسر فجأة ماذا يعني الجبل بالنسبة للهاربين ، استدار اليه وقال : هذاك الجبل .. يظل يمشي حتى يصل العلوة . وتابع جاسر مخمناً : هذاك هو .. يمكن سيارات الشيخ عبود تهرب العسكر من هذاك المكان وتروح الى العلوة .

ست سيارات تسلك الطريق عينه ، تصعد من الوادي ثم تأخذ اتجاه الجبل، تتجه مع حمولتها الى العلوة . اذن أعرج الى تلك الناحية، قال للسائق ثم تابع : نقف في طريقهم ، ونمنع التهريب ، نكمن لهم ونقودهم مكبلين الى الثكنة الغربية . دارت المصفحة الى الناحية التي طلبها جاسر وبدأت الأعين تبحث عن آثار لعجلات مطبوعة .. واذا بدد آمالهم الملل تذكر جاسر المظاهرة التي تركها فقال : هسع تكون وصلت الدير ، وغابت مع مظاهرة الشارع العام . وسأله السائق مستفسراً : يعني نرجع الى الشارع العام ؟ فأجابه متجهماً : نعم.. روح الى الشارع العام .

هذه الدورة ضيعت وقتنا ، قال الرامي . أجاب السرجان جاسر : تعرف أنه لو وجدنا آثار العجلات .. لكافأنا الكولونيل ، برافو .. برافو ، ولمنحنا رتبة اجدان شيف أو لويطنان .. نسجن الشيخ عبود ، الذي يهرب بسياراته عسكر الثكنة الغربية. وعكست أشعة الشمس في الزجاج الأمامي للمصفحة سيارات تصعد من الوادي باتجاه الطريق الذي خطه جاسر في ذهنه . نعم ، من خلف الجبل ، يترك طريق القوافل ويسلك الطريق الخلفي للجبل ، حتى يصل العلوة . رفع جاسر صوته وذهنه يقدح: قفوا. وأمر الرامي والسائق : وجه الرشاش، وجه البلانديه، حتى تطوق السيارات. هوب . مد رأسه ويديه من فوهة المصفحة العلوية ، ورفع راحة يده يشير الى السيارة الأمامية : هوب . فتوقفت السيارات ، وتوارى الرجال الذين فيها ، خلف كومة حديد ستتحول بالقذائف المنطلقة من المصفحة الى مادة منصهرة . وأسبل يده بقوة ، ضرب الصفيح العلوي بقبضة يده ، وظهر أمامه مشهداً هلامياً لرجال في لباس الهجانة ، ورجال رموا عنهم اللباس العسكري ، وعادوا الى كلابياتهم ويشامغهم ، وقال جاسر محذراً: الذي ما يعود معي الى الثكنة ترا يتحول الى جمر ونار . فصمت الجميع ، وبعد دقائق من الترقب والحذر ، ومن إحدى السيارات الخلفية المتوقفة، أجابه رجل ملك شجاعته لأن يقول : أسكت يا جاسر .. ترانا جمر ونار، أسكت ويللا .. تريد معنا فمعنا ، والا ظل وحدك مثل . وتوقف عن الكلام ، ولأنه لم يقو على المتابعة والمضي أكثر ، لم يقدر على وصف جاسر كما ظنه الباقون ، صمت الرجل وصور كثيرة تنبعث من مخيلته : نقرة الدم ، وجبل الجودي.. ونوسانه فوق الذلول ، وصور لذكريات محكية عن حبيبة ترك من أجلها الدير والتحق بالمعسكر الغربي. لم يتابع بل خرج من

السيارة ، وقف بطوله وتوجه بخطى ثابتة قوية نحو المصفحة المتهيئة لإطلاق نار ، وقال بألم : جاسر إمشي معنا .. والا اتركنا نروح بسلام. ولم يقو جاسر على النظر الى قامة عبد السليمان، طأطأ رأسه الى سطح المصفحة الفولاذي، ورأى عن قرب فلز وحديد أصم غير مطاوع . وعاد عبد، متجهاً الى مكانه في السيارة ، ورفع صوته يقول : يا شيخ عبود امشي وحامينا الله .. امشي ، هذا يريد يظل وحده . ثم هتف عندما تحركت السيارات ، أخرج رأسه من النافذة الجانبية وقال : ترى ظليت وحدك يا جاسر .. الكل انهزم الى العلوة .

العلوة أصبحت مركزاً لتجمع الهاربين من الثكنة الغربية ، ومركزاً لتدريب عناصر الكتلة الوطنية ، ويقال ايضاً انها سيطرت على الحامية فاعتقلت جنودها ، أحرقت العلم الفرنسي ورفعت بدلاً عنه علم البلاد. تم ذلك من دون مظاهرة وإثارة شغب. اجتمع بعض الرجال سراً مع الشيخ عبود ، واتفقوا في اجتماع وحد آراءهم ، أن يباغتوا الحامية في الليل ، يقبضوا على عناصرها ويحرروا العلوة . وكذلك هرب اليها كل الجنود من عشائر العقيدات الذين قبلوا مع جاسر في فحص خان الوسط، هربوا الى العلوة بسيارات أميرهم عبود وأصبحوا قوة لا يستهان بها ضد الفرنسيين . قلب جاسر هذه الأفكار في رأسه وإذ لم ينتبه الى المصفحة التي أمرها بالتحرك ، وهي تهبط الوادي ، قاصدة المظاهرة التي غابت في أحياء الدير ، فلأنه لم يقطع خطوة واحدة ، لقد بقي في أرض المباغتة ، لم يدركها كما يجب ، وظلت أمامه كحكاية مروية، وحتى انه لم ينتبه الى السائق ، وهو يدير المصفحة ناحية الوادي، ولا الى الرامي ، الذي اندهش بوجوم جاسر ورضوخه لزميله الفار. وظهرت أمامه الدير ، الجبيلة والحميدية .. ففطن الى المصفحة الثانية، التفت الى السائق فجأة وسأل : أين المصفحة الثانية ؟ فرد عليه : أكيد مضت في طريقها الى الثكنة الغربية ولم تنحرف معنا . وعادت أصوات المظاهرة تخترق المصفحة من جديد ، فشعر جاسر أن شيئاً ما قد تحرك في أعماقه ، لمس أسفل بطنه وردد: سخونة غير طبيعية، هون سخونة غير طبيعية . كان يكلم نفسه ولم يدر بالاً الى مرافقيه في المصفحة ، أولج يده تحت البنطال وبدأ يجس براحة يده ، تلك الحرارة المفاجئة .

قال جاسر وهو يخرج يده من داخل البنطال ، وأردف كالممسوس: الى شرفة المدام ، نكون قد لحقنا بالمظاهرة ، هناك نغلق الشارع العام ، نضع المصفحة بالعرض ، ونطلق النار. وسمع بالراديو صوت الكولونيل يأمره : أيها السرجان أين أنت...أقصد المركز الثالث ، حاول مع السرجان عقاب المناور قصر الشغب . فسارت المصفحة في طريق فرعي وسلكت طريقاً خارجياً ، يوازي الجبل حتى اذا اقتربت من المكان الذي يمر بشارع فرحان ، انحرفت

الى هناك تقترب من الدار التي وقف على درجات مدخلها الثلاث توفيق الخضر يلوح بيده : توقفي أيتها البلانديه . صاح بصوت كالبوق ، كان يمكن ان ينفجر بذلك الصوت الحاد ، توقفي، ثم هبط من الدرج ، وراحت تخفف من سرعتها أمام الصبي الذي افترش درب جده ، يعترض بلانديه تقرقع بغضب ، حتى اذا توقفت نهض ، وطلب من جاسر أن يفتح له باب المصفحة . افتح ، قال توفيق : افتح يا جاسر ..

تابعت المصفحة الى الشارع العام ، وغاب هديرها خلف هتاف استمر منذ ساعات : يا وطني يا وطني . ووقفت بعجز في زاوية المركز الثالث، فلم تتمكن من الولوج في الحشد ، وقرر السائق أن يعود الى الوراء ، لم يسبق له أن واجه جماهيرا عريضة كهذه . وارتد قليلاً فسمع نقرات توفيق الملحة على البلانديه ، فتح جاسر الباب وتناول يده قائلاً : تقعد معي ونحملك بالمصفحة الى عند دار جدك وبس . ترجع الى الخلف ببطء ، من الممكن أن تنحرف في طريق الرجوع فتصطدم بحائط فرحان، حائط الديوان . لكن درجات المدخل الثلاث الممتدة في الشارع، أوقفت البلانديه، شعر السائق أن مصداً يمنع البلانديه من المتابعة ، فتوقف . وقال توفيق : كان يجب أن تفتح الباب يا سرجان ، كي أركب معك .. كنت أريد أن أريك هذا منذ زمن طويل. وكشف توفيق عن فخذيه ، وقال لجاسر : انظر .. هذا الحرق في دار نورا المزعل، وعلى أثره نمت أربعة أسابيع في السرير ، توقف .. توقف ايها السائق ، تفضلوا الى الديوان ، اطفئوا هدير البلانديه ، سرحان ما زال في السرداب تحت ، أما عبد الغني فيدير شؤون الديوان، سيخرج بعد قليل ليرحب بالسرجان ومرافقيه ، اطفئوا هدير البلانديه . وسمع توفيق بكاء وليد في دقائقه الأولى، فالتمعت عيناه ونظر الى جاسر يقول: قال خالي سرحان اذا كان ولد سنسميه عايد ، واذا كانت بنت فسنسميها رجاء .

كل ذلك دون أن يتحرك جاسر ، قيد أنملة ، من المكان الذي وقف فيه كي يطوق سيارات عبود ، لم يتحرك منه وظل وجه عبد السليمان مطبوعاً في موق عينيه ، كانت المصفحة في طريقها لأن تمضي الى الثكنة الغربية ، لكن جاسر عض بأسنانه وزم شفتيه : الى شرفة المدام ، أمام المظاهرة ، هذه المرة ولن نذهب خلف المظاهرة ، سنبقى قدامها . تحت شرفة المدام .

عـافت . ومن دون وعيها ، وكانت عيناها ذابلتين ، والليل كان في النهار ، والنهار كان سائباً - ولأنك لم تأتِ وقفت أنتظر .. أنتظر أجراس الشتاء الملعونة كي تقرع- عافت مريم الفرحان اختها زهية ومولودتها الجديدة، خمنت انها في عالم آخر، انتفضت في فراشها كالمصعوقة، هبّت في ضحى ذلك النهار، لا تثني على شيء، ولا على نداء زهيـة الفرحان يمنعها الخروج.

هزت أركان البيت، وصعقت مستيقظة من نومـها: أن تدع ذلك يحدث، لا .. فشعرها الأسود منثور على ظهرها، وجسدها في منامته لامع نقي كالندى، لا آثار لهرم قادم، ولا ملامح فيه تدل على حياتها أو موتها. ورآها كل من في الدار وهي تجري محذرة . فمرت على سرحان ، مرت بالديوان الذي انذهل بمنظرها . كانت غائبة ، وعيناها في وجهها ومبسمها يحتدم .

أفزعت أهل الدار ، وكل من في الديوان وجم تنقصه الحيلة ، منهم مـن أشاح بنظره ومنهم من ردد : لا حول ولا قوة الا بالله ، ومنهم من كبّر ، وكلهم كانوا يضمرون أن مساً مفاجئاً قد مسها، جاءها أثناء النوم وتغلغل في دمها ، هذه ليست مريم .. ليست مريم. جرأ أحدهم أن يقول، هذه ليست مريم .. وهدر صوت سرحان في الديوان ، خرج الصوت من الباب واتجه الى مريم التي وقفت مشدودة من شعرها ، في وسط الحوش ، لم تبلغ الديوان ولا باب السرداب .. شدتها يد خفية من شعرها، ومنعتها أن تمضي أكثر من ذلك. فوتي.. صاح سرحان الذي أطل من مدخل الدار وتابع : فوتي انستري . فبرقت عيناها بضوء ، جعل سرحان يتردد في كيف يتقدم نحوها . رفع العباءة عن كتفيه ، يلفها بالجسد الذي انضوى وأصبح سقيماً. ودمدم وقد أحس بمقدار

العبء الذي جثم على أخته : هذا كثير يا مريم ! فردت : يا دا يا سرحان .. يا سرحان انزلوا الى السرداب .. الدانات تنزل على الدير .. وكلها كانت تنزوي عليّ تا تحرقني .

فأسرع كل من في الحوش ، ومن في الديوان والغرف ، حملوا فرحان وشاها الصامتين، حملوا زهية على ذراعين قويتين .. قالت زهية: أقدر أمشي شكون.. اتركوني .. فرد سرحان ملهوفاً: أسكتي يا زهية نحملك أحسن. رفعها الى صدره ، ضمها بقوة ونزل بها إلى السرداب، بينما ظلت مريم وسط الحوش ، تحدق في الجموع التي راحت تنزل السرداب. وفتح سرحان الباب الخارجي، ونادى بصوته محذراً: يا ولوا يا أهل العرضي .. افرنسا تطير طياراتها بعد حين ، وراح تضربنا بالقنابل .. تعالوا احتموا في السرداب.

وحلقت في سماء الدير طائرات كانت قد أقلعت من مطار الحسكة ، بلدة العزيزية ، بعد أن توسعت بسكانها وعمرانها. وبدأت الطائرات تدوي، تحوم لتحدد أهدافها بدقة: تلة الدير ، بيت المحافظ غالب مرزا، بيت فرحان في حـــي العرضي ، وأثر السيارات الست والجنود الهاربين . وتهيأ جميع من في السرداب لأن يسمعوا انفجار الدانات فوق رؤوسهم ، كانت عيونهم تترصد بهلع : انه اذا لم يكن الآن، فبعد هنيهة، سوف ينطمرون في مقبرة كبيرة اسمها سرداب فرحان الشاهر . وانتظروا صامتين . كان حنين الطائرات يصم آذانهم فصرخت مريم ، حسبوا انها مريم ، تاهت نظراتهم في السرداب ، تبحث عن مريم وعن الصرخة ، لكنهم تذكروا فجأة أنها ظلت وسط الحوش. لم تكن مريم معهم حين هبطوا الى السرداب، فتخيل سرحان أن مريم الآن تتوه في شوارع الدير ، وسمعوا الصرخة للمرة الثانية ، فعرفوا أنها زهية ، لم تكن مريم بل زهية تسأل بعصبية وخوف : أين ابنتي .. نسيت المولودة .. أين رجاء . فرد عبد الغني : شكون .. أتراها ظلت فوق بالغرفة؟! وهبّ يصعد درج السرداب ، فأمسكته يد مجهول ، أطبقت على عضده وسمع: وكل بالله ، ترى بعد قليل سوف يطير في الفضاء حوش فرحان الشاهر ، تطير الغرف والأفنية ، تحلق في سماء الدير بركة الماء وأنابيب مضخة البئر ، الدرج الصاعد الى الديوان ، والمرافق والحمام ، لا يبقى ديوان ولا ذاكرة ولا أمنيات. فقطعت الشوارع كطيف بينما كانت الطائرات تحدد سمتها واحداثيات مكانها وجنسها: امرأة .. هناك امرأة تجري في دروب الدير .. يخشى أن يكون شأنها يعادل شأن مدامنا .. امرأة نحيفة ، شعر أسود مرمي كجدائل قربان .. ظهرها فراشة، في دروب الدير . فحددوا السمت والمغزل ، وأشياء أخرى لا تهمل، حتى سمع من في السرداب ، الدير وهي ترتج ، والطوب وهو يتطاير ،

فقالوا بحلوق جافة : هذه هي في شارع ستة الا ربع ، هذه هي في تلة الدير ، وهذه هي في حي العرضي والجبيلة والحميدية .

ودفعت ريح قوية نوافذ السرداب العلوية ، حطمت الزجاج وقلعت المصاريع ، ونفحت الجو برائحة غريبة ، رائحة أبدية لا تنسى، فعرفوا انها صعدت من شارع ستة الا ربع ، مخلفة رماداً بركانيا غطى الدير مرتفعا غمامة سماء .

غمامة سماء فوق جماهير المظاهرة الذين احتموا وأنشدوا كحائط صوان أسفل شرفة المدام يهتفون : يا وطني يا وطني ، وكان جاسر في المصفحة ، يفتح النافذة العلوية ، ويدير رأسه ليتنسم حرائق قنابل الطائرات ، ويظن أنه سيفتح النار بعد قليل من فوهة المصفحة على أناس بعينهم ، لكنه انتظر تلك اللحظات كي تنزل / هي / وتتغلغل في هيولى المكان . فأحرف البلانديه وشعر بأضلاع صدره تتسع قسراً ، وتسمح لدفقة هواء غزيرة هاطلة من سماء كربونية أن تخترق خلاياه ونسجه . شعر بها ، تدخله كما نسائم صباح وذكرى ، فحرف ال (اف . ام) ، رشاش كبير صوبه الى جبهة الشرفة ، وصوّت بأعلى ما يمكن من قوة : موتي .. قبحك الله يا فاينة ، موتي يا عاهرة . ثم ضغط بقوة على الزناد، فاستندت المدام عارية الى قضبان الشرفة ، ورأى من كان في الشارع ، كيف انقلبت من على الشرفة ، وكيف ترنحت على أسلاك الكهرباء والهاتف ثم كيف تبدى لهم جسدها مضرجا بدماء سوداء.

وبقبضته ضرب سطح البلانديه وهتف : البلانديه أمامكم ، وأنتم ورائي يا ثوار، والى شارع ستة الا ربع الى كوخ الغرام الى الثكنة الغربية ، وغاب في المصفحة وتحركت الجماهير خلفها تهتف : يا وطني يا وطني .

أما السرجان عقاب المناور الذي كان في الطابق الثاني، وسمع طلقات ال (اف. ام) ، تخترق الشرفة ، وسمع صرخة نسائية تتداعى من على أسلاك الكهرباء والهاتف ، فقد صعد من فوره الى سطح الطابق الثاني ، على الدرج اللولبي ، وثبت رشاشه فوق سطح بناية المركز الثالث ، وأبدل بغضب مخزن التعبئة بمخزن شريطي يبدأ ولا ينتهي، كي يحد مظاهرة الشارع العام . كانت في الأسفل الجموع الغفيرة تسير كنهر ، مشكّلة جزيرة صغيرة حول جثة المدام المغطاة بروب ديشامبر ، فلا تطؤها ، ولمح السرجان جاسر عندما تقلص في فوهة المصفحة ، كي يقود جماهير المظاهرة ، لمح معاونه يحفز من مكانه ويتهيأ لصعود الدرج الى سطح المركز . كان عقاب المناور ينقل قدميه على درجات السلم اللولبي بعصبية جعلته يفقد توازنه ، ويفقد صوابه وأنه اذا أصبح على السطح فإنه سيظل يدور حول نفسه فوق السطح ، حول

نفسه كي يصعد ويصعد ويندفع الى ساتر الرشاش ، ويقبع خلفه ويأخذ باحثاً في متاهة الحشد عن القاتل الذي سدد طلقاته نحو المدام . فتوقفت المصفحة ، فرملت فجأة حين سقطت المدام الى الشارع العام وسمع صوتاً يتهيأ لإطلاق نار ، أوقف جاسر المصفحة وأمر الحشود أن تتجنب المجزرة ، قال يصرخ : ابعدوا واحتموا بالحيطان .. فوتوا الى جامع التكية ، اصعدوا على درج المئذنة المائلة، ادخلوا الى ساحة الجامع، دقوا أبواب المنازل ، افتحوا المتاجر واختبؤوا عن رشاش عقاب المناور . ثم هبط من المصفحة ، قفز كنمر، ولم يأبه الى تسديد رشاش ال (اف . ام) . كان جاسر في مرمى الهدف حين اجتاز الطريق الى داخل المركز الثالث ، يحث الخطى ، ويخب مسرعاً وفي رأسه مسمار واحد ، هو القضاء على عقاب المناور . صعد الدرج اللولبي ، وراح يدور في دوامة ستقف عما قريب بجانب الساتر الذي يختبئ فيه السرجان عقاب المناور . ووجده يعد : واحد اثنان ثلاثة أسفل ومنتصف الهدف ، ويسدد لاهثاً ويرفع صوته : نار .. اطلق النار. ولم يكن بينهما الكثير، كان سيفتح فوهة كبيرة في بطن التل الكاسح، رفع صوته : نار . وكانت كتل الرجال مختلطة مع بعضها ، رفـع صوته: نار . وكانت مريم تتصاعد كأغاني وأبخرة قربان في السماء، وكانت هدلة تحكي لصبية العلوة إن كسر السدة وهجرة الأرمن وسنة الجراد .. حدثت في وقت واحد ، وعايد الخضر يعد على أصابعه العجراء مرولاً : أين قتل حربة النجم .. انه في ضفاف سعلو على بعد أميال من قلعة الرحبة . رفع صوته : نار ، فتذكر جاسر كيف فزع الى أخيه محمد ، قبل أن يسقط من فوق السدة الى الضفة ، ووضع أصبعه على الزناد : نار من رشاش (اف ، ام) الطاحن ، فأحس أنـه سيضغط بقوة على الزناد ، وقبل أن يعلو صوته في السماء ، نار .. قبل أن تخرج من فوهة الرشاش ، ذرات هواء مقيدة أمام حجرة الانفجار ، قبل أن تختلج حنجرة الكولونيل، يأمر عقاب المناور بالراديو : تهيأ واحد اثنان ثلاثة ، نار . خرط من صفحته سيف الكردة ، اندس في شعوره إحساس ان العصر ينتظره .. انه واقف ينتظره . فصرخ في عمق الفضاء كالصدى : توقف؟ وقال صوت من فوق .. سمعه الكولونيل في الثكنة الغربية ، سمعه عقاب المناور عن طريق الراديو، قال الصوت : ابعدوا .. ابعدوا ..... واندفع خلفه هيجان من الرجال حطموا أبواب المركز ، وأخرجوا عناصره ، ثم أجهزوا عليهم بقبضات أيديهم التي ما انفكت تنادي يا وطني يا وطني .. وصعدوا وراءه، معاً، بكتلة واحدة الى السطح ، وتشظى الدرج تحت أقدامهم . وكان عقاب المناور ما يزال يهيء سلاحه، فاندفع نحوه جاسر كقنبلة ، رفعه الى السماء ، شظايا تناثرت في الهواء . ثم ساروا خلفه وراء المصفحة نحو شارع ستة الا ربع والى الثكنة الغربية .

وتقدمت المصفحة في شارع ستة الا ربع ، خلفت وراءها مظاهرة التحرير ، ثم عرجت نحو الثكنة الغربية وصوت نداء يخرج منها : سيدي الكولونيل .. سيدي الكولونيل نحن في البلانديه ووراءنا المظاهرة. فأوعز الكولونيل قائلاً : أدخل يا سرجان ودعهم يقتربون حتى نطوقهم ونطوق سيارات عبود . فرفعت الحواجز عن المصفحة ودخلت ساحة الثكنة الغربية ، موجهة أعيرتها النارية نحو مكتب الكولونيل .

هذا مستحيل ، دمدم الكولونيل ، ودمدم بقية الضباط الذين وقفوا وراءه في ساحة الثكنة ، تأخذهم حالة غفلة وذهول . هذا مستحيل ، الذي قتل حميد الأعرج ، والذي لوحت له المدام ! رفع الكولونيل صوته يطلب في طيات الاسم قوته الميتة ، فرد عليه جاسر الرحبي : أنتم بحكم المعتقلين .. ابقوا هكذا لا تأتوا بحركة ، هذه المصفحة تطوقكم وأي نأمة تصدر عنكم سوف تندمون عليها ، لا تتحركوا . ورفع جاسر رأسه وعينيه وقامته ، شنف الى السماء ، ورأى بأم عينيه كيف يزرع الثوار العلم الوطني، كيف يرتفع ويثبت بإحكام ، يرفرف على أسطحة الثكنة الغربية ، قال جاسر : الآن تطلعون وما لكم شيء عندنا . فرد عليه الكولونيل: سوف تبقى فرنسا .. وسوف نعدمكم عما قريب ، سترى ذلك حين تأتينا برقية بيروت . وأطلق قهقهة ملأت فضاء منتفخاً بفعل حرائق أتت على خشب وأشجار الصنوبر ، على طاولات زينة وكراسي غرام. وتابع جاسر : فوتوا واحدا وراء الآخر الى سجن القشلة . وازدادت حماسة جاسر حين سمع المظاهرة وهي تهتف : يا وطني يا وطني . وفي الحال تخيل مريم وهي تحلق في سماء الدير ، كعباءة تغطي أغصان السحب وتلف جذوع الأنهار ، روعة ، وترسم براحة يدها جسداً ثلجياً لطفلة المرتجى والمؤتمل . نقية بيضاء ، كجميلات ما بين النـهرين ، فهبطت من الفضاء ، في وجهها سارة وفي روحها سلامة ، وطلبت أن يحكموا تطويقهم ، ثم ينزعوا الشارات والأوسمة عن صدورهم ، ثم يطوفون مشهرين بهم ، في بوادي الشرق بلاد الألف ليلة وليلة .

ورفع جاسر للثوار فوق أسطحة الثكنة يداً مطمئنة، وردد وهو يعود أدراجه: انتهى ، يجب أن نسدل ستار المرسح أيضاً ونعود. لقد هزه ما حدث .. وانتابه شجن وحب ، ذكريات طافت في مخيلته كحقيقة النور.

وتساءل بعد ذلك ان كان ما حدث معه قبل قليل هو واقع .. وهل أوقف الكولونيل والضباط !؟ لكنه ، مع كل ذلك خرج منهكاً من الثكنة الغربية . وبدا الشارع أمامه طويلا ، ينتهي في الشرق ، طويلا .. ويعتمد بامتداده على ساقي منظور ، يختنق في النهاية ، عند شمس صغيرة ، كنجمة مشعة في أعلى

السماء . خرج وهو يتخيل أن كل ذرة من رماد الشارع هي من تكوين مريم. نظر الى جانبيه جاحظ العينين، مختبلا، ما الذي حدث ؟ ولماذا هذا الصمت ؟ كانت الشوارع تنتقل أمامه حالمة، ومن بعيد تبدو أشباح المتظاهرين. تساءل:لم هذا الصمت : الأيدي ترتفع بوهن وقد قبضت على الهواء . فشعر بمرارة تملأ فمه . أراد ان يرفع صوته : هدلة ! لأول مرة تذكر هدلة ، رفع صوتاً أخرس : هدلة الخضر! هز رأسه وبدنه ، فتقدمت منه ، وكان ينسمع في الأنحية القصية صوت خرير مياه وتداعيات سدة. فتقدمت منه وهي تضحك ، بوجه بيضوي وجبهة ضيقة وفم صغير ملموم كفم سمك بلاد فارس، كانت تفح برعب ، يشع من أسنانها وميض، وحين دقق في وجهها لم يميز هل هي عفراء أم الجدة نورا. ورطنت بعد أن التصقت به : ما قلت لك يا عيني أو آني أو انت ، أو حربة النجم أو جاسر، ما قلت لك .. وسمع من بعيد صراخاً يقول: امسكوه، هذاك سرجان ، كلب ابــن كلب امسكوه . فظن ان المكان وهم، فما كان الا وهم . تابع مسيره الى بيته وحلم العلوة لا يبارحه ، سيقضي ما تبقى من حياته المديدة في غرفة مطلة على منحدر العلوة ، قريباً من هموم الطفولة والحب ، يتخيل كيف يستيقظ كل صباح على مناغاة هدلة لأولاده ، اولاد هند العلي ، لكنه سمع الأصوات وهي تعود من جديد : امسكوه .. هذاك السرجان . فارتسمت في ذهنه صورة للمدام عارية في الشارع .. وللرجال يصعدون درجات الطابق الثاني . ثم تهيأت له العلوة في حاضرها : كيف يصطف رجال الكتلة الوطنية كل صباح ، في مدرسة الجوبة ، مسلحين بالبنادق والعصى ، كيف يبدأون نهارهم الطويل بنشيد الكتلة ، ثم كيف تنسمع أصواتهم عند الصباح الباكر مع النسمات الرطبة : الوحدة العربية الوطنية ، اسلام ومسيحية ، نتجند من غير إجباري ، ونحرر وطننا .. وازداد الأزيز .. أمسكوا هذا السرجان .. شكون ؟ وتابع تقدمه ، نقل أقدامه فلم يدر بالاً الى ما كان قادماً اليه ، كان ينظر بعينين هاجستين الى الأيام القادمة ، ففي الحارات الضيقة سيرمي أولاد العلوة عايد الخضر بالبقايا من كل شيء ، يرمون (عظام الكبة) ومع أنه رأى العلوة تهبط شيئاً فشيئاً ، تنغمر سفوحها بمياه الضفاف ، وأن شجرة الزايد آخر ما سينطمر في المياه ، فإنه سيبقى الرجل القديم ، في غرفته ينتظر تدفق المياه من خلال النافذة التي فتحها كي يطل على منظر الرحيل الأخير ، رحيل المياه أو قدومها ، وكانت المياه سترحل عنه وستزداد شجرة زايد بعداً ، واذا تساءل: أين الشجرة؟ لقد كانت هناك في هذه الجهة اليس كذلك يا عايد ..؟ فإن عايد ، الأهتر ، سيجيبه: هأ ليست هنات .. انها هنات ها ها .. أنا لوما تتلت هربة النتم انت تروه مه المتاهرة ها ها ها ، فيرد عليه : أسكت يا عايد اين الشجرة ؟ وكأن الصوت العظيم الذي فرق مسامعه ، قد حدث الآن ، فخمن ان العلوة نفسها ، وشجرة زايد ما تزال تبتعد عنه ، ظن ان العلوة نفسها وهي تبتعد عن الشجرة ، قد ارتطمت بسفح قلعة

الرحبة ، هرباً من المياه المنداحة . فقال بجزع : أماه .. لقد غير النهر مجراه، آه ، فسمع منادياً يصوّت : امسكوا هذا السرجان ، ابن الزنى . فالتفت خلفه لعل هناك سرجاناً آخر غيره : امسكوه ياللا جرجروه بالشوارع . ولم يدرك جاسر انهم يتجهون نحوه . قبل أن يصلوا اليه تلفت الى نواصي المدن والبلاد ، فلم ير الا الشارع العام ، وهو يتراجع أمام الحشد الهائل ، كان الحشد يتقدم كطوفان ، وسمع جاسر الأصوات تخرج من عقائرها : اذبحوا هذا السرجان .. ولد الكلب . ولقد فرغت الشوارع من السرجانات وهو المنهك .. فتلفت يتساءل : اذا كان هناك سرجاناً آخر . لم يفهم ما يجري ولم يصدق انه المعني . فتوجهوا اليه كنمل الصحارى ، وكاد يميز صوتاً خرج عن كريات ياقوت وكربون ، في دروب الدير ، فسمع صوتاً يحثه قائلاً: أهرب يا جاسر . فتساءل : لعلها / هي / وعاد الصوت .. أهرب يا جاسر . فصاح بأعلى صوته: ول .. هي .. هو .. وأطلق ساقيه للريح . لكن ، من الطرف المسترخي من الشارع الآخر ، خرج على حين غرة ، صندوق اللحم المعبأ ، كان يمشي ويحرن أمامه كالطاعون المميت . وأحس أنهم لم يميزوه عن بقية الجنود ، صات ببحة : أنا جاسر .. أنا معكم .. قتلت عقاب المناور وحررت الدير.. ابعدوا عني ، أنا اللي قتلت المدام . لكنهم لم يسمعوه. أمسكوا زمامه .. أخذوا يقبضون عليه بالأيدي وبالأقدام ، بالجهات الأربع ، بشعر الرؤوس .. وراح يسيل بينهم كاللهاث ، صار يرجع صوته المتعب : اتركو..ني معكم .. وظل يئن تحت لكمات وقبضات حانقة ، حتى حملوه كنعجة الى المذبح ، وسمع وفي أنفاسه لحن أخير ، سمع صوت عايد الخضر القديم ، ومعه آخرون ، يتقدمون خلال الحشر الظمأ ، سمعهم يـهدرون كالطاحون، أحدهم يصهل .. وقد وصل اليه شاقاً هذا البلاء ، فارتمت عنه العباية وانتزع عنه العقال ، وكان رمادياً فوق الأرواح العطشى .

انتهى

سوريا – بادية التنف- 1988

****